شارل أندري جوليان

1

تاريخ افريقيا الشمالية

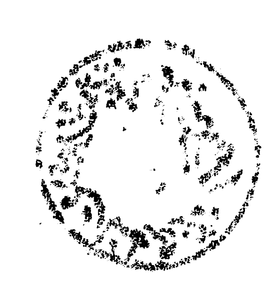
تعريب :

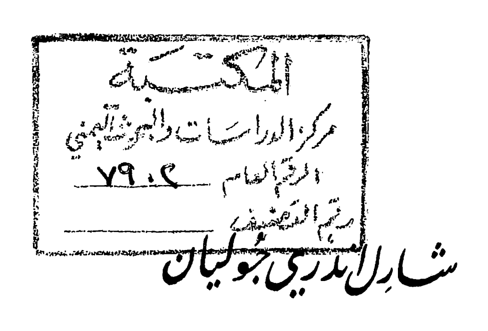
محمد مزالي

البشير بن سلامة

الدار التونسية للنشر







شارل أندري جوليان

تاريخ إفريقيا الشمالية

تونس، الجزائر، المغرب الأقصى
من البدء إلى الفتح الإسلامي، 647 م.

تعريب

محمد مزالي — البشير بن سلامة

النشرة الرابعة

الدار التونسية للنشر

© جميع الحقوق محفوظة
للدار التونسية للنشر
فيفري 1983

مقدمة الناشر

مهما قدمنا لقرائنا من أعمال تاريخية تتناول ماضينا المجيد ، فنحن لا نوفي حضارتنا حقها من الدراسة والتقييم ، ذلك ان عمليات التشويه والتحريف التي قام بها (هواة التاريخ) من المستعمرين والمبشرين ازاء امجادنا ما تزال آثارها الى اليوم • وقليله هي الافلام التي أخلصت لعلمها ونظرت للتاريخ نظرة موضوعية تستكشف الحقائق وتستنطق الاحداث وتتحسس لنصرة القضايا التحريرية العادلة تستشف طموح الشعوب وتتحسس تحركاتها • من بين هذه الاقلام وفي طليعتها نضع المؤرخ الفرنسي شارل اندري جوليان الذي كرس جزءا كبيرا من حياته لابراز تاريخ المغرب العربي ومتابعة احداثه وتسجيل نضاله وتطوره، فقد عايش شعب المغرب العربي وكان شاهدا على سعي هذا المغرب نحو استقلاله ثم نحو تقدمه •

لكل هذه الاسباب ، تولى الاستاذان محمد مزالي والبشير بن سلامة منذ سنوات تعريب هذا الكتاب وسارعنا بنشره وها نحن نصدره للمرة الثالثة ، فقد قدم المعربان للقارئ العربي وثيقة شاملة وصادقة عن كفاح المغرب وماضيه ومكوناته الحضارية ، بل وعبقريته في شتى المجالات السياسية والفكرية • وكان هذا التعريب في مستوى النص الاصلي لما يحرك الرجلين من ايمان باصالة ماضيهما ورسالته الخالدة •

أملنا أن يلقى هذا العمل الاضواء على تاريخنا ويزيح عنه غشاوة الافكار المسبقة والاحكام الجاهزة وان يفتح الابواب في وجه الباحثين لمزيد الاستقصاء والدرس والتمحيص ، خاصة وان هذه الطبعة تصدر في نفس الوقت مع طبعة ثانية للجزء الثاني للكتاب حتى يكون عملنا متكاملا متتابعا خدمة للتاريخ والثقافة في هذه الربوع .

الدار التونسية للنشر

توطئة

إنّ الطبعة الأولى لكتاب تاريخ إفريقيا الشمالية الذي ظهر منذ عشرين سنة بالضبط كانت عرضا سياسيّا واقتصاديّا واجتماعيّا لتاريخ هذه البلاد منذ عصور ما قبل التاريخ بالاستناد إلى البحوث الحديثة ولكن كان يعوزه التوسّع في المعلومات . وكانت "البيبلوغرافيا" النقديّة تسمح للباحثين بتحقيق رغبتهم في المزيد من التقصّي . ومنذ بروز الكتاب تعدّدت الدراسات وأصبح من المتعذّر أن يعاد طبعه دون تجديد وزيادة . وما كان يمكن لي أن أواجه بمفردي مثل هذا العمل الذي أصبح أوسع من أن يحويه سفر واحد . إنّ الكتاب الجديد لتاريخ إفريقيا الشمالية سيحتوي على ثلاثة أجزاء ، كل جزء مستقل بذاته : يبتدىء الأوّل من فجر التاريخ إلى الفتح العربيّ (647 بعد المسيح) والثاني من الفتح العربيّ إلى احتلال الفرنسيّين لمدينة الجزائر (1830) والثالث من احتلال مدينة الجزائر إلى (1951). وسأضطلع بتحرير هذا الجزء الأخير بأكمله . أمّا الجزءان الأوّلان فقد أسندا إلى أستاذين من كلّيّة الجزائر قاما ببحوث قيّمة هما "كرستيان كورتوا" و"روجيه لوتورنو". (Christian Courtois et Roger Le Tourneau)

وقد نشر السيد "كورتوا" عدّة مقالات في تاريخ إفريقيا القديم أكّدت سعة معارفه وطرافة نظريّاته ، وهو بصدد إعداد دراسة عن إفريقيا في عصر الوندال ستكون مساهمة فعّالة في معرفة فترة لا يزال يكتنفها الغموض .

إنّ نظرته لتاريخ إفريقيا لا توافق نظرتي ، ومن باب أحرى أحكامه في هذا الصدد . ولذلك فإنّي أعترف له بالجميل لأنّه حافظ على نفس التأليف الأصليّ واتّجاهه العقلي بالرغم

من أنَّه لم يكن موافقا للآراء المعبَّر عنها فيه . غير أنَّه عدّل من صيغتها كلَّما ظهر له أنَّها تجاوزت القدر الشرعيّ من الحرّيَّة التي يخوّلها تأويل الأحداث في المرحلة الحاليَّة من معلوماتنا . والاختلاف في الاتّجاه يتجلّى مثلا في أول صفحة (310) فالأسطر الستَّة الأولى حول محق الكفَّار بدافع القضاء قضاء أنجع على الكفر هي لي . أمَّا الجملة التوفيقية والمعدلة فهي للسيد "كورتوا" (Courtois)

وعلاوة على التغييرات الجزئيَّة فإنّ السيّد "كورتوا" أدخل تحويرا عميقا على الصفحات الخاصّة بالمدنيَّة القرطاجيَّة ، وكاد يعيد كتابة الباب الخاصّ بعصور ما قبل التاريخ . ثم أضاف على سبيل الخاتمة بابا جديدا في "بقاء رومة" وأخيرا فإنَّه راجع مراجعة تامَّة "البيبلوغرفيا" التي يقدّر الباحث صحَّتها وغزارتها حقّ قدرهما . ومن سوء الحظّ أن كان تحرّيه البالغ لجانب الأمانة والدقة قد قام حائلا دون استغلاله نتائج بحوثه في الاحتلال الوندالي التي يروم عرضها على امتحان النقد قبل نشرها في كتاب علميّ . وقد تفضّل بعض أصدقائه بمراجعة بعض أبواب هذا السفر وإبداء ملاحظاتهم في مسائل هم عمدة فيها وهم "جان دي بوا وليونال بالو" (Lionel Balout et Jean Despois) الأستاذان بكليَّة الآداب بالجزائر العاصمة فيما يخصّ الجغرافيا وعصور ما قبل التاريخ ، و"ب . سنتاس" (P. Cintas) متفقّد الآثار بالبلاد التونسيَّة و"ه. ج. فلوم" (H. G. Pflaum) الأستاذ الباحث بالمركز القوميّ للبحث العلميّ فيما يخصّ قرطاج ورومة. ونحن نشكرهم شكرا جزيلا . وإذ حالت قساوة الظروف دون استبقاء صور الطبعة الأولى فإنّ الأسفار الجديدة تشمل على كلّ حال الخرائط والرسوم التي يتوقّف عليها فهم النصّ .

"شارل أندري جوليان"

الباب الأول

بلاد البربر

1 - الوطن. 2 - المغرب الأقصى والجزائر وتونس

3 - الإطار الجغرافي لتاريخ افريقيا الشمالية



I ـ المـــوطـن

1 ـ ضبط لتسمية البلاد وسكّانها

إنّ **لإفريقيا الشماليّة** ، المشتملة على المغرب الأقصى والجزائر وتونس ، وحدة جغرافية اقتضتها مجموعة جبال الأطلس ، ووحدة جنسية لكونها آهلة بالبربر ولكن ليس لها تسمية مضبوطة .

فقد أطلق اليونان اسم **ليبيا** على القسم الشماليّ من إفريقيا الآهل بالبيض ، وقابلوا بينه وبين الصحراء بلاد الاحابش السود . وقبل أن يكون للفظة «إفريقية» (Africa) نفس المدلول الذي كان لكلمة ليبيا استعملتها رومة للدلالة على المقاطعة الموافقة لشمال شرقيّ البلاد التونسيّة . ثم أصبحت كلمتا **إفريقيا** و**ليبيا** فيما بعد تعنيان القارة كلّها .

وسمّى العرب النازحون من الشرق كلّ البلاد الكائنة غربيّ مصر **جزيرة المغرب** وبصفة أدقّ سمّوا أقصى غربي المغرب أو Far-West **المغرب الأقصى** .

وعرفت القرون الوسطى والعصور الحديثة **الدول البربريّة** أو بلاد البرابرة .

وفي القرن التاسع عشر وضع الجغرافيّون عبارة **إفريقيا الصغرى** ليدلّوا على وجود قارّة صغيرة واقعة ضمن قارة كبيرة وعبارة **بلاد الاطلس** لتأكيد أهميّة تشكّل الصخور Tectonique وكثيرا ما تجري على الألسن

لفظة **إفريقيا الشمالية الفرنسية** وذلك من الوجهة السياسية . وفي بعض الأحيان تستعمل لفظة **شمال إفريقي** ، وفي هذا مزج جديد لا طائل تحته بين **إفريقيا الشماليّة** و**الشمال الإفريقي** .

وأفضل تسمية هي : **بلاد البربر** إذ أنّ سكّانها يكاد يكون جميعهم من البربر دون سواهم ، وإن وجد بربر خارج حدودها .

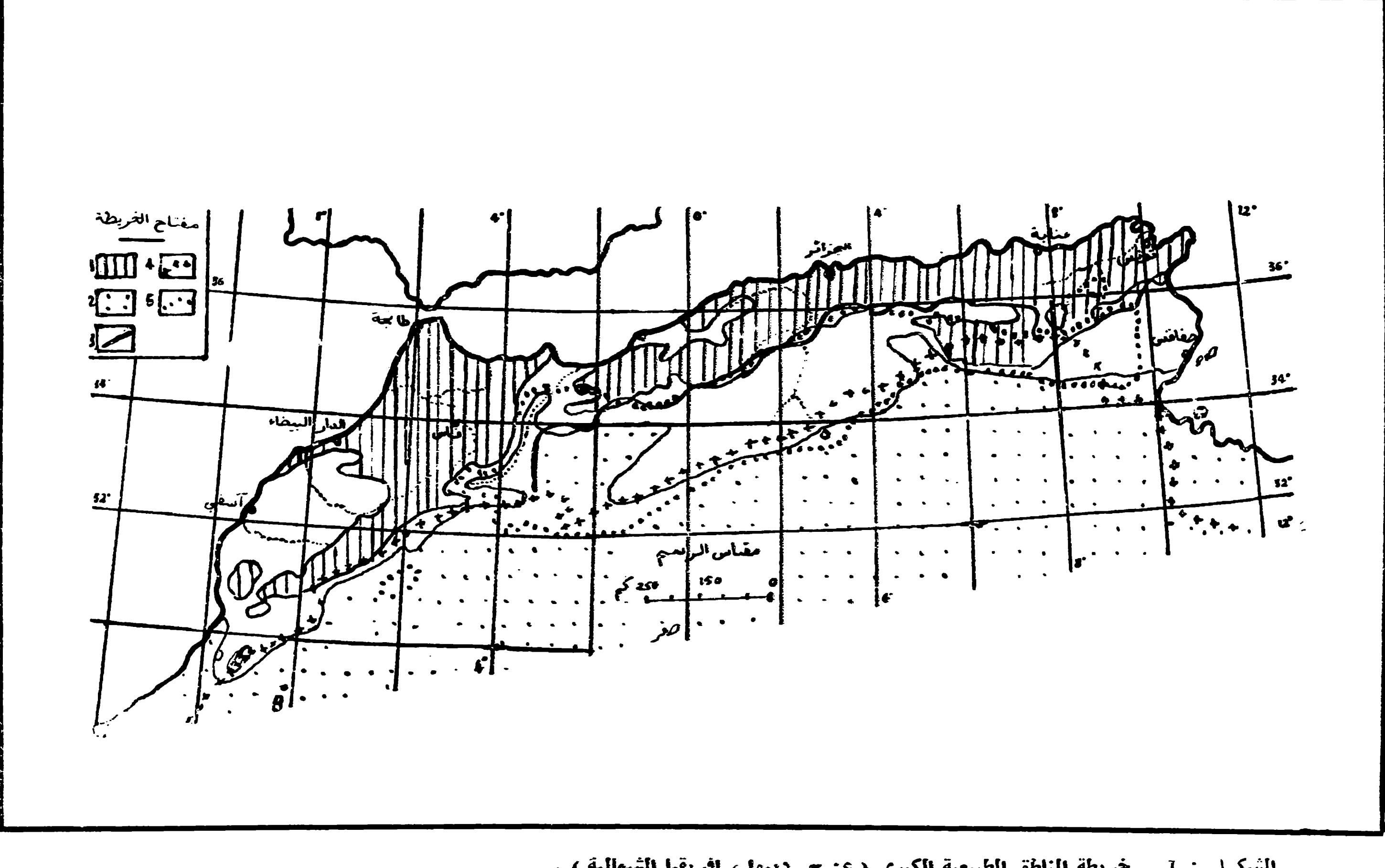
ولم يطلق البربر على أنفسهم هذا الاسم ، بل أخذوه من دون أن يروموا استعماله عن الرومان الذين كانوا يعتبرونهم أجانب عن حضارتهم وينعتونهم بالهمج (Barbari) ومنه استعمل العرب كلمة برابر وبرابرة (مفرده بربريّ) .

وأطلق اليونان على جميع أهالي إفريقيا الشماليّة أو **الليبيّين** اسم قوم كانوا يعيشون بين خليج سيرتا (Syrte) والنيل وهم **اللوبيون** (Les Lebou) واستعمل القرطاجيّون والعبرانيّون نفس التسمية . وكذلك الرومان فقد عمّموا اسم "**الموريّون**" على جميع سكّان بلاد البربر وكان في الأوّل خاصّا بسكان شمال المغرب الأقصى .

واليوم لا يعرف عامّة النّاس أنّ المغرب الأقصى والجزائر وتونس آهلة بالبربر ، ويعمدون إلى تسميتهم عربا . أمّا الأهالي فكثيرا ما كانوا يسمّون أنفسهم **أمازيغ** (مؤنثه تمازيغت وجمعه أمازيغن) ، ومعناه "الرجال الأحرار" ، ثمّ "النبلاء" . وقد أطلق هذا الاسم على قبائل عديدة قبيل الاحتلال الروماني .

2 ـ كتلة من المرتفعات

إنّ "جزيرة المغرب" شكلها رباعيّ الأضلاع ممتدّ الأطراف مشتمل على مرتفعات تحوطها مياه المحيط أو البحر المتوسّط ورمال الصحراء . وإذا كان من المحتمل أن يكون أهلها أتيح لهم في مطلع عصور ما قبل التاريخ الاتّصال بأوروبا عن طريق الجسور التي كانت تربط إلى ذلك الوقت بين القارّتين ، كما أتيح لهم الاتّصال بإفريقيا الوسطى عبر الصحراء التي لم تكن يومئذ على وحشتها الحالية ، فإنّ



الشكل : 1 ـ خريطة المناطق الطبيعية الكبرى (عن ج. ديبوا ، افريقيا الشمالية) .
1) : مناطق يزيد مجموع المطر السنوى فيها عن 400 ممم . 2) : مناطق يقل مجموع المطر السنوى فيها عن 200 ممم .
3) : حد تقسيم المياه بين المناطق ذات التصريف البحرى والاخرى ذات التصريف الداخلى . 4) : الحد الشمالى للسفح الصحراوى . 5) : الحد الشمالى والجنوبى لسباسب الحلفاء .

انعزالهم في جزيرتهم طوال عصور التاريخ جعل تسرّب التأثيرات الخارجية إليهم أعسر ، وإن كان أشدّ عنفا ، ومكّن التقاليد المحليّة من الصمود في وجه طوارق الأزمان .

وأضلاع هذا الشكل الأربعة متفاوتة الأبعاد . فبين رأس سبارتيل (Spartel) والوطن القبلي «1550 كلم» تقريبا ، وبين رأس النون وقابس «2 200 كلم». وبين رأس سبارتيل ورأس النون أكثر من ألف كلم. وبين الوطن القبلي وقابس أقلّ من «400 كلم». وتبلغ المساحة الكاملة «930 000 كلم مربّع.» وإذا استثنينا غربيّ المغرب الأقصى وشرقيّ تونس ، فإنّ الأراضي المنخفضة قليلة، لكنّنا نجد بالخصوص سهولا مرتفعة ونجادا محاطة بكتل جبليّة مستديرة الشكل تندمج في مجموعة الأطلس . ويرجّح أنّ هذا الاسم بربريّ الأصل إلاّ أنّ شكله الحاليّ مستعار من جغرافيّة المغرب الأقصى القديمة وقد أطلقه المعاصرون على مجموع جبال إفريقيا الشماليّة

إنّ أكثر من نصف بلاد البربر يتجاوز ارتفاعها «800 م.» وإذا كان معدّل الارتفاع في تونس لا يتجاوز «300 م.» تقريبا ، فإنّه يبلغ في المغرب الأقصى «800 م.»، وفي الجزائر «900» م. إلاّ أنّ تلك الأرقام «وهذا هو المهمّ» ليست ناتجة عن وجود جبال شاهقة إلاّ بنسبة ضئيلة — فإذا بلغ ارتفاع جبل "تبقـال" بالمغرب الأقصى «4 165 م.» ، فإنّ أعلى قمّة في الجزائر وهي قمّة جبل شلية (أوراس) لا تبلغ إلاّ «2 328 م.» ، وأعلى قمّة في تونس وهي قمّة جبل الشعانبي لا تبلغ إلاّ «1 590 م.» فقط .ومعنى هذا أنّ بلاد البربر تختصّ بأن ارتفاع جبالها يتراوح بين «800» و «1 200 م.»

وفي بعض الأحيان يوجد تضارب عنيف بين هذه التضاريس وبين السهول . فجبال الأطلس في متيجة تشرف من علوّ «1 400 م.» على مدينة البليدة الصغيرة الواقعة في أسفلها ، ويزداد هذا التفاوت في المستويات بين قمم جرجرة ووادي الصومام الذي يحاذيها جنوبا ، وبين الأطلس وحوز مرّاكش وبين الريف والبحر . ولكنّ الجبل في أكثر الأحيان ليس إلاّ الدرجة العليا من جملة درجات متساوقة فيبدو متواضعا في الأفق الذي يسدّه .

وهكذا نجد في جبال عمور جبل سيدي عقبة (700 1 م.) يعلو سهل عفلو (426 1 م.) وكذلك الأمر بالنسبة للجبال التي تحاذي شمالا منخفض الهدنة (890 1 م.) (ارتفاع جبل بو طالب 890 1 م.) فهي تعلو نجاد سطيف (ارتفاع سطيف 074 1 م.) .

إنّ تضاريس بلاد البربر أثّرت بخاصيتّين جوهريّتين على مصير البلاد تأثيرا حاسما في أكثر الأحيان . فتجزّؤ البلاد إلى أقسام مستقلّة الواحد عن الآخر لم يكن خطرا على الوحدة السياسيّة خلال العصور فقط ، بل إنّه ساعد في بلاد القبائل أو الأوراس مثلا على تكوين مجموعات بشريّة لها خصائصها الذاتيّة . ولا تزال إلى اليوم صامدة أمام اكتساح التاريخ . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإنّ الاتّجاه العامّ للجبال حسب خطوط العرض جعل الاتّصال بين الشرق والغرب سهلا نسبيّا إلاّ أنّه عدّد من الحواجز ما بين الساحل وداخل البلاد . وإذا استثنينا ساحل المغرب الأقصى المواجه للمحيط الأطلسي وشرقيّ تونس فإنّ المغـــرب لا يكشف إلاّ عن وجه عدائي . وكان سالسطس (Salluste) لاحظ ذلك بقوله : بحر عارم اللجّ عديم المرافىء (حروب يوغرطه، الفصل 17) . mare saevum, importuosum. (Bell. Ing XVII) ولذلك يتّضح بسهولة لماذا دخل جميع الغازين بلاد البربر من أحد طرفيها . ولم يشذّ عن هذه القاعدة إلاّ الغزو الفرنسيّ . ولعلّ في ذلك تفسيرا لبعض ما لاقاه هذا الغزو من صعوبات .

3 ــ طور تكوين تضاريس القشرة الأرضية (orogénie)

إنّ هيئة الأرض المتّصفة فى آن واحد بالتكتّل والتجزّؤ والتي أثّرت أيّما تأثير على تاريخ بلاد البربر يتّضح أمرها بالرجوع إلى أطوار تكوّن التضاريس . وبما أنّها بقيت طويلا مجرّد حاشية للقارّة الإفريقية فقد خضعت لما خضعت له هذه القارّة من تغييرات . ففى الحقبة الأوّلية (l'ère primaire) وحتى قبلهـــا غيّرت سلسلة من الحركات والالتواءات عقبتها أطوار من الانجراف (érosion) ملامح هذه الأرض تدريجيّا وعندما انخفض "شبه سهل مابعد العهد الهرسيني(pénéplaine posthercynienne)

وغمرته الميـاه ظهر موقع بلاد البربر طوال العصور الثانوية شبيها ببحر متوسّط تخلّلته جزر وأغوار عميقة . وامتدّ من الغرب إلى الشرق على حاشية القارّة الإفريقية التي بقي معظمها خارج المياه .

ويمتدّ طور الترسُّب الطويل الذي تلا ذلك إلى أوائل العصور الثلاثيّة وأثناءها برزت بلاد البربر بروزا ، وأصبحت تحت تبعية أوروبا الجيولوجيّة إن صحّ هذا القول : ذلك أنّه في الوقت الذي انبثقت فيه جبال "البيرينيه" (Pyrénées) ظهرت مجموعة من الجبال كأنّها نوع من "ما قبل الأطلس" معقّدة تراكبت فيها الرواسب (sédiments) الثانوية ، والثلاثية التي التوت في عنف متفاوت القوة مع بقايا "شبه سهل ما بعد العهد الهرسيني" وقد ارتفعت هذه البقايا في نفس الوقت الذي ارتفعت فيه المجروفات .

وهذا الالتواء الأوّل نتج عنه تحوّل البحر الأبيض المتوسّط إلى الشمال . ولكنّ هذه المجموعة من الطبقات الأرضيّة التي اعترتها التواءات أخرى لم تظهر في شكلها الحالي إلاّ في النصف الثاني من الحقبة الثلاثية ، في نفس الوقت الذي تكوّنت فيه جبال الألب (Alpes) ، وتغيّر من ملامحها ما تغيّر . ولم تنفصل إفريقيا عن صقليّة إلاّ في الحقبة الرباعيّة حيث وقع خُسُوف في الأرض فصل بين الريف وسيرانيفادا(Sierra Névada) وتولّد عنه مضيق جبل طارق . إلاّ أنّه يجب أن نلاحظ أن تضاريس إفريقيا الشماليّة تطوّرت منذ أن تكوّنت بتأثير عاملين أساسيّين : أوّلا الانجراف الذي فتّتها بقوّة تتفاوت شدة وضعفا بسبب اختلاف مستويات البحر خاصّة . وثانيا النّقل (remblaiement) الذي غشّاها في الجهات المحرومة من مصبّ يصلها بالبحر ، وخاصّة في السهول المرتفعة الممتدّة بين الأطلسين .

4 ــ المنـاخ

إنّ سلطان المناخ على البشر أشدّ سطوة وأكثر تقلّبا من مفعول التضاريس التي تتأثّر به في شتّى مظاهرها . ذلك أنّ الصيف الذي كثيرا ما يكون باكرا وخاصة كلّما توغّلنا في الجنوب يتبع الشتاء والشتاء يتبع الصيف في طفرة ومن دون تدرّج . ومعدّل درجات الحرارة على

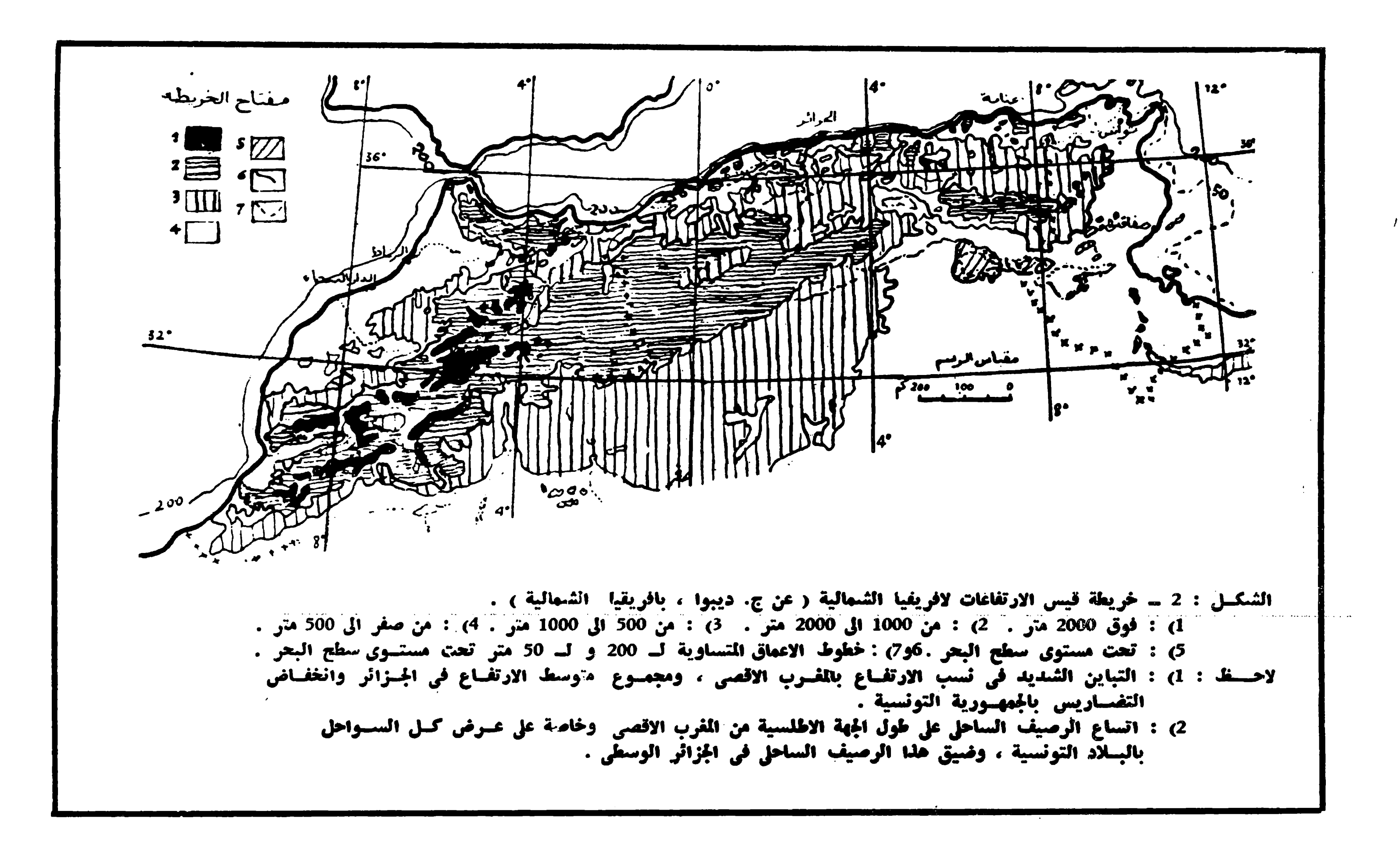
السواحل لا يفوق 25 درجة. لكنّ حرّ النهار يبقى منتشرا في الليل الثقيل . والهواء الرطب كثيرا ما يعترض الآفاق كأنّه بخار رماديّ . والشتاء معتدل ، نيّر بصفة عامّة ، ولكنّه لا يزوّد البشر بما يحتاجون إليه من طاقة ونشاط كما هو الشأن في أوروبّا . والتضادّ يقوى إذا توغّلنا في داخل البلاد ، ففي الصيف يطول النهار ويجفّ الهواء وتعلو درجات الحرارة بسرعة وكثيرا ما يبلغ حدّها الأقصى 40 وحتّى 45 درجة .

غير أنّ كثرة الأمطار هي الظاهرة الرئيسيّة من الناحية البشريّة : فإذا انفتح المغرب الأقصى انفتاحا إلى التأثيرات الأطلسيّة فإنّ وضعيّة التضاريس سواء بالجزائر أم بتونس تمكّن رقعة ساحليّة ضيّقة من التمتّع بكميّة كافية من المطر . وبصفة عامّة فإنّ الخطّ الذي يجمع بين الأماكن التي يبلغ نزول المطر فيها 400 مليمتر مواز للساحل الشمالي بمسافة تتراوح بين 100 و 200 كلم ولا تتجاوز هذا الرقم إلاّ نادرا . وبعد هذا الخطّ تبدأ السباسب (Steppes) .

ولو أنّ ماء المطر كماء النيل يعد هديّة تقدّمها باستمرار آلهة قارّة لهان الأمر ولكنّ كمّيّة الأمطار كثيرا ما تتحوّل بسهولة إلى ثلاثة أضعافها من سنة إلى أخرى وأحيانا بنسبة أكبر . ولقد سجّلت في ”جلفة“ كمّيّة الأمطار النازلة سنة 1913 فكانت 99 مليمترا مقابل 775 في سنة 1893 . ولا شكّ أنّ الأمطار تتوزّع تقريبا على أيّام الشتاء دون سواه . ولكنّها تتهاطل بغزارة أحيانا في بضع ساعات فسرعان ما تتضخّم الوديان بالمياه الممزوجة بالطين بعد الجفاف . فلا غرابة إذن أن يبلغ إنتاج الحبوب في المغرب الأقصى 38 مليون قنطار سنة 1941 وألاّ يتجاوز 4 ملايين ونصف قنطار في سنة 1945 . وحتى بركة الأولياء فكثيرا ما تبقى عاجزة أمام بخل السماء .

5 — الحياة النباتية

إنّ ما عليه الحياة النباتيّة اليوم في إفريقيا الشمالية نتيجة لظروف طبيعيّة ولعمل البشر كما هو الشأن في جميع البلدان العريقة في العمران . ويصعب في كثير من الأحيان أن نعرف بالضبط إلى أيّ حدّ أثّر أحد



الشكل : 2 ـ خريطة قيس الارتفاعات لافريقيا الشمالية (عن ج. ديبوا ، بافريقيا الشمالية) .
1) : فوق 2000 متر . 2) : من 1000 الى 2000 متر . 3) : من 500 الى 1000 متر . 4) : من صفر الى 500 متر .
5) : تحت مستوى سطح البحر . 6و7) : خطوط الاعماق المتساوية لـ 200 و لـ 50 متر تحت مستوى سطح البحر .
لاحظ : 1) : التباين الشديد في نسب الارتفاع بالمغرب الاقصى ، ومجموع متوسط الارتفاع في الجزائر وانخفاض التضاريس بالجمهورية التونسية .
2) : اتساع الرصيف الساحلي على طول الجهة الاطلسية من المغرب الاقصى وخاصة على عرض كل السواحل بالبلاد التونسية ، وضيق هذا الرصيف الساحلي في الجزائر الوسطى .

هذه العوامل على الأخرى طوال آلاف السنين الأخيرة . إلاّ أنّه مهما بلغ بنا الخيال لا يمكن أن نتصوّر أنّ هذا العمل قدر على تغيير معطيات التضاريس والمناخ تغييرا جوهريّا .

والذي لا شكّ فيه على ما يظهر هو أنّ مساحة الغابات التي تبلغ اليوم 6 ملايين من الهكتارات تقريبا تناقصت خلال عصور التاريخ . فانتشار المزروعات وحاجة البشر إلى الوقود أو إلى موادّ البناء وما قضمته أسنان الحيوانات ، كلّ ذلك يعلّل تعليلا كافيا تناقصيا الغابات ولو بصورة نسبيّة . وفي كثير من الأحيان حلّت فعلا النباتات الشوكيّة والأراضي القاحلة محلّ الغابة . فلا مبالاة البدو الرحّل ولا عداؤهم قضيا على الأشجار وخاصّة الزياتين في جهات تشهد آثار المعاصر على وجودها فيها قديما . إلاّ أنّ إفريقيا الشمالية رغم ذلك لم تكن أبدا منطقة غابات فسيحة على الأقل في عصور التاريخ وباستثناء بعض الجبال . ومع ذلك فإنّه يجب ألاّ ننسى أنّ تزايدا في نموّ الغابات قد حصل هنا وهناك منذ عصور التاريخ القديمة .

والواقع أنّ السباسب التي قد يكون تفوّقها ازداد شيئا ما خلال آلاف السنين الأخيرة هي التي تلعب الدور الفعّال في التطوّر البشري لإفريقيا الشماليّة . فهي تفرض ظروفا حياتيّة تختلف بحسب تفاوت أهمّيّتها . فتارة تبعد البشر أو تكاد ، وطورا تضطرّهم إلى حياة غير مستقرّة تُوَقِّعُها حركة الفصول ، وأخرى تتطلّب صبرا وقناعة عندما تتوالى السنوات العجاف . وهي تحتلّ على الأقل نصف مساحة إفريقيا الشماليّة بالرغم عن ارتفاع البلاد الذي من شأنه أن يعمل على التنقيص منها .

غير أنّه يجب أن نتحرّى عندما نشاهد اليوم مناظر البلاد فنظنّ أنّها على حالتها تلك منذ القدم . فسهل "متيجة" كان جزء منه منذ ما لا يزيد كثيرا عن القرن مغمورا بالمستنقعات ، ويجب أن نتخيّل أرضا جَرْداء عند الوقوف أمام زياتين صفاقس . وحتى بعض أنواع النبات فإنّها لم تكن موجودة في المناظر الطبيعيّة القديمة فشجرة الكلتوس (eucalyptus) الاستراليّة الأصل دخلت البلاد في القرن التاسع عشر وشجرة كسيروفيل (xérophile) الاميريكيّة أدخلها الإسبان منذ ثلاث أو أربعمائة سنة

ولكن حصل العكس في مواطن أخرى إذ لا شكّ أنّ بعض المدن الرومانيّة مثل «تيمقاد» (Timgad) أو «جميلة» (Djemila) لم تشيّد أبنيتها الحيّة في مثل هذا الأفق العاري القاحل حيث نشهد اليوم أطلالها شاخصة .

6 ـ أقسام إفريقيا الشماليّة الكبرى

إنّ إفريقيا الشماليّة ليست كتلة منسجمة بالرغم عن الظروف العامّة التي اقتضت تضامنها الماديّ والبشريّ . ذلك أنّنا نميّز اليوم بين المغرب الأقصى والجزائر وتونس ، وهي أقطار لا تطابق حدودها مطابقة تامة الحدود التي تفرضها الجغرافيا . وليس معنى ذلك أنّ هذا التمييز لا مبرّر له ، فقد برزت خلال آلاف السنين الثلاثة شخصيّة الجزأين المتطرّفين من شمال إفريقيا واندرجت بينهما الشخصيّة السلبية «إن صحّ هذا التعبير» ، التي نسمّيها الجزائر . ولا شكّ أنّ خصائص هذه الأقطار تنمحي في بعض الأحيان ضمن ما تشيّده السياسة من صروح تندمج فيها هذه الخصائص وتشوّه ، إلاّ أنّ انبعاثها من جديد يقيم الدليل على ديمومتها التي تعلّلها الجغرافيا في مظاهرها الأساسيّة تعليلا مرضيا على سبيل الإجمال.

II ـ المغرب الأقصى والجزائر وتونس

1 ـ المغرب الاقصى

إنّ وجه الشبه بين تضاريس غربيّ المغرب الأقصى وإسبانيا كبير جدّا . فلو أمكن كما تخيّل ذلك "تيوبالد فيشير" (Théobald Fischer) ضمّ تضاريس البلادين بعضها إلى بعض حول المفصّلة المتمثّلة في مضيق جبل طارق لطابق الريف سلسلة جبال البيتيس (Cordillère Bétique) ولقابلت مهاد تازة وسبو والغرب الأندلس ، ولطابق أيضا الأطلس المتوسّط الهضاب الإسبانيّة والأطلس الأعلى جبال "البيرينيه" . وعلى العكس من ذلك يبدو المغرب مولّيا ظهره للجزائر ، ويلتحم القطران في القسم الشرقيّ من المغرب الأقصى الذي لا يخضع لسلطة الجزائر الإداريّة ولكنّه تابع لها جغرافيا باعتباره امتدادا **لسهولها العليا** .

أمّا شمال المغرب الأقصى فهو منطقة جبليّة أقلّ ارتفاعا من الأطلس إلاّ أنّ قربها من البحر المتوسّط ووجود الأمهاد المحيطة بها أبرزا هذا الارتفاع . ومن هناك تبدو في وضوح سلسلة جبليّة مقوّسة طولها 300 كلم تجويفها متّجه نحو الشمال وتسمّى الريف . ثم إنّ بوغاز جبل طارق الذي هو مضيق قديم غمرته مياه البحر وآخر ممرّ لغربيّ الأطلس ، لا يفصل المجموعة الجبليّة الشمال إفريقيّة والسلسلة الجبليّة الأوروبيّة إلاّ بفاصل ضيّق لأنّ سلسلة "جبال البيتيس" امتداد للريف المغربيّ في الأندلس — وفي جنوب الريف تتتابع الجبال في شكل دائرات منتظمة ذات مركز واحد ، وفي جبل زرهون ينتصب ضريح مؤسّس الدولة الإدريسيّة .

وتمتدّ السهول والنّجاد بين المحيط الأطلسيّ وسفح الأطلس . فالنّجاد في الشمال بين طنجة وفاس في الجهة المسمّاة بالغرب أقل بروزا وكذلك الهضاب تحيط بالسهول المتكوّنة من المجروفات . والقسم الغربيّ من الطريق الرئيسيّة التي تشقّ البلاد عرضا والتي منها وصلت جيوش الغزاة الآتية من الشرق إلى الساحل الأطلسيّ يتكوّن من سهول نهر سبو وأحد روافده من اليمين وهو واد أناون (Innaouen)

وإذا كان لفاس ومكناس شأن كبير فالفضل يرجع إلى حدّ بعيد لكونهما واقعتين في مفترق طرق رئيسيّة . أمّا تازة فهي تشرف على الممرّ الواصل بين جبال الريف والأطلس المتوسّط .

وفي الجنوب تبدو في جلاء النّجاد المنضّدة بين المحيط الأطلسي والأطلس في ما يسمّى "بالميزتا" المغربية وهي هضبة ضخمة عتيقة مغطّاة برواسب الحقبة الثانوية أو الثلاثية المتراكمة تراكما أفقيّا .

ومن جهة المحيط يبدأ هذا النجد (horst) بسهل ساحلي يقل عرض رقعته حينا قرب الرباط و"مغادور" ويتّسع حينا آخر فيبلغ 80 كلم في "دوكالة" ثم يرتفع تدريجيّا إلى أن يصبح نجدا ممتدّ الأطراف خصبا يبلغ 700 م ويشقّه خور (Cañon) أم الربيع .

وتشتمل مجموعة الأطلس على سلسلة جبليَّة يبلغ طولها 700 كلم تسمَّى الأطلس الأصليّ ، متَّجهة من الجنوب الغربيّ إلى الشمال الشرقيّ . ومنها يتفرّع الأطلس المتوسّط نحو الشمال الشرقيّ ، ونجاد الأطلس الجنوبيّ نحو الجنوب الغربيّ ، إلاّ أنّ العلاقات بين هذه الأجزاء الثلاثة لا تزال غير مضبوطة على ما يظهر . فجبال الأطلس الأعلى ذات الصخور البلّوريَّة غربا حيث تشرف على سهل مرّاكش والسوس من ارتفاع 000 3 أو 000 4 م تتَّخذ شرق القلاوة حيث تتضاءل أهمِّيَّة الصخور القديمة ، أشكالا ضخمة ذات مظهر "جوراسي" . والأطلس المتوسّط جبل مرتفع متكوّن من صخور جيرية جوراسيَّة ويغيب شبه سهل المنطقة الجبليَّة الوسطى ذو الصخور البلّوريَّة في الشرق تحت نجدي : "بني مطير وبني مقيلد" ، وأرضهما رغاب ذات أخاديد ، وقد تناثرت حُمَم البراكين الحديثة على هذه المنطقة الجبليَّة الوسطى ، ممَّا جعل المنظر الطبيعي شبيها بصفحة القمر متميّزا بذلك . ولا تبدو آثار الالتواء فعلا إلاّ على الحاشية الجنوبيَّة والشرقيَّة . أمَّا جنوب الأطلس فهو أقرب إلى "الميزيتا" منه إلى سلسلة جبليَّة . وتشرف آخر جبالها الدنيا في الجنوب الغربيّ على المحيط الأطلسيّ قرب رأس النون . ويصل بركان «سروا» الكبير جنوب الأطلس بالأطلس الأعلى وعند سفحه يتَّحد سهل السوس . أمَّا نجدا "الدراع" "تافلالت" فإنَّهما امتداد له نحو الشرق .

ومن خصائص تضاريس المغرب الأقصى وجود مجموعتين من السهول تمتدّ الأولى من مصبّ "تنسيفت" إلى "الملوية" ، وتحتوي على سهل ما دون الأطلسيّ وسهول نهر سبو (الغرب) ومَعْبَر "تازة" وسهول الجهة السفلى من نهر الملوية الذي هو الطريق الكبرى الرابطة بين المحيط الأطلسي والجزائر رغم بعض العقبات . أمَّا المجموعة الثانية فتتركّب من سهل حوز الذي يشقّه نهر "تنسيفت" ومن سهل "تادلا" الكبير ، والمواصلات ميسورة بين السهلين .

على أنّ المغرب الأقصى يدين أيضا بجانب من طرافته لمناخه ، وما تضفيه عليه هيئة التضاريس من شَبَه بمسرح مدرّج يسمح للمؤثِّرات الأطلسية بالتوغّل داخل البلاد . ولا شكّ أنّ الجفاف يشتدّ كثيرا جنوب

أمّ الربيع، إلاّ أنّه من النادر ألاّ تبلغ درجة الأمطار النازلة شمال الأطلس 200 مليمترا . ولم يفت الجغرافيين منذ العصور القديمة أن عبّروا عن دهشتهم من ظاهرة مثيرة حقّا للعجب في إفريقيا الشماليّة وهي وجود وديان تجري فيها المياه فقد لاحظ "بلين" (Pline) ذلك قائلا : "السبو هذا النهر الرّائع" .

2 ـــ الجزائر

لقد تبيّن الجغرافيّون بالجزائر منذ أوائل الاحتلال ثلاث مناطق موازية تقريبا للساحل وهي : منطقة التلّ الأطلسي ومنطقة النّجاد العليا أو بعبارة أصحّ السهول العليا ، ومنطقة الأطلس الصحراويّ . ولم يلاحظوا إلاّ مؤخّرا اتّصال الأطلسين في شرقيّ الجزائر .

ولهاتين السلسلتين الجبليّتين خصائص متباينة . ففي التلّ الأطلسيّ تبدو بالأرض التواءات عنيفة وتقلّبات عظيمة . أمّا الأطلس الصحراويّ فالالتواءات به أبسط بكثير وفيها تدرّج رفيق نحو الصحراء . أمّا السهول العليا فليست منبسطة إلاّ نادرا على أنّ تضاريسها تختفي تحت كتلة مهولة من رواسب التلّ الأطلسي التي غمرتها .

وقد أكّد الجغرافيون أنّه يمكن تقسيم الجزائر إلى جزائر غربيّة ، وجزائر شرقيّة وأعاروا هذا التقسيم أهمّيّة أبلغ .

فلا يظهر التقسيم المألوف من نجـاد عليا وأطلسين يحيطان بها إلاّ في غربيّ الجزائر . وهناك مجموعتان من السهول : فمن جهة غور الشليف الساحليّ المتّصل غربا بسهل سيغ وسبخة وهران،ومن جهةأخرى غور أوسط فيه سهول بسكرة وسيدي بلعبّاس وتلمسان ، وقد أحاطت به جبال التلّ الأطلسيّ الصغيرة وهي : جبال ساحل وهران والظهرة شمالا وجنوبا ، وجبل تسالة وخاصّة جبل الورشنيس وهو أعظم جبل يحفّ بوادي شليف في غربيّ الجزائر .

أما الأحواض الموجودة في النّجاد العليا التي لم تنحدر مياهها لا إلى البحر ولا إلى الصحراء فهي منغلقة ذات تضاريس على نمط واحد تركد فيها الشطوط الكبيرة .

وتوجد بالجنوب جبال الأطلس الصحراوي القصيرة المتوالية وهي : جبال قصور وجبال عمور وجبال أولاد نايل التي تتتابع من المغرب الأقصى إلى الهدنة بصورة منتظمة ، والتي تفصل بينها ممرات واسعة تسهل معها المواصلات وتشرف هذه الجبال من ارتفاع قدره ألف متر على الصحراء التي تختفي تحت كتلة من الرواسب المنجرفة من سفوحها .

وتفقد الجزائر في قسمها الشرقي هندستها العاديّة . ويبدو الساحل في غالب الأحيان رائعا ، ولكنّه لا يتيسّر فيه العمران . ولا توجد السهول الساحليّة إلاّ في طرفي هذه الجهة : ففي الغرب نجد سهل "متيجة" وراء هضاب ساحل مدينة الجزائر ، ونجد في الشرق السهل المعروف بسهل عنّابة الممتدّ على شكل هلال في جنوب جبل هدوق Edough . وكثيرا ما تنتصب الجبال على حافة البحر بالذات كجبل القبائل العظيم المتّصل جنوبا بأعالي جرجرة الناتئة الكلسية أو إذا اتّجهنا أكثر نحو الشرق جبال بابور والمجموعة المتقطّعة الممتدّة من رأس " بوقرعون" إلى رأس الحديد (Cap de fer)

وليست جبال التلّ وراء المنطقة الساحليّة من واد شلف إلاّ عناصر متوالية إلى الحدود التونسيّة فاقدة لكلّ المميّزات لا يتجاوز البتّة ارتفاع قممها 1 800 م تتخلّلها أحيانا سهول صغيرة وهي بقايا أحواض عتيقة جفّت مياهُها (سهل المليلة وقالمة) وتضطرّ طرق المواصلات إلى المرور من مَعَابر (Cluses) ضيّقة غائرة مثل مخانق بلسترو أو تلك التي يسمّيها الأهالي البيبان والتي شَهَرَتْهَا حملة "دوق أورليان" سنة 1839 تحت اسم (أبواب الحديد) (Portes de fer) .

وتنتهي التلال العليا عند غور الهدنة والجبال الصغيرة للأطلسين المتّصلين بعضهما ببعض بالقرب من خطّ الزوال بعنابة تخفّف من حدّة التلال العليا القسنطينية وتكسبها شيئا من التنوّع .

أمّا الأطلس الصحراوي الذي تحافظ قممه الناتئة الحادّة على إتّجاهها من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقيّ فلا يقلّ وعورة عن التلّ الأطلسي . ويمثّل جبل أوراس حزمة مرتفعة ، ذات أوضاع عادية حيث توجد أعلى

قمّة في الجزائر (جبل شلية 328 2 م) وتتخلّله أودية ضيّقة . وينفتح بين الأوراس من جهة ، و"بلازمة" وجبال زيبان من جهة أخرى ممرّ إلى الجنوب من وادي « واد قنطرة » الواصل بين التّلال العليا والصحراء .

3 — تونس

إنّ الحدود الحالية بين الجزائر وتونس لا تطابق الفاصل الطبيعي الذي يمكن تبيّنه إجمالا غربي هذه الحدود بالقرب من خطّ الزوال المارّ بعنابة حيث كانت حدود نوميديا الرومانية تقريبا .

والمنطقة الجبلية التي هي امتداد لجبال الأطلس الصحراويّ تشقّ البلاد متّجهة من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي ثم تنحدر شيئا فشيئا حتى هضاب شبه جزيرة الوطن القبلي وهي عبارة عن منتهى عظم القارة (Epiphyse continentale) وهذه المنطقة التي تعرف بالسلسلة الظهرية تفصل في الواقع بين تونسين : تونس التلّ وتونس السباسب .

وفي التّل التونسي الذي هو امتداد طبيعي للتلّ الجزائري توجد جهتان جبليتان تحيطان شمالا وجنوبا بالسهول التي يشقّها واد مجردة وروافده. فنجد من جهة الجبال المشجّرة المتواضعة الارتفاع (يبلغ هذا الارتفاع 200 1 م فقط في القسم الغربي منها) ومنها جبال خمير ومقعد ، ومن جهة أخرى نجد جبالا متشابكة عارية ذات أشكال ضخمة ، وسهولا صغيرة تسمّى أحيانا التلّ العلوي . أمّا الجهات التي يشقّها واد مجردة فهي في واقع الأمر وحدات متمايزة . ويتّسع وادي مجردة شرقا قرب الخليج حيث استقرّت العاصمتان الكبريان للبلاد التونسية عبر التاريخ : أي قرطاج وتونس .

وتبدأ السباسب جنوب السلسلة الظهرية : فهناك السباسب العليا في الجهة الغربية من البلاد حيث تنتصب في الأفق الرتيب الجبال الكلسية العارية حتى جنوب قفصة ، ومنه تبدأ الصحراء . وهناك السباسب السفلى في الجهة الشرقية وهي سهول مترامية الأطراف تمتدّ من الجبال إلى البحر

على وتيرة واحدة ، ما عدا جهة سوسة (الساحل) حيث تذكّرك الهضاب بمنظر طبيعيّ شبيه بالتلّ .

وليس وجود هذه السهول أدعى إلى الملاحظة من وضعها . ذلك أنّها ، لسهولة المواصلات بينها ولموازاتها للبحر على غرار سهول المغرب الأقصى الجهة الوحيدة "المنفتحة" في إفريقيا الشمالية بالإضافة إلى السهول المغربية .

إلاّ أنّه بينما يتّجه المغرب **الأقصى** اتّجاها معاكسا لما ظلّ عليه تاريخ العالم حتى القرون الخمسة **الأخيرة** نرى تونس المتّصلة اتّصالا مباشرا بحوض البحر المتوسّط والبعيدة عن أوروبا بـ 140 كلم فحيب تتأثّر بمؤثّرات آتية من الشرق والغرب على التناوب وبنفس السهولة .

4 — ما وراء البلاد

ومهما ضبطنا الحدود الجغرافية لإفريقيا الشمالية فإنّ إطارها لم يفرض نفسه فرضا خلال التاريخ ومن يوم أن رسم الفيلان (Les Philènes) بتضحيتهم البطولية ، على ما ورد في الأسطورة ، الحدود الفاصلة بين قرطاج وقريني (Cyrène) فـإنّ إفريقيا تنتهي عند "سيرتا" العظمى ولا تتعدّاها . وقد تأكّدت تبعيّة بلاد طرابلس الشمالية للمناطق الموجودة غربا مرّات عديدة عبر العصور . وفعلا فإنّ سهول السباسب في الجنوب التونسي وراء مهاد الجريد هي نفسها التي تتواصل في منطقة لا يتجاوز عرضها 200 كلم مارّة بالجفارة على حافة البحر حتّى تنتهي مثلها إلى ساحل منبسط . أمّا في الجنوب فإنّ حاشية النّجاد الصحراوية هي نفسها التي تتكوّن منها جبال القصور والطنف الكلسي الذي يصلها بضواحي طرابلس والمعروف باسم **جبل** .

ومن جهة أخرى فإنّه يتعذّر عزل الصحراء عن إفريقيا الشمالية في بعض العهود على الأقلّ . وإذا اعتبر الأطلس الصحراويّ حدّا جبليا تبدأ بعده نجاد **الحمادة** الصخرية العارية و مساحات «الرّق» الحجرية أو رمال «العرق» فإنّه لا يكون حدّا مناخيا وبالأحرى حدّا بشريّا . فأهل

الشمال هم الذين حقّقوا استعمار المزاب الرائع وبالعكس فإنّ قبيلة كـ(أولاد سعيد عتبة) النازحة من ورقلة إلى سرسو وهي التي تحيي مدّة أسابيع قليلة من كلّ سنة أرض زناتة القديمة . إلاّ أنّ ظاهرة تعايش حضر الواحات والرحّل التي تمتاز بهما الصحراء أيّ امتياز ليست أصالة بظاهرة صحراوية .

ذلك أنّ جانبا كبيرا من جنوب بلاد المغرب يعرف هذه الظاهرة . غير أنّ الخطّ الملتوي الصاعد أحيانا إلى التلّ والذي نرسم به على خرائطنا حدود البداوة لم تضبطه الطبيعة منذ الأزل على الأقلّ في تفاصيله وإنّها لمشكلة من أعوص مشاكل تاريخ المغرب أن نهتدي إلى تغيّرات هذا الخطّ .

III ـ الاطار الجغرافى لتاريخ افريقيا الشمالية

1 ـ بـــلاد تابعة

إنّ ما عليه تضاريس بلاد البربر يسّر دائما للقادة العسكريين احتلال البلاد بسرعة عن طريق السهول المرتفعة المتسلسلة من سيرتا إلى المحيط الأطلسي ، ومن سوء الحظ فإنّ هذه الطريق الوحيدة طويلة وضيّقة أكثر ممّا يجب فهي تَغَصّ وتَنْسَدّ فتتعثّر حركة المرور فيها . وإذا بالغزو "وقد بدأ أحسن بدء" يبقى تخطيطا سريع الانهيار (أ. ف . ڤوتيه) (E. F. Gauthier) .

فالمغرب هذا البلد الذي يتكوّن القسم الآهل منه على حدّ تعبير أ. ف. ڤوتيه من "حاشية مديدة يبلغ طولها 3 000 كلم ولا يكاد يبلغ عرضها 150 كلم" مع "وضع من أدعى أوضاع العالم إلى السخرية" قد أعوزه طبعا مركز جغرافي تتجمّع حوله المقاطعات المختلفة . ومناطق الريف والسوس وخمير منعزلة عن الجهات المجاورة لها والأنهار التي قيل عنها في استعارة جريئته : إنّ الكثير منها "تجرى ولا ماء" طيلة جزء من السنة هي طرق للمواصلات متواضعة في غالب الأحيان ليست

لها قيمة اقتصادية تذكر . ثم إن التجزّؤ الطبيعي ساعد على تكوين الخصائص الجهوية وأقرّ المتناقضات وحال دون اختلاط السكّان .

2 – المغرب الاقصى

ليس من الصعب أن نتبيّن إلى أي حدّ أثّرت جغرافية المغرب في تاريخه. وبالنسبة للمغرب الأقصى يكفي الركون الى ج. سليري(J. Célérier) الذي خصّ المسألة بدراسة شافية في "ذكرى هنري باسي" (Henri Basset)

ولئن لم يكن للحدود الطبيعية إلاّ قيمة نسبيّة فهناك مغرب أقصى متميّز بحدوده الجغرافية هو المغرب الأقصى الغربي الذي يكوّن "جهة طبيعية ذات شخصية واضحة المعالم أيّما وضوح" وبالرغم عمّا تصطدم به حركة المرور من عقبات بسبب المحيط الأطلسي والريف والأطلس والصحراء فإنّ المغرب الأقصى لم يبق في هذا الانعزال الموحش الذي يؤكّده الباحثون عادة : إنّ إرادة السلاطين خلال القرنين 18 و 19 هي التي أغلقت الحدود التي كانت مفتوحة تماما في عهدي الموحّدين وبني مرين . وقد تنازعت المغرب الأقصى في عصوره كلّها مؤثرات أوروبا وإفريقيا المتوسطيّة وإفريقيا المدارية .

إنّ المغرب الأقصى جزء لا يتجزّأ من الكتلة الإفريقية . لذلك فإنّ مؤثّرات الصحراء وحتى الغزوات المنطلقة منها طبعت تاريخه بالرغم عن العقبات الطبيعية . لكن المغرب الأقصى ليس عبدا للقارة الإفريقية . ففي إمكانه أن يتخلّص من هذه التبعية ، ويتّجه لا إلى المحيط الأطلسي ، بل على الأقل إلى البحر المتوسّط الذي يضيق على سواحله إلى حدّ يفرض معه جاذبية الأراضي الإسبانية التي تكتشفها الأنظار من هذه السواحل . وإذا شارك الساحل المغربي في العصور القديمة في نشاط البحر المتوسّط فإنّ تاريخه في القرون الوسطى بقي متّصلا وثيق الاتّصال بتاريخ إسبانيا ، ولم يدفع بالمغرب الأقصى من جديد إلى إفريقيا إلاّ بعد الغزو الإسباني (reconquista) فاضطرّ إلى الانطواء على نفسه ، خاصّة وأنّه كان عرضة لهجوم أعدائه في الدين من الضفّة

الأخرى . وهكذا لم يعد للمغرب الأقصى، وهو طريق الإسلام في غربيّ بلاد البربر، صلة بإسبانيا النصرانية . ولم يستفد حتى من الغزوات الشرقية التي كان يمكن أن يجني منها ثمارا، لقد كان المغرب الأقصى معبرا للفاتحين، لا مستقرّا . فقد استوطن الدخلاء في المدن التي كانت لها حياة وحضارة مستقلّتان عن حياة القبائل وحضاراتها، ولم يكن للأرياف البربرية من معرفة بمجموعة المدن إلاّ ما كانت توفّره لها من نهب ثروات القصور والمنازل والأسواق .

إنّ التأثير المزدوج لإفريقيا والبحر المتوسّط يظهر في وضع المغرب الأقصى ومناخه اللّذين طبعا البشر فأثّرا في تاريخهم . والمنطقتان المتنافستان على مرّ الدهر أعني مملكتي فاس ومرّاكش، تعبّران عمّا بين الشمال المتوسّطي والجنوب الإفريقي المستند إلى الواحات من تضارب . فقد قال «سلريي» : «يوجد بين الجبيلات والأطلس المتوسّط عتبة مرور ممتازة تزيد أهمّيتها لالتقاء نهرين غزيرين بأمّ الربيع وهما واد العبيد والتساوت ولقربها من مناطق تادلة والحوز والدير الخصبة وكثيرا ما شهدت مقاطع هذه الأنهار معارك دامية » .

وخلافا لما كان يجري في الجزائر فإنّ معالم دولة المغرب الأقصى لم تزل قائمة طيلة هذه المعارك المستمرّة . وقد صمد حضر شمال المغرب أو البدو الذين استقرّوا بالسهول، أعنف صمود في وجه محاولات بدو الصحراء الذين كانت قد شلّت حركتهم عقبةُ الاطلس الكأداء. وتَمكُّنُ الحضر من الاستقرار في السهول المنفتحة ساعدهم على بسط سلطانهم وسهّل عليهم فرض طاعتهم . لكنّ الجبال الوَعْرَة — بلاد الصبا — كانت خارجة عن سلطة "بلاد المخزن" . وقد وفّق البربر المعتصمون بالجبال في مقاومتهم لعزم سكّان السهول على تعريبهم منذ أن شرع في ذلك إدريس الأول في القرن الثامن وعاشوا دائما في حالة حصار، ولم يمنعهم ذلك من أن ينزلوا من حين لآخر كُتَلا بشرية لا سبيل إلى صدّها يقودها مؤسّسو الإمبراطوريات . وإنّما تاريخ المغرب الأقصى في مختلف تقلّباته صراع لا يني بين الجبل والسهل .

وقد كانت للمغرب الأقصى غواصم سياسية أو ملكية تستجيب لحاجات معيّنة . فطنجة وهي ثغر إن لم نقل مستعمرة فينقيّة ، وأكبر مدينة في موريطانيا الغربية حتى ثورتها على الملك البربري "بوغود" كانت في العهد الروماني عاصمة موريطانيا الطنجيّة التي لم تشتمل إلاّ على جزء من شمال المغرب الأقصى . وسواء كانت تحت سلطان البرتغاليين أو الإسبان أو السلاطين أو خاضعة للنظام الدولي الذي لم تزل عليه إلى اليوم فإنّها استمدّت قيمتها من وضعها في مضيق جبل طارق في المكان الذي يتّسع فيه نحو المحيط الأطلسي . فلم تقم بدور عاصمة بقدر ما قامت بدور حارس الخطوط الأمامية بالنسبة للمغرب .

وكان لمدينتين أخريين : فاس ومرّاكش ، تاريخ أكثر إشعاعا . أمّا فاس التي أسّسها إدريس الأول وإدريس الثاني فقد ورثت الدور الذي كانت تقوم به وليلى (Volubilis) ولها فضل أكّده "أ. ف. ڤوتيه" : ففيها الماء الذي تحتاجه المدن الشرقية أيّما احتياج ، هذه المدن التي لايعرف أهلها كيف يجلبون الماء من بعيد ولا كيف يضمنون لمجموعة بشرية ما حاجتهم إلى الشراب . وهذا هو السبب الأصلي في ازدهارها . ولا يزال سكّان فاس إلى اليوم يحمون ثروتهم من أعمال الريّ التي يطالب بها معمّرو "السايس" . ثم إنّه يوجد فيها أيضا موادّ البناء .

وبالتالي ، فموقعها الوعر المساعد على حمايتها يستمدّ قيمته بالخصوص من كونه في مفترق الطرق التي تسيطر عليها وهي الموصلة إلى مرّاكش والرباط وطنجة وممرّ تازة . لذلك كان أسياد فاس هم دائما أسياد المغرب. ولم يتيسّر لأيّة مدينة مغربية أخرى أن تكون جماع الدولة المغربية كما تيسّر لمدينة فاس . لقد كانت في الواقع العاصمة السياسية والفكرية والدينية والاقتصادية . ويبدو مستقبلها التّجارى اليوم لا حدّ له . وعلى بعد 60 كلم من فاس فقط في نفس هذه الجهة المحظوظة أسّس السلطان مولاى إسماعيل في أواخر القرن السابع عشر على أنقاض بلدة عتيقة مدينة مكناس مقرّا جديدا لملكه . وهذه المدينة المسيطرة على مفترق الطرق والغنيّة كجارتها بالعيون ومقاطع الحجارة قد تصبح في المستقبل "قطبَ الرّحى بالنسبة لقطارات المغرب الأقصى" على حدّ تعبير الماريشال ليوتي.

ولئن اتّخذ الشمال مدينة فاس عاصمة له ، فإنّ الجنوب جسّم طموحه وكبرياءه بإنشاء مرّاكش . وهذه المدينة التي أسّسها ابن تاشفين سنة 1 062 لتكون قاعدة تنطلق منها حملات المرابطين رجال الصحراء على البدع التي دخلت الإسلام أصبحت عاصمة للدول التي بسطت نفوذها على أقصى الجنوب المغربي وظلّت ثغر الأطلس الأعلى المتحسّس أصداء الصحراء ، والمستودع الكبير للواحات والجبال . ولا شك أنّ دورها كمركز توزيع سيزداد أهمّية في المستقبل إلى حدّ أن أصبح تموينها اليوم بمثابة فريسة مغرية أخذت موانئ المحيط الأطلسي تتنازعها بعد. وستسيطر على شبكة من الطرق المؤدّية أولاها إلى أغادير مارّة بايمنتقوت وتزي نماشو وثانيتها نحو تارودانت مارّة بالغندافة وتيزنتست ، والثالثة نحو الذراع مارّة بالقلاوة وتزي نوتلوات" (ج سيليريي) وجعل الاحتلال الفرنسي من ميناء الدّار البيضاء ، وهو منفذ للشاوية ومركز تزوّد في طريق إفريقيا الغربية ، العاصمة التجارية للمغرب الأقصى . كما جعل من الرباط التي أفَلَ نجمها بعد ازدهارها في عصر الموحّدين العاصمة الإداريّة ولكنّها بقيت رغم ذلك مدينة "المخزن" الوحيدة المتّصلة بالمحيط .

وقد كان للمغرب الأقصى عاصمتان كبيرتان متطرّفتان ولم تكن له أبدا عاصمة وسطى ، اللهم إلاّ مدينة أوداية الأسطوية والبلدة العظيمة الموجودة في تدلا والتي يروى أنّ المرابطين دمّروها . ولعلّه من الضروري كما بيّنه أ. ف. ڤوتيه (E. F. Gautier) أن تشاد بهذه البقاع في وادي أكبر نهر بالمغرب الأقصى وهو أمّ الربيع ، عاصمة المغرب الأقصى الحقيقية .

3 ـ الجزائر وتونس

إذا أمكن أن نكتب تاريخا للمغرب الأقصى مستقلاّ بذاته فقد لا يمكن فصل الجزائر وتونس بعضهما عن بعض ، وهما قطران لا يوجد بينهما حواجز طبيعية ، وقد خضعا لنفس الضرورات .

وقـد ألحّ أميــل فليكس ڤوتيه (E.F. Gautier) تأكيدا بالغا منذ ما يزيد عن ربع القرن في خصوص التّضارب الظاهر من حيث الظروف التاريخية وأساليب العيش بين الجهتين اللتين يفصلهما ما سمّاه "سلسلة خطّ الدفاع" (Limes) أي القوس الجبلي العظيم الذي يكتنف الجزائر من الورشنيس إلى الأوراس . غير أنّه يتعذّر علينا «والحقّ يقال» أن نذهب مذهبه . ذلك أنّ بحثا أكثر دقّة حول "خطّ الدفــاع" هذا أظهر أنّه لا يطابق الجبال إلاّ في ثلث المسافة على الأكثر . فلا يتصوّر بالأحرى كيف أنّ هذا الخطّ كان في أيّ عصر من عصور التاريخ حدودا قائمة .

ويجب الاستنجـاد بأسباب أخرى لتعليل تضارب صارخ في بعض الأحيـان ، فقـد بيّن «ج ديبوا» (J. Despois) أنّـه بفضل ما توفّره مياه التلّ المتّصل بلا انقطاع من «أومال» إلى القيروان من إمكانيات الري أمكن «لحاشية صحراوية طويلة » أن تفلت من سيطرة الصحراء . فهذه الحاشية التي ترسم في اتّجاه الجنوب حدود الحيـاة الحضرية التي لا نجدها فيما بعد إلاّ في الواحات المحظوظة وما تفرضه خطط الدفاع هو الذي يتحكّم آخر الأمر في تنظيم خطّ الدّفاع المتحدّث عنه بينما لا يعرف البدوي من جهته حدّا يقف عنده في ترحاله إلاّ العقبة الطبيعية التي لا يتمكّن من تذليلها ، ويمكن القول بأنّ انتشار البداوة خلال عصور التاريخ واسعا كان أم محدودا ظاهرة سياسية .

إنّ بلاد البربر عرفت بدون شكّ حياة الحضر منذ العصور الحجرية القديمة . ولا شكّ أيضا في أنّ حياة البداوة ترجع إلى عصور ما قبل التاريخ، فحتى القرن الثاني بعد المسيح على الأقل لم يزل البربر تَتَنَازَعُهم الحياة الفلاحية والحياة الرعوية . فلم تكن المدن طيلة دهور إلاّ فسائل فينيقية غرست في أرض إفريقيا ، ولم تتعدّد مراكز الأهالي مثل "سيرتة" (قسنطينة) إلاّ حينما أجبر ملوك نوميديا البدو على الاستقرار . لكنّ العواصم البربرية رغم أنّها تحمل عنوان ريجيا (Regiae) ليست إلاّ قرى متواضعة إذا هي قورنت بقرطاج التي أسّسها الفينيقيون في أواخر القرن التاسع قبل المسيح في موقع بحري خارق للعادة هيّن الاتّصال

بالساحل والسباسب . ومنذ أن كانت مُسْتَوْدَعا تجاريا إلى أن أصبحت عاصمة رومانية لم يزل إشعاعها متزايدا في ربوع المغرب . والتأثير البونيقي الذي استمرّ قرونا وقرونا لاح خاصّة في تبسة وقالمة وقسنطينة وجهة عنّابة . أمّا تأثير قرطاج الرومانية فإنّه عمّ شيئا فشيئا المغرب كلّه .

وقد أنشأ استعمار الأمبراطورية الرومانية عواصم أخرى إلى جانب قرطاج . ففي نوميديا حيث تحوّل البدو الرحّل والرعاة إلى فلاّحين بفضل سياسة مسينسّا الحازمة ورثت رومة عاصمته سيرتة وهي قلعة رائعة تحميها مَهَاوٍ وَعِرة لكنّها مُتَّصلة اتّصالا يسيرا بموانى نوميديا ومدنها الكبرى . وأسّس هذا الاستعمار أيضا في أواخر القرن الأول بعد المسيح موطن سطيفيس (Sitifis) (سطيف) الذي أصبح بعد قرنين أهمّ مدينة لمقاطعة موريطانيا السطيفية . وقد شيّدت سطيف على سهل فسيح يفصله عن البحر جبل بابور في عصر كانت سطيفيس أوّلا وبالذّات سوقا ومدينة إدارية وفي عصر وضعتها السلم الرومانية في مأمن من الأخطار .

أمّا عاصمة موريطانية فهي عاصمة يوبا الثاني القديمة وتسمّى قيصارية (Caesarea) (شرشال) وكان الميناء المستند إلى جبل خاضع لسيطرة الأهالي متّصلا اتّصالا هيّنا بالمتيجة دون الجهات الغربية والجنوبية، بفضل الوثبة الفنيّة التي مكّنها منها يوبا والإدارة الرومانية . وقد تمتّعت هذه المدينة بهيبة عظيمة طيلة أربعة قرون .

ولم يشعر الونـدال ولا البيزنطيون بضرورة تأسيس مدن أخرى . أمّا الغُزَاةُ العرب فقد أرادوا بالعكس بناء مُعَسْكَر يستعملونه قاعدة لمواصلة غزوهم . فبنوا القيروان من لا شيء في قلب البلاد التونسية بالسباسب بين البحر والجبال . واندثرت قرطاج أثناء المحنة ، لكنّ الحضارة التي كانت تمثّلها بقيت . فبالقرب منها وعلى أنقاض مدينة تونس (Tunés) العتيقة ازدهرت مدينة تونس الجديدة، فعلا شأنها علوّا كبيرا في القرن الثامن بفضل موقعها في نهاية بحيرتها وفي مأمن من الهجومات البحرية.

وقد شاءت الدول التي قد يطول عمرها أو يقصر والتي شغل تساوقها تاريخ المغرب في القرون الوسطى أن تؤسس عواصم خاصة بها تأكيدا لوجودها الذاتي فهي إما أحيت مدينة كانت موجودة من قبل أواختارت مكانا بكرا حيث خططوا ما طاب لهم أن يخططوا . غير أن مصير هذه المدن لم يكن دائما على قدر واحد من الإشراق . فتلمسان مدينة بوماريا (Pomaria) العتيقة التي جددها الأدارسة والمرابطون وعاصمة بني عبد الواد وبني مرين (من القرن الثالث عشر إلى الخامس عشر) والتي ظلت زمنا طويلا أكبر مدينة في الجزائر الغربية تنازلت لفائدة (Présîdio) زعامة وهران القديمة ولم تبق من عاصمتي بني حماد : بجاية والقالة إلا مدينة صغيرة نيطت إلى منحدرات جميلة الموقع بالنسبة للأولى (القرن الحادي عشر) وأطلال متداعية مشرفة على مهواها بالنسبة للثانية وأصبحت تاهرت الرستمية أو الاشير الصنهاجية مجرد ذكريات . ولم تعد المدن تستمد أسباب وجودها وبقائها حيث حدود السباسب أو التل ، فالمركز التجاري البونيقي الذي أصبح فيما بعد ايكوزيوم (Icosium) الرومانية ثم الجزائر العاصمة التركية هو الآن الجزائر الفرنسية أي المدينة الرئيسية لبلاد الجزائر كلها .

4 – تاريخ قبائل

لم تعرف بلاد البربر قط عاصمة قارة نهائية . ولم يتح لها البتة أن تحقق وحدتها حول عاصمة ما . وقد علل الباحثون ذلك بالتجزؤ الجغرافي وصعوبة المواصلات وانعدام الأودية الواصلة بعضها إلى بعض وعدم صلاحية الأنهار ، وعداء البحر ، وقلة الأراضي النافعة . كما عللوه بانعدام مركز طبيعي يفرضه وضعها الجغرافي . ولربما يجب أكثر من ذلك أن نذهب مذهب أ.ف. ڤوتيه الذى يلاحظ سرعة الغزوات وقلة ثباتها في نفس الوقت ، فنحمل المسؤولية على الصراع الدائم بين البدو والحضر الذى لم ينته بفوز واحد على الآخر فإن هذه "الثنائية التي تعذر القضاء عليها" هي التي تعلل في الظاهر كيف أن بلاد البربر كان لها دائما "أسياد أجانب" ، ولعله من الواجب أيضا أن نأخذ بعين الاعتبار أكثر مما اعتاده

الباحثون الخلافات التي تجدّ بين أهل الجبال وأهل السهول ، وهي خلافات يقوّيها بطبيعة الحال تجزّؤ البلاد .

والذي يدرس بلاد المغرب لا يجد ممالك تتّسع شيئا فشيئا إلى أن يعمّ سلطانها البلاد قاطبة ، بل قبائل يوحّدها زعيم جريء تؤسّس ملكا بفضل غزوة جبّارة ، ثمّ تنهار تحت ضربات كتلة أخرى من القبائل . فليست المدينة أو التراب بالمقوّمين للوحدة الأساسيّة إنّما المقوّم هو القبيلة منفردة كانت أو متّحدة مع جاراتها . ولا نعرف عن الحياة الداخلية لهذه القبائل شيئا يذكر ، وأحيانا نجهل حتى وجودها . لذلك ليس شيء أدعى إلى خيبة الظنّ من تاريخ المغرب هذا الخالي من التواريخ المضبوطة والمكتوب بضربات السيوف . ولا مهرب للباحث مهما حاول من الاكتفاء بتاريخ الوقائع الحربية بسبب فقدان الوثائق . وإذن فهو معذور على غرار الشيخ سيلان إذا هو ترك إلى حدّما العنان لحماره عندما اعترضته شوارع جديدة . ولم يتمخّض عن أحلاف القبائل شيء دائم بالرغم عن أنّ بعض الملوك الأصيلين كانوا مرموقين . والحال أنّ الأهالي كانوا يعلمون أنّهم شعب واحد بما أنّهم يطلقون على أنفسهم اسما واحدا ، وكاد البربر في مرتين اثنتين أن يحقّقوا بوسائلهم الخاصّة وحدة المغرب : الأولى في عهد العاهل (أغليد) مسينسّا في القرن الثاني قبل المسيح، والثانية في عهد الدولة الصنهاجية في القرن الحادي عشر بعد المسيح . وأخفقت هاتان التجربتان بمشيئة رومة الاستعمارية وبسبب زحف بني هلال . فاستنتج الباحثون من ذلك أنّ نجاح الوحدة مستحيل والحال أنّ البربريّ أبعد من أن يمثّل نموذجا بشريا منقوصا ، بل إنّه أكثر من ذلك برز في شخصيات ممتازة ولكنّ بعضهم أكّد أنّ هذا "الجنس المتمتّع بحيويّة لا تنضب ليست له شخصية إيجابية" وأنّه يكتفي حتى في أبسط الأشياء بدور "الظلّ الأبدي" وأنّ المشكلة التاريخية ترجع إلى معرفة كيف "أنّ الخيبة المطلقة كانت نتيجة لتسلسل خيبات محدودة" (أ.ف. قوتية)

لقد رأينا أنّ البربريّ لم يصب بنقص جنسي ، ولكنّ لعنة جغرافية نزلت عليه . لقد كتب أ.ف. قوتيه في قوّته المعهودة : «إنّ مدنية مستقلّة

بذاتها وفنّا وأدبا وحتى لغة وشعبا شاعرا بوجوده ودولة منظّمة هذه كلّها كماليات باهضة جدّا رأسمالية ، والمغرب لم يستطع قطّ التحصيل عليها بمفرده . فهذه البلاد الصغيرة لم يكن لها الجهاز المادّي الضروري لتقيم البنيان الاجتماعي والسياسي الذي هو أساس كلّ مدنيّة .»

ليكن ذلك . لكن هل يجب أن نستنتج من خيبة المحاولات حتمية الخيبة، وفي هذه الحالة ألا يؤول بنا الأمر إلى أن نُدين كلّ احتلال أجنبي مآله المنطقي كارثة على غرار كلّ احتلال قبله ؟ وما كانت تكون سياسة مسينسّا والملوك الذين تولّوا الحكم بعده لو أنّهم استطاعوا أن يحافظوا على علاقات سلمية مع عالم البحر المتوسّط ولم يصطدموا بالاستعمار الروماني ، واحتفظوا بكامل طاقتهم لتنظيم المغرب ؟ ولئن كانت بلاد البربر في حاجة إلى الاتّصال ببلدان أخرى فقد لا يكون من الضروري أن نستنتج أنّ خضوعها كان أمرا طبيعيا . ويظهر أنّ في تكرار ذلك أكثر من اللاّزم محاولة لتبرير وضعية تعود علينا بالفائدة تبريرا علميا ، فيجب أن نحذر مغبّة نظرة ميتافيزيقية إلى التاريخ قد تبدو منسجمة انسجاما سهلا جدّا مع الواقعية السياسية . فإنّ الكثير من الأحكام غير القابلة للتعقيب على فلاّحي روسيا أو الأتراك أو الصينيّين أو الهنود امتحنتها الأحداث أيّما امتحان . فعلى المؤرّخ إذن أن يجتنب الاستنتاجات النهائية، وأن يكتفي بتسجيل القليل الذي نعرفه عن ماضي بلاد البربر ، وذلك من غير أفكار قبلية ومع الحرص على طرح المشاكل على الأقل ، إذا تعذّر حلّها .

الباب الثاني

عصور ما قبل التاريخ

1 - مشاكل ومعطيات . 2 - تطور عصور ما قبل التاريخ
في بلاد البربر . 3 - الصخور المنقوشة

I ـ مشـــاكـل ومعطيـات

1 ـ مشاكل ما قبـل تاريخ إفريقيا الشماليـة

إنّ مؤرّخ عصور ما قبل التاريخ إذا رام دراسة إفريقيا الشمالية وجد نفسه أمام مشكلين أساسيين تتفرّع عنهما في آخر الأمر جميع المشاكل الأخرى . فعليه أوّلا أن ينسّق ويوفّق بين المعطيات المتنافرة التي يمدّه بها علم طبقات الأرض (جيولوجيا) وعلم الحفريات القديمة (بلنتلوجيا) وعلم وصف الإنسان (أنتروبولوجيا) وعلم الآثار . وعليه ثانيا أن يربط بين النتائج التي انتهى إليها وبين ما وصل إليه علم ما قبل التاريخ من معلومات بالنسبة لاوروبا وإفريقيا والشرق المتوسّطي . وبعبارة أخرى فإنّ عمله يقتضي ضبط تواريخ نسبية للمعالم التي خلّفها الإنسان الأوّل ومقارنتها بالتواريخ التي حدّد ج. دي موريتيي أصولها سنة 1869 بواسطة تصنيف النماذج الصناعية وقد عدّلت منه طبعا الاكتشافات التي تمّت بعد ذلك التاريخ تعديلات ملموسة .

والعناصر التي يستمدّها علم ما قبل التاريخ من العلوم التي يضطرّ إلى تسخيرها لحاجاته لا تؤلّف من سوء الحظّ مجموعة متماسكة من حقائق قارة غير مقدوح فيها.ومن شأن الاكتشافات الجديدة أن تنقض دائما النظريات السابقة لأوانها حتما والتي ينتهي إليها الباحث بطبيعة بحثه . ورغم ذلك فإنّ الاختصاصيين لا يتّفقون عادة على نسق واحد وإن كان

وقتيا . ومعنى هذا أنّ مؤرّخ عصور ما قبل التاريخ يقيم بناءه الضعيف على أرض لا استقرار لها ـ مَثَلُه كمَثَل منازل اليابان يهدّدها الزلزال دائما.

فإذا كانت هذه هي ظروف البحث بالنسبة لعلم ما قبل التاريخ ، فإنّه من اليسير أن نعرف أسباب التضارب الموجود في كثير من الأحيان بين شتّى الافتراضات التي ينتهي إليها هذا العلم . ويتعذّر اليوم كما تعذّر سنة 1930 أن نقرّر نتائج نهائية في هذا الباب . لذا سنكتفي ، كما فعلنا منذ عشرين سنة ، بضبط الحدّ الذي وصلت إليه المناقشات . إلاّ أنّ الحلول الحالية قد تكون أثبت من سابقاتها . وهذا ناتج أوّلا عن أنّنا واصلنا بحوثنا منذ عشرين سنة بإفريقيا الشمالية وخاصّة بالمغرب الأقصى ، وثانيا عن أنّنا اجتنبنا زيادة في التحرّي محاولة ربط عصر ما قبل تاريخ بلاد البربر ببقية العالم بصلات تبيّن ضعفها كم من مرّة . لذلك سيجد القارىء في هذا الكتاب مجموعة من المعلومات هي تحليلية أكثر منها تأليفية .

ويبدو أنّ المظهر الجغرافي للبلاد لم يتغيّر تغيّرا محسوسا منذ أن دخلت بلاد البربر في التاريخ أي منذ أواخر الألف الثانية قبل المسيح تقريبا وقد استمرّ بطبيعة الحال التأثير اليومي للانجراف والترسّب معا ، في سرعة غير مشعور بها ، ولكنّه لم يغيّر إلاّ القليل من مظهر الأرض هنا وهناك ، كما وقع في مصبّ نهر السيبوز ومصبّ نهر مجردة . أمّا الحجج التي تزعم إثبات تغيّرات مستوى البحر في عصور التاريخ فقد أقيم الدليل على أنّها مجرّد خيالات .

وفي الواقع لم يتغيّر المناخ هو أيضا وربّما كان أكثر رطوبة ممّا هو عليه اليوم بسبب تضاؤل النبات ـ نقول ربّما ، وفي الواقع لم تقم حجّة جديدة ضدّ نتائج بحوث ستيفان قزال St Gsell المؤيّدة لاستقرار مناخ إفريقيا الشمالية منذ 3 000 سنة على الأقل .

أمّا في عصور ما قبل التّاريخ ، فقد كانت بلاد البربر تختلف عمّا هي عليه اليوم اختلافا يقوى كلّما اقتربنا من أوائل تلك العصور . فالإنسان الأوّل الذي ظهر في إفريقيا الشمالية ، أي أقدم إنسان عثر على

أثر له إلى هذا اليوم ، عاش منذ ثلاثمائة أو أربعمائة ألف سنة تقريبا . والثلاثون أو الأربعون قرنا التي يذكرها إنسان هذا العصر بصورة تتفاوت وضوحا تبدو متواضعة للغاية بالنسبة إلى ماضي البشريات المتعاقبة المدهش . إلاّ أنّ نفس المنظر الطبيعي لم يزل يشاهد أطوارها المختلفة . أمّا في عصور ما قبل التاريخ فإنّ المدنيّات هي التي تبدو بالعكس قارّة بالنسبة للطبيعة المتبدّلة . والبشر الذين نجد آثارهم في الأحافير (fossiles) تأمّلوا مناظر طبيعية تختلف عمّا نراه اليوم . ومظاهر التضاريس وخاصّة السواحل لا تماثل ما نجده اليوم . والمناخ خاصّة وبالتابع المياه والنبات والحيوان المتأثّر بأحوال المناخ جميعها لم تكن على ما أصبحت عليه اليوم . فالذي ينتظره مؤرّخ ما قبل التاريخ من الاختصاصيّين الآخرين هو في آخر الأمر أن يمكّنوه من ربط مصير الأجناس المنقرضة بتقلّبات العوالم الميتة . فإلى أيّ حدّ يكون هذا ممكنا الآن ؟

2 ــ معطيات الجيولوجيا

إنّ علم طبقات الصخور الخاصّ بالحقبة الرباعية البحرية وهو المرجع الوحيد لمؤرّخ ما قبل التاريخ في دراسته لإفريقيا الشمالية يعتمد في خطوطه الكبرى على التصنيف الذي وضعه ش . ديبري (Ch. Deperet) منذ ما يقرب من ثلاثين سنة . ويقوم هذا التصنيف على وجود شواطىء متحجّرة في مواضع مختلفة من البحر المتوسّط ، ويكتشف الباحث هذه الشواطىء في مستويات معيّنة أو يزعم أنّها معيّنة ويجد فيها بقايا حيوانات متماثلة . أمّا اختلاف هذه المستويات فيعزى إلى حركات استاتيكيّة (Eustatique) ناتجة عن ظواهر التجلّد والذوبان . وكاد الباحثون أن يجمعوا على التناسب الآتي :

1 ــ الصقلي (90 ــ 100 م) يناسب آخر عصور ما قبل الجليدي

2 ــ ميلازي (55 ــ 60 م) يناسب عصر ما بين الجليدي قونز (؟) مندال

3 ــ التيريني (28 ــ 30 م) يناسب عصر ما بين الجليدي مندال ــ ريس

4 ــ المنستيري أو قريملدي (15 ــ 20 م) يناسب عصر ما بين الجليدي ريس ــ ورم

5 ـ والعصر الحالي ما بعد الورميني أو ما بعد الفلاندري بحسب رجوعنا إلى التجلّد الأخير أو الفيضان البحري الذي تبعه .

لكنّ هذا التخطيط الذي يرتاح إليه الفكر أيّما ارتياح لم يلاق من سوء الحظّ إجماع علماء الجيولوجيا ، بل يمكن القول بأنّ أغلبهم يرفضونه اليوم . ففريق يأبَى أن يُقرّ الترابط المشار إليه آنفا بين مختلف المستويات المميِّزة للساحل المتوسّطي وبين عصور ما بين الجليديّ ، خاصّة وأنّ التجلّد الذي قرّره قونز مشكوك في صحّته عند الكثيرين ، وفريق آخر أشدّ احترازا من الأوّل لا يكتفي بمهاجمة نتائج بحوث ش. ديبري وأتباعه فحسب ، بل ينتقد الملاحظات التي تعتمد عليها هذه النتائج . وحتى الذين يقبلون التخطيط جملة فإنّهم يعترفون بأنّه يوجد فيه بعض المتناقضات التي كثيرا ما تنال من مدلوله العام . فكيف يمكن لعلم ما قبل التاريخ أن يقرّر ، على أسس مشكوك فيها إلى هذا الحدّ ، تواريخ نسبية لم يقدح أحد من قبل في صحّتها ؟ وبالإضافة إلى ذلك فمن الواجب أن نؤكّد أنّ علم الجيولوجيا تنتهي مهمّته المتواضعة أو تكاد حينما نصل إلى العصر الحجري القديم .

وتصنيف ش. دي بيري ـ وإن أصبح مجرّد افتراض للبحث بصورة وقتية على الأقل ـ فإنّه إطار مناسب يمكن أن نسجّل فيه المعطيات الخاصّة بالعصر الحجري القديم أو المعطيات الأثرية على أساس أنّها مجرّد إمكانيات . وترجع أقدم آثار للإنسان في المغرب الأقصى في الحدّ الذي بلغته معلوماتنا ، إلى عصر ما بعد الصقليّ وما قبل الميلازي حسب نظريّة أبداها أ. نوفيل وأ. رولمان وتبنّاها الأب ه. بروي . أمّا في الجزائر فإن بعض المعالم يجب إرجاعها حتّى إلى الفيلافرانشي حسب الاكتشافات الحديثة التي قام بها س. أرمبورغ في عيق الحناش بجهة سطيف . إلاّ أنّ الإجماع لم يحصل حول هذه النقطة أيضا وبقي باب المناقشة مفتوحا بين أنصار التواريخ "المحدودة" أي الذين يجعلون أوائل العصر الحجري القديم في ما بين الجليدي ريس ـ ورم وأنصار التواريخ "الممتدّة" الذين يجعلونها في عصر ما بين الجليدي قونز ـ مندال.

وحتّى لو ذهبنا مذهب أ. رولمان في تناسب "الكلاكتو – أبيفلي" مع عصر ما بين الجليدي "قونز ميندال" و"الابيفيلي" (شيلي) مع عصر ما بين الجليدي "مندال – ريس" والآشولي وهو معاصر تقريبا للموستيري السفلي" ويناسب عصر ما بين الجليدي "ريس – ورم" فإنّ ذلك لا يعني أنّ هذا التناسب يصحّ على إفريقيا الشماليّة كلّها . فلم يتيسّر ضبط طبقات الصخور إلاّ بفضل ما اكتشف في مقطع سيدي عبد الرحمان بالقرب من الدار البيضاء – إلاّ أنّ أسس هذا الضبط نفسها مشكوك فيها كما سبق أن أسلفنا. والذي تمتاز به بلاد البربر هو "التفوّق المطلق" لمراكز السطح التي توجد فيها معالم ما قبل عصور التاريخ ...

3 – معطيات علم العصر الحجري القديم (باليونتولوجيا)

بالرّغم من أنّ معطيات البلينتولوجيا أقلّ فائدة فيما يتعلق بضبط التواريخ من معطيات الجيلوجيا فإنّها تمتاز بأنّها أصحّ . وهناك أمر رئيسي يبدو ثابتا هو استمرار نوع واحد من الحيوان في إفريقيا الشمالية طيلة غالب الحقبة الرباعية – وهو نوع من حيوان البلدان الحارّة الرطبة له خصائص النوع "التشادي – الزمبيزي" . والأجناس التي تدلّ على وجودها أحافيرها (fossiles) المخلوطة بآلات العصر الحجري القديم هي الفيل (Elephas atlanticus) وفرس البحر (hippopotamus amphibus) والكركدن (rhinocéros simus) والبقريات ، والزرافات والظباء والنعام ولم يعثر على الأيّلات والحيوانات اللبونة آكلة اللحوم إلاّ ابتداء من العصر الحجري المتوسّط (موستيري) وهي أجناس نزحت من الشمال وأعطت الحيوان في المغرب صفة الاختلاط فهو حيوان إفريقي أوروبي آسيوي في نفس الوقت ، ولكنّ دخول هذه الأجناس الأوربية التي دفعها إلى الجنوب تفاقم المناخ الناتج عن أحد التجلّدات (قد يكون تجلّد "ريس") لم يستمرّ بعد العصر الحجري المتوسّط بسبب انفصال إفريقيا عن أوروبا .

وهذا الانفصال مضافا إلى تناقص تبادل الحيوان مع جهات إفريقيا المدارية والاستوائية إلى حدّ التوقّف عند انتصاب الحاجز الصحراوي هو

الذي سيعطي حيوان إفريقيا الشمالية صفة الحيوان "المنعزل" "المتبقّي" .
وإنّ هذه الميزة تظهر منذ العصر الحجرى القديم وهذا النوع من الحيوان سيتطوّر شيئا فشيئا من نوع الحقبة الرباعية إلى النوع الحالي وذلك باضمحلال بعض الأجناس (س آرمبورغ) . وتنحصر أجناس الحيوان الجديد التي ظهرت فيما بعد في بعض الحيوانات الآهلة كالحصان في الألف الثانية ، والجمل قبيل حقبتنا على أغلب الظنّ . أمّا زوال بعض الأجناس فيظهر أنّه كان من عمل الإنسان وحده . فعمليات الصيد الكبرى فى عصور ما قبل التاريخ وحاجات الجيوش القرطاجية ومتطلّبات الملاهى الرومانية خاصّة تبيّن بيانا كافيا لماذا لم يبق هذا الجنس أو ذاك إلى يومنا هذا . ومنذ القرون الأولى من حقبتنا أصبح الفيل مجرّد ذكرى . أمّا النعام فقد تبقّى حتّى القرن السابق فى جهة "داياس" ولم ينقرض آخر أسد من أرض يوبا إلاّ فى نفس العهد وقد قال هوراس:

« Léonum arida nutrix (Horace, ode I, 22, 15-16) »

وإنّ تشابه شكل الحيوان فى الحقبة الرباعية من جهة، وخصائصه المكوّنة من جهة أخرى تسمح للباحث بأن يقرّر أنّ المناخ بقى حارّا رطبا حتى العصر الحجرى القديم الأعلى على الأقل . وممّا لا شكّ فيه أنّ هذا المناخ لم يكن متشابها دائما . وقد تكون أغزر الفترات أمطارا قابلت مختلف فترات التجلّد . إلاّ أنّ تواضع ظواهر التجلّد فى أطلس المغرب الأقصى – وهى الجهة الوحيدة من بلاد البربر التى لوحظ فيها هذا الأمر – يكفى لإقامة الدليل على أنّ المناخ في نفس هذه المدّة لم يكن شديد البرودة . ويجب من جهة أخرى ألاّ نتصوّر بلاد المغرب في عصور ما قبل التاريخ على نحو ما نرى الكنغو اليوم مثلا . وإذا كانت مياه وديان الحقبة الرباعية ، وخاصّة وديان الصحراء ، أغزر بكثير ممّا هي عليه الآن فإنّه من المستبعد جدّا أن خضعت هذه الوديان لظاهرة التناوب بين غزارة المياه وجفافها أو على الأقلّ قلّتها المفرطة . ولم يتطوّر المناخ نحو الجفاف إلاّ فى عصر ما بعد المنستيرى أو إذا أردنا العصر العتيرى . والدراسات التي تناولت فحوم أحافير الحقب الأولى في جهة تبسّة أظهرت أنّ العصر القفصي الأعلى تطوّر في كنف مناخ شبيه بمناخنا شبها كبيرا . وشأن النبات كشأن الحيوان فهو يتغيّر



الشكل : 3 - اهم مواطن ما قبل التاريخ الموجودة بافريقيا الشمالية .

بعمل الإنسان لا بتأثير الطبيعة . فتعمّدُ قلع الأشجار وتوسيع مناطق الزراعة وكذلك نموّ الحياة الراعوية كلّها أسباب أساسية لانجراد بلاد المغرب .

4 — معطيات الانتروبولوجيا

يحسن أن نقف عند أحد أنواع الحيوان أعني الإنسان . ولا يوجد إلى اليوم أيَّة وثيقة أنتربولوجية يمكن معها رفعُ جهلنا للإنسان الأول الذي عاش على أديم إفريقيا الشمالية، وآلاته وحدها هي التي دلَّت على وجوده ، إلاّ أنّ بعض الاكتشافات الحديثة ألقت أضواء بالغة الأهمّية على البشرية التي كانت تعيش في المغرب الأقصى الحالي أثناء العصر الحجري المتوسّط . ولندرس أوّلا إنسان الرباط ، فبالرّغم عن أنّ الأجزاء المكتشفة سنة 1933 لا تتعدّى في الواقع قسما من الفكّ العلوي مع القسم الأمامي من الفكّ السفلي ، فإنّها تسمح بأن نؤكّد أنّنا أمام شاب صغير (عمره 16 سنة تقريبا) له خصائص جنس عريق في البدائية . ويجب أن نضع إنسان الرباط بالنسبة إلى تطوّر الجنس البشري مع إنسان نياندرتال (Néanderthal) إن لم يكن أقدم منه باعتبار بعض الخصائص التشريحية التي تقرّبه من السيننتروب (Sinanthrope) . ورغم أنّ علماء الجيولوجيا لم يتّفقوا على سنّ الحجارة الرملية التي وجدت فيها هذه الأجزاء فإنّه يبدو من الجائز أن نعتقد أنّ إنسان الرباط معاصر للموستيري وربّما كان أقدم منه — وأنّ نفس الخصائص النياندرتالية ونفس دلائل البدائية هي التي نجدها في البقايا البشرية المكتشفة منذ سنة 1939 بطنجة (في مغارة العالية على بعد 13 كم في الجنوب الغربي من هذه المدينة) . وأنّ الحفريات التي لا تزال متواصلة لا تسمح إلى حدّ الآن بأن نستنتج بوثوق الدور المضبوط الذي يجب إسناده إلى هذه الآثار في علم الطبقات بالنسبة إلى العصر الحجري المتوسّط . إلاّ أنّه يبدو أنّ سنّها لا يزيد كثيرا عن سنّ إنسان الرباط .

فوجود جنس النياندرتاليين أو جنس شبيه به على الأقلّ في إفريقيا الشمالية أصبح اليوم أمرا ثابتا ، لكن بالنسبة للجزء الغربي من البلاد

فقط لحدّ الآن . ويجب أن نلاحظ أيضا أنّنـا لا نعرف شيئا عن أصل هذا الجنس ولا عن مصيره بعد العصر الحجري المتوسّط ، فالحلقـة المفقـودة من الوجهـة الانتـروبولوجيـة هي بين العصر الحجـري المتوسّط والعصر الحجري الأعلى . ويطلـق عامّة على إنسان العصر الحجـري الأعلى اسم إنسان مشتى العربي ، وهو اسم "المحلزة" (Escargotière) القريبـة من شاتودان دي رومـل (قسنطينيـة) التي اكتشفهـا ج. مرسيي سنة 1907 . وقد تعـدّدت الاكتشافـات منذ هذا التاريخ خاصّـة في مقاطعـة قسنطينة ، وأهمـهـا من دون شكّ تلك التي وفّق إليها س. أرمبورغ في مغارة "أفالوبـو رمال" على بعد 30 كلم شرقي بجاية . والحفريات التي أنجزت بين سنة 1927 و 1930 كشفت معظمـة بأتمّ معنى الكلمـة ، ومكّنت الباحثين من أن يدرسوا ما يقرب من ثلاثين نموذجا عثـر عليهـا في ظروف ينتفي معهـا الشكّ من حيث علم طبقـات الصخـور . وهي نماذج إنسان مديـد القامة (معدل متر و72) مستطيـل الرأس أو متوسّطـه ، طويـل الأعضاء ، خشن الوجـه بهيمي السحنـة وخاصيتـه الرئيسية أنّ جميع نماذجه المعروفة قد قلعـت القواطع من أسنانهـا .

ويبدو أنّ هذا الجنس عاش في إفريقيا الشمالية كلّـهـا ، لأنّ آثارا له قد اكتشفت في الواجهـة الأطلسيـة من المغرب الأقصى (دار السلطـان بالقرب من الرباط) . وخلافا لما كان يظنّ من قبل فإنّ هذا الجنـس لا يرتبـط فقط بإنسـان نياندرتـال ، بل بالإنســـان العاقـل (homo sapiens) . وبصورة أدقّ فإنّ إنسـان مشتى العربي يذكّرنـا بجنـس "كرومـانيـون" (Cro-Magnon) . ونمـاذج هـذا الإنسـان ليست من جنـس واحد ولـكنّـها تنحـدر من فرع واحد أصلـه من القسم الشرقي من البحـر المتوسّـط (بول فالوا) وهذا النموذج البشري الذي انتشـر في عصر المحلزات (Escargotières) دام إلى ما بعـد العصر الحجـري الأعلى وحتى إلى العصر الحجـري الحديث المنتسب إلى القفصي إذا اعتبرنـا أنّ الغونـش القدماء سكّـان جزر الكناري عاشوا في هذا العصر كما ذهب إلى ذلك ر. فيرنـو . أمّـا فيمـا يخصّ الآثار التي قد يكـون خلّـفهـا هذا النمـوذج البشـري في السكان البربـر فإنّ ما انتهـت إليه البحـوث الأنتـروبولوجيـة في إفريقيـا الشماليـة لا يسمـح بأيّ افتـراض جدّي في شأنهـا . وكذلك لا نعرف شيئا كثيرا عن وجود

عناصر زنجيَّة في عصور ما قبل التاريخ ببلاد البربر . وإذا سلَّمنا كما يراه البعض بأنّ جنس قريمالدي (موستيري) أصله إفريقي فإنَّنا نجهل هل هو انتقل إلى أوروبا من المغرب أم لا إذ لم يعثر إلى يومنا هذا على ما يشهد بوجوده في هذه البلاد . وأقصى ما يمكن أن نذهب إليه هو أن نتساءل : هل يمكن لإنسان "أسلار" الذي اكتشف هيكله سنة 1927 في وادي أحَد رَوَافد النيجر وهو التلمسي وله وجوه شبه كبيرة بإنسان قريمالدي وبالسكَّان الحاليين لإفريقيا الجنوبية، أن يدفعنا إلى الاعتقاد بأنّ السود تجاوزوا «منذ العصر الحجري المتوسّط وربَّما العصر الحجرى الأعلى» الحدود الشمالية للغابات الكبيرة . غير أنَّه يجب أن نلاحظ أنّ بعض الهياكل العظمية المكتشفة في بلاد البربر لها خصائص زنجية لا يمكن دحضها .

5 — معطيات علم الآثار

وإذا مكَّنتنا الجيولوجيا والبلينتولوجيا من تصوّر الوسط الذى كان يعيش فيه إنسان ما قبل التاريخ ومكنتنا الانتروبولوجيا كذلك من تصوّر هذا الإنسان نفسه فإنّ الأدوات التي تركها وما يتبعها من أمتعة هي التي تلقي بعض الأضواء على مدنيَّته . ومن سوء الحظّ فإنّ علم آثار ما قبل التاريخ يخضع لظاهرة بعيدة الأثر من حيث نتائج البحث وهي أنّ غالب مراكز التنقيب سطحية ومعنى ذلك أنّ معطيات علم الآثار لا ترتكز بصفة عامَّة على علم طبقات الصخور . وهذا ما يعطي قيمة كبيرة للملاحظات التي يمكن تسجيلها في الحالات التي تسمح فيها التوبو غرافيا بتنضيد المستويات المتتابعة . ويدلّ على ضعف التواريخ التي لا تعتمد إلاّ على التشابه التيبولوجي . فإذا ذكرنا «الشيلي» و«الاشولي» و « الموستيرى » في إفريقيا ، فلا يعني ذلك أكثر من أنّ وجوه شبه فنيَّة تسمح بالمقاربة بين أدوات افريقيا الشمالية والأدوات الأوروبية المنسوبة إلى هذا الصنف . ولكن لا سبيل إلى استنتاج أيّ شيء يتعلَّق بأصل هذه الصناعات أو بتواريخها ولم تسفر المجهودات التي بذلها ر. نوفي وأ. رهمان للمقابلة بين العصر الحجري القديم في المغرب الأقصى ،

والعصر الحجري القديم في أوروبا الغربية حسب تصنيف الأب بروي ، إلى أيّ نتيجة ثابتة .

وكذلك لا شيء يسمح إلى حدّ الآن باعتبار الصناعات المتماثلة أو المتشابهة المعثور عليها في تُراب إفريقيا الشمالية متعاصرة . فقد تكون بعض الصناعات قد ثبتت بعد ظهور صناعة أخرى تلتها . وهكذا تدلّ الحفريات الأمريكية في طنجة على أنّه يوجد في نفس المستوى عدد يكاد يكون متساويا من الشظايا الراجعة إلى العصر "اللفلوازي" ومن الأسنان الراجعة إلى العصر الموستيري . ويظهر أنّ مدنيّة العصر النيوليتي دامت في بعض جهات من بلاد البربر إلى أوج الحقبة التاريخية ، وحتى إلى العهد الروماني ، إذا اعتبرنا بعض الخصائص كبناء المصاطب مثلا ويذهب بعض مؤرّخي ما قبل التاريخ إلى الاعتقاد بأنّ الصناعات الموجودة في إفريقيا الشمالية يمكن أن يكون غالبها صناعات متأخرة .

وليس من الصعب ضبط تواريخ الأدوات ضبطا نسبيا فحسب ، بل كذلك معرفة تتابعها . فقد تكون الصناعات مجتمعة في جهة ومتفرّقة في جهة أخرى . وما نلاحظه من نقص أو شذوذ ليس إلاّ نتيجة لتسرّع في ضبط طبقات الصخور . وهكذا فقد تمكّن م. ريقاس من أن ينسب الأدوات المُذَنَّبَة (pédonculées) إلى العصر " العتيري" أي العصر الحجري المتوسّط ، بينما نسبها ب . بلاري إلى العصر النيوليتي (بربري) أي أنّه أمكنه أن يصل بين مستويين أثريين متتابعين . ويتّضح ممّا سبق لماذا اضطر مؤرّخو ما قبل التاريخ إلى استعمال ألفاظ مضطربة . والذي يجب اجتنابه هو أن يدلّ اسم واحد على مجموعة صناعات قد تكون متشابهة ، لكن لا تتجاوز علاقاتها مجرّد الشبه . ومن ذلك تعدّدت الوجوه تعدّدا غير مُوَفَّق في بعض الأحيان خاصّة أنّ بعض الأسماء قد تدلّ على نفس المسمّى فليس وهراني ه.،بروي ور. فوفري سوى الموريسكي — الإسباني المنسوب لب. بلاري ، ولو سمّى "موبي" لكان ذلك أفضل ."وقفصي ج. مورغان "حلّ محلّ "جيتولي ب. بلاري" وإن لم يختلف عنه قطّ . والذي يؤسف له هو وجود أسماء متولّدة عن

نظريات خيالية في بعض الأحيان ومن ذلك أنّ لفظة "موركي إسباني" كان يقصد منها تأكيد بعض العلاقات الأثرية بين غربي بلاد البربر وإسبانيا. ولكنّه ثبت منذ ذلك الوقت أنّ هذه العلاقات ضرب من الأوهام. وإذا عقّد هذا الاضطراب مهمّة الاختصاصيين فإنّه يجعل مهمّة الذين يمهّدون إلى دراسة ما قبل تاريخ إفريقيا الشمالية أشدّ دقّة. وكم نرجو أن يتمّ الاتّفاق بين الاختصاصيين لا على الأسماء نفسها. إذ نكون بذلك كلّفناهم أكثر ممّا يطيقون. بل في الأقل على المبادي التي تعتمد في تسمية مختلف الصناعات.

II ـ تطور عصور ما قبل التاريخ في بلاد البربر

1 ـ العصر الحجري الأدنى والمتوسّط

لقد ثبت أنّه يوجد في إفريقيا الشمالية أدوات تماثل في فنونها وأشكالها الصناعات التي تعرف في أوروبا بالأسماء المألوفة الآتية: الشيلي والأشولي (بالنسبة للعصر الحجري الأدنى) والموستيري (بالنسبة للعصر الحجري المتوسّط). وإذا استثنينا آثار ما قبل العصر الحجري القديم (éolithes) المنسوبة لشتمة (قرب بسكرة) وقفصة، فإنّ أقدم آثار للعمل البشري هي في الوقت الحاضر ما اكتشفه س. أرمبورغ سنة 1948 بالقرب من سطيف، أي ما يقرب من أربعين كرة حجريّة ذات جوانب منحوتة. ويلي ذلك الرحماني وهو اسم أطلقه ر. نوفيل وأ. روهـمان على مجموعة الأدوات المكتشفة بمقطع سيدي عبد الرحمان بالقرب من الدار البيضاء. وهي أدوات توجد من حيث طبقات الصخور في أعلى الرواسب البحرية المنسوبة إلى العصر الصقلّي، والمتشابهة خصائصها مع خصائص مجموعة الأدوات المنسوبة للعصر الكلكتوني أو الابفيلي أي الشيلي. وتعتبر مناجم المغرب الأقصى مواطن البحث عن العصر الحجري القديم الشمال الافريقي لأهمّيتها في علم طبقات الصخور، لكن من دون أن تنسينا المراكز المكتشفة قبلها وخاصّة مركز بحيرة القرار بشمال تلمسان الذي يستمد أهمّيته من وجود حيوان المناطق الحارّة

الفيل الأطلسي (éléphas atlanticus) والكركدن الموريطاني (rhinoceros mauritanius) وفرس البحر (hippopotamus amphibus) ومن صناعة منتسبة إلى العصر الاشولي في آن واحد .

لقد كان يظنّ بعض الباحثين مثل ج. مورغان وب. بالاري أنّ الشيلي والاشولي والموستيري تكوّن صناعات ثلاثا "لا تمحى روابطها" وفعلا فقد اكتشفت في جهة قفصة آلات منتسبة لهذه النماذج الثلاثة المختلط بعضها ببعض . وفي مقطع "مارتان" بالقرب من الدار البيضاء نجد الشيلي والآشولي مجتمعين كذلك . وبات من المسلّم به اليوم أنّ هذه الصناعات الثلاث ليست معاصرة بعضها لبعض ، ولكنّها تتابعت على النحو الذي توالت فيه بأوربا . فالاشولي يبدو مرحلة متطوّرة عقبت الشيلي . وفي كلتا الصناعتين نجد أنّ "الدبوس" هو الآلة الأكثر دلالة على ذلك العصر ، لكنّ أشكالها البدائية في أوّل الأمر كانت تحسّنت شيئا فشيئا من جهة ، وتنوّعت من جهة أخرى ، طيلة العصر الاشولي وحلّ ر. فوفري على ما يظهر المشكل المطروح من سنة 1887 بعد التنقيبات التي قام بها م. كلينيون في جهة قفصة فأثبت أنّ اهتزازا تكتونيا هو السبب في تضارب الموستيري والآشولي .

ويظهر أنّ "الموستيري" المتأخّر عن "الاشولي" بفترة قد تكون طويلة لم يتفرّع عن المصنوعات ذات الوجهين التي كان متوجّها لها بل تفرّع عن نموذج صناعي يختلف اختلافا كبيرا عن المصنوعات المسمّاة بذات الشظايا وقد أطلق عليها اسم الفلاّوزية : (Le valloisien) وأهمّ خصائص هذه الأدوات "الموستيرية" كالأدوات الحادّة والمكاشط تكمن أوّلا وبالذات في فنّ نحتها وفي مدى حرص أصحابها على فن التشذيب .

ويظهر أنّ النماذج الموستيرية تطوّرت إلى أشكال مذنّبة (pédonculées) هي من خصائص "عتيري م. ريقاس" (Reygasse) (وهو اسم أخذ من مركز بير العتير في بلاد النمامشة بالجنوب الغربي من مقاطعة قسنطينة) والظاهر أنّها هي نفسها تطوّرت في الصحراء

بدون واسطة إلى أن أصبحت مصنوعات للعصر النيولوتي . لكنّه يجدر أن نلاحظ أنّ الموستيري لم يتبع بصفة منتظمة الاشولي الذي يبدو أنّه تطوّر في ظروف غامضة جدّا إلى صناعة سمّاها م. ريقاس السبيخي (نسبة إلى برج السبيخة بجبل دراميس في الجنوب الشرقي من مقاطعة قسنطينة) وهذه المصنوعات المتجسمة في أدوات حادّة على شكل أوراق الشجر والشبيهة بالأشكال السولوترية (solutréenne) قد تكون هي الحدّ الذي انتهت إليه المصنوعات ذات الوجهين بإفريقيا الشمالية .

وبدهي أنّنا لا ندّعي في هذه اللمحة تلخيص الآراء التي أجمع عليها مؤرّخو ما قبل التاريخ تلخيصا أمينا . إنّما حرصنا على تضمين ما اتّفقوا عليه أكثر من تضمين ما اختلفوا فيه . فعندما ننظر في المشكل الرئيسي ، وهو مدى هذا التطوّر في الزمان يتعذّر الظفر بأغلبيّة يمكن الاطمئنان إليها . فالهوّة سحيقة بين الذين يرون مع الأب ه. بروي (H. Breuil) أنّ هذه المدّة "مفرطة في البطء" وبين الذين يعتقدون مع م. بول (Boule) أنّها قصيرة ، وبعبارة أخرى بين الذين يعتبرون الشيلي معاصرا لتجلّد قونز (Günz) ، وبين الذين يرون أنّه معاصر للفترة الأخيرة من عصر ما بين الجليدي . وهكذا فالفرق يعدّ بمئات الآلاف من السنين . ومهما يكن الأمر فإنّه يجب التأكيد بأنّ مدّة العصر الحجري الأدنى سواء في إفريقيا الشمالية أو غيرها طويلة جدّا ، لا بالنسبة لعصور التاريخ فقط ، بل بالنسبة إلى العصر النيولوتي أيضا وحتى بالنسبة إلى العصر الحجري الأعلى (Paléolothique supérieur) .

وإذا اعتبرنا جملة ما تعاقب من آلاف السنين الغامضة ، وجدنا أنّ الإنسان قد مرّت به ظروف غريبة . فنحن نجهل كلّ الجهل ما يتّصل بالبشر الذين خلّفوا لنا الأدوات الشيلية والآشولية . ولم تزدد صورة الإنسان وضوحا بالنسبة إلينا إلاّ في العصر الموستيري أو قبله بقليل عند اكتشاف إنسان الرباط : وهو شخص قصير القامة ، عظيم الهامة ، طويل الوجه ، مفلطح الجمجمة ، محدود المدارك العقلية محروم على ما يظهر من كلّ " المشاغل الجمالية والأخلاقية " (بول فلوا Boule-Vallois) شأن أمثاله من نياندرتاليين (néanderthaliens) إذ كان

يجد ضرورات عيشه اليومي في طبيعة حارّة رطبة تزدحم فيها حيوانات مخيفة . ولا شكّ أنّه ليس من التهوّر أن نعتقد أنّه كان لا يخضع في آخر الأمر إلاّ إلى متطلّبات غريزة البقـاء .

2 ـ العصـر الحجري الأعلى

إنّ العصر الحجري الأعلى بإفريقيا الشمالية تمثّله مراكز يفوق عددها بكثير مراكز العصر الحجري الأدنى ، خاصة إذا نحن ، كما يشاء البعض ، (R. Vaufrey, A. Ruhlman) أدخلنا ضمنه العتيري الذي يقحمه آخرون في العصر الحجري المتوسّط (مثل ريقاس Reygasse) والذي تكثر مظاهره في البلاد جميعها . وليس معنى هذا أنّ كثرة الوثائق هي التي ساهمت في حصول الاتّفاق بين الاختصاصيين بل يمكن أن نذهب إلى عكس ذلك . غير أنّه يظهر أنّ أمرا وقع التسليم به : وهو وجود "مقاطعتين" أثريّتين تمثل الأولى القفصي والثانية الموبي الذي هو ليس سوى "مظهر جانبي" للأول . ومن غير شكّ لا يمكن إثبات المعاصرة المطلقة للصناعات التي يختصّ بها هذان الطوران غير أنّه من المرجّح على الأقل أنّهما تفاعلت إلى حدّ ما على مرّ الدّهور .

وكلمة القفصي مأخوذة من مراكز واقعة بجهة قفصة (باللاتينية كبسة Capsa) في الجنوب الغربي من البلاد التونسية حيث لاحظ ج. مرغون (J. de Morgan) وجود الطور القفصي لأول مرّة وأهمّ مركز يمثّله هو مركز المقطع . وهو معروف كذلك باسم آخر نَبْذَهُ اليَوْمَ الباحثون بصفة عامّة وهو الجاتولي (ب. بلاري P. Pallary) . ورقعة انتشاره هي الجنوب التونسي وخاصّة جهة قفصة بالذات ، وجنوب مقاطعة قسنطينة . غير أنّ اكتشافات حديثة بيّنت أنّ حدوده الجنوبيّة لا تتّفق مع الحدّ الشمالي للصحراء كما كان يظنّ . ويظهر أنّ منطقة الصناعات القفصية كان لها إشْعَاع منذ الطّور القفصي الأعلى في بلاد المغرب ، بحيث نجد أنفسنا أمام نوع من الاستغلال الذي يتوغّل في الجهات المتاخمة ويؤثر في الصحراء حتى قبيل العصر الحجري الحديث .

إنّ القفصي هو فترة "المحلزات" (Escargotières) أولا وبالذات . وأطلق هذا الاسم لاتابي (Latapie) على هضاب اصطناعية لا يتجاوز علوّها عشرة أمتار ويمكن أن تبلغ أبعادها المتفاوتة إلى أقصى حدود التفاوت الخمسين مترا عرضا والمائة والخمسين مترا طولا . وهذه الهضاب تكوّنت بتراكم الرماد والأدوات والهياكل العظميّة البشريّة والحيوانيّة ، وخاصّة أصداف الحلزون التي منها اشتقّ الاسم الذي أطلق على هذه الهضاب . غير أنّه يجدر أن نلاحظ أنّ مثل هذا التراكم المعقّد يوجد في بعض الخبايا تحت الصخور كخبيئة كلاريون (l'Abri Clariond) قرب أم العرائس بالجنوب التونسي . وهذه الأجزاء المتنوّعة تمثّل ما تبقّى من المخيّمات والقرى القديمة . وتختصّ مجموعة الأدوات الموجودة في هذه الأمكنة بظهور الحجارة المنحوتة الدقيقة ذات الأشكال الهندسيّة والأزاميل الصغيرة التي تضخّم عددها أثناء تطوّر العصر القفصي . وكثافة هذه "المحلزات" في بعض الجهات كبيرة جدّا . فلقد اهتدى "لاتابي" إلى 42 "محلزة" في دائرة يقدّر نصف قطرها بـ 30 كلم حول تبسّة ودابروج (Debruge) على طريق "كرناي" بالجبل . كما اهتدى فورتاس (Fortas) إلى ستّ "محلزات" في مساحة قدرها 12 كلم . ويمكن أن نعدّ هذه "المحلزات" بالمئات بالنسبة إلى إفريقيا الشمالية كلّها إذا لم يقارب عددها الألف .

وبينما نجد تشابها في العصر الحجري الأدنى بين نماذج أدوات إفريقيا الشمالية وبين نماذج أدوات أوروبا الغربية فإنّه لم يلاحظ أنّ خصائص المصنوعات القفصية كانت توجد في مصنوعات السواحل الشمالية للبحر المتوسّط . ولذا فإنّه أصبح اليوم لا يعتدّ بالافتراض القائل بأنّ الاورينياسي (l'Aurignacien) هو من أصل قفصي . فالقفصي الأصيل ، بمعنى القفصي الأدنى ، لم يبلغ البتّة البحر ولم يقدر على الوصول إلى صقلّية وإيطاليا . أمّا أصوله فالأفضل أن يبحث عنها في مصر حسب ر. فوفري (R. Vaufrey) . غير أنّ المقارنات من حيث التواريخ التي أمكن ضبطها بين القفصي وبين "سبيلي" (Sébilien) — جهة أسوان — ليست من الصحّة بحيث تسمح بتجاوز الاحتمال إلى اليقين .

وإذا استثنينا جهة التلال المرتفعة في وهران والجزائر ، حيث ننتقل مباشرة من الموستيري أو العتيري إلى الحجري الحديث ، فإنّ الجزء من إفريقيا الشمالية الذي لا يسيطر عليه القفصي أي الواجهة الساحلية منه هو من مشمولات "الموبي" (Mouillen) وقد اكتشف هذا الأخير لأوّل مرّة سنة 1908 في مويه (Mouillah) قرب مرنية غربي مقاطعة وهران . غير أنّ لفظة موبي بقيت قليلة الاستعمال وقد فضّلت عليها قديما كلمة الإيبري موريزي (Ibéro - Maurusien) التي اقترحها ب . بلاري (P. Pallary) وعوّضت الآن بكلمة وهراني التي تخيّلها هـ. بروي (H. Breuil) .

ولا بدّ أن تكون هذه الصناعة التي "لا يوجد أفقر منها" كما قال ر. فوفري شكلا متطوّرا من القفصي . وهي بالفعل قريبة جدّا من القفصي الأعلى ولا تختلف عنه إلاّ" بانعدام الأدوات الحادّة الكبيرة والمتوسّطة ذات الحدّ الساقط (à dos abattu) وبقلّة الحجارة المنحوتة الدّقيقة ذات الأشكال الهندسيّة" (ر. فوفري) وبالعكس فإنّ الشفرات الصغيرة ذات الحدّ المقوّس (à dos rabattu) هي أهمّ ما في هذه المجموعة من الأدوات . وهذا يدعونا إلى التفكير في أنّ هذه المدنيّة "القفصيّة" قد عمّت شيئا فشيئا وخطوة خطوة معظم البلاد البربرية أوْ كادتْ ، وإنّ فنّ الصناعة الذي تمثّله حلّ محلّ صناعات العصر الحجري المتوسّط الموجود تحت "الموبي" . ولقد أجمع الباحثون اليوم على رفض صحّة العلاقات الأثريّة بين هذه الصناعة وبين صناعات إسبانيا التي أريد من لفظة "ابيري موريزي" التعبير عنهـا .

ولا يمكن طبعا تحديد الفترة التي ولدت فيها وترعرعت المدنيات القفصية الموبية تحديدا مدقّقا . غير أنّه لابدّ أنّها تلت نهاية فترة التجلّد الأخيرة التي حصلت حسب جير (Geer) قبل المسيح بـ 14 000 سنة ، ولا بدّ أنّها سبقت من جهة أخرى النيوليتي الذي يظهر أنّه عاصر الفترة التي تقدّمت ما قبل عهد الأسرات بمصر ، وهي فترة انتهت حوالي سنة 3 500 قبل المسيح . ولذا فإنّه يستبعد أن نُخطىء إذا

قلنا : إنّ أكبر جزء من العصر الحجري الأعلى في افريقيا الشمالية يمتدّ من سنة 10 000 إلى 5 000 قبل المسيح .

وأثناء هذه الفترة الطويلة جفّ المناخ شيئا فشيئا حتّى وصل إلى درجة قريبة من الدرجة التي نعرفها الآن . ورغم ذلك فإنّ الفيل والبقر والغزال والكركدن والنعام بقيت تجوب الأرض المغربية . وبدون شكّ فإنّ جَنْيَ الثمار والصيد هما اللّذان كانا يأخذان القسط الأكبر من نشاط الإنسان . غير أنّ إنسان مشتى العربي كان ينتمي إلى فصيلة الإنسان العاقل (Homo sapiens) فهو يجهل الحيوانات الآهلة ، إلاّ أنّ المشاغل الجمالية لم تكن غريبة عنه إطلاقا ، كما تدلّ على ذلك الأشكال الهندسية التي اتّصفت بها آلاته ، وكما تدلّ على ذلك النقوش التي يخطّها على قشور بَيْض النّعام كنقش الحيوان المجترّ الموجود بواد منقوب قرب أولاد جلال في مقاطعة قسنطينة ، أو الأصداف المثقوبة التي كانوا يستعملونها للتجميل : وينزل هنا الإنسان في غالب الأحيان على مقربة من الوديان أو العيون ، وتوجد منازله التي يعيش فيها عيشة الحضر حتى في الجبال كما تدلّ على ذلك اكتشافات أ. روهمان في الأطلس المتوسّط .

3 — العصر الحجري الحديث

إنّ العصر النيوليتي في إفريقيا الشمالية نتيجة اتّصال التقاليد المحلّية بما ورد من الخارج ، ومعنى هذا أنّ بعض العناصر التي هي في الحقيقة من العصر النيوليتي كالأدوات المصقولة والآنية الخزفية قد اختلطت بأشكال القفصي والموبي المتطوّرة . ولقد اقترح ر. فوفري ، وله الفضل في اكتشاف هذا الاتّصال أن نميّز بين عصر نيوليتي ذي تقاليد قفصية هو بدوره منبثق عن القفصي المثالي بواسطة ما يسميه هو ما بين القفصي والنيوليتي ، وبين النيوليتي الموسوم بالطابع الوهراني المنبثق هو نفسه عن الموبي .

ولا شكّ أنّ العهد النيوليتي الشمال إفريقي حديث العهد نسبيا . ويظهر أنّه لا يسبق بكثير الأربعة آلاف سنة قبل المسيح وأنّه امتدّ إلى قلب العصور التاريخية . فانعدام فترة انتقالية تالية للعصر النيوليتي

هي بالفعل من خصائص ما قبل التاريخ في افريقيا الشمالية ولهذا فإنّ الفينيقيين أسّسوا مراكزهم التجارية الأولى في عالم ذي مدنية نيوليتية ، والصحف التي خصّصها هيرودوت لإفريقيا تلقي هنا وهناك أضواء خاطفة على ذلك . غير أنّ ربط بلاد البربر بعالم المدنيات المتوسّطية لم يكن على ما يظهر نتيجة الانفصال التام عن العادات العريقة في القدم . فلا شكّ أنّه استعملت سهام من الحجر مدّة طويلة بعد ذلك . وكذلك لم تهجر الملاجىء النيولوتية فجأة واستمرّ السكّان إلى قلب العهد الروماني على ما يظهر يرصّفون صخرة على صخرة لبناء مساكنهم وهي المصاطب (dolmens) .

وأثناء العصور النيولوتية أخذت طبيعة إفريقيا الشمالية تقترب شيئا فشيئا ممّا هي عليه الآن فتفاقم جفاف المناخ وتغيّرت "الفونا" . فاختفى فرس البحر والفيل الأطلسي وأصبح وجود الكركدن نادرا جدّا وأصبحت الأيلات هي الأجناس المختصّة بهذا العصر . وأخيرا ظهرت الحيوانات الآهلة وخاصة الفرس والكلب . والسكّان هم إمّا من آخر أحفاد إنسان مشتى العربي أو الممثّلون الجدد للجنس المتوسّطي . فلم تحدث في ذلك الوقت أيّة ثورة جنسية غير أنّنا كثيرا ما نعاين من وقت لآخر تأثير عناصر زنجية بالجنوب التونسي في "الرديّف" مثلا . وتغيّرت الحياة الاجتماعيّة ، وظهرت الفلاحة ونمت ، وإن بقيت صناعة الحجارة هي الصناعة الأصلية فلم تعد هي الوحيدة ، وتحسّنت شيئا فشيئا . وحلّت أدوات الحجارة المصقولة ، وخاصّة الفأس ، محل أدوات الحجارة المنحوتة. وتكاثرت مع مرور الزمن الأمتعة المصنوعة من العظام ، وظهرت خاصّة آنية الفخّار بدائية بعيدة عن الجودة إلاّ أنّها تشهد باعتناء أصحابها بالناحية الجمالية . فلقد بقيت آثار الزّخرف على الأجزاء القليلة التي نعثر عليها كالخطوط والحواشي الحمراء أو الرسوم المقتضبة المخدومة بالأظافر والأشواك . ويظهر أنّ بلاد المغرب عرفت في هذا العصر حتى فنّ صنع التماثيل الشبيه بما نجده في الصحراء إذا نحن عددنا كما فعله م. ريقاس (M. Reygasse) أصنام "تابل بلات" ذات الرؤوس الآدمية في الصحراء الشرقية من العصر النيوليتي . وعلى كلّ فإنّ مساكن الحجارة الكثيرة في غربيّ البلاد التونسية وفي مقاطعة قسنطينة (يوجد أكثر من عشرة آلاف

مسكن حول "سيغوس" في الجنوب الشرقي من قسنطينة) والملاجيء المقامة على المشارف كالتي نجدها في أعلى منحدرات واد "باث" تشهد بأنّنا إزاء مرحلة أولى للفنّ المعماري (أ. ب. روهمان) .

وليس هناك من شكّ في أنّ بلاد البربر تدين لمصر بأكبر قسط من هذه التغييرات . ويظهر أنّ المراكز الصحراوية مثل مركز عبد العظيم في الجنوب الغربي من العرق الكبير تدلّ على أنّ الصحراء كانت همزة وصل بين إفريقيا الشرقية وبلاد البربر وكذلك بالنسبة لوجود (spatha nilotica) في تيديكالت (Tidikelt) إلاّ أنّه يرجّح أنّ الصلات بأوروبا وخاصّة إسبانيا تمتّنت أيضا . والتشابه بين آنية "أشاكر" الخزفيّة (رأس سبرتال) وبين بعض الآنية الخزفيّة الإسبانية يصعب عدّه مجرّد صدفة .

III ـ الصخور المنقوشة

1 ـ صخور إفريقيا الشمالية المنقوشة

خلّف لنا الأفارقة الذين عاشوا في عصور ما قبل التاريخ زيادة على آلاتهم وبقايا مآكلهم صخورا منقوشة يسمّيها الأهالي "الحجرات المكتوبة"، وكانت هذه الحجارة الموجودة بكثرة في عدّة جهات من إفريقيا الشمالية مادّة للأبحاث التي قام بها ج. ب. فلامون (J. B. Flamand) مدّة أربعين سنة . إلاّ أنّ الاكتشافات والنشريات تعدّدت منذ سنة 1921 وهو تاريخ ظهور كتابه (Les pierres écrites) "الحجارة المكتوبة" الذي أصبح مرجعا مألوفا منذئذ . والمشاكل التي أثارها من حول هذه النقوش ومواضيعها وتواريخها كانت محلّ بحث أ. ف. ڤوتيه (E. F. Gautier) وه. بروي (H. Breuil) وم. ريقاس ، وته. مونود (Th. Monod) بالنسبة لجهات من الصحراء مختلفة وب. قرازيوزي (P, Graziosi) ول. فروبنيوس (L. Frobenius) بالنسبة لليبيا وم. سولينياك (M. Solignac) بالنسبة لبلاد البربر الشرقية ور. فوفري (R. Vaufrey) بالنسبة لجنوب وهران . وإذا كانت قائمة هذه الصخور المنقوشة لم

تكتمل بعد اكتمالا كليا فإنّنا نجد بين أيدينا جملة وثائق كافية لتمكيننا من بحث إجمالي .

ومنذ ظهور دراسات ج. ب. فلامان نتبيّن ثلاثة أنواع من النقوش : ففي الأولى — التي لا شكّ أنّها حفرت بالصوان — خطوط عريضة عميقة منتظمة . وكان النقّاشون يبدؤون برسم مواضيعهم ثم يحفرون بمنقاش نقطا متسلسلة بيّنة وأخيرا ينتهون إلى خطّ متّصل واضح بعد صقل متقن بحكّ آلة حجرية وفوق هذه النقوش توجد نقوش ثانية أصغر حجما منقوطة نقطا غير متقنة فيها إجمال كبير ومرفوقة بكتلات أو خطوط ليبية بربرية . وهذه النقوش تمثّل حيوانات تعيش إلى الآن في بلاد البربر ومن بينها ما دخل البلاد حديثا كالجمل مثلا ومن هذه النقوش نوع ثالث نمطه عصري خُطّ في رفق ورافقته كتابات عربية هي بالطبع رسمت بعد القرن السابع المسيحي .

2 — تصوير الحيوان والإنسان

إنّ النوع الأوّل وهو الأقدم ، هو الذي يدعو إلى المناقشة . فليس لنا عناصر تمكّننا من ضبط عمره مثل العناصر التي استعملها ه. بروي مثلا وجعلته ينسب نقوش فرنسا وإسبانيا إلى الاورنياسي (l'Aurignacien) والمقدليني (Magdalenun) والسوليتري (Solutréen) معتمدا على كونها مدفونة في مساكن هذه العصور المختلفة بين حيوان وأدوات معيّنة من حيث التاريخ . ورسوم الحيوانات في بلاد البربر لا تسمح للباحث بالوصول إلى استنتاجات مدقّقة شأنها في فرنسا لأنّ "الفونا" المغربية لم تطرأ عليها نسبيا إلاّ تغييرات طفيفة . وأخيرا فإنّ مجموعة الآلات المكتشفة قرب الصخور المنقوشة لا تأتي بما يمكن الاعتماد عليه في البحث بصورة جدّية تسمح بالحكم حكما باتّا. إذ هي ترجع إلى عصور مختلفة وتظهر في غالب الأحيان لا علاقة لها بالنقوش .

غير أنّ هذه الصخور المنقوشة نجدها جنوب وهران متّصلة اتّصالا دائما بالعصر الحجري الحديث الموسوم بالطابع القفصي "ونستثني من ذلك كلّ المصنوعات الأخرى من صنف مصنوعات العصر الحجري

الأعلى والمتوسّط والحديث" (ر. فوفري) . ولو تعمّقنا في البحوث لأمكن الجزم بأنّ الأمر ليس شاذّا .

وأكثر الحيوانات الممثّلة بالصور هو الجاموس القديم(bubalus antiqus) وهو حيوان ذو قرنين طويلين جدّا كان يعيش في آخر عصر البالستوسان (pléistocène) ومن ذلك يستنتج ج. ب. فلامان الذي يعتقد أنّ انقراض هذا الحيوان صادف ظهور الصحراء وأنّ هذه الصخور المنقوشة من عصر نيوليتي . إلاّ أنّ حياة الجاموس تكون قد امتدّت إلى عصور أقرب إلينا كما هوالشأن بالنسبة للفيل.غير أنّنا لا نزال نتناقش لمعرفة أيّ النوعين عاش في إفريقيا من عصر البالستوسين إلى أن أتت عليه المدنيّة الرومانية ، فهل هو الفيل الأطلسي من الجنس القديم أم هو الفيل الإفريقي الحديث . ونجد أيضا أيّلات وأسودا وفهودا وزرافات ونعاما وكذلك حيوانات آهلة وخاصّة كباشا مغطّاة رؤوسها بغطاء مدوّر الشكل يذكّرنا في شيء من الغرابة بقرص كبش عمون . غير أنّ تأويل هذا الشعار الذي نجده على رؤوس صور الحيوانات المجترّة لا يخلو من صعوبات . ولسنا واثقين تمام الوثوق من أنّه رمز للشمس . أمّا فيما يخصّ أصول عبادة الكبش فإنّ المناقشة ما زالت مفتوحة : يتمسّك البعض بأنّه يوجد تقارب بين هذه العبادة وبين إله ثيبة . ويذكر "فوفري" في هذا الشأن عبارة "العبادة المتفرّعة" ، ويؤكّد آخرون أنّ الكبش الصحراوي المنقوش "لا يدين بشيء إلى الاله عمون الذي لم يخلق بعد " (ج. جرمان G. Germain) ويذهبون إلى أنّ مصر والمغرب كرعا من منبع ثقافي واحد .

وفي بعض الأحيان نجد أنّ هذه الحيوانات مصوّرة جماعات جماعات ومن بين المشاهد الغريبة مشهد صراع جواميس الريشة العتيقة (جنوبي عفلو) ومشهد تمزيق الأسود وبنات آوى لخنزير وحشي بكاف مسوار (بلديّة واد شرف المختلطة) .

وإنّ لبعض الصور الآدمية قيمة أثرية عظيمة . فالأشخاص كانوا يستررون عوراتهم ويلبسون ثيابا من جلد الحيوان . وبعضهم يطوّقون رؤوسهم بإكليل من الرّيش ، وهي علامة الثروة والجاه بلا منازع . والبعض الآخر

كان يتحلّى بقلائد وأسورة . وكانوا يدهنون أجسادهم بالمغرة وكانت أسلحتهم القوس والسهام والعصي القاذفة (boomerangs) والتروس .

ومن أهمّ الصور الآدمية من حيث قيمتها كوثائق طبعا صورة إنسان قصر الأحمر قرب "جريفيل" جنوبي مقاطعة وهران ، وهو يلوّح بآلة يبدو أنّها فأس من الحجر المصقول .

3 ــ ضبط تواريخ الصخور المنقوشة

إذا لم ينازع أحد في أنّ فن النّقش على الصخور ثبت طيلة قرون عديدة بعد المسيح ، فإنّنا لا نجد نفس الإجماع عندما نسعى في ضبط تاريخ بروز مظاهره الأولى ولو على سبيل التقريب . والحقّ أنّ الباحثين كثيرا ما عقدوا المشاكل عند ما سلّموا بنتائج على أنّها ثابتة بينما هي ليست إلاّ مجرّد افتراضات يقتضيها البحث . فنحن لم نعد نقبل اليوم النتائج التي يزعم ج. ب. فلامان أنّه استخلصها من اختلاف طرق الصناعة المستعملة من طرف الناقشّين على الصخور ولا التي استخلصها من كثافة الطبقة الكدرة المتفاوتة والمغشية للصخور . والتواريخ المرتكزة على المقارنات الأثريّة كان مصيرها مصير هذه الحقائق المزعومة والمرتبطة بهذه التواريخ. أمّا الحقائق الخاصّة بالحيوانات القديمة فكثيرا ما أعارها الباحثون قيمة خيالية . فلا شيء يدلّ على أنّ هذا النقش أو ذاك يمثّل آخر جاموس أو أوّل جمل . وفيما يخصّ الجمل بالذات الذي يكتنف تاريخه غموض كبير فإنّنا نتردّد في الاعتقاد بأنّ للصور قيمة تاريخية حاسمة . وما اقترحه ت. مونود بالنسبة لنقوش "ادرار أحنات" من تمييز بين الطور الذي ظهر فيه الجمل والطور الذي سبقه لم يفز برضا الجميع . ووجود الفرس الآهل هو وحده الذي يمكّننا من دليل يقيني لضبط تاريخه : وهو النصف الثاني من الألف الثانية لا قبله .

وفي إيجاز فالمشكل يرجع إلى معرفة هل أنّ أعرق الصخور المنقوشة في القدم هي سابقة للعصر النيوليتي أم لا . وبصفة عامّة فإنّ الطبيعيين كم. بول (Boule) وموليتياك ول. جولو (L. Joleaud) وبعض مؤرّخي ما قبل التاريخ كه. كوهين (H. Kühn) أجابوا بنعم ، ونسبوا النقوش

القديمة إلى العصر الحجرى الأعلى (القفصي) بينما دقّق الأب بروي (H. Breuil) الأمر فاستعمل عبارة المضاف إلى العصر الحجرى القديم (épipaléolothique) ومن دون أن نذهب إلى ما ذهب إليه ستيفان قزال (St. Gsell) عندما قدّر تاريخ هذه النقوش بـ 3 000 سنة قبل المسيح ، فإنّ أغلب مؤرّخي ما قبل التاريخ ك ج. ب. فلامان أو برماير (H. Obermaïer) وبصفة أبلغ ر. فوفري يرون أنّ فنّ النقش على الصخور معاصر للعصور النيوليتية ولقد أوردوا حججا تتفاوت قيمة لتدعيم كلتا النظريّتين . ويظهر أنّهم لم يصلوا إلى نتيجة بعيدة عن الخدش ، لكن يمكن أن نلاحظ أنّ الريح تهب اليوم صوب النيوليتي .

أمّا المقارنات التي لم يتمالك بعضهم عن تسجيلها بين هذه النقوش ونقوش إسبانيا وخاصّة إفريقيا الجنوبية ورسومها ووجوه الشبه التي لوحظت بين هذه النقوش وبين بعض مظاهر الفنّ الايجي أو المصرى فليس لها من قيمة إلاّ بالقدر الذى نعدل فيه عن الادّعاء بأنّه يمكن بواسطة المقارنات حلّ مشاكل لا تزال وربّما ستبقى دائما غامضة .

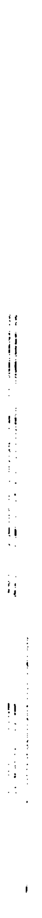
وإنّ ما قبل تاريخ بلاد المغرب ينبىء بتاريخه . ذلك أنّه لا مفرّ في كليهما من الاكتفاء في غالب الأحيان بتواريخ تقريبية . وإذا أفلتت شعوب ما قبل التاريخ من سلطان التدقيق فإنّه ليس من الهيّن ضبط شعب التاريخ ، أي البربري الذى يمثّل من الوجهة الاجتماعية إن لم نقل من الوجهة الجنسية حقيقة حيّة قارّة .

الباب الثالث

البربر

1 ـ مشكل الجنس. 2 ـ أوائل التاريخ

3 ـ مدنية البربر



I ـ مشكـل الجنـس

1 ـ البربـر

مهما رجعنا إلى أوائل تاريخ إفريقيا الشمالية لاحظنا أنّ الأمور تجري كما لو أنّه كتب على هذه البلاد أن تبقى قاصرة قصورا وراثيا عن التمتّع باستقلالها . فلقد بقيت دائما خاضعة لمدنيات واردة من الخارج ، وفي بعض الأحيان اقترن مصيرها بمصير هذه المدنيات . فكان يجب أن نجد مبدئيا شعبا متعدّد المقوّمات متغيّر الثمرات . ولكنّ الحقيقة غير ذلك . فسلطان الطبيعة هنا عظيم . والعبارة العربية "جزيرة المغرب" ليست من قبيل الاستعارة فحسب ، بل هي تمثل هذا الميل إلى الدّوام الذي تختصّ به الجزر . فالمدنيات المتتابعة التي طرأت من الخارج لم تكن بالنسبة إلى البربري إلاّ ثيابا متنوّعة تستر جسدا وروحا لا يتغيّران. زد على ذلك الجبال التي نمّت في بلاد المغرب هذا الميل إلى المحافظة .

ومدلول المدنية البربرية عندنا هي هذه المجموعة من التقاليد والعادات والأخلاق والنظم التي وجدت خالصة أو مشوبة في كلّ العصور بقطع النّظر عن صروف التاريخ . فهي مظاهر قارّة لعقلية ثبتت أمام مشاكل سياسية أو دينية ، وهي بعبارة أخرى محصول بحث سوسيولوجي لم يكتمل من سوء الحظ ، وستصبح عن قريب مواصلته مستحيلة .

فهذا الحدّ السوسيولوجي للبربري ، مهما أعوزه الوضوح والدقّة ، هو الحدّ المرضيّ الوحيد ، وهو وحده الذي يعبّر عن الخصائص المشتركة للسكّان الموجودين في شمال القارّة الإفريقية من طرابلس إلى المحيط الأطلسي . ورغم اختلاف طرق العيش اختلافا واضحا جدّا في الحاضر والماضي فإنّنا نلمس في كلّ هذه القطعة من أوروبا المشدودة إلى إفريقيا العناصر الطريفة لوحدة بشرية عظيمة .

ولا شكّ أنّ هذه الوحدة قد ظهرت قديما في ميدان اللغة ، وقد لا يكون ذلك باستعمال لغة واحدة في بلاد البربر كلّها ، بل في أغلب الظنّ باستعمال لهجات متقاربة تكون مجموعتها المسمّاة اصطلاحيا الليبية فرعا من فروع أسرة حام ، وهي مصدر اللهجات البربرية الحالية . غير أنّ هذه المجموعة التي هدّدتها لغات مدنيات أخرى تصدّعت وتفرّقت كتلا مختلفة . فالعربية غزت سكّان المدن والسهول ويذهب "وليام مارسي" إلى أنّ نسبة الناطقين بالبربرية هي اليوم 23 بالمائة في ليبيا ، وواحد بالمائة في تونس ، و 27 بالمائة في مقاطعة قسنطينة ، و 34 بالمائة في مقاطعة الجزائر العاصمة ، وواحد بالمائة في مقاطعة وهران . وقد تجاوزت هذه النسبة 40 بالمائة في المغرب الأقصى . لكنّ الأمر لا يعدو الفروق اللغوية . فليس هناك خطأ أعظم من الاعتقاد — كما فعله البعض في كثير من الأحيان — في أنّ التقسيم بين الناطقين بالعربية والناطقين بالبربرية يعكس تقابلا بين جنس عربي وجنس بربري . إنّ الأمر لا يدلّ إلاّ على أنّ اللهجات البربرية استقرّت في جهات جبلية أصعب منالا على الغزاة بينما استسلمت في جهات أخرى إلى لغة أكثر مسايرة للضرورات الاجتماعية .

2 — شبكة من الأجناس

ينبغي ألاّ نستخلص من هذه الوحدة المتأصّلة للحضارة البربرية أو من المعطيات اللغوية التي نبّهنا إليها سابقا وجود أساس جنسي يفسرها .

ولا شكّ أنّه منذ أوائل عصور التاريخ استقرّت ببلاد المغرب شعوب مختلفة شديدّ الاختلاف . وإذا نحن استثنينا الشعوب التي لم تمتزج بصفة عامّة بالسكّان الأصيليين أو المندمجين ، مثل الأوروبيّين الذين استقرّوا منذ ما يقرب من قرن ، أو اليهود الذين أتوا في دفعات متتابعة منذ العصور القديمة ، فإنّنا نلاحظ استيطان الساميّين (الفينيقيّين والعرب) والهنديّين الأوربيين (اللاطين والوندال واليونان) والاتراك والزنوج . غير أنّ هذه العناصر المختلفة ، وإن هي امتزجت بالسكّان المستقرّين ، فقد أتت في عدد ضئيل جدّا بحيث تعذّر عليها تغيير المقوّمات الجنسية بإفريقيا الشمالية . فالوندال كانوا ثمانين ألفا وكذلك العرب المستوطنون فعددهم لم يكن كبيرا جدّا . فالجيوش المرسلة من الشرق إلى افريقيا في القرنين : السابع والثامن بلغ مجموعها 150 000 رجل تقريبا . وكما قال "وليام مارسي" : يجب أن نعتبر الخسائر في الأرواح بساحات القتال مدّة الغزو الطويلة والثورات البربرية . غير أنّه من الواجب أن نزيد على هذه المجموعة النساء والأطفال والموظّفين والتّجّار والمبشّرين الذين كلّفوا بنشر تعاليم الإسلام بين البربر ، ومجموع هؤلاء جميعا لا يتجاوز مائتي ألف أو ثلاثمائة من الدخلاء على أكثر تقدير . أمّا فيما يخصّ العناصر الأخرى المستوطنة فليس لدينا أرقام ولو تقريبية . ولكن ليس هنالك ما يدعو إلى الاعتقاد بأنّها كانت كبيرة العدد، وفي الجملة لا نرى أنّ واحدا منها أمكن أن يكون له مفعول قوي فيما يخصّ واقع البلاد الجنسي ، خاصّة إذا نحن لم ننس أنّ المستوطنين كانوا يتعاقبون في الزمان ، وينتشرون في المكان .

فهذه الملاحظات تدعونا إلى التفكير في أنّ السكّان الذين يعمرون بلاد البربر اليوم — مع اعتبار بعض عمليات التوليد — هم أنفسهم الذين كانوا يعمرونها في أوائل عصور التاريخ ، ولكن يكفي أن نقارن بين الميزابيّين ذوي الرؤوس البيضية والقامات القصيرة واللون الأسمر والوجوه المفلطحة وبين سكّان جبال القبائل ذوي الرؤوس المستطيلة والقامات القصيرة والنظرة الصافية والشعر الأشقر أو الأصهب غالبا — لندرك إلى حدّ اليقين أنّ البربر لا يكوّنون جنسا منسجما من حيث الانتروبولوجية . ولا شكّ أنّه حدث خلال عصور ما قبل التاريخ اختلاط كبير بين مختلف

عناصر السكّان انبثقت منه النّماذج الجسديّة الحالية ، وأنّه من السابق لأوانه — وأبحاثنا الانتروبولوجية في إفريقيا الشمالية على الحالة التي عليها الآن — أن ندّعي توضيح خفايا الامتزاجات الواقعة في العصر النيوليتي وما قبله توضيحا كاملا . غير أنّ أبحاثا حديثة تسمح لنا بالاعتقاد أنّ البربري يستمدّ أصوله من عنصرين أساسيين : إنسان مشتى العربي وإنسان ما قبل المتوسّطي (préméditerranéen) . ومهما يكن الأمر فإنّ ملاحظات أغلبها قديمة ومستمدّة من البربر الحاليين تبيّن تنوّعهم الانتروبولوجي .

3 — تصنيف برتولون (Bertholon) وشانتر (Chantre)

بعد أن قام برتولون وشانتر بـ 532 1 ملاحظة في قيس الأوادم انتهيا سنة 1913 إلى تقسيم سكّان بلاد البربر الشرقية إلى ثلاثة أصناف :

صنف 1 : وهو قصير القامة مستطيل الرأس ، متوسّط الأنف ، أسود الشعر ، بشرته فيها صُدْأة وصبْغُها أحمر يضرب إلى السُّمْرة وهو صنف الاس (Ellez) ضبطه كولينيون (Collignon) .

صنف 2 : وهو قصير القامة بيضي الرأس ، دقيق الأنف طويله ، أسود الشعر في عينيه دُكنة ، وفي بَشَرته صُدْأة صبْغُها ضارب إلى الصّفرة . وهو صنف جربة ضبطه كولينيون .

صنف 3 : وهو طويل القامة ، مستطيل الرأس ، دقيق الأنف طويله ، له ، إذا كان أصيلا ، شعر أشقر وعينان زرقاوان وبشرة بيضاء ورديّة اللون . لكنّ هذا الصنف قد داخله التوليد وتفرّع عنه نوعان آخران .

صنف 3 — أ — : له خصائص صنف 3 ولكنّه بَيْضِيّ الرأس

صنف 3 — ب — : مولّد من أصل زنجيّ ، أنفه منتشر وبشرته أكثر دُكنة ، وهو صنف الواحات . ضبطه كولينيون .

والصنف ذو الرأس المستطيل والقامة القصيرة له صلات بالجنس المتوسّطي ، والصنف ذو الرأس البيضي له علاقة بأصناف آسيا الصغرى

الشبيهة به (أكراد) ، وخاصّة فرنسا (دردونيا) . والصنف ذو الرأس المستطيل والقامة الطويلة له صلات بالجنس الاوربّي المعبّر عنه بالشمالي .

وفضّل الدكتور "لوبلان" (Leblanc) ، على البحث الذي أجراه "برتولون" و"شانتر" حول مجموع السكّان ، القيام ببحث مسبّق منتظم للصنف أو الأصناف الغالبة التي يعتمد عليها علم قيس الأوادم . ولا يرى مانعا من الانتفاع بالدراسة التي تعتمد على التشريح الخارجي ، والتي لم يهتمّ بها من سبقه .

وهو يطعن في قائمة الأسماء التي ضبطاها ، ويطعن في تعديدهما لأصناف شتّى لا تعطي أيّ تدقيق فيما يخصّ إمكانية وجود البربرى : فصنف 1 هو توليد من أصل زنجيّ قديم وصنف 2 يضمّ الميزابيّين الذين ينكر عليهم نسبتهم إلى البربر وصنف 3 — أ — نتيجة توليد يرتكز ولا شكّ على الصنف العربي وصنف 3 — ب — مولّد من أصل زنجيّ .

4 — البحث عن الأصناف الغالبة

إنّ أحسن طريقة للدرس قد تكون تلك التي تدعو ، كما أوصى بذلك "توبينار" (Topinard) إلى البحث عن الأصناف الغالبة في جهة ما . ولذا — يحسن — كما اقترح الدكتور "لوبلان" — الاقتصار على بعض الأصناف في جهة ما لمقارنتها بأصناف اختيرت بنفس الطريقة في جهة أخرى . ففي المجموعة الأولى المضبوطة على هذا النحو ندرس من جديد شكلها الظاهري الغالب لنقارنه بدوره بشكل ظاهري معيّن بنفس الطريقة في مجموعات أبعد جغرافيا . فهذه هي طريقة تعتمد على ضبط الأصناف من الناحية التشريحية قبل قيس نماذجها خلافا للطريقة الأخرى التي تبدأ بالقيس قبل ضبط الأصناف .

وبهذه الطريقة أمكن للدكتور "لوبلان" عزل صنف طرفي في الحجار (Hoggar) محدّد تمام التحديد بخصائص شتّى ومقابل لنسبة كبيرة لمجموعة من السكّان محدودة العدد . وهو يظنّ أنّه يوجد في بلاد القبائل نوع من الأجساد واضح المعالم ولو أنّه أقلّ دقّة ممّا نجد عليه الطوارق .

غير أنّـه وإن تشابه الصنفـان في طـول القامـة واستطالـة الرأس ودقّة الأنف وطولـه ، فإنّهمـا يختلفـان في كلّ الخصائص الأخرى . ويظهـر أنّ الأمر بالمثل بالنسبـة للشاويـة وسكّـان الريف وبني خميـر . وما نعرفـه عن بربر المغرب الأقصى يمكّننـا من ضبط صنفين : صنف الشمـال الشبيه بالقبائلـي ، وصنف الوسط والجنوب القريب من "الطـوارق" .

وهذا البحث في الأصناف الغالبـة ما زال في بدايتـه وسيكـون ثمـرة المستقبـل ، إذ أنّ مقارنـة هذه الأصناف من حيث الشكل الظاهري هي وحدها التي ستسمح بإقامة تصنيف علمـي . وفي الوقت الحاضر يكون من الصلف أن نقـوم بعمـل آخر غير تضمين النتائـج الحاصلـة التي تدلّ على تجزّؤ بـلاد البربـر من حيث أجناسهـا . إلاّ أنّـه — ما إن يتيسّـر لنا معرفة البربري الذي يمـكن تسميته بحق : المغربـي — حتّى يبدو صنفا اجتمـاعيا لـه خصائصه الـواضحـة . وبقدر حرصنا على طـرافـة البربري نتمكّـن من إبـراز ضرب من الوحدة لتاريـخ بـلاد البربـر .

II — أوائـل التـاريـخ

1 — الأساطيـر

منذ العهد النيوليتي الذي فيه استكملـت النماذج الانتروبولوجيـة الحالية استقرارها إلى عهد توغّـل الرومان في البلاد لم يصطبغ التاريخ بالبربر إلاّ عرضا وذلك عند اتّصالـهم بالشعوب الأخرى .

وشهـــرة ما رواه أفلاطون في كتابه الطيماوس (Le Timée) معروفة . فممـلكـة جزيرة الاطلنطيس " Atlantis " تكـون حسب هذه الروايـة بسطـت نفوذهـا على ليبيـا وحاولـت غزو مصر وبـلاد اليونان ، ولـكنّ المياه غمرتهـا في آخر الأمر . وهل نحن في حاجة إلى ذكر هذه القصّـة الفلسفية التي أثارت الكثير من التعاليق الغريبة بالرغم عن أنّهـا أشدّ اتّصالا بميدان علم الأمراض العقليـة كما قال أ ـــ البرتني (E. Albertini) .

وتوغّل الفرس والميديّين (Les Mèdes) والأرمن في إفريقيا بعد موت هرقليــس ليس إلاّ أسطورة رواها سالوسطس (Salluste) لا نصيب لها من الصحّة .

أمّا ما رواه "بروكوب" (Procope) عن غزو العبرانيين لليبيا — ممّا نجد له صدى في مؤلّفات العرب — فيبدو أنّه صادر عن بيئة يهوديّة متأثّرة باليونان وليس له أيّة قيمة تاريخيّة .

2 — دخول الليبيين لمصر

وخلافا لما سبق ذكره فإنّه من اليقيني أنّ وادي النيل كان مسرحا لهجومات اللّيبيين في الفترات المضطربة وابتداء من أسرة الملوك التينيين الأولى (حوالي 3 300 سنة قبل المسيح) سجّلت الوثائق كلوحة "نارمير" انتصارات فرعون على اللّيبيين فهم الذين تسمّيهم النصوص التهينو (Tehenou) وهم الذين تظهرهم الصور المشخّصة متسلّحين بالسهام والعصيّ القاذفة (boomerang) والآلهة نايت (Neit) تسمّى "اللّيبية" في الأنشودتين الرابعة والخامسة ويستحقّ فرعون الثناء عندما يأخذ التاج الأبيض العظيم من أيدي هؤلاء الأجانب العظام الذين يحكمون الليبيين بهذا قد تكون وجدت مملكة مصرية — ليبية في المغرب .

وتحمل الآثار صورا تمثّل المعارك التي شنّها على اللّيبيين ملوك الأسرة الخامسة بمَنْف للقضاء على الاضطرابات التي سبقت تولّيهم الحكم . وذلك حوالي سنة 2 600 . وقد كانت هذه المعارك حاسمة إذ يبدو أنّ اللّيبيين لم يهدّدوا مصر حتى آخر الإمبراطورية الوسطى . وبعد ما صدّ رمسيس الثاني أحد هجوماتهم جنّدهم لمجابهة خطر الحتيين (أوائل القرن الثالث عشر) ووجدهم ابنه منوفتاح (Ménephtah) ضمن اتّحاد شعوب البحر العظيم وهو ردّ فعل ضدّ التوسّع الهندي الاوروبي — وقد تحالف اللوبيون أو الليبيون مع قراصنة الشمال الليسيين وسردان سارده أهل سغلوس (Sagalos) وترسين أهل لمنوس والأخائيّين فكانوا أغلبية الجيش الذي هاجم الدلتا بدون نتيجة (1227) . وقد يكون أصل هؤلاء اللوبيين من الاطلس . فقد لوحظ أنّ أسماءهم وأسماء قوادهم تذكر

بالضبط أسماء النوميديين الوارد ذكرهم في التاريخ المألوف (A. Moret).
ومهما يكن من أمر فهم الذين أطلق اسمهم على ليبيا ولعبوا في تاريخ مصر ، فيما بعد ، دورا رئيسيا متزعمين كتلة غير منسجمة من التهانو (Tehenou) والهنديين الاوروبيين . وفي آخر الأمر اضطر رمسيس الثالث حوالي سنة 1189 قم رغم انتصاره عليهم غرب "منف" أن ينزلهم في "عشرات الآلاف" بالدلتا حيث سخروا من مراقبته .

واستغل أحد القواد الليبيين المرتزقة الفوضى التي تبعت ذلك فبسط نفوذه على هرقلة (Hierakléopolis) في مصر الوسطى (Moyenne Egypte).
وغـزا خليفتـه السـابع شيشـونـق الأول (Sheshonq 1er) الدلتا وقسم الأرض بين الليبيين. وأسس الأسرة الثانية والعشرين (950) قم.
ويصور لنا الفن الشعبي لأول مرة مجتمعا شغوفا بالمعارك مخالفا تمام المخالفة للمجتمع المصري . وخلافا لما اعتقد المؤرخون طويلا فإن أحفاد رسل الاله أمون القدامى ليسوا هم الذين أسسوا مملكة نباطه(Napata) التي اتسعت رقعتها في أواخر القرن الثامن من الشلال الأول إلى الحبشة .
وأثبتت حفـريات رينـار (Reisner) أن الليبيين هم الـذين بسطوا نفوذهم على أرض "الكوش" كما فعل ليبيو الشمال بالنسبة للدلتا .
لقد كانوا فرسانا متحمسين لجيادهم لا سائقي عربات كالفراعنة . ولم يوجد أطوع لتعاليم أمون وكهنته من هؤلاء الأجانب المستوطنين بمصر .
ولا شك أن المدنية المصرية أشعت بواسطتهم على الليبيين الغربيين وربما بلغت أنوارها المترامية أقصى غرب إفريقيا .

3 ـ العلاقات مع العالم الايجي والفينيقي واليوناني

إن معلوماتنا حول علاقات الليبيين مع العالم الإيجي أقل من معلوماتنا حـول علاقـات الليبيين مع مصر ، ويعتبر أ. ايفانس (A. Evans) أن اتصال الليبيين بالعالم الإيجي غير مستبعد . وتروي إحدى الأساطير أن كوروبيوس الإقريطي قذفت به العاصفة إلى ساحل ليبيا فرجع إلى جزيرته ربانا . وكـان أسطول مينوس (Minos) يتزود في ليبيا من بلاد القريني (Cyrénaïque) بلا شك بنبـات السلفيون (Silphion)

الذي كان يجنى لطيب رائحتـه ومنافعه الطبيّـة . ولا بدّ أنّ امبراطورية البحّار الإقريطية أدّت إلى تأسيس مراكـز تجارية على الساحل الإفريقي منها تـكون مدنية مينوس (minoenne) قد أشعّت ؛ودليل ذلك قد نجده في الرسم الذي ازدان به أحد جوانب قبر محفور في صخرة قائمة (حانوت جمع حوانيت) في جهـة مقنـة (بين باجة وطبرقة بالشمال التونسي) . ويستدلّ سولينياك على وجود علاقات بين الشمال الشرقي لبلاد البربر و"ايجه" قبل مجيء الفينيقيين بمشهد بحري غرضه الأساسي مركب عديم الارتفاع على سطح المـاء (bas sur l'eau) له صار مركزي وشراع شكله شبه منحرف كما يستدلّ أيضا بأشخاص هذا المشهد ، ولعلّ هذه العلاقات هي التي تلقي الأضواء على تـأسيس مـدينة مشالـة (Meschela) التي ينسبها ديودرس الصقلّي إلى اليونان عند عودتهم من طروادة وعلى كيفية حفـر الحوانيت . إلاّ أنّ "أ. بوتيا" يبدي تحفّظات إزاء هذه النظرية ، ويكتفي "كلوتـز" بالاعتراف بأنّ الصوّر المرسومة على جدران الحوانيت تشبه صورا أخـرى اكتشفت في دلف (Delphes) كما يكتفي "قزيـل" (St. Gsell) في حذره المعتاد بأنّ يؤكّـد أنّها ليست فينيقيّة ولا رومانيّة .

أمّا المؤثّرات الإيجية التي قد تشهد بها الآنية الخزفيّـة البربريّة الحالية ، فإنّهـا لا تزال مجرّد احتمـالات بالنسبـة للمستوى الحالي لمعارفنا.

وقد ظهـر التّأثير الفينيقـي منذ القـرن الثاني عشر وأصبحت له خطورته في قرطاج التي سيطرت طيلة ألف سنة على تاريخ بلاد المغرب . ودراسـة هذا التأثير تتّصل بتاريخ العاصمة البونيقيّـة .

وتـروي نصوص عديـدة ،لا نطمئنّ تماما إلى صحّتها ، قدوم أبطال اليونانيين الذين خاضوا حرب طروادة إلى ليبيا . ويجب أن لا نعير رحلاتهم قيمـة أكثر من رحلات برسي (Persée) وهرقل والارغنوط . فالاستعمار اليوناني لم يتّصل أبدا مباشرة ببلاد البربـر . ولم يستقرّ الدوريطانيون على نجد بلاد القريني (Cyrénaïque) إلاّ حوالي سنة 631 . وكانت لهم مع اللّيبيين معارك عنيفة متكرّرة . ولكنّهم اختلطوا بهم اختلاطا وثيقا وتبنّوا تقاليدهم الجنائزيّة وعقائدهم وسعوا إلى التزّوج بالجميلات من نسائهم . ولئن هم أسّسوا مدينة برقة في أواخر القرن السادس ، فقد اصطدموا

بقرطاج عندما كرّروا محاولاتهم التوسّعيّة . ولم يسمح البونيقيون كذلك باستقرار دوريوس أصيل سبرتا بين سيرتا الصغرى وسيرتا الكبرى . وفرضوا في آخر القرن السادس بعد ذلك على اليونان أن لا يتجاوزوا معابد " الفيلان " حتّى لا يتوغّلوا في سيرتا الكبرى (مختار) (Mouktar) . ولا شكّ أنّهم حجّروا عليهم في القرن السادس كما حجّروا على الرومان كلّ تجارة مباشرة مع بلاد البربر — وإذَنْ فإنّ البربر لم يعرفوا الفنّ المعْمَاري والصناعة والعبادات اليونانية إلاّ بواسطة الفينيقيين . ولم يتيسّر للممالك البَربرية أن تتاجر مع اليونان بحرية إلاّ بعد سقوط قرطاج ، وعند ذلك أمكن لبعضهم أن يعيشوا في العواصم البربرية ، وأن ينشروا مدنيّتهم في بلاطات الأمراء .

III — مدنية البربر

1) طريقة المقارنة

وعندما ندرس أحوال البربر معتمدين على المراجع القليلة الموجودة نباغت باستمرار عاداتهم خلال العصور . فالكثير من مظاهر حياتهم الاجتماعية الحالية خصوصا الدينية منها تمتدّ جذورها إلى ماض سحيق ربّما يرجع إلى ما قبل التاريخ . ولذلك نسمح لأنفسنا بالاعتماد على ملاحظات حديثة لتعويض الحلقات المفردة من الوثائق أو ربط أحداث واقعة خلال مختلف العصور تظلّ غامضة من دون ذلك . إنّها طريقة دقيقة تشكو داء ليس له دواء ، ألا وهو انعدام التواريخ . ولذلك يحتاج كلّ من اعتمد عليها إلى الحذر الشديد وإلى إحاطة بالمعارف لا يتسرّب إليها الشكّ . ورغم ذلك فإنّ النتائج بصفة عامّة لا تتجاوز الحقائق التقريبية والفرضيات . وبما أنّه لا يمكن استعمال طريقة أحسن منها فإنّها إذا استعملت بمهارة تعطي نتائج مدهشة في بعض الأحيان . فالمقارنة التي قام بها "أ. ف. ڤوتيه" بين الكاهنة وأحد قواد بني زيان أثناء الحروب الأخيرة بالمغرب الأقصى — إذ يأمر كلاهما ابنه بالاستسلام للعدوّ الذي كان عربيا بالأمس وفرنسيا اليوم — تلقي الأضواء على جانب من جوانب العقلية القبلية . وقد اعتمد عليها "ستيفان قزال" اعتمادا كلّيا ، فألّف كتابين في نظام البربر

الاجتماعي والسياسي والاقتصادي ، وفي حياتهم الماديّة والفكرية والأخلاقية ، وفيهما من غزارة المعلومات والطرافة ما يدعو إلى الأخذ منهما بلا احتراز.

2 ـ صيّادون ومُربّو مواش

لم تتغيّر عادات البربر طيلة العصور تغييرا محسوسا . لقد كانوا في أول أمرهم صيّادين تُقض مضاجعهم الوحوش الضارية . واستمرّوا بعد ذلك يبحثون عن هذه الحيوانات توفيرا لأمنهم وسدّا لحاجات ملاهيهم . ولمّا عرفوا الفلاحة ظلّوا ـ رغم ذلك ـ يربّون البقر والجياد والغنم والضأن ، إمّا مقيمين في أماكن قارّة بجهات آمنة أو منتقلين من مراعي السهول شتاء إلى مراعي جبال التلّ صيْفا أو منتجعين السباسب إلى أن يضطرّهم الجفاف إلى اقتحام مروج التلّ ولو بالقوة . وسنرى أنّ الفلاحة لم تسجّل تقدّما محسوسا إلاّ في القرن الثاني قبل المسيح بفضل مسينسا العاهل البربري العظيم .

ولقد حافظت قبائل الرعاة على ملكية الأرض الجماعية . ولا بدّ أن وجدت شيوعية في الميدان الفلاحي تتمثّل إمّا في قسمة ثمرة عمل الجميع بين أفراد المجموعة أو في توزيع الارض بين العائلات بصفة وقتية . ولا نعرف بالضبط الظروف التي تكوّنت فيها الملكيّة الخاصّة التي يلاحظ وجودها في عهد ملوك البربر .

ولم تضمحلّ سكنى الكهوف مع اضمحلال عصور ما قبل التاريخ بل بقيت في بعض الجهات إلى أيامنا هذه . غير أنّ الكهوف (افري) ، بحكم استقرارها ، لا تلائم مربّي الحيوانات الذين كانوا ينتقلون من مكان إلى آخر بمواشيهم . ولهذا فهم يقبلون على المنازل المتنقّلة وهي نوع من الأجهزة يمكن فكّها جزءا جزءا تغطّى بالحصر . ونجد شبيهها لها في بعض جهات الصحراء . وهي تشترك بدون شكّ مع بعض المنازل البسيطة الأخرى في اسم مبساليا (Mapalia) أمّا الحضر فإنّهم يسكنون إمّا في أخصاص من فروع الشجر تميل إلى الطول ، أو في أكواخ مربّعة من حجر أو طين جافّ .

ولقد أنشأ البربر لحماية ثرواتهم من النهب ملاجيء ، وهي نوع من القصور أو القلاع يحرسها رجال مسلَّحون ، أو هي في بعض الأحيان أبراج فيها يقيم سيِّدهم منزله بمكان وعْر ويودع كنوزه ويشيد أهراءه . وكانوا يتجمَّعون في قرى تتكوّن من تكاثف الأكواخ في أماكن لائقة صالحة أعدّها القوم . وهذه القرى والأحياء التي اعترضت طريق الرومان والتي يعدّونها بالمئات سميت عندهم كستلا (Castella) . ولم توجد المدن إلاّ من وقت استعمار الفينيقيين ، ولقد سمِّيت باللاتينية أوبيدا (Oppida) .

3 – طعامهم ولباسهم وأسلحتهم

اشتهر البربر في كلّ العصور بقوّة بنْيتهم وطول أعمارهم . والواقع أنّ الذين لا يزالون إلى اليوم يثبتون إزاء هذا التبذير المريع للأنفس البشرية هم من طينة ممتازة . إنَّهم كانوا قنوعين ونباتيِّين في غالب الأحيان . وقد كان الفلاّحون يأكلون الكسكسي منذ ذلك العهد ومربّو المواشي قليلا ما كانوا يذبحون حيواناتهم بل يكتفون بلبن المعز . وكانوا يؤثرون الصيد والحلزون ، والعسل ولا يشربون إلاّ الماء .

وكان البربر القدماء يسيرون حاسري الرؤوس قد أسبلوا شعورهم على آذانهم ونضّدوها لتَوْلَبِيَّةً الشكل متوازية أو أبقوا خصلة منها زاهية في أمّهات رؤوسهم المحلوقة ، وكانت لهم دائما اللِّحَى المُلَسَّنة .

وبعد أن كانوا يكتفون بستر عوراتهم أو يتّزرون بإزار – إذا هم لم يعيشوا عُرَاة تماما – اتَّخذوا لأنفسهم جلود الحيوانات وقاية من البرد ثم استعملوا عَبَاءات من الصوف شبيهة "بالكدرون" ومعْطفا شبيها بالبرنس . وظلّوا دهرا طويلا يضعون على رؤوسهم إكْليلا من الريش يظهر اليوم في الصخور المنقوشة .

وبعد حجرات ما قبل التاريخ التي بقيت مستعملة طويلا أصبح الدبوس سلاحهم المفضّل وربَّما العصا القاذفة (boomerang) . ثم بعد ذلك استعاضوا عن السيف بالقوس وخاصّة الحربة اللّذين كانوا يقاتلون بهما ،

وقد شدّوا إلى أيديهم سكّينا لذبح أعدائهم وإذا هم اضْطرّوا إلى سلاح دفاعي احتموا بترس خفيف من جلد الفيل يصير غير صالح للاستعمال إن بلّله المطر .

4 — الحلي والفن

كان إنسان ما قبل التاريخ يعطي لحجارته المنحوتة اللوزية (amandes) وأدواته المُذَنَّبَة وفُؤُوسه المصقولة أشكالا متناسبة منسجمة . فكان يصوّر بأظافره ، ثم بآلات حادّة من الصوّان والعظام نقطا متتابعة وخطوطا منكسرة وخطوطا منحرفة عديدة . وكان يزخرف بَيض النعام ويصنع الدرر والأقراط ويُزَرْكِشُ الصخور بنقوش عديدة كما رأيناه سابقا .

وكان البربر يتزيّنون بالحليّ نساء ورجالا . فالرجال يضعون أقراطا في آذانهم والنساء خلاخل في أرجلهن ، وكان جميعُهم يحملون أسورة وقلائد .

ولم يعرفوا رغد العيش في البيت إذ كانوا ينامون على الأرض أو على المصاطب المبنيّة ، ولم يكن لهم من المتاع إلاّ آنية من الفخّار زينتها الهندسية موجودة إلى يومنا هذا في آنية الخزف ببلاد القبائل .

والبربر شأنهم شأن الأمم البدائية كانوا يعتبرون الفنّ ظاهرة اعتيادية للحياة لا متعة للنخبة . وكانوا لا يزخرفون إلاّ الأثاث المستعمل عادة اللّهم إلاّ الحليّ المتّصل أصلها القديم بالسحر . والمرأة فنّانة أكثر من الرجل في غالب الأحيان فهي التي تزخرف آنية الخزَف أو تنسج الزرابي.

ولا يستمدّ الفن البربري نماذجه من الطبيعة ، بل هو يتعلّق بالزينة ذات الأشكال الهندسيّة ولا يستعمل الخطوط المنحنية إلاّ نادرا وبدون براعة إلاّ أنّه غير عاجز عن التقليد ، إذ هو يصنع دمى للسحر صورها بشرية خالصة . وهذا الفن الهندسي الرتيب في الظاهر والذي ربّما يحمل في طيّاته ما يعبّر عن مختلف مراحل تطوّر مّا يَرجع إلى عصور قديمة جدّا . ويتّصف بحيوية ممتازة إذ هو صمد في وجه مظاهر الفن الأخرى

وخاصّة عند اتّصاله بالفن الإسباني الموركسي . وبقيت الفنون كالأدوات هي هي لم تتغيّر ، ولعلّ النّساء هنّ اللاّتي حافظن على تقاليد الفنّ المنزلي العريقة التي لم تأت عليها الاضطرابات والغزوات .

5 ــ اللغة اللّيبية

كان البربر يتكلّمون لهجات ليبيّة من المحتمل أن يكون أصلها البعيد هو أصل اللغات السامية . واللغة كانت ولا تزال عندهم أداة مشافهة وقد قال باسي "ولا نعلم البتّة أنّ البربر أقاموا مدنيّة تعتمد على الكتابة أداتها لغتهم" . غير أنّهم كانوا يحذقون كتابة بقي أصلها مجهولا وربّما كانت فينيقية احتفظ علم الخطوط بآثارها (واكتشفت حتى الآن 1125 كتابة وتؤكّد حروف شبيهة بحروف خطّ الطوارق الحالي (التفيناغ) قرابة بين حروف اللغتين . غير أنّه تعذّر إلى حدّ الآن قراءة الخطوط اللّيبية بالرغم من أنّه يوجد لدينا ما يماثل عشرين منها في البونيقية واللاطينية . والكتابة الوحيدة المؤرّخة جاءت في لغتين وتوجد في توقة (دقّة في العهد الروماني) وتوافق السنة العاشرة من حكم ميسبسا (139 قبل المسيح) ولا يمكن الجزم بأنّه توجد شواهد أقدم للكتابة البربريّة .

6 ــ الدين

كان الأفارقة يعبدون الجماد والحيوان ، ولكنّه من الصعب في غالب الأحيان أن نميّز بين ما ابتكروه من الطقوس وبين ما ورد عليهم من الخارج ، وخاصّة من مصر أثناء العصور النيوليتية بالخصوص . إنّ الجنّ الذي كان معشّشا في العقلية المغربية أولد آلهة محلّية لم يزل البربر يعبدونها حتى العهد الروماني . ثم استعاروا فيما بعد آلهة مصر وقرطاج ورومة أو استعاضوا بها عن آلهتهم . وكان لهم في القرن الأوّل قبل المسيح آلهة تحميهم تسمّى "أفريكا" رأسها مغطّى بجلد فيل . وكانوا يتعبّدون بالخصوص في المغارات أو في الأماكن العالية أو بالقرب من العيون والأشجار المقدّسة بدون أن يحتاجوا إلى تماثيل أو معابد أو كَهَنَة . وعلاوة على المواكب القديمة التي يَتَعَاطَوْنَ فيها السحر

فإنّهم عمَدُوا إلى التضحيــة والعرافــة المعتمدة على النــوم فوق القبور (l'incubation) وإلى تنبّؤات النساء .

7 – دفن الأمــوات

ترك الأفارقة الكهوف الطبيعية المستعملة في عصور ما قبل التاريخ ، وحفروا في الصخور قبورا مربّعة مدخلها عمودي شبيهة بالمساكن ، وتسمّى الحوانيت ، محدودة المساحة عادة ، وفيها يضعون موتاهم . ويعتقد سولينياك كما رأينا أنّ كيفية تنظيم الحوانيت خاضعة إلى التأثير الإيجي . ويرجع أمر هذه الحوانيت إلى العصور البعيدة ، وربّما سبقت الألف الأولى قبل المسيح كما يرى ذلك ستيفان قزال .

وبعد أن كانوا في عصور ما قبل التاريخ يُودعُون موتاهم الخيامَ في الهواء الطلق أصبحوا يدفنونهم بعيدا عن الأماكن المسكونة تحت رِجَامٍ مخروطة الشكل من حجارة كلّها ، أو نصفها من حجارة ونصفها من تراب ، وتسمّى **بازينة** ، وهي رموس بربرية صرف يبلغ حجم بعضها 150 م. ، وفيها تخبّأ العظام عادة في صندوق مكوّن من صفائح . ويدفنونها تحت مصاطب أغطيتها مكوّنة من صفيحة واحدة . وغالبا ما تغطّى كلُّها أو قسم منها برِجام مخروطة الشكل . ويُودِعُونهم أيضا "شوشات" وهي قبور اسطوانية الشكل متفرّعة عن المصاطب . وهذه القبور المبنيّة من مدر ، وخاصة المصاطب ، لابدّ أنّها تنتسب إلى نماذج قديمة جدّا لا شكّ أنّها من عصر نيوليتي . غير أنّ هذه الشعائر نفسها تواصلت قرونا عديدة وخضعت إلى تطوّر محتوم كما تدلّ على ذلك المقارنة بين المقابر التي اكتشفها الدكتور روفو (Roffo) في واد ورِك (جنوب مقاطعة الجزائر) ، وفي عين حمارة (جنوب واد جلال) . ويغلب على الظنّ أنّ مقابر واد ورك سبقت ميلاد المسيح ، أمّا الأخرى فقد تكون معاصرة للقرن الثالث أو الرابع بعد المسيح .

وكانوا في غالب الأحيان يدفنون أمواتا كثيرين في القبر الواحد بعد أن يَطْوُوهم أو يجرّدوهم من لحومهم ويخلّطوا عظامهم.ورغم المؤثّرات

الخارجية فإنّهم لم يكونوا يدفنون الميّت ممدّدا إلاّ نادرا ، ولكنّهم قلّدوا القرطاجيين واليونان فحرقوا في بعض الحالات الاستثنائية بعض موتاهم ابتداء من القرن الثالث قبل المسيح .

وعادة تلوين الميّت بالمغرة امتدّت من عصور ما قبل التاريخ إلى القرن الثاني ، وكانوا يضعون بجانب الميّت أثاثا متواضعا وحليّا ، وآنية بلّورية وخاصّة خزَفية إن أمكن ذلك .

واتّجاه القبور صوب الشرق والصحون المملوءة زادا والمتروكة على ذمّة الجثث وكذلك أحواض الاغتسال التابعة للمصاطب (rigoles à libations des dolmens) فإنها تشير كلّها إلى إيمانهم باليوم الآخر أمّا طيّ الأجسام وخلط العظام فربّما يترجم عن فزعهم من رجوع الموتى .

8 — العائلة الأغنية (La famille agnatique)

إنّ كثرة الأدوات والأسلحة وأصداف الحلزون في مراكز عصور ما ماقبل التاريخ تدلّ على أنّه كان للأفارقة حياة اجتماعية منذ أقدم العصور. والخلية الأصلية في المجتمع البربرى هي العائلة "الاغنية" وهي العائلة التي تقوم على ذكور من سلالة واحدة .

وتعدّد الزوجات هو الذي يعلّل كثرة الولادات الخارقة للعادة . وما قيل من أنّ النّساءكنّ مشاعات بينهم إنما هو أسطورة ربّما استمدّت وجودها ممّا كان يتمتّع به مالك لقبيلة شرقية الموطن من حق افتراع الأبكار ليلة عرسهن ، ومن عادة البغاء المقدّس . وقد أطنب "فرازر" في إقامة الدليل على أنّ مثل هذه العادات لا يمكن اعتبارها مجونا بل ضربا من السّحر المحبّب إلى النفوس . ذلك أن البدائيين يعتقدون أنّ قران الأزواج جسديا يجب أن يتم حسب طقوس مضبوطة لضمان خصوبة الأرض والبشر والحيوان .

ولكبير القوم سلطة مطلقة على كافّة أفراد العائلة "الاغنية" . ولكل أب نفوذه على أفراد عائلته هو ، فيخص نساءه بالأشغال الحقيرة ، ويبيع بناته إلى من يقدّم له أغلى الأثمان ، ويزوّج أبناءه بمن يشاء ويبقيهم تحت نفوذه . فإذا مات الشيخ لا يرث النفوذ أكبر أبنائه سنّا بل يرثه أكبر

أفراد العائلة كلّها . وهـــذا النظام يسمّى اليوم تانسترى (من الارلاندية تانيز بمعنى الثاني) ونجده متّبعا عند ملوك الونـدال والبايات في تونس .

9 ـ جمهوريات القرى والقبائل

إنّ ضرورات الحياة الراعوية والفلاحية حتّمت نشوء مجموعات أوسع وأقوى من العائلة "الاغنية" ، فأهل النجعة يتّحدُون للحفاظ على الأراضي التي يمرّون منها . وأهل الحضر المتعاطُون للفلاحة يشيِّدون القرى لصدّ هجومات أعدائهم الألدّاء وهم البدو . وقد أصبحت هذه القرى جمهوريات صغيرة خاضعة لسلطة مجلس الشيوخ (assemblée gérontocratique) وهو نموذج الجماعة في بلاد القبائل يدير الشؤون المشتركة ويعاقب المتمرّدين حسب قوانين عرفية (القانون في بلاد القبائل ، والأزرف في المغرب الأقصى).

ومن فوق العائلات "الاغنية" ومجموعات العائلات الراعوية وجمهوريات القرى توجد القبائل التي هي عبارة عن دول صغيرة وحّدت صفوفها للدفاع والهجوم (ستفان قزال) . وتحتفظ مجموعات العائلات "الاغنية" باستقلالها حتى ضمن القبيلة وتوفد نُوابا عنها لمجلس مشترك . ولكن عندما تضطرم نار الحرب تختار القبيلة قائدا يسعى إذا هو نجح في مهمّته إلى الانفراد بالحكم وجعله وراثيا .

والقبائل تنهار أو تنتصر وتنتشر أو تنكمش كما تشاء صدف الحرب. وكثيرا ما تأكل أجزاء القبيلة بعضها بعضا نتيجة لقيام شيع وأحزاب متنازعة داخلها، وهي الصفوف (المفرد الصفّ، وهو اللفّ بالمغرب الأقصى) وتتّحد أحزاب بعض القبائل مع أحزاب قبائل أخرى قد تكون اتّحدت هي بدورها مع أحزاب قبائل أخرى . ولذا فإنّ القبائل جماعات لا تعرف الاستقرار . ولانزال نجهل كلّ شيء تقريبا عن توزّع القبائل جغرافيا قبل الاحتلال الروماني.

10 ـ اتّحاد القبائل والاغليد

قد يجمع بعض القواد قبائل عديدة تحت سلطانه بماله من هيبة أو عن طريق القسر والغلبة أو يصبح اغليدا لها أو كما يقال ملكا عليها. والغالب على الظنّ أنّ الممالك البربرية تكوّنت على هذا النحو قبل الدول التي يرتبط تاريخها بتاريخ قرطاج ورومة. واتّحادات القبائل أقلّ استقرارا من القبيلة نفسها . فالملك

يفرض من دون شك سلطته على بلاد المخزن التي تشتمل على سكّان المدن والحضر المقيمين في السهول وتمتدّ أو تضيق بحسب سلطانه . أمّا بلاد الصبا المشتملة على سكّان الجبال وقسم من البدو فكثيرا ما تُفْلِتُ من قبضته. وفي غالب الأحيان تتخلّى عنه بعض القبائل وحتى القبيلة التي ينتسب إليها بعد أن أنهكتها الحروب التي تحمّلت العبء الأكبر منها أو أضنتها اللذّات التي أتاحتها لها ثرواتها فتدفع بموته ثمن انتصارها .

إنّ سلطان الملك على قدر هيبته ، فهو يستعين في ممارسة الحكم لا بموظّفين رسميين بل بأقاربه أو خدمه ، ويستشير وجوبا رؤساء القبائل الذين يقام لآرائهم وزن يتناسب مع عدد رعاياهم . فإذا ما غضبت عليه القبائل شقّت عصا الطاعة في وجهه وقتلته . ولذا فإنّ سياسته كانت ترمي دائما إلى تفريق صفوف المعارضين .

إنّ الملك هو قبل كلّ شيء قائد تنضوي تحت لوائه بصفة مستمرّة جيوش تمدّه بها قبيلته وخاصّة الفرسان،وفي الأوقات العصيبة يجنّد عدد من "القوم" من القبائل الأخرى ، وهم جنود من الطراز الأوّل ، ولكنّ سلاحهم ناقص ، وخضوعهم للنظام مرتبط بتقديرهم الشخصي للمنافع التي تنجرّ عن المعركة التي زجّ بهم فيها ملكهم .

والمشكلة المالية هي أكثر المشاكل استعصاء عن الحلّ ، فالسلط المحليّة تستخلص لا محالة الأداءات على المحصول الفلاحي وعلى الماشية عَرْضا في القبائل والقرى، وعَيْنا في المدن،ولكنّ الملك كثيرا ما كان يكتفي بالهدايا التي تقدّمها عن طواعية القبائل المنيعة ، أو يجبي الضرائب بواسطة "الحركة" التي تَعْمِدُ في نفس الوقت إلى نهب الجهات المتمرّدة . ولا توجد أيّة مساواة في توزيع الضرائب .

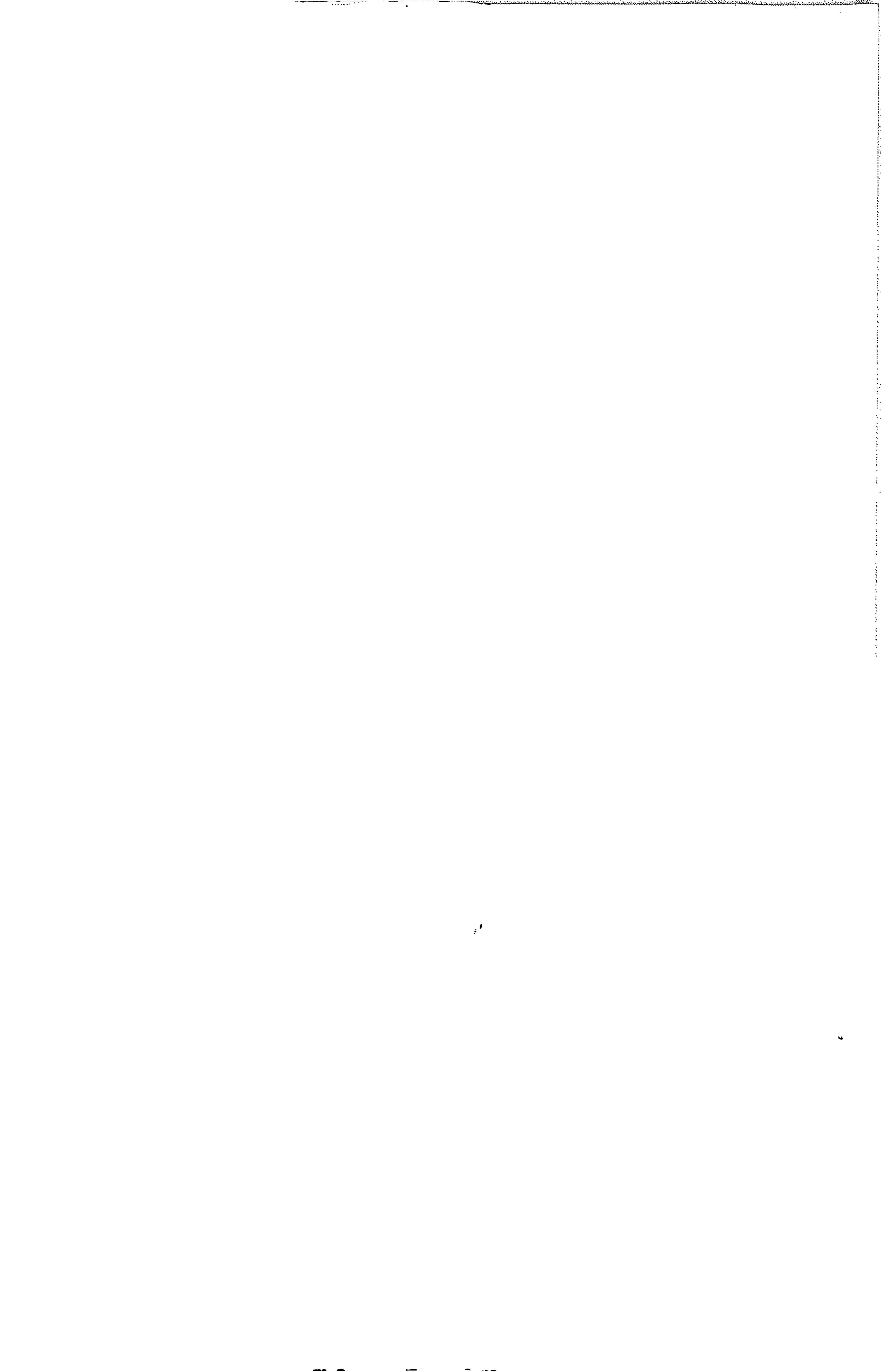
إنّ الكثير من المؤسّسات والعادات الافريقية كان يوجد ما يماثلها في بلدان أخرى من البحر المتوسّط ، ولكنّ بعض البلدان مثل "غوليا" سرعان ما غيّرتها بإضافة عناصر خارجيّة إلى تراثها الذّاتي . أمّا بلاد المغرب فقد بقيت هي هي غيورة على شخصيتها. وخضعت إلى السيطرة المادّية لشعوب أجنبية من دون أن تتأثّر بروحها . ورغم ذلك فإنّ تأثير قرطاج التي اتّصل بها بعض البرابرة في أوّل الأمر فقط طبع مظاهر تفكيرهم وعاداتهم بطابع لم يُمْحَ حتى بعد سقوطها .

الباب الرابع

قرطاج

1 - التوسع القرطاجي. 2 - الحروب البونيقية

3 - المدنية القرطاجية



I ـ التوسع القرطاجي

1 ـ الفينيقيون في بلاد البربر

إنّ الاستعمار الفينيقي الذي دخلت بلاد البربر بفضله في التاريخ لا نعرف من طوره الأوّل إلاّ ما تفيدنا به روايات مشكوك في صحّتها . وإذا اعتمدنا بعضها فإنّ أهل صور (Tyriens) يكونون قدأسّسوا مراكز تجارية على السواحل الافريقية منذ القرن الثاني عشرقبل المسيح نذكر منها أوتيكة على الساحل الغربي من خليج تونس وذلك سنة 1101 كما نذكر لوكسيس (Lixus) الشبيهة بقادس في نفس الفترة وعلى الساحل الاطلسي للمغرب الأقصى . ويقال : إنّها تأسّست سنة 1110 . إلاّ أنّ ما يثير الاستغراب على ما يبدو ، هو أن يؤسّس الفينيقيون هذه المراكز البعيدة قبل أن يضمنوا الأساكل التي تسيطر على مدى نشاط ملاحتهم كلّ ثلاثين كلم تقريبا . ولعلّ المصادر القديمة المتعلّقة بتاريخ الاستعمار الفينيقي لم تميّز دائما ـ كما يعتقد ذلك ب. سانتاس ـ بين طور التعرّف والاكتشاف الذي يفسح المجال لتجارة غير منتظمة وبسيطة نسبيا ، وبين طور الاستعمار الحقيقي الذي تؤسّس فيه المراكز التجارية القارّة .

وإذا بلغ البحّارة الفينيقيون ـ كما هو محتمل جدّا ـ سواحل المحيط الأطلسي منذ القرون الأخيرة من الألف الثانية قبل المسيح ، بحثا عن

ذهب السودان من جهة ، وعن فضّة اسبانيا وقصدير جزر الكسّيتيريد (جهة فان) (Vannetais) التي تصل طرقها إلى "ترشيش" قرب مصبّ الواد الكبير من جهة أخرى ؛ فإنّ الاستعمار الفينيقي — على ما يبدو — لم تتوطّد أركانه إلاّ شيئا فشيئا من الشرق إلى الغرب . ولقد استقرّ الفينيقيون في أوّل الأمر على سواحل "سرتا" ثم أقاموا في قرطــاج من دون شك قبل أن يؤسّسوا مستعمرات حقيقية . وهذا ما تؤيّده الرواية التي نقلها ديودورس الصقلّي (٧ — 20) وما نستنتجه أيضا من أنّه لا يوجد قبر واحد من القبور البونيقية المكتشفة إلى هذا اليوم على السواحل الجزائرية المغربية أقدم من القرن الخامس أوالقرن السادس على أكبر تقدير (في تيبازة Tipasa) على بعد سبعين كلم غربي الجزائر) .

أوائل قرطاج

إنّ قرطاج لعبت دورا عظيما في تاريخ افريقيا الشمالية . إلاّ أنّها قبل أن تبز المراكز الفينيقية الأخرى وتصبح عاصمة بعد ما كان من تقلّبات صور وخرابها سنة 332 ، لم تكن في أوّل أمرها سوى إسْكِلة متواضعة بين سائر مراكز التموين الأخرى . وقد كشفت الحفريات التي تواصلت من سنة 1944 إلى سنة 1947 بصلامبو في منطقة قرطاج القديمة على معبد يرجع عهده إلى ما قبل الطور القرطاجي . وما وجد فيه من أشياء لا يترك مجالا للشكّ في وجود بحّارين شرقيين في هذه الجهة منذ آخر الألف الثانية أو أول الألف الأولى قبل المسيح . إنّ بعض المستعمرين القادمين من "صور" وقبرص الذين تعتبرهم الأسطورة — خطأ على ما يبدو — لاجئين هم الذين أسّسوا حوالي سنة 814 في عهد الملك بغماليون "قرط حدشت" أي مدينة حديثة ، في الخليج الذي تنصبّ فيه مياه واد مجردة وواد مليان ملتقى جانبي البحر الأبيض المتوسّط . ويقال : إنّ أخت "بغماليون" عليسة (أو ديدون) ملكة "صور" هي زعيمتهم ، إلاّ أنّ وجودها وإن كان ممكنا فهو مشكوك فيه .

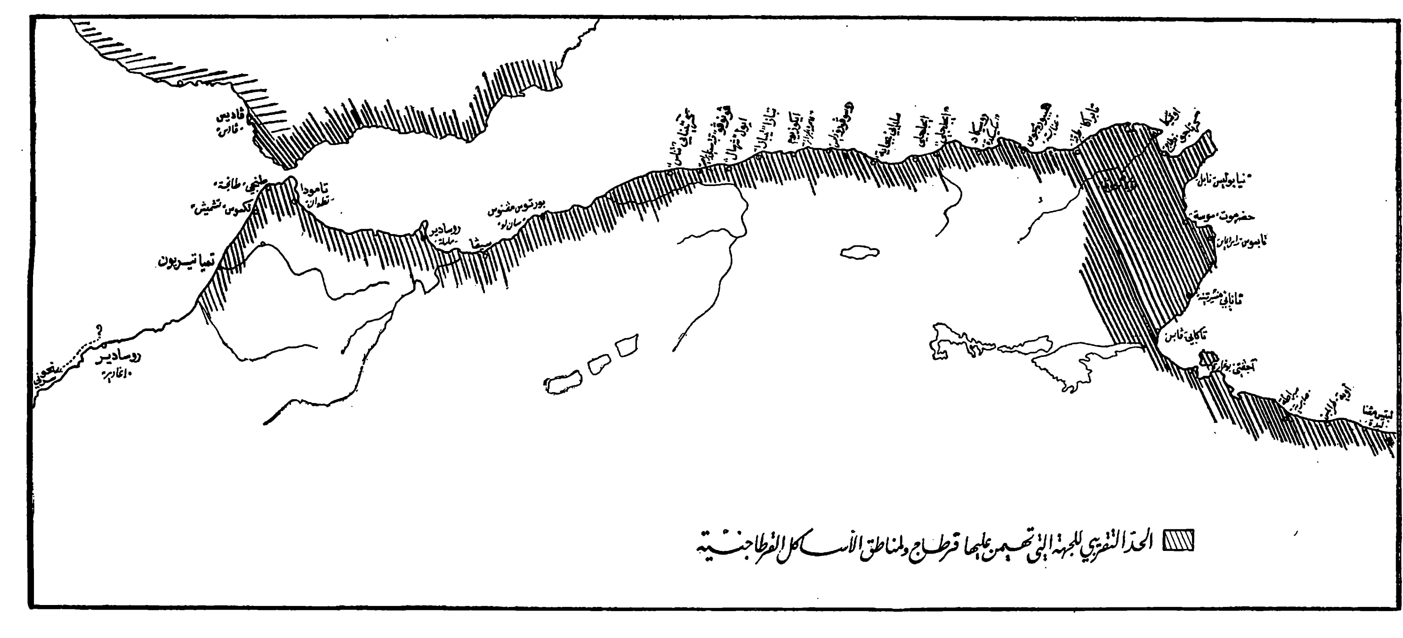
إنّ وضع قرطاج الجغرافي كان يساعد على التوسّع الافريقي والتبادل مع العالم الشرقي أو الغربي . وكذلك كان لوضعها العسكري مزايا هامّة لأنّها أقيمت ، كغالب المدن الفينيقية ، في رقعة من الأرض متوغّلة في البحر لا يربطها بالبلاد إلاّ قطعة مستطيلة تفصل بين بحيرة تونس التي كانت صالحة للملاحة وسبخة أريانة وبذلك كانت تتحدّى حصار الأعداء مثل "صور" .

لقد كانت قرطاج متواضعة في أوّل تاريخها ، تدفع الخراج وتقدّم الهدايا لمعبد هرقليس "الصوري" (ملقرط) ممّا جعل بعض المؤرّخين يرون هذا العمل الذي قد لا يكون سوى مظهر للتقوى دليلا على خضوعها لصور . وواصلت قرطاج دفع الضرائب السنويّة لليببيين طيلة ثلاثة قرون ونصف من غير انقطاع يذكر .

إلاّ أنّ هذه المدينة بفضل هيبة طبقتها الارستقراطية ومهارتها ، وخاصّة بفضل ما اتّصفت به عائلة "ماغون" القوية من روح المبادرة ، استغلّت انحطاط "صور" وفرضت شيئا فشيئا حمايتها على المدن الفينيقية ثمّ ما لبثتْ أن سيطرتْ عليها . وينبىء الأثاث الذي عثر عليه في قبور القرن السابع على اتّساع مجالها التّجاري وتضخّم ثرواتها حتى أنّها تمكّنت سنة 654 من إرسال معمّرين في جزيرة **"بتيوز"** (Pityuse) (إبيسا) .

ولعلّ تناقص الذهب والتحف الفنّيّة في قبور القرن السادس يدلّ على تضاؤل ازدهار قرطاج ، ذلك أنّ اليونان كانوا يبسطون نفوذهم في ذلك الوقت على غربي البحر الأبيض المتوسّط . وقد أصبح الفرس يسيطرون على "صور" ومصر وقريني . لكن قرطاج ردّت الفعل بشدّة ، ووجدت من الزعماء البارزين من أعانها على بسط استعمارها الناشىء ، مثل "مالكوس" الذي حارب في صقلية وسردانيا و"حقّق أشياء عظيمة ضدّ الافريقيين" على حدّ تعبير يوسطينوس ثم ختم نشاطه بافتكاك الحكم حوالي سنة 550.

وتمكّنت قرطاج من طرد "الفوسيين" من جزيرة كرسيكا بإعانة "الاترورييين" بعد انتصارها البحري بألاليا (أليريا في الساحل الشرقي



الشكل : 4 ـ افريقيا البونيقية .

حوالي 535) . واستعانت بالليبيين في آخر القرن السادس لطرد "دوريوس" وهوابن أحد ملوك سبارتا أقام إمارة في ليبيا طيلة سنتين ، بين سيرتا الصغرى وسيرتا الكبرى واضطرّ إلى الالتجاء إلى صقلّية حيث انهزم تحت ضربات القرطاجيين والسجستيين .

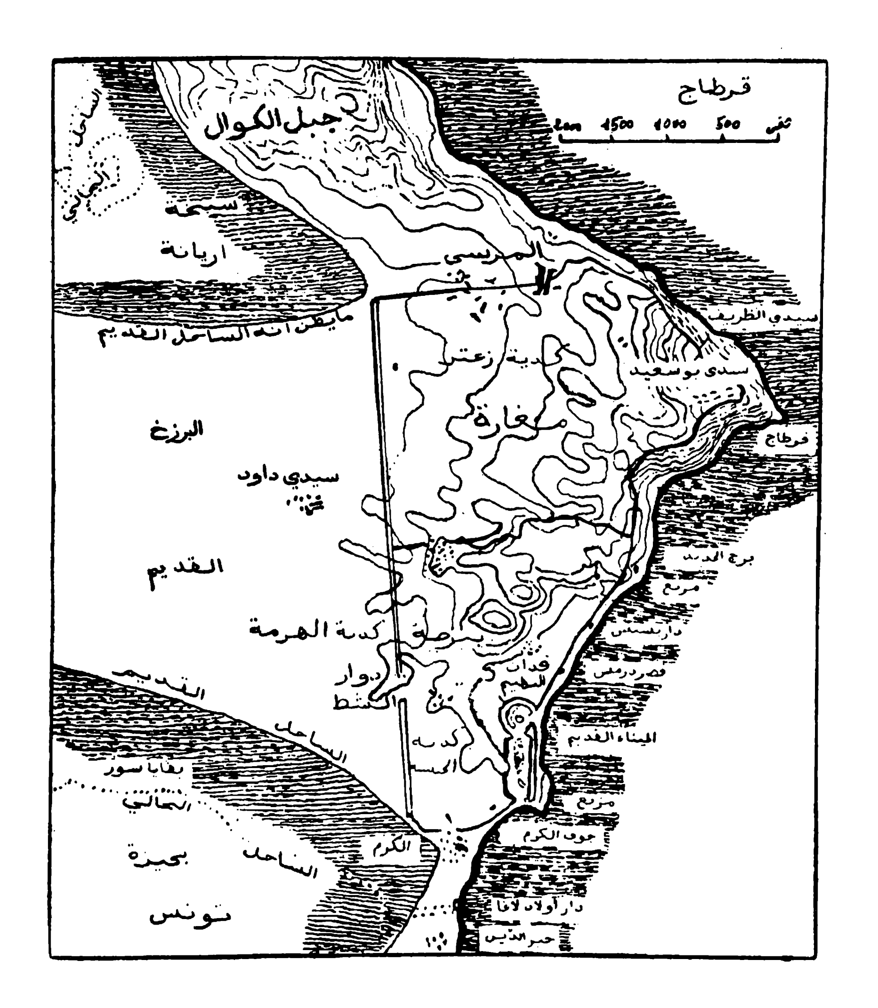
2 – محاولات التوسّع في صقلّية – هيمير (Himère)

لم تكن قرطاج من القوة بحيث تستطيع أن تمنع استعمار اليونان لصقلّية . واقتصرت على الانتصاب في القسم الغربي من الجزيرة بما فيه مدينة "بالرمو" (بانورم) و"سولنت" كستلودي سولانتو شرقي بالرموومُوتيه (في جزيرة سان سنتليو بالقرب من سواحل ليليبي) ولكنّها ما كان يمكنها أن تبقى مكتوفة الأيدي أمام زحف منافسيها الناشطين . وكان الطاغية "جيلون" ، الذي استولى على "سرقوسة" (سنة 485) وجعل منها أغنى مدينة في العالم الهيليني ، يعتمد على تحالفه مع مدينة "أقريجنتي" (Agrigente) التي أخضع طاغيتها "تيبرون" البلدان الواقعة بين بحر ليبيا وبحر التيرهني وبذلك تكوّنت جبهة يونانية شديدة الخطر على الفينيقيين سياسيا وخاصّة اقتصاديا .

ويظهر أنّ الأزمة اشتدّت شيئا فشيئا في طيّ الخفاء طيلة سنوات عديدة قبل أن تؤول إلى الغزوة القرطاجية العظمى سنة 480 . فقد نزل الجيش "ببانورما" ومنها إلى هيمير حيث محقته قوى الطاغيتين المتّحدة . فدفعت قرطاج 2 000 وزنة أوبيّة (talents) غرامة ثم رجعت من حيث أتت هي وحلفاؤها من "ريجيون" و"سيلنونت" . ويقال: إنّ معركة هيمير التي تحطّمت فيها المطامح الفينيقية جرت في نفس اليوم الذي وقعت فيه معركة "سلامين" التي وضعت حدّا لزحف الفرس . وتسرّع المؤرّخون فافترضوا أنّ القرطاجيين والفرس كانوا متّحدين ضدّ اليونان . وأقرب الظنّ أنّ ذلك كان محض صدفة .

3 – أوائل التوغّل الافريقي

يظهر أنّ ما اكتشف من آثار القبور بعد هذه النكبة يدلّ على أنّ قرطاج اضطرّت إلى وضع حدّ لهيمنتها البحرية والانطواء على نفسها .



الشكـل : 5 ـ رسم لقرطاج وضواحيها .

وفعلا كانت مرسيليا حائلا دون موانىء بلاد "غوليا" "واسبانيا"، وكانت كورسيكا تابعة لحلفائها الاترورريين. أمّا صقلّية فقد كان معظمها خارجا عن نفوذها. فلعلّها وجّهت جهودها نحو الأرض الافريقية، ذلك أنّها أخذت في النصف الثاني من القرن الخامس تغزو على حساب الليبيين جهات اقتطعت فيها طبقتها الأرستقراطية أراضي فلاحية، كما أخذت تُجنّد المرتزقة. إلاّ أنّ توسّعها العنيف أثار ردود فعل شديدة فقد والى البربر في القرن التالي ثوراتهم وعبّروا إزاء البونيقيين عن تعلّقهم بالاستقلال الذي اصطدم به جميع الغزاة.

وكان توسّع قرطاج منذ أواسط القرن السادس من عمل الماغونيين بالخصوص وتوصّلت الطبقة الأرستقراطية — التي تهتمّ بما توفّره التجارة من أرباح أكثر من اهتمامها بالانتصارات الحربية — إلى التخلّص منهم بعد أن خضعت لنفوذهم طيلة قرن كامل (حوالي 450). إلاّ أنّها مكّنتهم سنة 409 من الرجوع إلى سياستهم التوسّعية في صقلّية. ولكن لم يكن لقوادهم الجرأة الكافية ولم يكونوا جادّين في الغزو، فلم يستغلّوا انتصاراتهم الكبرى ورضوا بمعاهدات صلح توطّد استعمارهم.

4 — انتصار دونيس صاحب سرقوسة

واستغلّ حفيد المهزوم سنة 480 خصومات المدن اليونانية فاستباح سيلينونت وهيميرٍ (409) ثم أقريجنتي (406). فثارت سرقوسة على أرستقراطيتها العاجزة واتّخذت زعيما أوحد من أصل متواضع وهو دونيس الذي سعى إلى تطعيم القوى الهيلنيّة الواهية بما لأهل سيكول ورعاع الايطاليين من طاقات جديدة. ولم يقهر البونيقيين تماما إلاّ بعد أربعة حروب. فقد انهزم أوّل الأمر في وقائع كثيرة واضطرّ أمام عُنف هجومات البونيقيين الشديدة إلى التخلّي عن مدينتي جيلة وكمارين، وإلى منح ليونتيني ومسينا استقلالهما (سنة 409) ثم حصن سرقوسة وأعاد الكرة سنة 408 وانتقم من مدينة "موتية" أفظع انتقام.

فحوّلت قرطاج عاصمة ممتلكاتها الصقلّية إلى ليليبي (مرســالة) وشنّت بجيوشها الجرّارة حربا انتقامية. فاستولت على مسينا وكادت تفتح سرقوسة،

ولكنّ الطاعون نال من جيوشها . وكلّل أحد هجومات دونيس المعاكسة بالنجاح فاضطرّت إلى دفع 300 وزنة أوبيّة غرامة وإلى التخلّي عن سيلينونت وهيمير وتسليم مرتزقتها الليبيين أو الإسبانيين للفتك أو الاستعباد (سنة 396). ولكنّ الحرب ما لبثت أن اشتعلت نيرانها من جديد فاستمرت حتى موت الطاغية تتخلّلها فترات هدنة متفاوتة الطول .

5 ـ أغاثوكل وحرب افريقية

اغتنمت قرطاج ما تبع موت دونيس (367) من خصومات لأجل الحكم ومن تصدّع أمبراطورية سرقوسة لاسترجاع "أقريجنتي" و"جيله" إلاّ أنّها تقهقرت من جديد إلى ما وراء حاليقوس (Halycos) (340 ـــ 345) عندما هاجمها تموليون الكورينتي الذي استعان بعناصر جديدة من بين المستوطنين اليونانيين وأحجمت عن الهجوم على صقلّية من جديد بعدما رأت ما رأت من سقوط صور على يد الاسكندر (332) الذي أصبحت تخشى هجومه على افريقية ولكنّ أحد قوادها لم يتمالك عن التدخّل في خصومات الأحزاب التي كانت تتنازع سرقوسة فدفع بابن أحد العمّال إلى الحكم وكان جاهلا ولكنّه ذو حزم وعزم اسمه أغاثوكل (سنة 317).

ولم ترض الارستقراطية القرطاجية عن الإعانة التي منحت إلى هذا القائد المنحدر من الشعب والذي بادر منذ توليه الحكم بإعدام الأقلّية الحاكمة وفسخ جميع الديون وتوزيع الأراضي (سنة 314) فهاجمته بأساطيلها وجيوشها فانتصرت عليه وحاصرت سرقوسة . ولكن أغاثوكل لم يكن بالرجل الذي تفتّ في عزيمته الهزيمة . فلمّا انهزم في صقلّية حاول خداع أعدائه وتجرّأ على محاربتهم في ديارهم .

فقد تخلّص من الحصار وتمكّن من النزول في جنوب الوطن القبلي على رأس 14 000 من رجاله (سنة 310) ثم صرف أسطوله واستولى على 200 بلدة منها حضرموت (سوسة) حسبما يروى . ولكنّ قرطاج لم تتأثّر بما قام به من غزوات طيلة عام كامل ، إذ كانت بأسوارها وبتزوّدها عن طريق البحر في مأمن من خطر الحصار . وعندئذ أغرى أغاثوكل أوفيلاس المقدوني الذي أسّس في قريني إمارة مستقلّة عن ملك مصر

ووعده بأن يمكّنه من أن يكون على رأس امبراطورية افريقية فأرسل إليه المرتزقة من اليونان . وسرعان ما تخلّص أغاثوكل منه وأفسد عليه جنوده . وتمكّن من مضاعفة عدد جنوده ومن الاستيلاء على أوتيكة وهيبودياريتوس (بنزرت) واحتلال كامل التراب القرطاجي . وأسّس دور صناعة ليربط الصلة بصقلّية (308 — 309) .

ثم إنّه أدرك أن لا مخرج له من هذا الغزو فعدل عن إرهاب قرطاج والتحق بصقلّية ثم اضطرّ بعد سنة إلى العودة وحاول بدون جدوى تفادي الكوارث التي عقبت رحيله . ثم آل به الأمر إلى التخلّي عن جنوده والهروب بمفرده كما فعل بعده بونبارت في مصر . ففتك جيشه بأبنائه وباع لقرطاج الأراضي المحتلّة .

إنّ فعلته الجريئة التي يبدو أنّها ختمت بالانهيار لم تَخْلُ من عواقب . إنّه لم يحرص على الاستيلاء على قرطاج بل أراد أن تكون له اليد الطولى في صقلّية . فقد رضي البونيقيون بإبرام معاهدة صلح معه ودفعوا له غرامة قدرها 150 وزنة أوبية و100 000 هكتوليتر من القمح وملّكوه على القسم الشرقي من الجزيرة كما أعادوا له حدود حاليقوس (سنة 306) ومات أغاثوكل قبل أن يحقّق ما كان يعتزمه من احتلال لافريقية (سنة 289) غير أنّه فتح الطّريق لأعداء قرطاج وسوف لا ينسى ريقولوس (Regulus) ولا شيبيون الافريقي هذه السابقة .

6 — بيروس وهيرون صاحب سرقوسة

واغتنم البونيقيون فرصة الحروب المدنية التي تبعت موت أغاثوكل للتدخّل من جديد في صقلّية فحرّروا المدن المحتلّة وأرجعوا سرقوسة إلى حدودها الأصلية . أمّا المامرتانيون أي المرتزقة الايطاليون فلم يرجعوا إلى "كمبانيا" بعد أن اضطرّوا إلى الجلاء عن سرقوسة وتمكّنوا من الاستيلاء على مسينا ، ومنها قاموا بهجوماتهم حتى صقلّية الغربية .

لقد كانت قرطاج تؤمّل فتح جزيرة صقلّية كلّها . فبينما كان المغامر الجريء إيبيروس ملك إيبير (Epire) يحارب في ايطاليا أمضت اتّفاقية

مع رومة تعترف لها فيها بسيطرتها على صقلّية . وبينما كانت تحاصر سرقوسة استنجد القواد المحاصرون ببيروس (Pyrlhos) فتخلّى ملك "ايبير" عن عدد من الممتلكات البونيقية في ليليبي وفكّر في نقل الحرب إلى افريقية نفسها ولكنّه مني بهزيمة عسكرية، واصطدم بثورات الصقلّيين ، فخاب ظنّه ورجع إلى ايطاليا (ربيع 275) . فما لبثت قرطاج أن بسطت نفوذها من جديد على غربي الجزيرة واستغلّت قلاقل سرقوسة الدّاخلية والأزمات الواقعة بين أهل سرقوسة والمامرتيين ، فأقامت ثغورا على طول سواحل صور واحتلّت جزر ليباري (Lipari) والجزر الإيولية (Eoliennes) ثم تقدّمت إلى ميلس ومسينا وقضمت من تراب سرقوسة . وكان الغزو التجاري ملازما للغزو العسكري أو ربّما كان يسبقه . وكان ضمّ قرطاج اصقلّية يبدو واقعا قريب المنال .

وفي هذه المرة أيضا أنجبت سرقوسة قائدا اسمه هيرون (Hiéron) (سنة 270) أنقذها بوضع حدّ للفوضى الدّاخلية ، ومحق جيش المامرتيين (Les Mamertins) . وكان في إمكانه ولا شكّ التوغّل حتى مسينا إلاّ أنّ قائد الاسطول البونيقي سبقه بوضع حامية فيها (268 — 269) ولقد تمكّن هيرون من كسب صداقة الشعب الروماني على الأقل .

7 — قرطاج وروما وجها لوجه

عندما استولت قرطاج على مسينا وجدت نفسها وجها لوجه مع روما التي لم يمض وقت طويل حينئذ على استرجاع سلطتها على "ريجيون" في الضفّة الأخرى من المضيق . وكانت العلاقات بين المدينتين إلى ذلك الوقت أقرب إلى الودّ منها إلى أيّ شيء آخر . فقد ضبطت معاهدات كثيرة منذ قرون حقوق كلّ منهما على الأخرى . ويعتقد بعض العلماء على غرار بوليب (Polype) أنّ أقدم معاهدة ترجع إلى السنة الأولى من انتصاب الجمهورية الرومانية (سنة 509) في الوقت الذي كانت الثورة تحدّ فيه من مدى التوسّع الروماني معتمدين في ذلك على سمعة "ستيفان قزال" الكبيرة . غير أنّه منذ ظهور دراسات "مومسن" (Mommssen) رأى علماء آخرون أمثال هـ. نيسان (H. Nissen) وأ. ملتزر (O. Meltzer)

وأ. بايس (E. Païs) وأ. بيقانيول (A. Piganiol) أنّه يمكن أن توجد معاهدة قبل سنة 348 بل يذهبون إلى أنّه يجب تطبيق النص الثاني لبوليب على المعاهدة الأولى . ومهما يكن الأمر فإنّ الاتّفاق ينصّ على أنّه في إمكان روما أن تتاجر مع صقلّية القرطاجية بكامل الحرية وحتى في ميناء قرطاج نفسه . لكنّها تؤكّد أنّه لا يمكنها تجاوز البحار الواقعة وراء رأس سيدي المكّي شمال قرطاج ، ووراء "ما ستياطرسيون" (قرب رأس بالوس قريبا من المكان الذي ستشيّد فيه قرطاج) وأنّه لا يمكن لمراكبها إذا ما هبّت العواصف أن ترسي في مواني افريقية وسردانية أكثر من خمسة أيّام ، وإذا صدقنا المؤرّخ اليوناني فيلينوس الاقْرجنيتي فإنّ المعاهدة الثالثة (سنة 306) التي لم يتوصّل بوليب إلى معرفة نصّها تمنع على قرطاج أن تتدخّل في ايطاليا كما تمنع على رومة التدخّل في صقلّية . وتقرّ الاتّفاقية الأخيرة (سنة 278) التي أبرمت أثناء حرب بيروس حقوق قرطاج في التجارة مع الغرب إلاّ أنّها تنصّ بالخصوص على بنود عسكريّة لا تزال غامضة .

لا شكّ أنّ رومة التزمت منذ سنة 306 بعدم التدخّل في صقلّية ولكنّ قرطاج أقامت الدّليل منذ أن استولى بيروس على تارنت (Tarente) أنّها لا تقيم وزنا لما التزمت به من حياد في ايطاليا . ولم تكن سوء نية رومة تقلّ عن سوء نية قرطاج . وكانت مطامعهما في الاستيلاء على مضيق مسينا تكيّف موقفهما قبل أيّ شيء آخر .

وعندما أطرد المامرتانيون من مسينا استنجدوا برومة إثر ضغط المجالس المئوية (Comices centuriates) على مجلس الشيوخ وتصويتهم لمبدإ التدخّل . ولعلّهم كانوا تحت تأثير العائلات الكبرى التي أصلها "كمباني" و سمنى فاجتاز أبيوس كلوديوس (Appius Claudius) المضيق وأقام حاميته في مسينا (سنة 264) .

II ـ الحـروب البـونيقيـة

1 – الحروب البونيقية الأولى – ميلاي

لم تشهر رومة الحرب لكن قد أصبح لا مفرّ منها بسبب سلوكها . وبدعوى أنّ قرطاج تعدّ العدّة للهجوم على ايطاليا بادرت لأول مرة بشنّ حرب وقائيّة هي مظهر من مظاهر نفاق استعمارها الاقتصادي والعسكري.

لم تكن قرطاج في الواقع ميّالة للدخول في صراع مع رومة فلم تردّ الفعل بشدّة ، وكانت واثقة من سيطرتها على البحار كما كانت رومة مطمئنّة إلى تفوّق جيوشها البرّيّة . فلا هي قدرت على احتلال مسينا عنوة ولا حافظت على حلفها مع هيرون صاحب سرقوسة الذي استنجد بها عندما هاجمه ابيوس كلوديوس بَغْتَة .

وفتح الرومان صقلّيّة فاستولَوا على أقريجنتي (262 — 261) وباعوا 25 000 عبد . ولكنّهم سُرعان ما تعطّل زحفهم بسبب مناعة الحصون الساحلية وانتهى الهجوم البرّي إلى مأزق ، وبات من الضروري القيام بهجوم بحري وهذا ما كان لهم الفضل في إدراكه . فهيّأوا جميع الأسباب لإنجاح الخطّة ، ويقال : إنّهم أعدّوا أسطولا يحتوي على 100 سفينة خماسية و20 سفينة ثلاثية ، وقد اقتبسوا صنعها من سفينة خماسية بونيقية ارتطمت بسواحلهم . ودرّبوا ملاّحيهم على اليابسة قبل أن يبحروا ، ولكنّهم لم يعوزهم الحلفاء البحريون المدرّبون على الملاحة ، وكانوا رغم ذلك في حاجة إلى قدر عظيم من الجرأة ليتجاسروا على مهاجمة أوسع الأساطيل شهرة . وقد أفادتهم هذه الجرأة فانتصر القنصل دويليوس في مياه ميلاي (ميلازو 260) بفضل المراسي المتحرّكة بواسطة البكرات ممّا أتاح للجنود اقتحام بواخر العدوّ ، ثم حاصر أسطول رومة "ألاريا" (في كورسيكا) و"أُلبيا" (ترانوفابرزانيا في سردينيا) ونهب رجالها سواحل جزر "ليباري" وربّما سواحل مالطة (259 — 258) .

2 – ريغولـوس في افريقيـّة

ورغم ذلك فإنّ نجاح السياسة البحرية لم يأت بالنتائج المرجوّة ، فقد فشل القناصل في محاولاتهم فتح "طرابنة" (طراباني) و"بانورم" (باليرمو) بمهاجمتهما عن طريق البرّ ، وعندما انتصر الأسطول مرة ثانية في "ليباري" بادر مجلس الشيوخ بشنّ هجوم على الأرض الافريقية والنزول على سواحلها وكأنّه مدفوع بذكرى أغاثوكل .

فهاجمت 330 مركبا تحمل 40 000 جندي أسطول العدوّ فهزمته وأرست على سواحل منتهى الوطن القبلي بقليبية (Clupéa) سنة 236 . ونهب الجنود منازل الشيوخ الريفية وسطوا على الماشية واستعبدوا 20 000 من أعدائهم . ولمّا لاحظ مجلس الشيوخ السهولة التي انتصرت بها جيوشه على قرطاج استقدم قنصلا وقسما من الجنود وحاول ريغواوس الذي بقي وحيدا في منصب القيادة على رأس 15 000 من رجاله ، أن يتفاوض في عقد الصلح مع قرطاج حتى لا يترك لخلفه الفضل في إبرام معاهدة السلم ، ولكنّ القرطاجيين ضاقوا ذرعا بما عرضه عليهم من شروط فأعاد " زنتيبوس " وهو ضابط أصله من سبارتا ، تنظيم الجيش القرطاجي وهاجم بفرسانه النوميديين وفيلته جيوش ريغولوس فشتّت شملهم وأذاقهم طعم الهزيمة وعندئذ قدمت مراكب النّجدة من ايطاليا لترحيل ما تبقّى من الجيش الروماني أي ألفي رجل ، ولكنّ عاصفة شديدة هبّت عليها فغرق ثمانون مركبا من بين 460 . والمؤرّخون المحبّون لتاريخ رومة يمجّدون بطولة ريغولوس الذي أبى في زعمهم إلاّ أن يعود إلى قرطاج مضحّيا بنفسه رغم تضرّعات زوجته وأبنائه والشيوخ . لكن من الواجب أن نحترز وألاّ نثق ثقة عمياء في هذا الدرس المؤثّر في الوطنية . وعادت لقرطاج سيطرتها على البحار بفضل ضعف هذا القنصل وما تكبّده الأسطول الروماني من هزائم فاضطرّت رومة إلى أن تحصر جهودها في صقلّية .

3 – نهاية الحرب

لم يتمكّن أحد الطرفين المتحاربين من الانتصار على الآخر انتصارا حاسما فلم تتمكّن رومة من الاستيلاء على "ليلبي" (مرساله) ولا على

"طرابنـة" (طراباني) اللذين أصبحا معقل المقاومة القرطاجيّة ، ومنيت بهزيمتين بحريتين (249) اضطرّت معهما إلى تحديد أسطولها بستين مركبا ، كما أنّ القواد البونيقيين لم تكن لهم القوة الكافية لشنّ هجوم معاكس حاسم أو أنّهم أعوزتهم الجرأة الكافية للقيام بهذا العمل . إلاّ أنّ خطّة "عبد ملقرط البرقي" الماهرة أقضّت مضاجع الرومان ، فقد اعتصم جنوده بقمم جبل "رقطة" قرب "باليرمو" (وهو جبل كستلاسيو أمام جزيرة دلافمينا من دون شكّ) وجبل "إيريكس" (جبل جوليانو المشرف على طرابنة) وعطّلوا مواصلات جيوش العدو ونقل المعدّات الحربية إليه .

لقد كانت رومة وقرطاج في حاجة إلى المال في ذلك الوقت ، وكانت رومة تسمّي العدد الكبير من القواد بحسب المكايد السياسية . أمّا قرطاج فقد كانت واثقة من عبقريّة عبد ملقرط البرقي وحده وطالت العمليات الحربية من غير أن تتراءى النتيجة . إلاّ أنّ استعمار الرومان العسكري كان أثبت وأطول نفسا من استعمار قرطاج التّجاري فسعت رومة إلى بلوغ هدفها بواسطة البحر ، وطلبت من طبقة النبلاء تجهيز 200 سفينة خماسية هجمت بها على "طرابنة" وحطّمت أو حجزت مجموعة من مراكب التموين البونيقية قرب جزر "أغادى" (10 مارس 241) . ولم يكن لقرطاج مال كثير أو جيوش كافية فقبلت التصالح ، ورضيت بالجلاء عن صقلّيّة والجزر التي بين صقلّية وايطاليا (ليباري من دون شكّ) وبدفع غرامة حربية تقدّر بـ 200 3 وزنة أوبية أقساطا مدّة عشر سنين .

4 — تسريح جنود قرطاج ، وثورة المرتزقة

خسرت قرطاج من جرّاء هذه الحرب 500 سفينة ، وحُرمت من مواردها القمرقية . فلمّا توافد عليها العشرون ألفا من المرتزقة الذين كانوا في صقلّية لم تستطع أن تدفع لهم ثمن القمح الذي استهلكوه ، وإلى هؤلاء الذين نغلت قلوبهم عليها انضمّ الليبيون وقد أضنتهم الحرب من بدايتها . ثم إنّه وقع حجز نصف الصابة وزجّ في السجن بجميع من عجزوا عن الدفع وصُلب 000 3 من إخوانهم الذين فرّوا من الجنديّة لأنّهم أبوا أن يخدموا قضية ليس لهم فيها ناقة ولا جمل. فنشأت أزمة عن هذا

الحقد المشترك على الظالم طبعت طيلة ثلاث سنين وأربعة أشهر بطابع الحرب الطبقية ، وقد ضحت النساء البربريات بحليهن في سبيل الحرية وظهر القادة من صفوف الثوار ولم تعرف الحرب هوادة .

"وماتوس" الليبي هو الذي أشعل نار الثورة ، فاستجاب لندائه الحضر والبدو وسرعان ما التف حوله سبعون ألفا من الرجال يحدوهم نفس الحماس ، وعينت قرطاج "حنون" لمقاومتهم وكأنها أرادت أن تتحداهم لأن الأفارقة كانوا لا يكرهون رجلا كما كانوا يكرهونه ، ولم يقدر حنون على منعهم من احتلال البرزخ الفاصل بين قرطاج وتونس (سنة 240) ومحاصرة أوتيكة وبنزرت .

فاضطرت قرطاج إلى الاستنجاد بعبد ملقرط البرقي رغم أنها كانت تشك في إخلاصه . ففك الحصار عن أوتيكة ، وأجبر العدو على الفرار . ولكن الذي أنقذ قرطاج هو في الحقيقة منافسات الأهالي التي عطلت دائما ما كانوا يبذلونه من مجهود للتحرر . وقد أمده الأمير "نارافاس" بعون الفرسان النوميديين ، ومكنه بذلك من الانتصار على المرتزقة وحاول عبد ملقرط البرقي حينئذ تفريق صفوف الأعداء بالإكثار من الوعود ، فرد المرتزقة الفعل بإبادة أعيان قرطاج وبذلك بدأت "الحرب الضروس" .

ولعبت رومة على حبلين ، فبعد أن زود تجارها الثوار طالبت قرطاج بتسليم كرسيكا وسردينيا ودفع غرامة أخرى تقدر بـ 200 1 وزنة أوبية بعد أن هددتها بحرب جديدة (سنة 241) . ثم هي بعد أن نجحت في مساومتها رخصت للبونيقيين في تجنيد المرتزقة بايطاليا وسهلت عليهم التموين بينما حجرته على المرتزقة والليبيين وزود "هيرون" من جهته قرطاج ، بحيث تألب حماة النظام القائم جميعهم على الثوار (حوالي 239) .

وعندما تخلصت قرطاج من جميع مشاغلها الخارجية وكسبت حتى إعانة أعدائها بالأمس أتيح لها أن تضرب ضربتها الحاسمة فطوق عبد ملقرط البرقي المرتزقة في فج المنشار (بين الحمامات وزغوان) ، وانهزم الليبيون في لمطة (Leptis Minor) رغم أنهم كانوا أشد مقاومة من

المرتزقة ، وصلب ماتوس ثم سلّمت مدينتا "أوتيكة" و"بنزرت" أمرهما إلى الغالب (سنة 237) .

5 – الاستعمار القرطاجي في اسبانيا : عبد ملقرط عزر بعل

خرجت قرطاج من هذه الحرب المدنية منهوكة القُوَى ، فسعت إلى الإصلاح من حالتها المالية وسلّطت عبد ملقرط البرقي على اسبانيا ومناجمها الفضّية وتخلّصت في نفس الوقت من المرتزقة الذين أبطرتهم الراحة وأنهكهم الضجر. وانطلق هذا القائد من "قادس" فاحتلّ الأندلس وخاض معارك بلغ إثْرها البحر المتوسّط . فشقّ بذلك بين البحرين طريقا تجارية ممتازة أصبحت تهدّد مصالح "مرسيليا" التي كانت حينذاك سيّدة "روطة" و"امبورياس" شمال "الايبرو" . وكأنّه أراد أن يسجّل احتلاله للساحل الشرقي فأسّس مدينة "أكرالانكي" (أليكانت) وكانت اسبانيا في ذلك الوقت ازدهرت فيها حضارة وفنّ يعبّران عن امتزاج عناصر يونانية وبونيقية واسبانية ، ولمّا مات عبد ملقرط وهو يحاصر "هليكا"(الش) ترك لقرطاج مناجم لا تنفد فضربت نقودا فضّية كبيرة .

وواصل صهره عزربعل سياسة آل برقة الشخصية فأحدث في قلب المنطقة الغنية بالفضّة مركزا بحريا وتجاريا ذا موقع ممتاز ، وأسماه قرطاج الجديدة (قرطاجنة) . وتضايقت رومة من اطّراد نجاحه وخشيت أن يتمّ التحالف بين البونيقيين والغوليين وخاصّة الاستيلاء على المراكز التجارية التابعة لمرسيليا . وتوصّلت إلى أن يلتزم عزربعل ، بعد ضغط حليفتها عليه ولا شكّ ، بعدم تجاوز "الايبرو" في فتوحاته (حوالي 226) .

6 – خطوات حنّبعل الأولى

أحدث اغتيال عزربعل اضطرابات في قرطاج ، واتّهم "آل برقة" بأنّهم يستغلّون ثروتهم الاستعمارية لتمويل أتباعهم وإغراء خصومهم بالمال. ولكنّ الجيش في اسبانيا لم يكن ليقيم وزنا لتقلّبات الرأى العام واختار حنّبعل ، ابن عبد ملقرط البرقي ، قائدا له ، وهو شابّ في الخامسة والعشرين من عمره ، كشفت الأيّام عن قدرته النادرة على القيادة والتنظيم.

لا شكّ أنّ عبد ملقرط البرقي أضمر حربا أخرى للأخذ بالثأر ، فقد طالب ابنه ولمّا يزل في التاسعة من عمره ، أن يقسم في معبد قادس بأن يحقد على الرومان حقدا أبديا . وقبل أن يشرع حنّبعل في تحقيق مشاريع أبيه بدأ بتوسيع رقعة العمليات في اسبانيا فتوغّل حتّى بلغ الالغادا (قرب منابع وادي آنة) و"الفاكيين" (على ضفّة الدورو) الذين افتكّ منهم "سلامنتكا" (Salamanque) ثم هزم جيش "الكرابطة" الجرّار (قشتالة الجديدة) على ضفّة "التاج" .

ولمّا استولى على الجهات الكائنة شرقي "الايبرو" استعدّ لمهاجمة "ساغونته" (مورفيدرو) ، بدعوى أنّهم في خصومة مع حلفائه الإسبان . وفتحها عنوة سنة 219 بعد حصار دام ثمانية أشهر . فلم تَحتَجَّ روما في ذلك الوقت إذ كانت "ساغونته" فعلا في جنوب "الايبرو" ، ولم تكن متيقّنة من محالفة ساغونته (Sagonte) لها ، إلاّ أنّ مصالح مرسيليا التجارية كانت بلا شك من الأهميّة بحيث أثّرت على سياسة روما . كما أنّ رجال المال الايطاليين تحيّروا من الاستيلاء على مناجم الفضّة . وعندما رفض الشيوخ البونيقيون الضرب على أيدي حنّبعل رغم الإلحاح لم يجد سفراء رومة بدّا من إشهار الحرب (218) .

7) الحرب البونيقية الثانية : معركة ايطاليا

إنّ رومة لم تقرأ حسابا لعبقرية حنّبعل الذي كان ينتظر هذه القطيعة لينفّذ خطّة الهجوم . فاجتاز "البرقي" نهر الايبرو ثم البيرينه على رأس 50 000 من المُشَاة و 9 000 من الفرسان و 37 فيلا (جوان 218) ، وتمكّن من عبور نهر "الرون" حوالي منتصف شهر أوت . وحاذاه في اتّجاه منبعه إلى حيث يلتقي هذا النهر بنهر الايزير ، واختار الطريق التي لم يشدّد الرومان حراستهم فيها لاجتياز جبال "الالب" . ولا تزال المناقشات مستمرّة لمعرفة هل أنّه مرّ بالقرب من فجّ سان برنار الأصغر أو وادي "الارك" فجبل الاقنيس أو الإيزير الأسفل فجبل "جونيفر" . وكان مروره عبر هذه الأنهار والجبال عسيرا جدّا ، خصوصا بالنسبة للفرسان وحاملات

العدّة . وبعد مسير خمسة أشهـر من بينها خمسة عشر يوما في الجبال بلغ الجيش القرطاجي "الطوريين" في وادي "بـو" (آخر سبتمبر) ولم يبق منه إلاّ 000 12 افريقي . و000 8 اسباني و 000 6 فارس و 21 فيلا . وقد كلّف حنّبعل جنوده فوق وسعهم ، آملا أن يجد في شمال ايطاليا حلفاء ، وأن يكوّن جبهة ضدّ روما التي كان "البوبون" قد ثاروا عليها عندما أسّست مستعمرتي "بليزانس" و"كريمون" .

وحينئذ لم يعد القناصل يسيطرون على الموقف . فبعد أن اضطرّ ب. كورنيليوس شيبيون" الذي كان أرسل جيوشه من مرسيلية إلى اسبانيا، إلى العدول عن ملاحقة القرطاجيين في وادي "الرون" تسلّم قيادة الجيش المعسكر قبالة الألب (Cisalpine) واجتاز نهر "البو" . ولكنّ الفرسان النوميديين دحروه شرقي تيسينو (Tessin) فتقهقر إلى ضواحي بليزانس (Plaisance) وراء تريبية . وقد نالت هذه المعركة التي دارت بين طلائع الجيشين من هيبة الرومان فانضمّ الجنود "الغوليون" إلى العدوّ وتحالف شعب "أنسيبر" مع البونيقيين .

وسجّل حنّبعل بفضل عبقريته انتصارات عسكرية تدعو إلى الإعجاب فهزم جيوش "سيروتيوس" و"ب. شيبيون" ، وبرد الشتاء في أوجه ، على ضفاف نهر تريبية ، وقتل أو أغرق ثلاثة أرباع أعدائه . وقد غذّى هذا الانتصار الذي تبعته دعاية واسعة ثورة "الغوليين" ثم اجتاز حنّبعل بصعوبة جبال "الآبنان" سالكا طرقا محفّرة حتى "صدفة لوك" ثم اخترق وادي أرنو (Arno) وتوجّه نحو "بيروزا" تاركا على يساره "أريتيوم" حيث كان يعسكر جيش القنصل "أفلامينوس" . ولم يبق له إلاّ فيل واحد . فحصر أفلامينوس نفسه في مضيق كائن بين بحيرة "طرازيمان" وهضاب الشمال كأنّه أوقع بنفسه في فخّ وذلك من غير أن ينتظر زميله "سرفيليوس" الذي كان في أريمنيوم" . فهلك مع 000 15 من رجاله وأسّر 000 15 آخرون . واحتفظ حنّبعل بالرومان وخلّى سبيل الحلفاء وبذلك وقف في مهارة موقف المدافع عن الحريات الايطالية .

واحتلّ الجيش البونيقي عبر الابينان الامبري ، البيسينوم التي لم تخضع لسلطة رومة إلاّ منذ نصف قرن فقط . فوجد فيها الزاد والحليف ، والراجح

أنّـه اتّـصل بـ "المارسيين ، والماروسيين والبيلينيين القاطنين في الابنان الأوسط وحرّضهم على العصيان . ولكنّ رومة عيّنت "كانتوس فابيوس مكسيموس" خصم أفلامينوس القديم دكتاتورا وهو من أنصار الحرب التي تنهك قوى العدوّ بطول المقاومة بدون الاصطدام به وجها لوجه . ولمّا اقترب من عدوّه انتقل حنّبعل إلى سهل "دوني" ثم إلى "كامباني" وتزوّد من خيرات تلك الجهة . فلحقه "فابيوس" وكاد أن يقبض عليه إلاّ أنّ الرومان ملّوا هذه الخطّة البطيئة الليّنة التي كان يسير عليها هذا الدكتاتور "المتأنّي" واعتقد الشعب أنّ الرعاع المتنبلّين اتّحدوا مع الارستقراطيين لمواصلة الحرب دون جدوى فعيّن شخصية جديدة معروفة ببلاغتها المتحمّسة هي"تارتيوس فارو"لتشارك القنصل إيمليوس بولوس في الحكم.

ووصل حنّبعل إلى سهول "أبولي" واستحوذ على المخازن الحربية "بكانة" وعسكر الجيش الروماني الذي كان يضمّ ما يقرب من 80 000 بالقرب منه . وبدأ "فارون" المعركة بالرغم عن ايميليوس على الضفّة اليمنى من "الاوفيد" (أوت 216) ونجح حنّبعل الذي كان عدد جنوده لايتجاوز نصف عدد جنـود الرومان في تطويق العدوّ من كلّ جانب ، وقتل "ايمليوس" و 45 000 روماني وأسّر 20 000 . ولاذت فلول الجيش الروماني بالفرار والتحقت بكانوزيوم تحت جنح الظلام ، وفرّ "فاورون" كذلك ، فرأى مجلس الشيوخ من الدهاء أن يقتبله معزّزا مكرّما .

ويتساءل المؤرّخون لماذا لم يستغلّ حنّبعل انتصاره . ولا شكّ أنّه كان يرى من المستحيل محاصرة رومة ، ولعلّه كان يأمل أن يجنح مجلس الشّيوخ إلى التفاوض ، ولكنّ شيئا من ذلك لم يحدث . وقد جلب انتصاره في "كانة" بعض الحلفاء ، وخاصّة مدينة "كابو" في جنوب ايطاليا كما أنّه مكّن قرطاج بعد موت هيرون من مضاعفة بسط نفوذها في صقلّيّة ، ولكنّ ايطاليا الوسطى لم تحرّك ساكنا ولم تتكوّن أيّةُ جبهة في البحر المتوسّط من شأنها أن تهدّد مستقبل رومة .

ومنذئذ استحالت الملحمة مغامرة ، وانهارت قوّة حنّبعل شيئا فشيئا ابتداء من سنة 213 . فقد أطرد الرومان في مدّة سنتين البونيقيين بدون رجعة وسقطت كابو في يد الرومان ونالها عذاب عسير كما فتح "كرنوليوس

شيبيون" الأندلس وفقدت قرطاج من جرّاء ذلك زمام الحرب (208 — 207) وتمّت مشيئة القدر وعندما حاول عزربعل فيما بعد نجدة أخيه انهزم وقتل قرب "الميتور" (جوان ، جويلية 207) وآل الأمر بحنّبعل إلى أن ظلّ معسكرا بالبرونيوم حيث لم يتجاسر أحد على اقتحام مكانه.

8) شيبيون الافريقي

لما عاد شيبيون من اسبانيا (206) (وهوب . كورنوليوس شيبيون الذي لقّب الافريقي بعد انتصاره) اقترح مواصلة الحرب في أرض افريقية نفسها . ولم يتحمّس الشيوخ لمشروعه ، ولكنّ الشّعب قبله . فأعدّ العدّة للهجوم معتمدا على ما أمدّته به مقاطعة صقلّية من موارد ، وعلى الجنود الذين خلبهم بسمعته . وقد كان أجرى محادثات إيجابية مع الإغليد سيفاكس ، أمير مازيسولة أونوميدي الغرب ومع "الإغليد" مسينسا أبن ملك ماسولة أو نوميدي الشرق الذي اضطرّه سيفاكس إلى أن يكون من الأنصار ومستعدّا دائما لقيادة القبائل الثائرة . غير أنّ سيفاكس تزوّج من سوفونيسب الجميلة ابنة عزربعل جسكون التي كان لها الأثر البالغ عليه فحملته على التحالف مع قرطاج وردّ مسينسا إلى أقصى سيرتا الصغيرى . فلم يبق لشيبيون بعد هذه الخيبة المزدوجة إلاّ الاعتماد على قواه الخاصّة .

9) معركـة افريقيـة

وما إن حمل ضغط الطبقة الشعبية مجلس الشيوخ على السماح لشيبيون بالتوجّه إلى افريقية (204) حتّى نزل على رأس كتيبتين بالقرب من أوتيكة وعسكر قرب المدينة (كستراكورنيليا) وجاب وادي مجردة من دون أن يعترض طريقه شيء . وقد كانت قرطاج المحتمية بأسوارها لا تخشى الهجوم ، ولكن لم يكن لها جيش يذكر وكانت تؤمل تدخّل أمراء البربر . ولكنّ مسينسا الذي استمالته قرطاج بوعودها الكثيرة انضمّ إلى العدوّ والمعركة على أشدّها . واكتفى سيفاكس بمفاوضة الرومان حول مشروع للسلم . واغتنم شيبيون هذه المحادثات ليفاجىء العدوّ ويضرم النار في معسكري عزربعل وسيفاكس . وبذلك قضى على جيشين فأهلك

40 000 جندي وأسر 5 000 آخرين (ربيع 203) . فكانت هذه الفعلة حسب ما روى بوليب أجمل وأعظم ما قام به هذا القائد الشاب من الأعمال الجريئة .

وأخذ عزربعل وسيفاكس يعدان العدة بمعونة السلتيين والاسبانيين للهجوم على العدو ، ولكنهما خابا شر خيبة . وواصل شيبيون تقدمه محاذيا وادي مجردة ، وانتصر على العدو في الدخلة ، ثم عسكر بتونس وأخذ يهدد قرطاج (جوان 203) وتعقب مسينسا سيفاكس إلى أن ألقى عليه القبض ودخل سيرته . وهنا نجد أسطورة تعلق هذا البربري بسوفونسبة ابنة عزر بعل وانتحارها . وقد تسلى مسينسا على كل حال بتسلم شعار الملوكية .

رضي شيبيون أن يوقف العمليات الحربية ليمكن قرطاج من التفاوض من أجل الصلح وأيدته في ذلك مجالس الانتخاب (شتاء 203 — 202) . ولكن مجموعة من المراكب الرومانية مثقلة بالمؤن ارتطمت بسواحل قرطاج فنهبها القرطاجيون وقد أخذ منهم الجوع مأخذه . ولما قدم السفراء الرومان للاحتجاج كاد الجمهور أن ينال منهم ضربا . فاضطر شيبيون إلى أن يضع حدا لوقف القتال . وكان سكان المدينة يعتمدون على حنبعل الذي طلب منه العودة من ايطاليا فاجتاز "البرقي" البحر من دون أن تعترض طريقه أية عقبة ونزل بلمطة في صيف 203 (Leptis Minor) ومنها وصل إلى حضرموت . فماذا فعل طيلة السنة التي سبقت الاصطدام الكبير ؟ لا شك أنه جمع حوله قبائل بربرية . وبينما كان في طريقه إلى الجيوش الأهلية التي أتى بها إليه أحد أبناء سيفاكس ، "فرمينا" إذا به يلتقي بجيش شيبيون في جهة الكاف . وتمت بينهما مقابلة لم تأت بنتيجة تذكر إذ رفض القائد الروماني الاقتراحات التي قبلتها قرطاج لإبرام الصلح : وهي التخلص عن اسبانيا والجزر، وتخريب الأسطول البونيقي ما عدا عشرين مركبا ، وذلك مقابل الاعتراف لقرطاج بالسيطرة على افريقية . وحينئذ جرت المعركة الحاسمة بالقرب من جامه (Zama) ولا يزال مكانها المضبوط محل الأخذ والرد .

لقد أعوزت حنبعل النجدة التي كان يترقبها من "فرمينا" ، بينما وصلت جيوش مسينسا لتعزيز صفوف شيبيون في الوقت المناسب .

وكان جنود حنّبعل تنقصهم الدربة وقد أخذ منهم التعب مأخذا عظيما ، فانهزم القائد القرطاجي وفرّ إلى حضرموت تاركا 000 20 قتيل في ساحة الوغى بينما وقع في أيدي العدوّ 000 20 آخرون . وقد اعترف شيبيون بأنّ البرقي بذل في معركة جامه كلّ ما كان يمكن أن يبذله بشر للانتصار (أكتوبر 202) .

10) خضوع قرطــاج

طلب القرطاجيون الصلح فقرّر شيبيون أن تحتفظ قرطاج بترابها الافريقي على شرط ألاّ تشهر الحرب إلاّ بإذن من رومة ، وأن تتنازل لمسينسا عن مقاليد السيادة على البلاد النوميديّة . واضطرت قرطاج كذلك إلى التفريط في فِيلَتِهَا وأسطولها ما عدا عشر سفن ثلاثية ، وإلى العدول عن تجنيد المرتزقة من بلاد غوليا وليغوريا وتسليم كلّ ما لديها من غنيمة ، ودفع غرامة حربية قدرها 000 10 وزنة أوبية منها 000 1 تدفع في الحال وقبل إيقاف القتال ، وأخيرا أجبرت على إرسال الرهائن إلى رومة .

ولم تجد قرطاج بدّا من قبول هذه الشروط القاسية التي جعلتها عرضة لمطامح مسينسا (ربيع 201) ويقال : إنّ حنّبعل رمى من أعلى المنصة بقرطاجي كان يطالب بمواصلة الحرب إلى النهاية معتقدا أنّ التشنّي لا يجدي ، بل من الواجب تحطيم ارستقراطية المال التي تتحمّل قسطا وافرا من مسؤولية هذه الكوارث ووجّه البرقي ضرباته الأولى ضدّ مجلس الشيوخ ، ثم ظلّ يسعى إلى تحسين الوضع المالي والفلاحي بقرطاج إلى أن تعاظم حقد أعدائه عليه وازدادت مخاوف رومة منه فتقرّر نفيه .

إنّ قرطاج خرجت منهوكة القُوى من هذا الصِراع بين البونيقيين والرومان الذي دام أكثر من ستين سنة . وقد أصبح من المألوف أن يرى المؤرّخون في الحروب البونيقية مظهرا من الصِراع القائم بين الشرق والغرب ، وبين مدنيتين ولنقل نحن : بين صورتين للاستعمار .

وسوف لا نتعرّض للمدنية اللاطينيـة في هذا الكتاب إلاّ بالقدر الذي أثرت به على سياسـة رومة الافريقية . أمّا المدنية البونيقية فهي بالعكس تهمّ بلاد المغرب مباشرة ، لا لأنّ قرطاج كانت عاصمـة فحسب ، بل لأنّـها أثّـرت كذلك تأثيرا بالغـا في بلاد البربـر .

III ـ المـدنيــة القرطـاجيــة

1 ـ قرطاج : المدينـة والمينـــاء

إنّنا لا نعرف عن قرطاج إلاّ ما كتبه عنهـا اليونانيون والـلاطينـيون ، وكانوا معنيّين أولا وبالذات بحروبهـا مع سرقوسة أو رومة . وليست لدينا مؤلّفات تاريخيّـة متواصلة الحلقـات خطّـها أبناء قرطاج أنفسهم ، وذلك ما يعلّـل الأسطورة التي ظلّت أحقابا كثيرة تقابـل بين حسن نيّة رومة والنّفـاق البونيقي . أمّا عن المدنيّة فإنّ النصوص لا تـكاد تفيدنـا شيئا كما لا يفيدنـا الأثاث الجنائزي فائدة تذكـر .

ولا يعْنينا أن نأمـل إحياء العاصمـة البونيقيـة (إن لم نقـل "المستعمرة القيصريـة" التي تمكّن ش. سوماني من ضبط موقعهـا الأصلي) إلاّ أنّه لا يستبعـد أن تمدّنا الأبحاث المنظّمـة بصورة أقلّ وحشة من الصورة التي تسيطـر على عقولنا اليوم .

إنّ مكان القبور والمعبد "ما قبل القرطاجي" الذي حفر عليه "ب. سنتان" في رمال صلامبو يشهدان بأنّ أقدم جهة لمدينة قرطاج كانت على ساحل البحر في سفـح الهضبـة المسمّاة "بيرصة" أو "سان لوي" ثم انتشـرت على ضفّـة البحر والمنجدرات . ولئن لم يبلغ عدد سكّانها 000 700 كما يدّعي سترابـن فإنّـهـا كـانت على كلّ حـال مدينة عظيمـة بالنسبة لذلك العهـد . وقد كشفت حفريات حديثة عن بعض الدّيار ، وربّـما عن بقايا من سورها في الجهة الشرقية خاصّـة .

وكانت قرطاج أثناء الحرب البونيقيـة الثالثـة في حصن حصين تـحوطـها أسوار بلغ طولها 34 كلم وارتفاعهـا 13 مترا وسمكها 9 أمتار ويوجد عليها

بـرج للدفـاع كـلّ 59 مترا . وتقع الساحة العمومية أو "الاغـورة" (Agora) بين المواني وبيرصة ، ومنهـا تتفرّع ثلاثة شـوارع صاعدة إلى معبد أشمون ازدحمت على جوانبهـا بيوت ذات ستّ طوابق . وتحتلّ المقابـر شمالا هضبة "الاوديـون" بالقرب من درمش ودويمس وسانت مونيك (السعيدة). وبعدها تبدأ ضاحية مغارة محتلّـة مساحات شاسعة في جهة سيدي أبي سعيد.

إنّ المينـاء المـزدوج الذي كان القلـب النابض للحركـة التّجاريـة بقرطاج حيّر علماء الآثار . وإذا نحن نظرنا شمالا وتأمّلنا الغديريـن المتلالئة مياههما تحت أشعّـة الشمـس بين صلامبو ودرمش تعذّر علينا أن نتصوّر الحوض الكبير المستطيل الخاصّ بالتجارة الذي وصفه "آبيان" والمتصل بالبحـر ، وكذلك الحوض المستدير المحاط بسورين الذي يرسي فيه الأسطول الحربي حول جزيـرة القيادة ، إلاّ أنّ "بيلي" ذهب إلى الاعتقـاد رغم ذلك في منتصف القـرن الماضي بأنّ الجزء المهمّ من رسم المينـاءين المحفوريـن (القطون Kothon) يوجد في هذا المكان .

ومن يومئذ ، أخذ علمـاء الآثـار يفتّشون عن موقعهمـا في قلب البحـر بجون الكرم على سفح هضبة البرج الجديـد أو في خليج تونس . وهل أدعى إلى السخرية من أن يرجع "ستفن قـزال" من جديـد « وهو أحد كبار البــاحثين وأعلمـهم » إلى الفرضية التي تقدّم بهـا "بـولي Beulé" وذلك بعد نصف قرن من الحفريـات والمناقشات العلميـة .

2 ــ الاسكلـة القرطاجيــة

إنّ موقع هذا الميناء المـــمتاز المتّصل بـــحوضي البحر المتوسّـــط هيّأ قرطاج لأن تلعب دورا في التجارة العالمية ، وقد استغلّت جميــع مزايا هذا الموقع استغـلالا منظّما . وربّما ورثت كلّ شيء من الاستعمار البونيقي في الغرب . فقد ورثت مراكزه التّجارية وعرفت كيف تنمي هذا الإرث ، فلم تحاول قطّ بسط نفوذها السّياسي في داخل البلدان المحتلّة ، واكتفت في افريقية نفسهـا بمساحة من الأرض متواضعـة نسبيا . ولـكنّها ضمـنت لنفسهـا مراقبة سواحل بلاد البربـر المتوسّطية والأطلسيـة ، وكذلك

سواحل اسبانيا الجنوبية ومراكـز التموين الضرورية ، في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسّط : مالطة والجزر المجاورة وغربي صقلّية وجنوبي سردانية وجزائر البلجار — وإذا هي لم تتمكّن من إقصاء اليونان عن صقلّية والسواحل الايطالية والغولية والاسبانية واضطرّت، كما يفيدنا بذلك أرسطاطاليس إلى أن تحسب حسابا للاتروريين وإلى التفاوض مع الرومان في فترة معيّنة ، فإنّها حقّقت على كلّ حال مجموعة من نقط "الارتكاز" يكون مجموعها امبراطورية حقيقيّة .

وهكذا كان لها أسكلة وزّعت توزيعا ماهرا لتكون أسواقا ومراكز تموين : فنجد في افريقية أسواق سيرتا الصغرى والكبرى مثل لبدة (Leptis Magna) وقابس (Tacapae ou Tacapas) وموانى البلاد الليبية الفينيقية : رأس الديماس (تابسوس) ولمطة (لبتيس مينور) وسوسة (حضرموت) وأوتيكة ، وبنزرت (Hyppo Diarrytus) ، وفي شرقي رأس بوقرعون : عنابة (Hyppo Regius) سكيكدة (Rusicade) بجاية (Saldae) دلس (Rusccum) ماتيفو (Rusguniae) الجزائر العاصمة (Icosium) شرشال (Iol) قبّة سيدي إبراهيم (Guniga) تناس (Cartennae) وعلى ضفّة البحر الأطلسي العرايش وتشميش (Luxus) ومستعمرات حنون وفي اسبانيا قادس (Gades) مالقة (Malaga) حدرة (Abdère) سكسي (Sexi) ، وفي سردانية : تري دي سان جيوفاني (Thanos) سانت أنتيوكو (Sulcis) سانت افيوزو (Nora) كاغلياري (Caralis) ترانوفا (Olbia) ، وفي صقلّية ، مدن الغرب : بالرمو (Panormus) مرسلا (Lilybacum) .

وإذا احتفظت بعض المستعمرات كلمطة وأوتيكة أو قادس بنوع من الاستقلال فقد سيطرت قرطاج على بقية المستعمرات بشدّة ، ولم تتردّد عند الحاجة في إجلاء السكّان عن مناطق شاسعة أو فرض الضّرائب المرهقة وخصّت أصحاب السفن التابعين لها بتعاطي التّجارة وحدهم وبذلك حالت دون أيّ تقدّم اقتصادي في الموانى الأخرى .

3 ـ رحلات خيملكن وحنـــون

أظهرت قرطاج في بحثهـا عن الأسواق جرأة نادرة وامتدّت مطامحها إلى ما وراء أعمدة هرقليس . وقد أسند لاثنين من الماغُونيين في أواسط القـرن الخامس القيام بمهامّ في بلاد بعيدة . فحاذى "خيملكن" سواحل اسبانيا وبلاد غوليا إلى أن وصل على ما يبدو إلى انقلترا ، وحتى إلى ارلندا نفسهـا ، ولا شكّ أنّـه كان يعتزم تحويـل تجارة القصدير والرصاص التي كانت، تسعى مرسيليا في احتكارها إلى قادس . أمّا حنون "الملك" فقد اتّجه نحو الجنوب مصحوبـا بستين سفينـة مشحونـة بالمهاجرين ، وعندما رجع أذن بنقـش روايـة مآثـره التي نجد اليوم صدى لها في ترجمة أو تلخيص باليونانيـة . إلاّ أنّ تأويـل هذا النصّ لا يخلو لسوء الحظّ من صعوبات كثيرة أدّت بالمعلّقين إلى أن يستنتجـوا استنتاجات مختلفـة ومتنوّعة.

فأمّا "س. قـزال" فإنّـه يزعـم أنّ حنـون انطلـق من قادس فأسّس سبعـة مراكـز أقصاهـا جنوبا مركـز "قرنـة" الذي يوجد على سبيل التقريب في مستوى الجزر الخالدات (Les Canaries) ثم واصل سفره عرض السواحل الافريقية إلى أن أشرف على خطّ الاستـواء . وإلى عهد غيـر بعيد لم يقدح أحد في هذا التأويـل الذي أصبح كالمرجع اللهم إلاّ في بعض الجزئيات.ومنذ بضع سنوات فقط انتقده كاركوبينو انتقادا لا هـوادة فيـه . وهو لم يناقش نقطة انطلاق حنون ولا خاتمـة مطافه ولـكنّـه عارض من سبقـه في نقط ثـلاث . فهـو أوّلا لا يعتقـد أنّ حنـون اتّبع خطّـا واحدا ، بل يرى أنّـه قـام بسلسلـة من الرحلات ينظّـم كـلّ واحدة منهـا في مركـز جديـد أبعد من المركـز السابق ، وهو ثانيـا يجعـل جزيرة قرنة في نقطة أكثر توغّـلا في الجنوب قرب جزيرة "هرنـة" الموجودة عرض "فيلاسز نيـروس" (ريـودورو) . وهو ثالثـا وبالخصوص يعتبر أنّ غاية هذه السفـرة هي إحـلال قرطاج محلّ "لـكسوس" المركز الفينيقـي العتيق في استغلال تجـــارة الذهب المستخرج من السودان والذي كـانت القوافـل تحمله إلى جزيرة قرنة . وبالرغم عن أنّ هذه النظريـة أثارت بعض التحفّـظات ، وربّـمـا شيئا من المناوأة الصريحـة أحيانـا ، فإنّـه لا مناص من الاعتراف بأنّـهـا ألقت الأضواء الـكاشفـة على هذه الرحلـة التي كان الجميع يعتبرون الدّافع

الأصلي إليهـا حبّ الاطّـلاع العلمي . وما نعرفه عن البونيقيين يحملنا على الاعتقـاد بأنّـهم كانوا بصفة عامـّة مهتمـّين بالتجارة لا بالجغرافيا . وقد ذهب أخيرا بعض المؤرّخين إلى أنّ حنون لم يتجاوز قطّ واد الذّراع جنوبـا .

4 ــ القرطـاجيون جـوّابـو بحـار

إنّ حياة قرطاج واتّجاهاتهـا السياسيـة تدلّ فعلا على أنّـهـا كانت مدفوعـة دائمـا بضرورة البيع والشراء ، وأنّ دورها الاقتصادي الرئيسي يتمثّل على ما يبدو في جمع الموادّ الأوّلية ثم توزيعهـا على نحو ما فعله الهولانديـون من بعد تقريبا ، وكانت الموادّ المصنوعة تمثل عنصر المبادلة.

وأوضاع الامبراطوريّة القرطاجية نفسهـا تؤكّـد أنّ الأساكل لم تكن لها أهمّيّـة من حيث الملاحـة وحدها ، بل من حيث إنّـها نقط الانطلاق والوصول بالنسبة للبعثات والقوافل . كانت منتوجات افريقيا الوسطى كالذهب والعاج والجلود والعبيد تصل إلى سيرتـا الصغرى وسيرتـا الكبرى أو إلى المستعمـرات الأطلسيـة . وكانت اسبانيا تزوّدها بفضّـة مناجمهـا وبالمعادن والعنبر المجلوبة من الشمال عن طريق البحر . وكان زيت صقلّيـة وخمرها وحبوب سردانية ونحاسها وفضّتها تصل كلّـهـا إلى قرطاج أيضا .

ويظهر أنّ هذه التجارة اعتمدت طويـلا على مبدإ المقايضة البسيط. ولم تضرب قرطاج نقودها البرنزيـة الأولى إلاّ في النصف الثاني من القرن الرابـع ، وفي القرن الثالث ظهرت النقود الفضّية . والذي دفعها إلى ضرب سكّتها هي ضرورة عسكرية أكثر منها تجارية . فالشعوب المتفـاوتة بدائيةً التي كانت لها روابط اقتصادية بقرطاج كانت قبل أن تتأثّـر بما ترمز إليه قطعة النقود المعدنية ترغب في اقتناء المنتوجات المصنوعـة لترويجهـا عندها كالأقمشـة وآنيـة الخزف والبلّـور والأسلحـة ، والمصنوعات الخشبيـة والعطورات وبصفـة عامـّة البضاعة البونيقيـة الرديئة .

5 ــ الصناعـة

لم تتميّز صناعة قرطاج لا بالنشاط الفائـق ولا الابتـكار المبدع . وممّا لا شكّ فيـه أنّ البونيقيين تخصّصوا بحكم الضرورة في صنع السفن

وآلات المواني التي ربما كانت من اختصاصات الدّولة . إنّهم صنعوا الحديد والنّحاس والبرنز والمعادن الثمينة والأسلحة والمتاع المطليّ أو البلّوريّ وأدوات التجميل العاجية ، والخرز ، وخصوصا الجعلان المستعملة خواتم ، والآنية الخزفية الصالحة للاستعمال ، المزخرفة أو البسيطة ، الموجودة بكثرة في القبور والتي تمتاز بتنوّع الأشكال ، وكذلك الأقنعة المكشّرة أو الضّاحكة المودعة في القبور أيضا ، وبعض أواني الفخّار المتقنة الصنع . ونجحوا أيضا في الصباغة والحياكة والدباغة . واشتهرت أيضا بصناعة الخشب البونيقية كما تشهد بذلك الصناديق الموجودة في "سميرات" و"جيغتي" بالخصوص . أمّا المنتوجات الممتازة والأنيقة فكانت تجلب من أماكن أخرى .

6 — الفلاحة

لم يتيسّر للفلاحة أن يكون لها إنتاج ذو بال لأنّها كانت مقتصرة على الأراضي الليبية التي فتحتها قرطاج وضواحي مستعمراتها ، إلاّ أنّ شهرتها كانت رغم ذلك عظيمة فمنذ أواخر القرن الرابع وقف أغاثوكل مدهوشا أمام ثروة الزياتين والكروم والماشية . وينسب الرومان إلى البونيقيين اكتشاف الأدوات الفلاحية . وأذنوا بترجمة كتاب الفلاحة الذي ألّفه البونيقي ماغون في 28 جزءا . ولم يقتصر المؤلّف على إسداء النصائح حول الزراعة وتربية الماشية بل ضبط كذلك ضبطا مدقّقا قواعد إدارة الأملاك الريفية .

ويتعذّر علينا أن نضبط وضعية الأملاك في المناطق الافريقية الخاضعة لقرطاج . فالذي لا شكّ فيه أنّ الطبقة الارستقراطية كانت تملك دُورا ريفية فخْمة في الغالب وسط أراض شاسعة ، إن لم نقل ممتلكات فسيحة ، كما سيكون الشأن فيما بعد بالنسبة للرومان الأغنياء . وليس من المستبعد أن نعتقد أنّ الدولة لم تستغلّ أملاكها بنفسها ، وأنّ النبلاء كانوا يستغلّونها مكانها . وكان الليبيون الذين انتزعت منهم أراضيهم هم الذين يخدمون الأرض بطبيعة الحال بصفتهم عُمّالا مُسخّرين أو رقيقا . ولربّما شغلوا أجراء يوميين للقيام ببعض الأعمال .

والطبقة النبيلـة الساهرة على إحياء الأراضي كانت تتعاطى زراعة الأشجار من زيتون وتين ولوز ورمّان وكروم . وكانت تتعاطى تربية الخيل والبغال والبقر والغنم والمعز ، وكانت هذه المواشي كثيرة جدّا حتى أنّ بوليب جزم بأنّ قرطاج لا تضاهي في هذا الميدان . إنّها لم تستمدّ من أرضها أرباحا طائلة بدون شكّ أو هي على الأقل لم تستمدّ كلّ أرباحها من الأرض . وقد كان الأهالي يزرعون الحبوب . وكانوا يستعملون محراثا حديدته مثلّثة الشكل وآلات الدراس المتنوّعة .

وكان القرطاجيون يربّـون كذلك الدواجن ونحلا شمعه مشهور. كما كانوا ينتجون الزيت بأساليب لا يمكن الاهتداء إليها اليوم وخمرا كثيرة ربّما عالجوها بالجبس . ولا شكّ أنّهم كانوا صيّادين في البرّ كما كانوا يتوغّلون في البحر بحثا عن السمك فيملّحون "التنّ" في المراكب نفسها .

وفي الجملة يظهر أنّ الاقتصاد الفلاحي المعتمد على علم فلاحي قائم بذاته ربّما سمح بضمان الاستهلاك المحلّي ، ولكنّه لم يوفّر مادّة كافية للتصدير .

7 ـ حكومة تجّار

إنّ قرطاج مدينة تجارية فكانت حكومتها حكومة تجّار تخدم مصالحها . ولا نعرف في العصور القديمة بلدا أخضعت فيه الرأسمالية السياسة ، واستغلّت الأهالي المغلوبين على أمرهم كما فعلت الرأسمالية في قرطاج . لقد كانت أرستقراطيتها المتكوّنة من رجال الأعمال مستبدّة قاسية شديدة الحذر تشبه شبها كبيرا أرستقراطية البندقية إذا استثنينا الثقافة والذوق .

وما ورد في كتاب أرسطو "السياسي" من معلومات (حوالي 335) لا يسمح لنا أن نتصوّر بدقّة نظام الدستور البونيقي الذي يشبهه بدستور سبرتا . وربّما كانت قرطاج في أوّل أمرها خاضعة لعائلة مالكة خلفها في الحكم « شافطان» كما خلف القناصل الملوك في رومة . وكان هذان

الشافطان ينتخبان من طرف الشعب كلّ سنة فيتنافس المترشّحون في استعمال الرشوة . ويساعد الشافطين مجلس الشيوخ المتركّب على ما يظهر من ثلاثمائة عضو يتمّ اختيارهم مدى الحياة من الطبقة الارستقراطية . وهكذا أتيح لطبقة النبلاء المتوارثة أبا عن جدّ أن تفرض إرادتها طيلة قرنين . ولم يحدّ من سلطانها سوى المنافسات التي تنشأ من وقت لآخر بين أعضائها . وكان يدير الشؤون العامّة مجلس يتركّب من ثلاثين شيخا.

وكانت أهمّ السلط بيد هيئة أو ربّما هيئات كثيرة تتألّف من خمسة أعضاء (الهيئات الخماسية) يعيّنون أنفسهم بأنفسهم ، ويختارون محكمة المائة والأربعة صاحبة السلطة الكبيرة . وقد تمّ تأسيسها في القرن الخامس للحيلولة دون محاولة إقامة النظم الاستبدادية . وعندما تنتهي مأمورية المائة والأربعة يسند إليهم لقب «حاكم» لحمايتهم من الانتقام وتمتيعهم بالحصانة .

إلاّ أنّ هذا التخطيط الذي رسمناه لا يوافق إلاّ الحقبة الكلاسيكية ، إنْ صح التعبير ، من تاريخ قرطاج ، فبوليب عندما يحدّثنا عن مؤسّسات هذه المدينة قبيل انهيارها يلمّح إلى وجود مجلس شيوخ أقلّ نفوذا من ذي قبل ومجلس للشعب قد اتّسعت مشمولاته وهو بذلك يشير إلى دولة أكثر ديموقراطية .

8 – شعب قرطاج ودوره السياسي

إنّنا لا نعرف شعب قرطاج معرفة كاملة ، فنحن لا نجهل حياته ومطامحه فحسب ، بل حتى تركيبه لا يزال غامضا أيضا . ولا شكّ أنّ المواطنين كانوا العنصر الأساسي فيه ، ولكنّنا نجهل عددهم وبالخصوص نسبة هذا العدد من مجموع السكّان ، فإلى جانب المواطنين كان يوجد الموالي والعبيد وكان عددهم كبيرا من دون ريب ، والأجانب وخاصّة أهالي افريقية الذين أغراهم ما كان ولا يزال يوجد من موارد في كلّ ميناء كبير .

إنّه لم يكن لمجلس الشعب الذي لا نعرف دوره بالضبط إلاّ سلطة متفاوتة في الزمان ، فهو الذي ينتخب القواد وكذلك « الشافطين» من دون

شكّ" ولم يكن له بعد ذلك غير دور الحكم إزاء ما كان يحدث من خلافات بين الشافطين ومجلس الشيوخ . وابتداء من القرن الثاني فقط أصبح يرجع إليه ويطلب رأيه أكثر من ذي قبل . ولا نعرف كذلك شيئا يذكر عن « الجمعيات » (Hétairies) التي كان أعضاؤها يتناولون أحيانا الطّعام معا . وقد أراد بعضهم اعتبارها نوعا من النوادي ، ورأى البعض الآخر أنّها نوع من النقابات المهنية ، ونظّرها آخرون بالعشائر (Curies) الرومانية . ولا يوجد التباس من حيث الاتّجاه في محاولات الإصلاح ، وأهمّها تلك المحاولة التي قام بها حنّبعل غداة موقعة "جامة" ولكن لا يمكن ضبط مداها من الناحية العملية ، وفي الجملة فإنّه يبدو أنّ الدور الذي كان يلعبه من النّاحية القانونية شعب قرطاج ظلّ دائما متواضعا .

إلاّ أنّ تطوّر المؤسّسات في اتّجاه ديمقراطي يسمح بالاعتقاد بأنّ الشعب أو على الأقل بعض عناصره كان حريصا على تغيير وجهها من الخارج . ويظهر أنّ الفتن كانت كثيرة نسبيّا ، ولكنّها لم تسفر مع ذلك عن ثورات . فلم تلق محاولات الاستبداد بالحكم ــ كتلك التي قام بها حنون الأكبر في أواسط القرن الرابع ــ التأييد الشعبي الذي كان من شأنه أن يضمن لها النجاح . وإذا أمكن ــ إذن ــ الحديث عن "تزايد نفوذ الشعب" فإنّه يجب أن نلاحظ أيضا أنّ هذا التزايد لم يبلغ من القوة بحيث يقضي على رسوخ نظام حكم الأقليّة في المدينة .

9 ــ جيش من المرتزقة

إنّ أيّة دولة ، ولو كان أفرادها تجّارا ، لا يمكنها الاستغناء عن قوة مسلّحة ، إمّا لمعاضدة توسّعها الاستعماري أو لقمع الثورات . ولكنّها تحذر من القوّاد الذين يضيقون ذرعا بإشراف رجال الأعمال عليهم ، ويميلون إلى قلب نظام الحكم . فقد أثار قواد قرطاج في القرن الرابع خاصّة مخاوف الحكومة . فضربت مرات عديدة على أيدي قوّاد عسكريين استرابت بعض أعمالهم الجريئة ، أو صلبت من اتّهمتهم بالسعي إلى الاستبداد بالحكم .

وكانت الحصون التي تحوط المدينة تضعها في مأمن من الغارات . كما أنّ أسطولها الحربي يضمن لها السيطرة على البحار والتزوّد بانتظام . وكان معظم الجدّافين المشهورين بمهارتهم في العمل من بين المواطنين . وكان لها في أوّل الأمر جيش وطني . ثم بعد ذلك دخل بعض الأغنياء البونيقيين في الخيّالة ولكنّها انتدبت المرتزقة منذ القرن الرابع . فقد حارب إلى جانبها في معركة هيمير (480) ليبيون واسبانيون وليغوريون وسردانيون وكرسيكيون . ثم أضافت إلى جيوشها شيئا فشيئا رجالا مسلّحين بالمقاليع جنّدتهم من جزر البلجار والسلتيين والاتروريين والسمنيين والبروتيين . واستمدّت في القرن الثالث معظم جنودها من افريقية فجنّدت بالقوة العبيد الليبيين العاملين في أراضيها ، وأسندت إلى الأمراء الأهليين قيادة الخيّالة النوميدية التي سجّلت لها أبهر انتصاراتها بفضل حملاتها الفجائية وكمائنها وبراعتها في الاهتداء إلى معاقل العدو . ولم يكن الجيش المتكوّن من المرتزقة منقادا دائما . وهيبة حنّبعل هي وحدها التي وضعت حدّا لهروبهم ، وكثيرا ما كانت تحدث الثورات في صفوف هذا الجيش ، أو يعتمد عليه من يشقّ عصا الطاعة من بين القـــواد .

واصطادت قرطاج في جبال الأطلس الفيلة المتوحّشة التي كان يروّضها للحرب فيّالة هنود . ولقد وصف لنا "بلين" طرق صيدها ولاحظ "سترابن" أنّه وقع بناء اصطبلات لها قريبا من أسوار المدينة . وقد كانت الفيلة الليبية ابتداء من أواخر القرن الرابع بمثابة الدبّابات ؛ وهي أصغر قامة وأقل إقداما من الفيلة الهندية . وكانت تدخل الرعب في قلوب الرومان حتى أنّ شيبيون الأميلي بالغ في موقعة جامة في وسائل الاحتياط من هجماتها غير أنّها لم تكن سهلة الانقياد فهي تغدر بأصحابها في بعض الأحيان فيضطرّ هؤلاء إلى قتلها .

10 — نظـــام جبائي صارم

كانت الدولة القرطاجية تعتمد لمواجهة المصاريف العامّة على حاصل المعاليم القمرقية وأتاوى الليبيين والضرائب الموظّفة على المدن . وفي القرنين الثالث والثاني لم تنافس قرطاج في الثروة إلاّ الإسكندرية وحدها .

إلاّ أنّ هذا الازدهار المالي المتأتّي عن التجارة خاصّة لم يقدر على الصمود أمام الأزمات التي كانت تعرقله . فاضطرّ القوم بعد الحرب البونيقية الأولى التي تعذّر معها جمع الموارد القمرقية إلى حجز نصف محصول المزارعين وإلى مضاعفة الأداءات المضروبة على المدن . ولم يخل ذلك من عُنْف بطبيعة الحال .

11 ـ مدنية تجـــار

لقد كان البونيقيون رجال أعمال همّهم الوحيد الأرباح المادّية . وقد كانوا يحسنون لغات كثيرة بحكم الضرورة من غير أن يتظاهروا بذلك في بعض الأحيان ، ولم يتركوا أثرا يذكر في الأدب والتاريخ والعلم . واقتصروا في ميدان الفنّ على تقليد النماذج المصرية والإغريقية إن لم يجلبوا فنّانين أجانب . فبوييتوس القرطاجي (Boéthos le Carthaginois) النحّات الذي أنجز تمثال "ايفيز" إغريقي النسب ، قرطاجي المولد على أغلب الظنّ ، وذلك على الرغم من أنّ البونيقيين كانوا أذكياء . ويعلّل "قوتيه" ذلك في إطناب فيقول : إنّ عقليتهم الشرقية تخالف اختلافا جذريا عقلية الغربيين .

12 ـ عـــادات شرقيـة

كان القرطاجيون يتكلّمون لغة فينيقية محرّفة إلى حدّ ما . ولسنا نعرف عنها إلاّ بعض النقوش وخاصّة الجمل الموجودة في كتاب بونيلوس لبلوط (Plaute) . وكانت لهم موازين ومقاييس ورزنامة وأقبية للموتى شبيهة بالآبار الفينيقية الأصل . وكان لباسهم شرقيا بحتا فكانوا يرتدون الجبّة الطويلة ذات الأكمام الواسعة عامّة ، وكانوا يضعون على رؤوسهم القلنسوة ويلبسون معْطَفَ السفر . وقد وجد قوتيه شبها بينها وبين "الكدرون" والطربوش والبرنس التي يلبسها المغاربة في عصورنا هذه . وكانت عاداتهم شرقية أيضا ، وكانت نساؤهم يكثرن من التزيّن بالحُلِيّ واستعمال ألوان التجميل ويبالغن في التعطّر . وظلّ الرجال والنساء مدّة طويلة يضعون خُرْصَانا في أنوفهم . ويظهر أنّ الفينيقيين عدلوا عن الختان في الأرض

الافريقية . وتشهد الاكتشافات الأثرية أنّهم لم يُعدّدوا زوجاتهم واستمرّوا بالعكس يسجدون أمام العظماء ويُحْجِمُون عن أكل لحم الخنزير. أمّا فيما يتعلّق بوحشيتهم وخداعهم فإنّ الغربيين ، وخاصّة الرومان ، لم يتركوا لهم مجالا للتفوّق عليهم .

13 – دين شرقي

إنّ تأثير الشرق تجلّى بالخصوص في الدين الذي جاء به المعمّرون الفينيقيون . فقد أخذت قرطاج عن صور آلهتها ، وكانت تخشاها أكثر ممّا تحبّها . إلاّ أنّه يجب ألاّ ننسى – كما يفعل البعض أحيانا – أنّ غايات العقيدة ومظاهرها تخضع لمؤثّرات المكان والزمان معا . فعندما انتقلت الديانة الفينيقية إلى افريقية طرأت عليها تغييرات حتمية ولم تبق الديانة القرطاجية، منذ أن اكتملت، هي هي حتى انهيار قرطاج ومن ذلك أنّ معنى الثلاثية الذي يكشف عنه "قَسَم حنّبعل المشهور" في صيغته التي وصلتنا (بوليب 7 ، 9 ، 3 ، 2)ليس إلاّ كسبا حديثا للهيكل البونيقي على ما يظهر .

لقد كان القرطاجيون يعبدون آلهة متعدّدة كما كان الشأن بالنسبة لمجموع الأمم القديمة . فملقرط "ملك المدينة" الذي شُبّه بهرقليس كانت له مكانته في قرطاج، وكذلك في بقية المراكز التي أسّستها صور ، وأشمون أو أدونيس الذى شُبّه بأسكلبيوس شيّد له معبد على هضبة المدينة كما هو الشأن بالنسبة لملقرط إله التجديد . وتفيدنا النقوش أنّ "عشتروت" و"بعل حداد" و"رشف" وآلهة أخرى كانت لها من يعبدها أيضا .

ولكنّ الإله الكبير لقرطاج كان بعل حمون بلا منازع وقد شبّه بـ"كرونوس" أو "زوس"(Zens) وقال"ر. دوسو" عنه: "إنّه يمثّل اندماج الإله الفينيقي" ألـ "بإله أهلي . وقد شبّه بعضهم اسمه باسم الإله المصرى آمون عن خطإ فيما يظهر . بل يحسن أن نؤوّل معنى الكلمة على أنّه "سيد الأنصاب" (حماميم) . وإذا كان هو المشخص على نصب بسوسة فإنّه يبدو ملتحيا مرتديا جبّة طويلة ، على رأسه تاج أسطواني ، وبيده رمح

وهو جالس على عرش يمثّل كـلاّ جانبيه أبا الهول . وما من شكّ في أنّه كان على غـرار "أل" ذاته ، الإله الأعظم ، مالك القوى السماوية الأقدر .

وفي كثير من الأحيان لا جميعها نجـد على الحجرات النّذرية إلى جانب بعل حمون إلاهة مساعدة تسمّى تانيت بينيبعل (أي وجه بعل) لا تزال شخصيتها غامضة . وقد يكون مثل بعل حمون نفسه مزيجا من إلاه بربريّ وإلاه فينيقي . وتقابل في الأصل اللاّت التي عرفت هي نفسها "بعشترت" (Ashérat) وقامت مقامها في العهد الروماني يونيو (Junon) وسيلستيس (Caelelestis) اللّتان كانتا مندمجتين غالبا . وكان القرطاجيون يضفون على آلهتهم الصورة البشرية ، وتشهد بذلك على الأقلّ الأنصاب المكتشفة في سوسة شهادة قطعية . ولكنّهم ظلّوا متأثّرين بصورة مشوّهة منذ غابر التاريخ ، حيث كانت تعتبر الحجارة مأوى الآلهة إن لم تعتبر هي نفسها الآلهة . وبقوا يعبدون الأوثان حسب الطقوس المألوفة وكانوا يدهنونها بالزيت . ونجد في غالب الأحيان كما بيّن ذلك "سينتاس" الآلهة منقوشة في هذا الشكل على الأنصاب مشوّهة ، مقتضبة ، إلاّ أنّه يمكن للناظر أن يتعرّف إلى مظهر الآلهة العتيق سواء كانت على العرش أم لا . وما يسمّى خطأ بعلامة تانيت هو أحد الرموز الإلهية الكثيرة مثل القرص والهلال والرمّانة وغيرها . وهو عبارة عن مثّلث أو شبه منحرف قد علاه خطّ أفقي معقّف الطرفين في بعض الأحيان وأسطوانة منحرفة الشكل أحيانا . وقد تقدّم الباحثون بتعليلات عديدة يدلّ تباينها دلالة واضحة على تهافتها . وقيمتها الرمزية هي وحدها التي لا توضع موضع الشكّ .

وقد ألقت الحفريات الحديثة بعض الأضواء على المعابد القرطاجية . ونعرف اليوم معرفة تامّة على الأقل معبدين : أحدهما في قرطاج والثاني في سوسة . ويوجد معبد قرطاج على شاطىء صلامبو . وكان في أوّل الأمر بناية متواضعة مسيّجة تذكّرك بمثالها المعقّد وجدرانها القصيرة ، ببعض المعابد الموجودة في راس شمرا (Shamra) . وعند تأسيس قرطاج حافظ هذا المكان على قداسته ، وتكدّست فوقه طبقات متتالية

من الأنصاب وآلاف من الآنية المحتوية على عظام الأطفال المقدّمين قرابين للآلهة . أمّا معبد سوسة الذى نجهل شكله الأوّل فإنّنا نجد فيه نفس الطبقات المتتالية من الأنصاب والأجاجين . وأقدمها عثر عليه في مصاطب صغيرة يرجع تاريخها إلى القرن السادس أو السابع ويرجع تاريخ أحدثها إلى القرن الأوّل أو الثاني بعد المسيح إلاّ أنّه يحسن أن نلاحظ أنّ هذين المعبدين لا يعطيان صورة قيّمة لجميع المعابد القرطاجية . فقد كان بعضها موجودا في أماكن مرتفعة لا على شاطىء البحر كما هو الشأن بالنسبة للمعبدين المذكورين . وليست جميع المعابد أيضا وبالخصوص متكوّنة من ساحة مسيّجة ذات هندسة تتفاوت بساطة . والنصوص تدلّ على أنّ معبد أشمون أو معبد تانيت كانا هيكلين عظيمين فسيحي الأرجاء في بعض الأحيان ، وأكبر الظنّ أنّهما ينتسبان إلى أصل هيليني .

وكان الكهنوت منظّما تنظيما محكما ومتمتّعا بهيبة كبيرة . وكان واجب الكهنة الأول هو إقامة الطقوس الدينية برعاية حكّام ينوبون عن الدولة . ولعلّهم كانوا يُشرفون يوميا على مراسم دينية لابسين زيّا كَهَنُوتِيا خاصّا بهم ، ويستعينون بعدّة أعوان يقومون على المعابد . وكان القرطاجيون على غرار شعوب كثيرة يحتفلون بالبغاء المقدّس الذي من شأنه أن يضمن في اعتقادهم خصب الأرض والماشية والبشر .

إنّنا لا نعرف بالضبط كيف كانت تجرى الحفلات الدينية . وجداول القرابين التي عثر عليها في مرسيليا وقرطاج تؤلّف قانونا كَهَنُوتِيا لا يخلو من شَبَه كبير بسفر الأحبار اللاويين . ففي كليهما تجد أنواعا ثلاثة من القرابين : فمنها ما يُحْرَقُ ومنها ما يكون مجرّد هدية ، ومنها ما يكون كفّارة . ونجد تعدادا للضحايا من البقر والغنم والطيور ، وتعدادا لهدايا من الزهور والخبز . أمّا جلد الضحية فكان يهدى إلى القسّ . ولا شكّ أنّ الطقوس اليهودية والقرطاجية ترجع إلى أصل واحد هو الأصل الكنعاني .

وكان القرطاجيون يقدّمون الضحايا البشرية . فقد ذبح أحد القوّاد المنتصرين في صقلّية ثلاثة آلاف من أعدائه قربانا في المكان الذى قتل فيه جدّه . وكانوا يقدّمون كلّ سنة على الأقل طفلين ذكرين قربانا ،

وذلك تحت إشراف الدولة . إلاّ أنّ عدد الضحايا كان يبلغ المئات في حالات الفزع ، كما كان الأمر عندما أغار عليهم أغاثوكل . إنّه كان في وسع العائلات بدون شك أن تقدّم جزءا من عجل عوض أطفالها . وغالبا ما كانت تفعل ذلك . ولكن يروى أنّ المؤمنين الأتقياء كانوا لا يتردّدون في تقديم أبنائهم على مذبح الآلهة . أمّا الأغنياء ذوو العقلية الواقعية فقد كانوا يقدّمون للآلهة صغار الرقيق أو كانوا يشترون أبناء الفقراء يستعيضون بهم عن أبنائهم . وإذا صحّ هذا كما رواه بلوتارك (Plutarque) فإنّه يلقي أضواء قاتمة على النفسية البونيقية .

وبعل حمون هو الذي كان يبتلع الأطفال في جوفه المتّقد نارا . ونحن نعلم كيف استغلّ الكاتب "فلوبار" هذه الحفلة الدموية وقد عبّر عن ذلك بقوله: "وكانت حركة اليدين القلزيتين في تزايد. وأصبح لا سبيل إلى توقّفهما، فما تكاد تصل الضحايا على حافة الفتحة حتى تزول كما تتبخّر قطرة الماء من على صفيحة محمرّة نارا فيتصاعد دخّـــان أبيض في الحُمرة القانية" .

ورغم ذلك فإنّ شاهية الإله لا تسكن . إنّه يطلب دائما المزيد . فكان القوم يكدّسون على يديه الضحايا ويربطونها بسلسلة تشدّها حرصا منهم على تزويده بأكثر ممّا يجب" .

إنّ روعة هذا الوصف قد تكون أضرّت بالحقيقة التاريخية . فبالرغم عن الشهادات القديمة استنكف العلماء من التسليم بهذه المراسم المريعة .

ولا سبيل اليوم إلى شك في صحّتها . فقد اكتشفت حديثا في صلامبو وسوسة "طفايات"أو توفات(Taphet)أي مواضع إحراق الضحايا . وبات من اليقين أنّ الأجاجين تحتوي على عظام بشرية محروقة . وتفضي دراسة النقوش إلى نتائج مماثلة لا تقلّ وضوحا عن الأخرى . ولكنّها تمكّننا من أن نسجّل أيضا أنّ رغبات بعل حمون أصبحت في الفترات الأخيرة من تاريخ قرطاج دون ما كانت عليه قسوة . فقد حلّ محلّ التضحية الفعلية بالطفل البكر غالبا التضحية المعروفة بـ "ملكومور" أي أنّ الحيوان ويكون

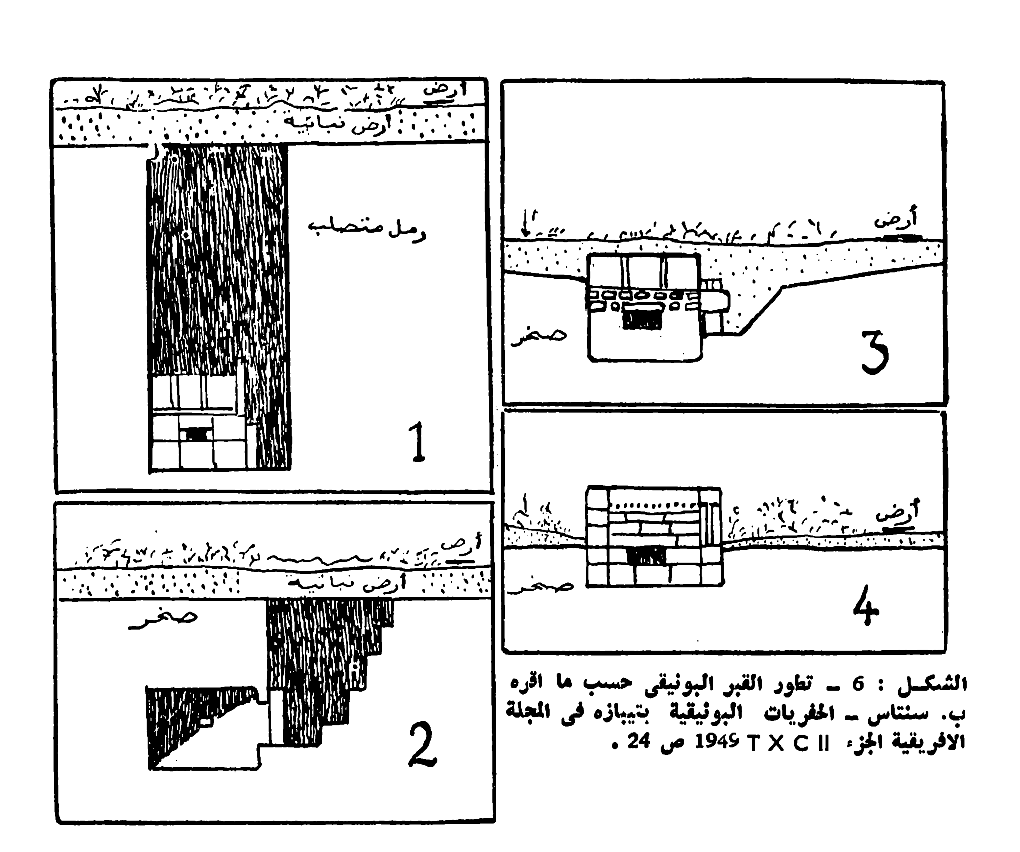
غالبا خروفا يقدم عوض الضحية البشرية . وقَبِل بعل هذه المعاوضة حسب العبارة المنقوشة في الأنصاب الرومانية بـ "نقاوس" (N'gaous) روح بروح ودم بدم وحياة بحياة .

14 – الطقوس الجَنَائِزِيَّة

تدلّ الحفريات على أنّ الطقوس الجنائزية كانت مختلفة بحسب العصور وبحسب الطبقات الاجتماعية . لقد ظلّ الدفن معمولا به مدّة طويلة ، ولكنّ عادة إحراق الموتى التي لم تكن مجهولة من القرطاجيين انتشرت في القرن الرابع تحت تأثير اليونان ثم فرضت نفسها في آخر الأمر . وكانت أقدم القبور عبارة عن غرف فسيحة الأرجاء سدّ مدْخلها بصفيحة من الحجارة وبنيت أو نقرت في الصخر في عمق يبلغ أمتارا كثيرة . وكانت الموتى توضع في توابيت من حجر أو تمدّد على الأرض مباشرة . ثم ظهرت بعد ذلك القبور الشبيهة "بالآبار" ، أي أنّ غرفة أو عدّة غرف منضّدة كانت تفتح على آبار يتجاوز عمقها أحيانا عشرين مترا تسدّ بعد كلّ دفن . ولم تكن في الأوّل لتسع أكثر من جثّة أو جثّتين ثم انتشرت عادة الدفن الجماعي ، وأصبحت معمولا بها على الإطلاق عندما فرضت عادة الإحراق نفسها . وفي ذات الوقت نقصت أبعاد غرف الموتى ، وأصبحت تبنى في حفر أقلّ عُمقا . وفي آخر العصور البونيقية أصبحت الأقبية في نهاية الأمر شبيهة بالأضرحة التي ليس لها تحت الأرض سوى جزء واحد .

وكان يوجد مع الجثث المدفونة أثاث متركّب خاصّة من آنية خزَفيّة ، وأدوات عادية لتيسير حياتها المادّية ، وتمائم ذات مفعول سحري . ولا شك أنّ القرطاجيين كانوا يؤمنون مثل بقية الفينيقيين بمقام مشترك للأموات ربّما يشبه في كآبته "الشـــول" العبري غير أنّ علم الآثار لا يسمح بتدقيق ما يعتقده القوم في مصير الموتى .

ولا شك أنّ "أوزيرس" و"ديميتر" و"فوريا" لقّنتهم الأمل في حياة أخرى أبديّة سعيدة . ولا يوجد أيّ أثر لتقديس الموتى ، ولا شك أنّهم يخشونهم أكثر ممّا يحترمونهم . فقد كانت ضرورات الحياة اليومية لا تترك للقرطاجيين المجال للتأمّل مليّا في شأن الموتى .



الشكـل : 6 ـ تطور القبر البونيقي حسب ما اقره ب. سنتاس ـ الحفريات البونيقية بتيبازه في المجلة الافريقية الجزء T X C II 1949 ص 24 .

15 ـ المؤثّرات الدينية الخارجية

لقد خضعت الدّيانة البونيقية إلى موثّرات خارجية ، فقبور قرطاج احتوت على تمائم مصريّة الأصل إن لم تكن مستوردة وذلك حتى القرن الرابع على الأقلّ ، فالآلهة "ايزيس" و"هاتور" و"أوزيريس" و"انوبيس" وغيرها كانت لها تماثيل بلّورية يبلغ طولها سنتميترا واحدا أو سنتيمترين اثنين وتنضّد في قلائد كالجواهر . ومن جهة أخرى فإنّ تفاوت عدد هذا النوع من التمائم أو ذاك في القبور يدلّ على أنّ قوتها الوقائية لم تكن في معزل عن تأثيرات العادات الشائعة .

وسعى القرطاجيون في التكفير عن البلايا الناتجة ، في اعتقادهم ، عن نهب معبد ديميتر وكوري برسفونا بسرقوسة سنة 396 ، فأدخلوا في مدينتهم عبادة هاتين الآلهتين (سيريراس) وبقيت هذه العبادة قائمة حتى في العهد الروماني وعبدوا في صقلّية "افروديت اريسين" التي كانت تغادر كلّ سنة جبل "اريكس" وتلتحق صحبة حمام المعبد بافريقية حيث تقيم تسعة أيّام .

على كل فلا يجوز أن نقصر تأثير الشرق اليوناني في قرطاج ابتداء من القرن الرابع على الميدان الديني . ويوجد من الدّلائل الأثرية ما يسمح لنا بأن نؤكّد أنّ المدنية البونيقية تغيّرت تغيّرا عميقا عند اتّصالها بالمدنية الاغريقية .

ولكنّ المؤثّرات الليبية كانت أبعد مدى من دون شكّ ممّا نلاحظه في الطقوس الجنائزية من طيّ الجثث وصبغها باللون الأحمر وخلط العظام بعد تجريدها من اللحم وقد اندمجت الآلهة الفينيقية مع الآلهة الافريقية . ويذهب البعض إلى القول بأنّ لفظ "تانيت" افريقي . وقد عثر في معبد "صياغة" (في بئر بورقبة قرب خليج الحمّامات) على آلهة لها رأس لبؤة جالسة على أسد كما عثر على أبي هول ذي ضروع . وحاول الباحثون توضيح دور هذه الآلهة بتأثير العبادات الليبية في أواخر قرطاج .

16 – إشعــاع قرطاج

إلى أيّ حدّ طبعت المدنية القرطاجية بطابعها المدن والبلدان التي فتحتها . إنّها لم تترك في اسبانيا وجزر غربي البحر الأبيض المتوسّط أثرا يذكر ، كما أفسحت المجال في صقلّية للمدنية الاغريقية ابتداء من القرن الخامس . لكنّها تأصّلت في جزر مالطة وغوزو وبانتالاريا ولمبادوزا وخاصّة سردانية . فما هو مدى تأثيرها في افريقيا الشمالية ؟

يجب قبل كلّ شيء أن نؤكّد أنّ قرطاج لم تحتلّ بلاد المغرب بأكمله ، وأنّ نفوذها عندما بلغت أوْجَهَا لم يتجاوز حدود البلاد التونسية الحالية باستثناء المدن الموجودة على السواحل الجزائرية والمغربية . إلاّ أنّ عملها لم ينحصر في حدود البلدان التابعة لنفوذها السياسي وحدها . فالليبيون المنخرطون في الجيوش القرطاجية كانوا يحملون معهم عند الرجوع إلى أوطانهم شيئا من المدنية القرطاجية التي عاشوا في ظلّها . ولم يحمل التجّار البونيقيون معهم البضاعة التي اشتروها فقط ، بل حملوا كذلك جملة من العادات والصناعات والأفكار والمعتقدات استساغها الأهالي شيئا فشيئا وأثْرَوا بها مدنيّاتهم البدائية .

وقد كان تأثير المدنيّة البونيقية أقوى بطبيعة الحال في بلاد البربر الشرقية . فقد بَهَرَتْ الأمراء النوميديين الذين أقام العدد الكبير منهم في قرطاج ، وتزوّجوا بنات طبقتها النبيلة وسمّوا أبناءهم بأسماء قرطاجية ، ومنحوا مدنهم دساتير منسوخة عن دساتير المستعمرات الساحلية ، وعبدوا الآلهة السامية وحرّضوا رعاياهم على العمل بأساليب ماغون الفلاحية .

واستعان الملوك وكبار القوم بفنّيين من قرطاج . وقد شيّد أحد هؤلاء حوالي منتصف القرن الثاني قبل المسيح ضريح دقّة حيث توجد في نفس الوقت نماذج شرقية واغريقية عتيقة هي من خصائص الفنّ البونيقي . ويحتوي هذا الضريح المبنيّ بالحجارة المنحوتة على ثلاثة طوابق مقامة على مدارج وهو جميل الزّخْرُف . إلاّ أنّ تماثيله متوسّطة القيمة . وتمكّن "ل. بوانسو" سنة 1910 من وضع الحجارة المنهارة في مواضعها الأصلية باستثناء حجارتين تحملان نصّا واحدا مكتوبا باللغة الليبية والبونيقية أخذهما القنصل "ريد"

(Reed) معه إلى انقلترا في سنة 1842 ولا يزال موضعهما من الهيكل مجهولا . وفي هذه الكتابات حجّة على أنّ الارستقراطية البربرية كانت تستعمل اللغة البونيقية في النقوش الحجرية ، وأحيانا تنافس بها اللغة اللّيبية . وتذكر هذه الكتابات أسماء لُبنَاة وعلى رأسهم المسمّى "عبريش" الذي كان قرطاجيا من دون شك كما تذكر أسماء أعوانهم (؟) وأسماء النجّارين والحدّادين .

وبَدَهِيّ أنّ تأثير قرطاج لم يزُلْ بزوالها . فالمدنية الرومانية لم تتوطّد أركانها من أوّل وهلة لا في الممتلكات البونيقية القديمة ولا في الممالك البربرية . ولا نعرف من سوء الحظّ شيئا يستحقّ الذكر عن أطوار المنافسات التي تواصلت بين المدنيّتين .

والذي لا شكّ فيه هو أنّ قرطاج تركت آثارا عميقة في افريقية من حيث الدين . فالآلهة البونيقية اضطرّت إلى ارتداء الحلّة الرومانية على غرار عبّادها . ولكنّها رغم أسمائها الرومانية وشكل العبادات الروماني استبقت روحها الأصيلة . فليس في تضحية "ملكومور" شيء من اللاطين ، وبقي بعل الذي سمّي "ستورنوس" "متعاليا على البشر علوّا كبيرا" . وليس من المستبعد كما لاحظ ذلك "س. قزال" أن يكون اعتقاد القوم في علوّ هذا الإله على بقيّة الآلهة هيّأ العقول إلى التوحيد الذي سيأتي به دين المسيح الى افريقية .

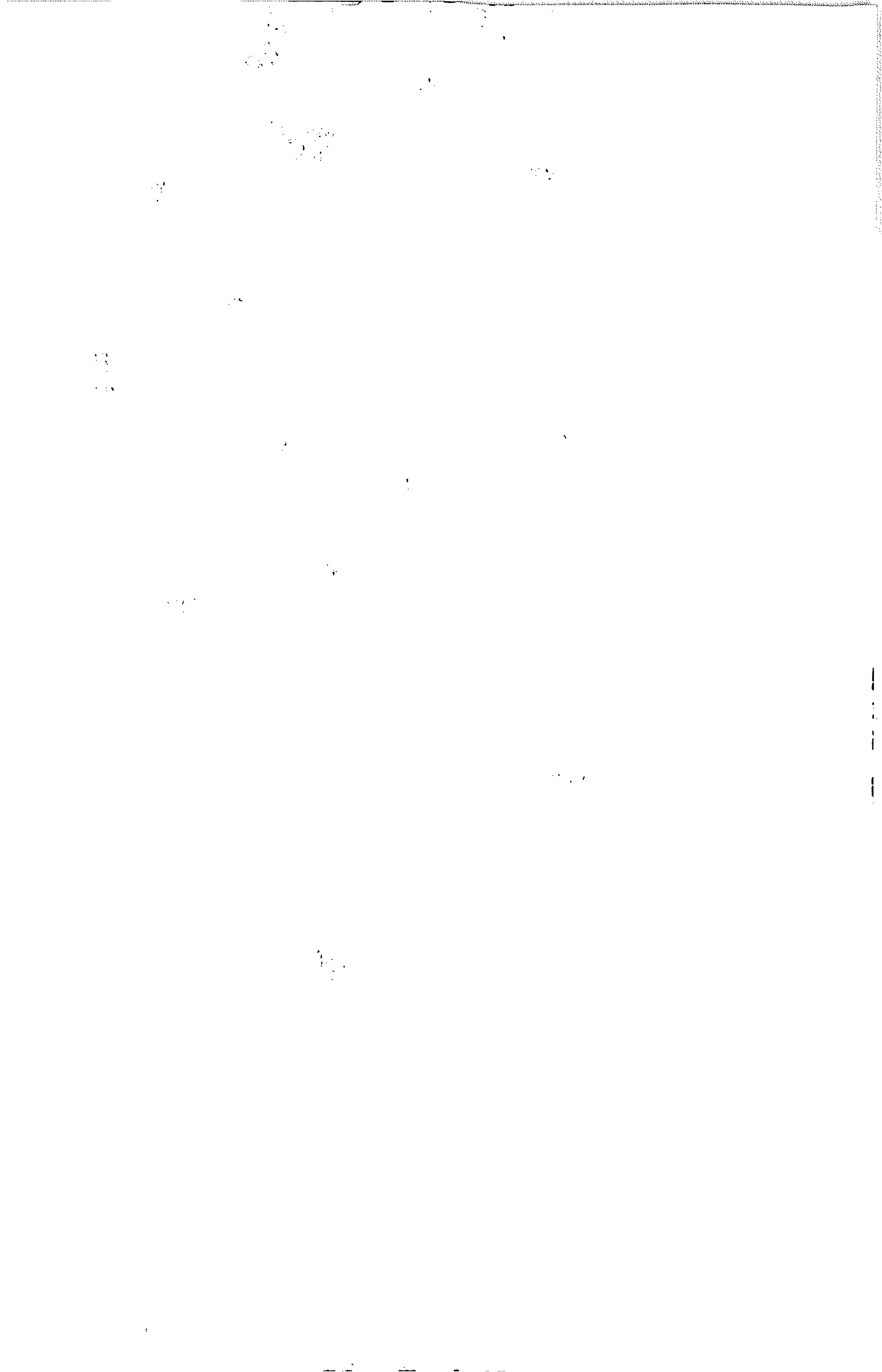
وبقيت نقودٌ بعض المدن الافريقية تحمل كتابات بونيقية إلى عهد تيبريوس . وما انفكّ زمام الحكم في بعض تلك المدن بيد الشافطين حتى عهد أنطونيوس (Antonins) التقي . ولكن يبدو أنّ اللغة البونيقية لم تبق مستعملة حتى العصر البيزنطي كما يعتقد أكثر النّاس اعتمادا على نصوص القدّيس أغسطينوس و"بروكوب" التي أسيء تأويلها . ولا سند متينا لرأي أ. رينان الذي تبنّاه "قزال" القائل بأنّ بقاء اللغة البونيقية مهّد إلى انتشار اللغة العربية — فقد انتهى استعمال اللغة البونيقية في تواريخ اختلفت طبعا باختلاف الجهات ، ولكنّها لا تتجاوز في أغلب الظنّ آخر القرن الثاني وأول القرن الثالث بعد المسيح .

إنّ آثار المدنية البونيقية — وإن هي لم تدم طويلا كما تصوّره البعض — فقد بقيت جذورها عميقة . واندمجت بلاد البربر بواسطة قرطاج في عالم البحر المتوسّط وتعرّفت بفضلها إلى مدنيّة شرقية سرعان ما راضتها الحضارة اليونانية . وسوف لا تكون هذه هي المرة الأخيرة التي تصبح فيها افريقيا الشمالية تابعة للشرق إلاّ أنّ انتصار رومة عليها سوف ينتزعها من نفوذ الشرق طيلة قرون عديدة .

الباب الخامس

الممالك البربرية

١ - مسنيسا « اغيلد » عظيم . ٢ - الحرب البونيقية الثالثة ونهاية قرطاج . ٣ - الاحتلال الروماني



I ـ مسنيســا « اغليــد » عظيــم

1 ـ الممالك البربرية الثلاث في القرن الثالث

لم يهتمّ قدماء الكتّاب بتاريخ شؤون الممالك البربرية الدّاخلية إلاّ عندما ظهر لهم أنّ له مساسا برومة أو قرطاج ، فلم يبق أثر للتقاليد البربرية . لذا فإنّه يخشى أن نبقى على جهلنا بما تعاقب من الفتن ومن انتصارات القبائل وانقراضها وانبعاث الدّول المتّحدة برابطة الحلف وانهيارها إلى أن أفضت الأحداث إلى تأسيس الممالك البربرية الثلاث التي اقتسمت بلاد المغرب في عصر الحروب البونيقية .

فلقد تأسّست شمال المغرب الأقصى قبل القرن الرّابع جامعة عتيدة من القبائل هي مملكة الموريين أو مملكة موريطانيا ، تحدّها جنوبا بلاد جدالة التي تُتَاخِمُهَا جنوبا مملكتا ماسولة ومازيسولة والأراضي البونيقية ، ويحدّها شرقا نهر الملوشة (الملوية) السُّفلي . ولقد اتّسعت رقعة هذه المملكة في أواخر القرن الثالث وأثناء القرن الأوّل إلى أن بلغت مصبّ نهر المساقة (الواد الكبير في الشمال الغربي من قسنطينة) . ونقود القرن الأوّل قبل المسيح شاهدة بأنّ الموريين كانوا يزرعون القمح .

وكانت مملكتا ماسولة ومازيسولة تقتسمان في القرن الثالث بين الملوية والأرض البونيقية البلاد الآهلة بالبربر الذين كان يسمّيهم الرومان والاغريق النوميديين وهي لفظة قد تكون مأخوذة عن لهجة البلاد نفسها .

ومن الممكن أن تكون قبائل مازيسولة التي هي بمثابة الخليّة الأمّ للجامعة منحدرة من المغرب الأقصى وقبيلة ماسولة من الأوراس حيث أقام ملك مجهول بالقرب منها "المدراسن" وهو ضريح ضخم يرجع تاريخ بنائه إلى القرن الثالث على سبيل التقريب .

2 ـ مملكة مازيسولة ـ سيفاكس

كانت دولة مازيسولة يحدّها شرقا إمّا رأس تريتون (رأس بوقرعون شمال قسنطينة) أو بالأحرى المساقة . وكانت سيرتة (قسنطينة) قسما من هذه المملكة ، على الأقلّ في عهد سيفاكس . وكانت مع صاغة التي تقع على بعد 90 كلم من الملوية شرقا تعدّ إحدى العاصمتين الملكيتين وكان لها ميزات ستراتيجية نادرة الوجـود .

وهذه المدينة الجاثمة على نجد صخري والمحاطة بمنحدرات وعرة ، يتجاوز علوّها 100 متر ويجري من تحتها نهر المساقة (الرمل) في خور جوانبه وعرة أيضا . وكانت لا تدرك إلاّ عن طريق برزخ الجنوب الغربي ، وتبقى بالفعل منيعة لا تنال، ما غذت الأمطار الفساقي المحفورة في الصخور.

وكان القسم المجاور لموريطانيا صالحا لزراعة الحبوب . وقد ذهب "سترابن" إلى الجزم بأنّها أخصب من نوميديا الشرقية ، وأنّ سوق سنابل القمح البالغ حجمها حجم الخنصر يتجاوز طولها مترين ، وأنّ أهلها كانوا يتحصّلون على صابتين من دون أن يبذلوا جهدا يذكر في العناية بالأرض ويظفرون بإنتاج يقدّر بـ 240 مقابل واحد . ويخشى أن تكون معلومات هذا الجغرافي غيرَ صحيحة تمام الصحّة .

وقد قام سيفاكس ، وهو اعظم اغليد في مازيسولة ، بدور عظيم . فمدّت إليه قرطاج يدها تطلبه المعونة وزوّجته فتاة من أعلى طبقة أرستقراطية ، وفي الوقت الذي ظهر فيه خصمه مسينسا على أبواب الهلاك عمّت سلطته بلاد الجزائر كلّها وكان يقلّد في حياته ملوك اليونان وتوهّم أنّ مصير بلاد البربر سيكون بيده .

لكنّ سلطانه انهار دفعة واحدة سنة 203 ولسنا نعرف هل أنّ ابنه "فرمينا" الذي كان يشارك أباه في الحكم أمكن له أن يظفَر بفُتات من هذه المملكة جهة الغرب . وعلى كلٍّ فإنّ مسنيسا لم يلبث أن ضمّ إليه مازيسولة كلّهـا .

3 — مملكة ماسولة ومسينسا

وكانت مملكة ماسولة وهي أقلّ مساحة تشمل القسم الشرقي من مقاطعة قسنطينة . ولقد تقلّصت حدودها الشرقية أمامَ التّوسُّع القرطاجي.

وكان لها أيام الحرب البونيقية الثانية اغليد اسمه "غايا" ولسنا نعرف هل أنّ "نارافاس" القائد النوميدي العظيم كان من الأسرة المالكة أم لا ، وهو الذي اشترى عبد ملقرط البرقي ذمّته ووعده بتزويجه ابنته مقابل تدخُّله الحاسم ضدّ المرتزقة .

وتطبيقا لقوانين الوراثة "الاغنية" لم ترجع مملكة "غايا" إلى ابنه الأكبر مسنيسا بل ورثها أخوه ثم ابن أخيه . وعندما غزا سيفاكس بلاد ماسولة لم يسع مسنيســا إلاّ أن يحيا حياة المنفي . غير أنّه كان رجلا من طينة خارقة للعادة . فلقد ربط مصيره بشيبيون وبقضيّة رومة فشاركهما في انتصارهما . وكان من أثر دخوله كالصاعقة لسيرتة (سنة 203) أن وضع حدّا لمملكة مازيسولة وكان ذلك بدءا لسلطانه . وسرعان ما أصبح سيدا على جميع البلدان الواقعة بين موريطانيا والمقاطعة البونيقية من الملوية إلى توسكة (قرب طبرقة) .

كان اغليدا عظيما صهر شعبه بيديه القويّتين وحاول أن يجعل من بلاد البربر دولة موحّدة مستقلّة . ولم يتح لبلاد المغرب قطّ ما أتيح لها في عهده من توفيق في طريق قيام أمّة حرّة ماسكة بزمام حضارتها الذّاتية اللّهم إلا إذا استثنينا فترة انتصار صنهاجة . ولئن حال الاستعمار الروماني دون أن يبلغ القائد البربري هدفه الذي ظنّ أنّه لا محالة بالغه فإنّ محاولته أظهرت على الأقلّ أنّه عاهل ذو صفات ممتـازة .

4 ـ استقرار النوميديين وتمدينهم

كثيرا ما يورد الباحثون قول "سترابن" من أنّ مسنيسا صيّر البربر فلاّحين ومدّنهم . تلك هي نفس النتائج المترابطة لسياسة معيّنة . فلقد أراد الاغليد أن يكون عاهلا لا سيّد قبيلة .

وكان لا بدّ له من ميزانية تغذّيها موارد قارّة للاحتفاظ بوفاء حلفائه ، والحدّ من سورة أعدائه ، ولتجهيز جيوشه وتكوين أساطيله ، ولبناء دولة نوميديّة بالديبلوماسية وبحدّ السلاح تكون جديرة بهذا الاسم قادرة على أن تقوم بدورها في حوض البحر المتوسّط .

وإذا كان من الممكن استخلاص الضرائب من جماعات البدو المتفاوتة العدد سواء بالمباغتة أو بالقوة فإنّه ما كان لأيّ اغليد أن يتنبّأ ولو على سبيل التّقريب بما سيجلبه له حماس "الحركّة" من موارد . فالبدويّ من حيث دفع الأداءات من أسوإ الرعايا . أمّا الحضريّ فهو على العكس من ذلك خير من يحلم به حاكم . فإذا زرع أمّل حصاد ما يسمّيه الأخلاقيون ثمرة عرق جبينه في طمأنينة ، ولذا فهو يطلب الحماية ويدفع ثمنها غاليا . وإذا بالغ أسياده في استغلاله رضي بمواصلة عمله أو شقّ عصا الطاعة أحيانا . ومنتهى عبقرية الحاكم تتجلّى في الاهتداء إلى الحلّ الوسط الذي يمكن معه استخلاص أقصى ما يمكن من الضرائب من دون التعرّض إلى خسارة الكلّ .

والغاية القصوى قد تتمثّل في القدرة على إحياء البدويّ وهو مادّة جبائية ميّتة وذلك بجعله حضريا وليس ذلك بالعمل الهيّن . ولم يكن ليتصدّى له مسنيسا ولينجز جانبا منه لو لم يتمتّع في نفس الوقت بهيبة كبيرة وعزيمة فولاذية .

وكان تعاطي الفلاحة قبل ذلك محدودا . قال بوليب : "هذا أعظم وأعجب ما قام به مسنيسا . كانت نوميديا قبله لا فائدة ترجى منها وكانت تعتبر بحكم طبيعتها قاحلة لا تنتج شيئا . فهو الأول والوحيد الذي أبان بالكاشف أنّه بإمكانها أن تدرّ بجميع الخيرات مثل أيّة مقاطعة أخرى لأنّه

أحيا أراضي شاسعة فأخصبت إخصابا » (نقل ستيفان قزال) . وإنّها لشهادة بليغة تقيم الدّليل — إذا أضفنا إليها شهادة "سترابن" — على أنّه هو المسؤول الأوّل عَن الانقلاب الاقتصادي الواقع بالمغرب الأوسط . وكان من الواجب من دون شك إقرار القبائل بتمليكهم الأراضي وحمايتهم من غزوات البدو . ولا ريب أنّ أكثريتها اضطرّت إلى أن تحيا حياة الرّعاة وحياة الفلاّحين في آن واحد لأنّ إحياء هذه الأراضي كان يتطلّب وقتا طويلا وجهدا كبيرا . وقد كان النوميديون يزرعون القمح والشّعير مثل البونيقيين .

إنّ مسنيسا شجّع إحياء الأراضي ممّا هيّأ بصورة غامضة — كما قال ستيفان قزال — ازدهار افريقية الرومانية . ولعلّه جعل من الأراضي التي افتكّها من البونيقيين ملكا خاصّا به استغلّه لنفسه . فلم يستنكف من أن يكون مثلا يُحتَذى . قال ديودرس الصقلّي : "لقد برع في الأشغال الفلاحية حتى أنّه ترك لكلّ واحد من أبنائه 10 000 (Plèthre) (874 هكتارا) مجهّزة بكلّ الآلات اللاّزمة للاستغلال" . ويكون لهذا المدح قيمته الخاصّة إذا نحن ذكرنا أنّه كان له 44 ولدا وربّما 54 .

ولم يتوزّع الفلاّحون الجدد على الضّيعات اجتنابا للمفاجآت بل تجمّعوا في قُرى محصّنة . وبذلك ساهم مسنيسا في "تمدين" البربر "فأصبح النوميديون مدنيّين" كما لاحظه سترابن . واستوحى من دساتير المدن الساحلية ما مكّنه من منح المدن الجديدة نظاما بونيقيا يعتمد على حُكّام سُمّوا الأسْبَاط أو الأشفاط (suffètes) .

ولم يكن استقرار النوميديين وتمدينهم ليُعطيا شكلا جديدا للعداء القائم طيلة تاريخ بلاد البربر كلّه بين البدو والحضر ، كما بيّن ذلك أ - م - قوتييه — إلاّ أنّهما غذّياه على أقلّ تقدير . وفي عهد مسنيسا وخلفائه ظلّت قبائل جدالة التي كانت تنتجع على طول سباسب السهول العليا بالمرصاد لهذه الفريسة الجاثمة التي تتمثّل في الفلاّحين النوميديين . وسوف يضطرّ "الاغاليد" وهم أسياد المدن ورؤساء دول بأتمّ معنى الكلمة إلى حماية ما شيّدوه من غائلة القبائل المتنقّلة التي إن انتصرت أرجعت رعايا هؤلاء الاغاليد إلى الفوضى .

5 — أعياد آلهة الحبوب (Cerères)

كلّ مدنيّة تعبّر عن مطامحها بواسطة الدين . فلا بدّ أن يكون للفلاّحين آلهة فلاحية . وكان مسنيسا هو الذي تولّى أيضا حمل النوميديين على عبادة آلهة يونانية : سيريرس (Cerères) وقورية وديميتير . فبعد أن أصلح "كركوبينو" في جرأة نصّا من نصوص "سالوسطس" وعوّض عبارة "اليوم الثالث" (in diem tertium) "بعبارة ليوم سيرير" (in diem cererum) بيّن — وله الفضل في الإصداع بهذا الافتراض — كيف أنّ دين الطّبيعيّين الذي كانت له أطوار بدائية ولكنّها رمزيّة ، والمتأثّر بالمراسم التي كانت تقام في سرقوسة على شرف الآلهة سيريس أو ديميتير كان يمارسه في عصر يوغرطة بافريقية كلّها (Per Omnem Africain) النوميديون الحضر . وهكذا يظهر أنّ مسنيسا أضفى على معتقدات البربر مسحة أسمى وأقرب إلى المدنية كما قد يقول "سترابن" وذلك من دون أن يصادم ميولهم .

6 — مسنيسا اغليد وإله

سعى مسنيسا في أن يكون عاهلا بأتمّ معنى الكلمة وربّما في أن يظهر في مظهر إلاه . وعلى كلٍّ فإن عبادة الاه الملك ظهرت وتركّزت في عهده . فبعد مرور عشر سنوات من وفاته أقيم له معبد في توقه (دقّة) وكان ضرب قبل ذلك نقودا تصوّره وعلى رأسه تاج وإكليل من الغار. وكان له جيش وأسطُول . ولذلك لم تستنكف رومة من الاستعانة في الشرق بالنوميديين وفيلتهم . وكان قد جمّل عاصمته "سيرتة" وبنى فيها قصرا يقتبل فيه الأجانب وخاصّة الموسيقيين الاغريق وهذا "الدالي" الذي كان يعتبر نفسه صديقه وأقام له تمثالا في جزيرته مسقط رأسه . وحرص مسنيسا على أن يتلقّى أبناؤه تربية يونانية فغنم أحدهم وهو مستنبغل غُنما كبيرا وتوّج آخر في العيد الذي يقيمه الإغريق للآلهة "أتينا" .

وسعى مسنيسا في أن يكون الملك في ولده فعوّض القاعدة "الاغنية" بقانون يضمن الخلافة لأكبر الأبناء مثلما هو الشأن بالنسبة للممالك اليونانية .

وقد أخفق في ذلك لأنّ الاستعمار الروماني – وكان يمثّله حينذاك "شيبيون الايميلي" – عمد إلى تجزئة تلك المملكة وقد ظهرت في حكم الاغليد العظيم في مظهر الجلال والهيبة .

وأكّد "تيت ليف" أنّه كان يصرّح فيما يتعلّق بالأجانب سواء كانوا فينيقيين أو رومانيين أنّ افريقية يجب أن تكون للافريقيين . وهي نظرية كان من شأنها أن تسحر رعاياه البربر الميّالين بطبعهم إلى كره الأجانب. وكان لا بدّ لتجسيم هذه النظرية من الاستيلاء على الأراضي البونيقية وخاصّة قرطاج عاصمة بلاد البربر . وكان من الممكن أن يكون ذلك تتويجا للصرح الشامخ الذي بناه حجرةً حجرة . وبما أنّه كان سيّد البلاد الواقعة بين الملوية وسيرتة الصغرى والكبرى كان يستطيع أن يخضع بسهولة موريطانيا وأن يدفع بلاد البربر كلّها إلى طريق الوحدة القومية . وإنّه لجدير بالاغليد الذي أظهر مقدرة فائقة في مهمّة شاقّة كحمل البربر على الاستقرار أن تظهر كذلك مقدرته بدون شكّ في القيام بأعمال جليلة لو أنّه كان على رأس امبراطورية .

وحتّى في الحدود التي أرغم على ألاّ يتخطّاها فإنّ الحماس الذي بثّه في جهاز الحكم الملكي لم ينطفِ بعده . ويعترف "ستيفان قزال" بأنّه يمكن القول : "إنّ نوميديا خطتْ تحت سلطة ملوكها من القرن الثاني إلى منتصف القرن الأول خُطُوَات شاسعة لم تَخْطُها وهي مقاطعة خاضعة للجمهورية". ولم تُحطّم رومة آمال مسنيسا العِراض إلاّ لأنّها كانت تخشى أن تتكوّن دولة بربرية جبّارة ، ولمّا مات مسنيسا سنة 148 وقد أثقلت كاهله السنون لم يجد المغرب "اغليدا" وُهِبَ مواهبَه النّادرة . وكتب "ستيفان قزال" في إيجاز عجيب : "كانَ مسنيسا من بين ملوك البربر أعظم العظماء فقد بزّ يوسف بن تاشفين المرابط وعبد المؤمن الموحدي والشريف المغربي مولاي إسماعيل الذين يوجد بينه وبينهم وجوه شبه كبيرة . فلقد بسط سلطانه من موريطانيا إلى بلاد القريني وجلب أموالا ضخمة وأنفق على جنود عديدين أشدّاء وعمّم الفلاحة وشجّع العمران . ولقد رأى فيه الاغريق والرومان الملك الحق . ونسي

الكثير من رعاياه وربّما أغلبهم حقدهم الغريزي للملوكيّة وساهم الودّ والخوف معا في تعلّق النّاس به وتواصلت عبادته على مرّ العصور".

وينتصب على بعد بضع كيلومترات من قسنطينة ضريح من الحجارة المنحوتة مستوحى بتصرّف من الأسلوب الاغريقي يدعى "صمعة خروب" وقد رمّمه بدون تحرّ رجال يدّعون أنّهم ينتسبون إلى الفنّ، وفي سنتي 1915 — 1916 اكتشف أثناء أشغال الترميم قبر فيه، إلى جانب متاع كثير (سلاح، وآنية طعام وغيرها)، حوض من فضّة مملوء رمادا. هي حفنات من الرماد فقط ولكنّها قد تكون ما تبقّى من مسنيسا إذا نحن اعتبرنا العصر والموقع والفنّ المعماري وعادة إحراق الموتى في ذلك العصر. ولربّما انبعثت من ضريح العاهل الكبير البربري المشرف على عاصمته أسوة وذكر للأجيال من بعده.

II — الحرب البونيقية الثالثة ونهاية قرطاج

1 — مصرع حنّبعل

فرض شيبيون الافريقي بعد معركة جامة معاهدة تقرّ انقراض دولتها. وقد لاحظ "ب. ڤوكلير" (Gauckler) عند إحصائه متاع القبور أنّ الحليّ الذّهبية مفقودة أو هي مزيّفة وقد فقدت الحجارة الصّلبة المحفورة ودمى العاج والميناء المنقوشة نقشا بارعا والأواني الثمينة، وحلّت محلّها نقود قديمة متآكلة ومصابيح لم يعد القوم يحفلون بإسراجها قرب الموتى وآنية من الفخّار عادية كثيرا ما تكون مثلومة.

ولئن خرجت الدولة مفلسة فإنّ الارستقراطية بقيت غنيّة. ولقد تحامل الرأي العام على كبار التّجّار والملاّكين الذين ما انفكّوا يختلسون ثروات المدينة ويؤثرون بأنانيتهم في مصيرها أيّما تأثير ومهد لحنّبعل السبيل إلى الحكم. وعندما عيّن سنة 195 شافطا أراد تحطيم طبقة الأقليّة الحاكمة بجعل القضاة حكّاما يعيّنون كلّ سنة كما أراد الضرب على أيدي المرتشين. فكان في ذلك الحكم عليه بالإعدام.

وندّد الارستقراطيون الذين كانوا يضعون مصالحهم فوق مصالح قرطاج في رومة بأعمال حنّبعل الثورية واستعدّوا لتسليمه إليها . فتمكّن من الفرار في الوقت المناسب والالتحاق بسوريا حيث حاول أن يستفزّ الملك "أنتيوخوش" لشنّ حرب عامّة على رومة . غير أنّه عندما نقلت رومة الحرب إلى الشرق وهزمت "أنتيوخوش" طالبت في بنود الهدنة (أوائل سنة 189) بتسليم حنّبعل ولكنّ البرقي أفلت مرّة أخرى من قبضة المنتصر وسار إلى "الكريت" (جزيرة اقريطش) والتحق بأرمينية فهدى الوالي الفارسيّ إلى موقع يبني فيه عاصمته ثم توجّه إلى "بوتينا" حيث انتصر الملك "بروزياس" على جيوش "برغام" بفضل إعانة حنّبعل . فكانت آخر مرحلة من حياة الترحال . ذلك أنّه تجرّع السمّ في الوقت الذي عزم فيه "بروزياس" على تسليمه إلى رومة بأمر منها (سنة 184) وفي هذه السنوات العشر التي قضّاها في المنفى لم تنفكّ وشايات قرطاج تلاحقه حيثما حلّ .

2 – نهوض قرطاج

قد كان لقرطاج بالرغم عن إضاعتها لحنّبعل من الموارد ما يكفيها لكي لا تبقى منخذلة طويلا . فانطلق التُّجّار يخوضون البحر من جديد ويبحثون عن أسواق جديدة خاصّة في الشرق وأصبح القرطاجي مرّة أخرى شخصا مألوفا في موانى البحر المتوسّط حتى أنّ "بلوت" جعل منه بطلا لإحدى مسرحياته .

ويظهر أنّ البونيقيين وجّهُوا جنودهم إلى إحياء الأراضي الافريقية خاصّة . فلقد فتح حنّبعل الطّريق لذلك في مدّة حكمه القصيرة . فلمّا أتى "قاطون" إلى افريقية حوالي سنة 153 اندهش لخصوبة الأرض ، ومن ذلك الوقت تزعّم قاطون ، ذلك الإقطاعيّ المحدود المدارك العنيد مع ذلك ، طبقة المزارعين الذين كانوا يُسيطرون على مجلس الشيوخ للمطالبة بهدم قرطاج (Delenda Carthago يجب تهديم قرطاج) التي ربّما زادت منافستها في حدّة الأزمة المتمكّنة من الفلاحة الرومانية في أوائل القرن الثاني .

ورجع إلى قرطاج ازدهارها بسرعة جعلتها تعرض على رومة قبيل حربها لـ "أنتيوخوش" أن تدفع حالا الغرامة الموزّعة على أربعين سنة وتعرض

عليها أيضا إعانتها بأسطول تصنعه لهذا الغرض . ولكنّ مجلس الشيوخ رفض عروضا كان من شأنها أن تجعل منه صنيعة الحكومة القرطاجية فتعسر عليه بذلك مراقبتها .

3 — هجوم مسنيسا

كانت تجد رومة في مسنيسا حليفا تشجّعه على التوغّل في أرض قرطاج للحيلولة دون ازدهار الميناء الافريقي خاصّة وأنّ معاهدة 201 تحجّر على قرطاج الذود عن حياضها بدون إذن من رومة .

وكان ملك النوميديين أمهر من أن يهمل استغلال هذه الفرصة . وبما أنّه يمكن له المطالبة بما قد ملكه من قبل أباؤه وأجداده من تراب قرطاج فقد كانت ذاكرته تكتشف حقوقا قد جهلها والده "غايا" وذلك تبريرا لطلباته المتكرّرة . لذا شرع منذ سنة 193 في قطع لحم قرطاج إرْبا إرْبا ولم يكن الرومان ليعيروا أذنا صاغية لنداءات الضحيّة ولكنّهم كانوا ، عند أوّل بادرة تدلّ على المقاومة يثورون صيانة لجلالة المعاهدات المنتهكة . وكان رجال القانون المتصلّبون يحـقدون حقد التاجر الذي يرى أنّ جميع الطُّرق صالحة ليجرّ بغريمه إلى الإفلاس .

وفي مواقف الجدال كان مسنيسا لا يكترث بتبرير ما يقوم به من أعمال ولكنّه ينحي باللوم على قرطاج بدعوى خرقها لبنود معاهدة كان يواصل التشهير بها أمام مجلس الشيوخ خشية التورّط ، لذلك فقد كشف النقاب قبيل حرب مقدونيا الثالثة عن محادثات سرّية بين الملك "Persée" " برسيه" وقرطاج ، واستغلّ ذلك ليفتكّ سبعين مدينة أو قصرا بونيقيا . فاحتجّت قرطاج بشدّة وطالبت بضمانات تجعل حدودها قارّة ، ولو أدّى بها ذلك إلى التضحية من جديد . وكان مجلس الشيوخ يخشى حلفا بين قرطاج وملك مقدونيا فأقسم إنّه لا يسمح لأيّ كان بأن يجرّد قرطاج من أملاكها ولكنّه ترك النوميدي حرّا لمواصلة أعماله .

وفي سنة 162 احتلّ مسنيسا الأراضي الخصبة (مراكز التجارة) (Emporia) أي جهة سيرتا الصغرى وسيرتا الكبرى . فحاول السفراء الرومان بكلّ ما وسعهم من حيلة أثناء القيام ببحثهم أن يبرّروا شرعية هذا التّعدّي كما أقرّ بذلك "تيت ليف" نفسه .

وبعد ذلك بتسع سنوات أتى دور الدخلة (Campi magni) التي كانت خيراتها تُغري منذ زمن بعيد الاغليد . وفي هذه المرّة كان الأمر من الصعب تبريره . فأتى "قاطون" ومن معه في بطء شديد ليعاينوا أنّه قد قضي الأمر ولم يعد في الإمكان منع الاحتلال (سنة 153) غير أنّهم أدركوا أنّ الإفراط في ضرب الحيوان يحمله على الغضب ويدفعه إلى التكشير عن أنيابه .

4 – الصمود في وجه مسنيسا

كوّن مسنيسا أنصارا في قرطاج نفسها . ولكنّ الشعب تعاظم شعوره بالحرية أمام الخطر واشتدّت غريزة المقاومة فيه عنيفة . فحمل قائديه "عبد ملقرط السمني" و"كارتالو" على الإذن بطرد المشكوك في أمرهم، وابتداء من سنة 154 أعدّت المدينة العدّة للقتال . ولقد ظنّ سفراء سنة 153 أنّ قرطاج تقوم باستعدادات سرّيّة فطالب "قاطون" بمحق قرطاج كرد فعل . غير أنّ حزب "شيبيون نازيكا" أقنع مجلس الشيوخ بأن يتوقّف ذلك على قبول لجنة مراقبة . وساد أعضاء هذا المجلس الشعور بأنّه يجب اعتبار خرق المعاهدة مَدْعاة لشنّ الحرب .

أمّا في بلاد البربر فإنّ الأحداث كانت تسير سيرها المحتوم . فكانت الديبلوماسية البونيقية تسعى إلى إثارة المصاعب في وجه مسنيسا على حدود موريطانيا ، وكان "كارتالو" يجوب نوميديا طولا وعرضا محرّضا الليبيين على الثورة . فانضم قائدان بربريان إلى العدوّ وتمكّنت قرطاج في آخر الأمر من تجهيز جيش يعد 50 000 رجل . وتقدّم الاغليد النوميديين في ساحة الوغى راكبا فرسه وقد ناهز 88 حولا وقادهم إلى النصر (سنة 150) وكانت بعثة رومانية تستعدّ للتدخّل فيما إذا انتصرت قرطاج

ويقال : إنّ شيبيون الايميلي كان يبحث قبل ذلك عن الفيلّة وشاهد المعركة من أعلى هضبة بدون أن يحرّك ساكنا .

فاضطرّت قرطاج إلى التّخلّي عن الدخلة (Campi magni) وتعهّدت بأن تدفع غرامة قدرها خمسة آلاف وزنة أوبية أقساطا موزّعة على خمسين سنة. وبذلك فهي لم تفلس في محاولتها فحسب بل فقدت كلّ أمل في أن تنهض اقتصاديا أو سياسيا . وعند ذلك ضربتها رومة ضربتها القاضية .

5 ـ الحكم بالإعدام على قرطاج

كان مسنيسا يأمل أن يضمّ التراب القرطاجي لمملكته جزاء وفائه المتواصل لرومة . لكنّ مجلس الشيوخ كان يخشى أن يبرز إلى الوجود في يوم من الأيّام حنّبعل ثان من سلالة ماسولة . فيجد في قرطاج قاعدة يشنّ منها حربا جديدة على رومة . ولئن تركت قرطاج وشأنها فإنّها واقعة لا محالة في قبضة الاغاليد . فكان من الواجب أن تكون نوميدية أولا تكون . فقرّر مجلس الشيوخ إزالتها تماما . ولكنّه أراد تغطية نواياه بتعلاّت قانونية (شارل سوماني Ch. Saumagne) من شأنها أن تبرّر هذه الفعلة في اعتقاده .

لكنّ قرطاج أحسّت بالخطر . فحكمت بالإعدام على مثيري الحرب وسألت رومة أن تطلب ما تريد.فلم يجب مجلس الشيوخ إلاّ أنه أمر القناصل بتجهيز أربع كتائب تضمّ 4 000 فارس و 50 سفينة خماسية ، وبالالتحاق بميناء أوتيكة . وسقط الميناء في أيدي الرومان بدون ضجّة . وأدركت قرطاج من كثرة الجنود مدى الخطر فأعلنت بأنّها مستعدّة لقبول كلّ الشروط وقدّمت 300من الشبّان النبلاء كرهائن أملا في إيقاف الغزو ، ورغم ذلك فإنّ الجيش الروماني نزل بأوتيكة واحتلّ(Castra Cornélia) "كسترا كرنيليا"

وتسلّم القناصل قبل أن يصرّحوا بشروط رومة 200 000 من الدروع و2 000 منجنيق ، وأخذوا المراكب فأحرقوها . ولمّا تيقّنوا من أنّ كلّ خطر قد زال أعلنوا عن حكم مجلس الشيوخ . (وهو يفرض على القرطاجيين أن يتخلّوا عن مدينتهم وأن يبنوها من جديد على بعد خمسة عشر كيلو مترا

من البحر . وتبقى لهم حرية اختيار الموقع كما يضمن لهم احترام معابدهم وقبورهم . وإنّ في هذا الحكم المسلّط على هذا الشعب من البحارة نفاقا زاد في فظاعة قساوته .

6 ـ الكفاح من أجل البقـــاء

أسقط في أيدي السفراء البونيقيين وعبّروا عن تخوّفهم من أن يثور الشعب . وكان الذي وقع أعظم من ذلك . فلمّا رأت المدينة أنّه حكم عليها بالإعدام عزمت على أن تقاوم إلى آخر رمق من حياتها . ولقد صَمَدَتْ مدّة ثَلاَثِ سنواتٍ كما تصمد الفريسة في وجه صيّاديها في شدّة لم يقرأ مجلس الشيوخ لها حسابا . ولمّا وصل الجيش أمام قرطاج وجد الأبواب مغلقة وأعالي الأسوار مليئة بالقذائف . ولم ير القناصل في ذلك إلاّ سَوْرَة غضب بينما كانوا إزاء انتفاضة كاسرة . فعرضوا هدنة تدوم ثلاثين يوما من شأنها أن تهدّىء الأعصاب .

فعمّت حينئذ المدينة موجةٌ عارمة من البطولة وروح التضحية . ذلك أنّ القوم لم يعودوا يقاومون لأجل مصالحهم فحسب بل في سبيل مَثَلٍ أعلى . فاستغلّوا جميع الإمكانيات. ويقال : إنّ النّساء أنفسَهنّ تبرّعن بشعورهن لفتل حبال المجانيق . وفي كلّ يوم كان يصنع 140 ترسا و300 سيف و500 رمح و1 000 قذيفة . وفي هذه المرّة كان الشعب مناهضا للشيوخ متقمّصا فكرةَ الدّفاع عن الوطن .

وتفطّن القنصلان إلى أنّ الأحداث لا تجري على أحسن ما يرام فاستنجدا بمسنيسا ، ولكنّه لم يحرّك ساكنا فقرّرا الاعتماد على النفس فحاول أحدهما بدون جدوى ردم خنادق البرزخ وخاب الآخر في هجوماته على الأسوار المشرفة على بحيرة تونس . إلاّ أنّهما تحصّلا على مناصرة "حضرموت" (سوسة) و"تابسوس" (رأس ديماس شمال المهدية)و"ليبتيس مينور" (لمطة) و" أشولة" (بطرية) ولكنّ بنزرت (Hyppo Diarrhytus) قليبية (Clupéa) ونابل (Néapolis) انتصرت لقرطاج .

غير أنّ صدربعل القائد الذي هزمه مسنيسا سنة 150 احتلّ هضبة نفريس (على بعد 30 كلم من الجنوب الشرقي من قرطاج) وهي هضبة تسيطر على الطريق الموصلة إلى سيرتا الصغرى بينما كانت كتائب فرسان "فامياس" (Phaméas) تناوش الجيش الروماني . فأرسل القنصلان النائب الشعبي شيبيون الايميلي ليحرّض مسنيسا من جديد على التدخّل . فلم يجد إلاّ جثّة هامدة (سنة 148) ولكنّه علم أنّ الاغليد خلّف له وصيّة بتعيين خلف له فعمل شيبيون بالوصية حسب مصالح رومة . ووزّع سلطان مسنيسا بين ثلاثة أشخاص بعد أن جعلته شخصية الملك النوميدي محطّا للهيبة . ولعلّ رومة كانت مدينة له بتخلّي فامياس عن مناوأته لها وقد كانت بينهما علاقة شخصية ، وعلى كلّ فإنّ الشّاب النائب الشعبي أظهر تفوّقا على القواد الآخرين .

وكذلك فإنّ قنصلي سنة 149 و 148 لم يكونا قادرين على القيام بمهمّتهما . فأخفقا في هجومهما على المدن المتحالفة مع قرطاج ولم يتمكّنا من منع صدربعل من الدخول إليها وإقرار نفوذه فيها . وكانت الديبلوماسية البونيقية تبحث عن حلفاء من بين الموريين والنوميديين . فقرّرت رومة عند ذاك إسناد القيادة إلى الرجل الوحيد الذي أظهر أنّه كفء لها وهو شيبيون الايميلي فسمّي قنصلا رغم أنّ عمره لم يتجاوز 38 سنة وأنّه كان من الواجب أن يترقّب خمس سنوات ليبلغ السنّ القانونية . فسلّم له الشعب افريقية بدون اقتراع ومدّه بكلّ ما طلبه من جيوش ونقود .

7 — شيبيون الايميلي

هو "شيبيون الايميلي" ابن "بول اميل" المهزوم في كانه تبنّاه شيبيون الافريقي . كَرَعَ من الثقافة اليونانية وشُغف بمخالطة الأدباء ودَرَسَ فنّ الحرب ، وهو الذي أوحى إلى القناصل بقراراتهم بالرغم عن أنّه كان يحتلّ منصبا ثانويا .

وكان أوّل عمل قام به في ربيع سنة 147 هو التخلّي عن ضاحية "مغارة" (قرب سيدي بو سعيد) حيث كان حاول القنصل لقاء العدوّ لقاء

فيه مجازفة . وأراد شيبيون بدوره اقتحام السُّور الشّمالِي فتمكّن من الدّخول على رأس 4 000 رجل ولكنّه لم يتسنّ له استغلال نجاحه .

وتوصّل شيبيون بعد عشرين يوما بلياليها إلى سدّ البرزخ بإقامة سور يمتدّ من خليج تونس إلى سبخة أريانة ويعلوه برج ذو أربعة طوابق ، لكنّ قرطاج بقيت تأخذ مِيرَتَهَا عن طريق البحر . فسدّ شيبيون مدخل الميناء وردّ القرطاجيون الفعل ففتحوا فرجة أخرى أخرجوا منها كتيبة سرعان ما اضطرّت إلى التّقهقر (صيف سنة 147) فاحتلّ شيبيون مرتفعا أقامه البونيقيون ومنه منعت مِدْفَعِيَتُهُ كلّ توغّل في الميناء فشلّت بذلك حركة التموين . وبعد أشهر هزم الجيش البرّي ودخل "نفاريس" بعد حصار شديد . وانهزمت أيضا النجدات المرسلة إلى المحاصرين من موريطانيا. وحينئذ عَهِد شيبيون إلى صاحبيه "بوليب" المؤرّخ و"بانياتوس" الفيلسوف اليوناني بقيادة حملة بحرية أوصلتهما إلى ما وراء أعمدة هرقليس على سواحل المغرب الأقصى .

8 — احتضار قرطاج والقضاء عليها

خابت المفاوضات التي قام بها أحد أبناء مسنيسا لإقرار السلم . ذلك أنّ صدربعل ما كان ليقنع بالنجاة بنفسه فضاعف شيبيون الايميلي عندئذ نشاطه لينتصر قبل أن تتمّ مدّة تكليفه بمهامّ القنصلية . ففي ربيع سنة 146 أمر جنوده بالزحف . فافتكّ جيشه الميناء الحربي واحتلّ المدينة السفلى منزلا منزلا وعسكر في الساحة العمومية (Agora) في سفح هضبة "بيرصة" وفي الصّباح أشعل الجيش النار في الشّوارع وتواصل حصار القلعة طيلة ستة أيام بلياليها قبل القضاء عليها . وفي اليوم السابع سلم 55 000 ساكن أنفسهم إلى المنتصرين . أمّا صدربعل فقد التجأ إلى معبد "اشمون" ثم استسلم إلى شيبيون وكانت زوجته قد خرجت في ثياب الزينة على مرأى منه ورمت بنفسها صحبة ابنيها في النّار التي أضرمها الجنود الرومان الذين كانوا فرّوا من صفوف جيوشهم ففقدوا الأمل في العفو .

لقد كان مجلس الشيوخ قاسيا إذ كان نصيب الأسرى إمّا العبوديّة أو السجن المؤبّد ودفعت بنزرت الثمن غاليا جزاء وفائها لقرطاج .

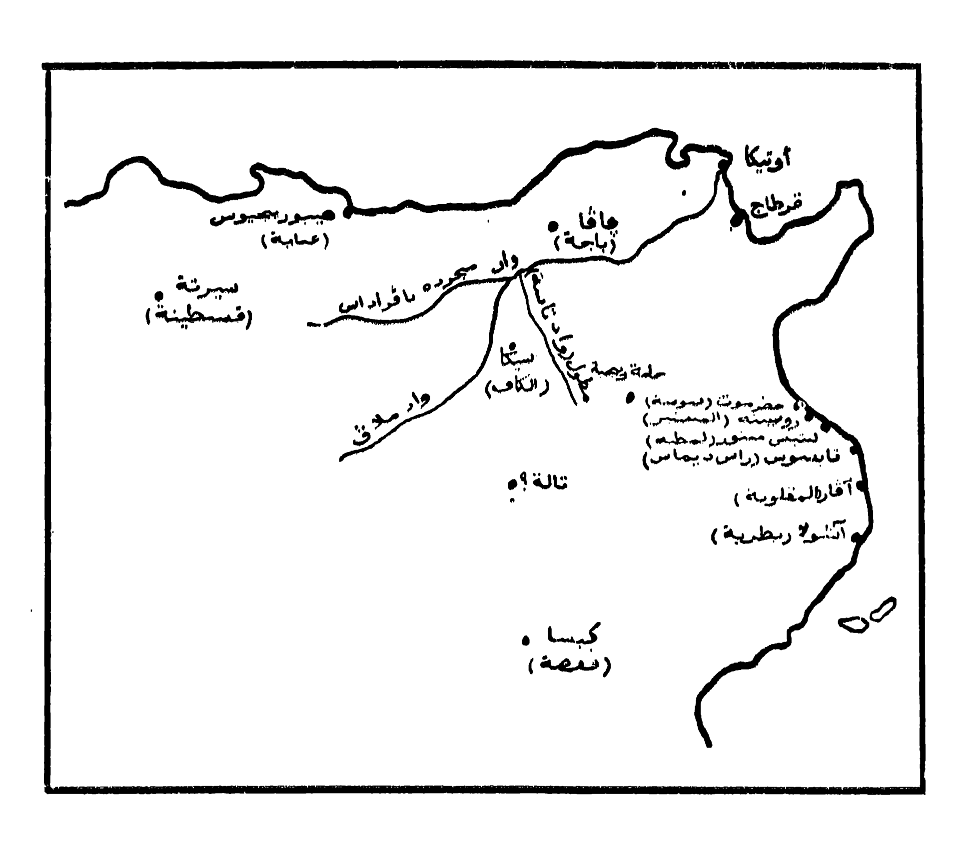
فمحقت محقا ولعنت أرض قرطاج ونذرت إلى الآلهة ومنعت على كلّ من أراد البناء على أديمها . وكان مصير المدينة المحق التّام وكان شيبيون المتشبّع بالثقافة اليونانية هو الذى أشرف على تنفيذ هذا الحكم كما فعل بعد اثنتي عشرة سنة بالنسبة "لنومانس" . فقام ببرودة تامّة بدور الجلاّد . وقيل : إنّه شعر عند مشاهدة انهيار الجدران بأنّ الامبراطوريات ليست خالدة وفكّر في مصير رومة واستشهد على الأقل ببيتين قالهما "هوميروس" في مصائب طروادة .

III ـ الاحتلال الروماني

1 ـ افريقية الرومانية Africa Romana

كان سقوط قرطاج معلنا ببدء الاحتلال الروماني في افريقية . وكانت هيمنة مجلس الشيوخ لا تقتصر على محق أعدائه فقط بل تتعدّاه إلى اعتبار ترابهم أرضا رومانية ، ولذلك فقد قرّرت هيئة متركّبة من عشرة شيوخ ومكلّفة بتقرير مصير ما كان لقرطاج من ممالك قبل الحرب تحويلَ هذه الممتلكات إلى مقاطعة رومانية (ربيع سنة 146) فكانت المقاطعة الافريقية (Provincia Africa) أو إفريقية (Africa) .

ولم تكن هذه المقاطعة ممتدّة الأطراف . فمساحة الأرض التي يحدّها الخندق الذى حفره شيبيون (Fossa Régia) لا تبلغ 25 000 كلم مربّع ولا تمثّل إلاّ ثلث الجنوب الشرقي من البلاد التونسية حاليا . ويبدأ هذا الخندق (Fossa) من مصبّ الواد الكبير (La Tusca) قرب ميناء طبرقة (Thabraca) ويتّجه إلى الجنوب الشرقي تاركا في التراب النوميدى باجة (Vaga) وتبرسق (Thubursicu Bure) ودقّة (Thugga) ثمّ يميل إلى الشرق ليصل إلى جبل فكيرين (في الجنوب الغربي من جبل زغوان) وكان يظنّ أنّ هذا الخندق ينطلق من تلك النقطة في خطّ مستقيم إلى أن يصل إلى هنشير طينة (Thaenae) (على بعد 12 كلم من الجنوب الشرقي من صفاقس) مارّا بسبخة سيدى الهاني وسبخة القرة . غير أنّ شارل سوماني أقام الدليل في السنوات الأخيرة على أنّ هذا الخندق



الشكل : 7 ـ حروب افريقية في القرنين الأولين .

أكثر قربا من الحدود الغربية لأنّ المدن الحرّة كانت توجد جنوب البلاد وشرقيّها، ويوجد على التخوم الجنوبية لنوميديا و"إفريقية" أرض كانت تسكنها منذ زمن قديم قبائل من جدالة . وربّما كان هذا الخندق موجودا بالقرب من سلاسل الجبال العالية التي توازي الساحل من جبل خشم إلى جبل فكيرين . وتنتهي هذه المقاطعة في سيرتا الصغرى (خليج قابس) وتبعد قليلا عن جنوب طينة . وهذه الحدود الأولية التي تضبط منتهى مطامح رومة والتي لن تفكّر في تجاوزها قد رُميزَ إليها في عهد الامبراطورية بأكوام من التراب .

وكانت رومة كلّما احتلّت مقاطعة ضبطت مساحتها . ولعلّها ـ كعادتها ـ شرعت حالما احتلّت البلاد في تقسيمها إلى قطع مربّعة مساحتها خمسون هكتارا تقريبا وهذا هو المقياس الذي استعمله فلاكوس (Flaccus) وقراكوس (Gracchus) سنة 122 ليوزّعا قطع الأرض على المعمّرين إن لم يكونا هما اللّذان اخترعاه .

وهذا النوع من التقسيم المنسوب إلى قراكوس جرى به العمل إلى بــرو قنصلية فيبيوس مرسيوس (Vibius Marsus) (سنة 30/29 بعد المسيح) وصادف أن وجد شارل سوماني في الصور التي التقطتها شركة الملاحة الجوّية الفرنسية لفائدة جمعية الأوقاف التونسية ما مكّنه من تعرّف إحدى هذه العمليات الكبرى التي تناولت 15 000 هكتار تقريبا بين لجم (Thysdrus) وآثــار الرقعة غربا والبحر شرقا . ولم تكشف الصور عن الحدود المتمثّلة في خطوط طويلة من الحجارة البيضاء والقطع ذات الخمسين هكتارا ، بل كشفت عن آثار الأشجار التي كانت مزروعة ، وهي خطوط من العسير أن يتبيّنها المرء وهو على وجه الأرض .

وعهدت رومة حكم "إفريقية" إمّا إلى قاضٍ في رتبة معين للقنصل (Curule) ويسمّى بريطور (Préteur) أو إلى بريطــور قــديم يقوم مقامه ويسمّى بروبريطور (Propraetor) ويعيّن لمدّة سنة . ومنذ أن نظّمت إدارة مقاطعة اسبانيا أصبح لرومة مسؤولون برتبة بريطور. وابتداء من عهد سيلا (Sylla) الذي جعل عددهم ثمانية وأجبرهم على

ممارسة الحكم في رومة (سنة 81) لقّب نائب الحاكم (Promagistrat) المكلّف بافريقية بلقب بروقنصل (Proconsul) على غرار بقيّة الوُلاة . إنّه لم يكن للمقاطعة من الأهمّيّة حينذاك ما من شأنه أن يغري قدماء القناصل. ولا شكّ أنّ مجلس الشيوخ الجمهوري لم يكلّف بإدارتها سوى حكّام في رتبة بريطور .

أمّا في الساعات الحرجة فقد قاد القناصل بأنفسهم العمليات في المنطقة التي عيّنوا فيها من نوميديا كما عهد "بومبيوس" أثناء محاربته للقراصنة (سنة 67) بأمر الدّفاع عن افريقية إلى أحد مساعديه البريطوريين الاثني عشر (Légats prétoriens) ، وكان حينئذ صاحب النفوذ المطلق على كامل المنطقة التي كانت تتوغّل خمسين ميلا داخل البلاد . وقد احتفظت "إفريقية" رغم الحروب الأهلية بنفس النظام إلى عهد قيصر (سنة 46) .

وكان الوالي المقيم في "أوتيكة" مع مساعديه (Légati) وأعوانه (Amici) (Comites contubernale) الـذين يختـارهـم هـو بنفسه يدير عمليّا مقاطعته بدون مراقبة ويساعده في ذلك وكيل مالي (Quartor) يعيّنه مجلس الشيوخ ومهمّته السهر على خزينة الدّولة ونيابة الوالي إذا تغيّب (Quartor propraetor) ، وكان الوالي مكلّفا بالدفاع عن الحدود من هجومات النوميديين أو القراصنة ، والمحافظة على الأمن الدّاخلي بواسطة جيوش يعيّن مجلس الشيوخ كلّ سنة عدد جنودها . ولكنّه كثيراً ما يضطرّ زمن الحرب إلى الاستعانة بالاغاليد الحلفاء ، وفي المقاطعة نفسها فإنّ القوات لا تكفي للمحافظة على النظام .

وقد تحصّلت سبع مدن إفريقية على حرّيتها جزاء إعلانها القطيعة بينها وبين قرطاج ، وهي موانىء أوتيكة وحضرموت ولمطة ورأس ديماس وأشولة وأوسلة ، وكذلك مدينة تقع وراء خليج بنزرت وهي تودالوس . وفي سنة 111 أصبحت لبدة الكبرى (Leptis magna) صديقة الشعب الروماني . وكانت هذه المدن تدير شؤونها بحرّية وتتحصّل على بعض الأراضي التابعة لأملاك رومة ، ولكنّها كانت خاضعة ولا شكّ إلى التزامات عسكريّة ومالية .

2 ـ نظام الأراضي واستعمارها

حوّلت رومة الممتلكات القرطاجية والبربرية إلى أملاك عمومية ، وكان على الرعايا الذين بقيت أملاكهم في حوزتهم بصفة وقتية أن يدفعوا ضريبة قارّة تعرف بضريبة المهزوميـن تستخلصها شركات ملتزمة وكانت المهامّ موزّعة في الأول بين الدوائر الثلاث (Pagi) ثم بين الجباة المرتزقة (Stipendiari) في كلّ دائرة . ولم تهتمّ الجمهورية بمصير الأهالي الذين بقوا على التقاليد البونيقية ، والذين لم تؤثّر فيهم المدنية اللاطينيّة وتجاهلت ، على الأقل رسميا ، هيئاتهم البلدية . وكان الوالي مهتمّا في المقام الأول بتنمية مصالح مستخلصي الضرائب ورجال الأعمال (Publicains) والتجّار الكبار . ولعلّ الرومانيين العائشين في افريقية كانوا يقيمون خاصّة في أوتيكة إلى سنة 123 ولم يهتمّوا إلاّ بشؤون التّجارة والحكم ، وكان الثلاثمائة تاجر ومموّل يقومون بالدور الرّئيسي .

3 ـ كايوس قراكوس

قام بالمحاولة الأولى لتعمير البلاد ثاني القراك (كايوس سمبرونيوس قراكوس) لكنّ الطبقة الارستقراطية (Optimates) اتّخذتها ذريعة للهجوم على المصلحين فكان انقلاب سنة 121 الذي قضى على حياة كايوس وأنصاره ، كما وضع حدّا لما شُرع فيه من عمل ، ويجدر الاطّلاع على قصّة كركوبينو المؤثّرة البليغة والتي لا معقب لها في كتابه " حول القراك " (Autour des Gracques) ولا أعلم وصفا أوضح ولا أبلغ من وصفه لشراسة طبقة تستعمل أخسّ الوسائل للقضاء على مصلح اجتماعي .

ففي سنة 133 أمكن لـ. تي سمبرونيوس قراكوس (Ti. Sempronius Gracchus) وكان أكبر سنّا من كايّوس أن يحمل مجلس الشيوخ على المصادقة على قانون يعرف بقانون سمبرينيوس يحدّد أقصى ما يمكن أن تملكه عائلة بـ 250 هكتارا . ويقضي بتوزيع الأراضي المنتزعة على المواطنين الفقراء قطعا لا تتجاوز الواحدة منها سبعة هكتارات ونصفا ، كما أحدث بمقتضى

نفس القانون لجانا ثلاثية مكلّفة (Triumvir) بتوزيع الأراضي (Triumviri Agris iudicandis Adsignandis) والإشراف على توزيع القطع وحسم الخلافات .

وكان يظنّ المؤرّخون أنّ أعضاء هذه اللجان الثلاثة المنتخبين لمدّة سنة والذين كان يمكن تجديد انتخابهم ، يعمل بعضهم مع بعض . إلاّ أنّ كركوبينو أقام الدّليل على أنّهم كانوا يعيّنون مدى الحياة ويقومون بعملهم بالتناوب . واستنتج من هذا الاكتشاف نتائج هامّة جدّا وخاصّة فيما يتعلّق باستعمار قرطاج .

وابتداءً من سنة 133 سمّي الشاب "كايوس" ولم يمض على تعيينه سنتان حتى مارس نفوذه الفعلي فانتزع قدرا كبيرا من الأراضي التي احتكرتها طبقة النبلاء (Optimates) ووزّعهــا (Assignation) وقد ضمّت اللجنة الفلاحية ابتداء من سنة 129 ثلاثة أصدقاء لهم نفس الاندفاع وهم : كايوس وفلبيوس فلاكوس وس. بابيروس كاربو (.Caïus, M Fulvius Flacus,C. Papirius Carbo)غير أنّ مجلس الشيوخ تمكّن من شلّ نشاطها بتجريدها من مشمولاتها القضائية .

ولمّا رجع كايوس من سردانيا سنة 125 للاضطلاع من جديد بمهامّه في اللّجنة الثلاثية سعى في أن ينتخبه القوم نائبا للطبقة الشعبية (Tribuns) وبادر بحملهم على إجراء استفتاء قضى بإرجاع مشمولات اللّجنة الفلاحية فتمكّن من وسائل العمل التي حرم منها منذ ستّ سنوات فعاود طبقة النبلاء من جديد شبحُ الإصلاح الفلاحي .

وقد زاد في تفاقم الخطر أنّ الفقراء كانوا على وشك التمرّد وتصدّت الأقليّة الحاكمة في مجلس الشيوخ لهذا الخطر ولجأت إلى نفس الطريقة التي لجأ إليها البرجوازيون الفرنسيون في الجمعية الوطنية أيام جوان 1848 أي إرسال المعوزين العاطلين والمهدّدين للأمن إلى افريقية كلّفهم ذلك ما كلّفهم ، وخلافا لما يُظنّ عامّة فإنّ كايوس لم يتّخذ هذا القرار الذي من شأنه أن يحوّله عن رسالته بل النائب الشعبي "روبريوس"

(Rubrius) هو الذي فعل ذلك وقد استجاب الرعاع في حماس إلى نداء الهجرة إلى وطن ثان حيث يكونون أسعد حظا شأنهم شأن العاطلين الذين كانوا يعملون في المعامل الوطنية سنة 1488 وصادقت القبائل على تعيين (déductio) عدّة آلاف من المعمّرين وتوجيههم إلى افريقية ، وزكّى مجلس الشيوخ قانون "روبريوس" بارتياح يضاعفه إقصاء أعضاء اللّجنة الثلاثية من ايطاليا ، وكانوا هم الذين كلّفوا بتنفيذ هذا القانون (سنة 123) .

واتّفق لفلاكوس أن قاد ، حسب قاعدة التناوب ، المعمّرين إلى افريقية ولم يكن عند تنصيبه لهم يجهل أنّ أرض قرطاج أرض ملعونة ، ولذلك فقد عيّن مكان هذه المستعمرة الجديدة خارج المنطقة التي استنزلت عليها اللعنة وقسّمها إلى قطع مساحة كلّ منها 50 هكتارا . وقد عثر شارل سوماني على آثارها على وجه الأرض ثمّ وسّع فلاكوس نطاق هذا التقسيم إلى ما وراءها من أراض خصبة عمومية ، ووزّع بالاقتراع ما يقرب من 150 000 هكتار ، ورفع عدد المعمّرين إلى 6 000 ، وكان من بينهم حتى الايطاليون الذين نبذهم القانون ، ثمّ وضع مستعمرة قرطاج في حماية جونون (Junon) (Colonia iunonia Carthago) الذي ورث مشمولات تانيت بينبعل (Tanit Pene Bâal) .

وأثناء غياب فلاكوس شنّت الأقلّية الحاكمة في رومة حملة واسعة النطاق على السياسة الفلاحية للّجنة الثلاثية . واقترح النائب الشعبي م. ليفيوس دروسوس (M. Livius Drusus) إحداث اثنتي عشرة مستعمرة جديدة ذات 3 000 رجل ولم يكن ذلك لاستدراج الرعاع بل وبالخصوص ليثقل كاهل "كايوس" بعبء مسؤولية لا مناص له من الاضطلاع بها ليجعل التوزيع الاستعماري الذي ليس من شأنه أن يضرّ بمصالح الملاّكين الكبار يحلّ محلّ استرجاع الأراضي التي كانت تطبّقها اللجنة الفلاحيّة (سنة 122)

وكان "كايوس" يشعر أنّ وجوده في رومة ضروري لمقاومة الخطر الذي يهدّد ما قام به من أعمال . ولذا فإنّه عندما ذهب إلى قرطاج لتعويض "فلاكوس" رتّب أموره ليبقى سبعين يوما فقط غير أنّ خصومه رموه عند رجوعه بخزي الاستعمار الافريقي الذي لم يكن له فيه أدنى

مسؤولية ، ولم تتردّد الأقلِيَّة الحاكمة في افتراء أشنع الأكاذيب لنشر البلبلة في صفوف أنصاره فاتّهمته بأنّه أثار غضب الآلهة عندما سمح للمعمّرين الجدد بالاستقرار في أرض أُنزلت عليها اللّعنة ونجحت في الحيلولة دون أن ينتخب من جديد نائبا شعبيا وعرفت أيضا كيف تكسب ثالث الثلاثة وإسمه "كاربو" فلمّا حان دوره ليقيم بقرطاج تواردت إلى رومة أخبار مريعة من الصعب أن يُشكّ في صحّتها لما بين "كايوس" و"كاربو" من صداقة متينة ، فقد قلعت الرّيح العلامة التي كانوا يريدون إقامتها ، وعصفت العاصفة فجرفت أمعاء الضحايا خارج المنطقة الملعونة ، وحملت الذئاب معها الصُّوى وما كان لمخطىء أن يخطىء في فهم الصبغة الالهية لهذه الخارقة . كما أدرك ذلك "البرتيني" حقّ الإدراك فغمر "فلاكوس" و"كايوس" خضمّ هذه الأكاذيب التي كانت تبعث الرعب في قلوب الجماهير ، وسرعان ما استغلّ الخصوم ما حطّم سمعة هذين الكافرين وذهب بمشاريعهما كلّها ، وقامت محكمة تطالب بإلغاء أعمالهما في افريقية ونسخ القوانين القاضية بتأسيس مستعمرات في "تارنت وكابو".

ولم يبق "لكايوس وفلاكوس" ليحميا عملهما ممّا سمّاه "ج. كاركوبينو" عن جدارة «الخيانة الشنعاء» إلاّ الالتجاء إلى الثورة . ولكنّهما أخفقا وهلكا كلاهما : "كايوس" منتحرا و"فلاكوس" تحت سهام الرّماة الاقريطيين بإمرة القنصل أوبيميوس Opimius وكان قد عيّن بمقتضى قرار من مجلس الشيوخ لإنقاذ الجمهورية أو بالأحرى أراضي الارستقراطية المهدّدة . وعيّن "كاربو" جزاء خيانته قنصلا لدى المجالس المنتخبة التي كان يرأسها "أوبيميوس" وحقّ للخائن وللسفّاح أن يفرحا وأن يسعدا بانتصار النظام القائم نصرا مبينا وصيانة الملكية الفردية . ونسخ قانون "مينوسيوس" أحكام "روبريوس" وألغى مستعمرة "جونون" (سنة 121) وبعد عشر سنوات ضبط "قانون طوريا" مصير الأراضي المستعمرة المنحلّة فلم يطرد المعمّرون ولكنّ قطع الأرض التي أتيح لهم أن يبيعوها تحوّل معظمها إلى الرّأسماليين ، وكوّنوا أملاكا شاسعة يزرعها الأهالي تحت إشراف ناظر وكان مجلس الشيوخ المحافظ يشجّع كعادته المحتكرين بعد أن أحبط محاولات التعمير في قرطاج غير أنّه تقرّر أن تقدّم تعويضات

إلى كلّ مواطن روماني أو بربري قد تضطرّ الدولة إلى انتزاع أرضه بعد المزايدة العمومية .

4 — الأملاك العامّة

وعلاوة على الأراضي التي تركتها رومة للمعمّرين وإلى الجباة المرتزقة (Stipendiari) فإنّها أبقت لنفسها أملاكا عمومية فسيحة جدّا فأحالت قسما من هذه الأراضي إلى معمّرين جدد خاصّة إلى قدماء جنود "ماريوس" (قانون أبوليا سنة 103) وإلى المدن الحرّة ، وكذلك إلى الفارّين من جيش العدوّ وإلى أبناء مسنيسا وباعت أيضا قطعا عديدة إلى مواطنين رومانيين مع استبقاء حقّها في الملكية المتمثّل في دفع أداء ولو بصفة نظرية . أمّا الأراضي التي لم تفرّط فيها فقد آجرتها — ولا شكّ — لمربّي المواشي والمزارعين مقابل معلوم تستخلصه شركة مستلزمة . وفي الجملة فإنّ الدّولة لم تبق في نهاية الأمر إلاّ قسما ضئيلا من ممتلكاتها .

وكانت المقاطعة الرومانية تنتج خاصّة القمح الذي تشتري شركة مستلزمة قسما منه لفائدة الدّولة الرومانية وفي عهد القراك تفاقمت المركزية الرأسمالية . ففي افريقية وغيرها من البلدان كان الأشخاص مسؤولين في آن واحد عن استخلاص الضرائب وطحن الحبوب وتجهيز البواخر ، وبذلك كانوا يراقبون النشاط الاقتصادي بأجمعه ، فلم تنم التجارة وكان الازدهار ضئيلا فكان المزارعون ومربّو المواشي يعيشون عيشا ضنكا وتسنّى لرجال الأعمال وحدهم أن يملؤوا بطونهم وأغلب الظنّ — إذا اعتبرنا سلوكهم في آسيا — أنّهم لم يتخلّفوا عن ذلك .

5 — نوميديا وميسبسا

قسم "شيبيون الاميلي" إثر موت مسنيسا الملك بين أبنائه الثلاثة الشرعيين فأمّا الابن الأكبر "ميسبسا" فقد تولّى الإدارة وجعل على رأس العاصمة وهي سيرته . وأمّا "غلوسة" فقد أخذ قيادة الجيش . وأمّا "مستنبعل" فقد اضطلع بمسؤولية القضاء . وبقي "غلوسة" الذي جلبه

شيبيون إلى حصار قرطاج على وفاته له . ولم يظهر "ميسبسا" و"مستنبعل" سوى محاولات محتشمة للاستقلال . ولمّا انفرد "ميسبسا" بالحكم عند وفاة أخويه لم يشأ تعكير صفو شيخوخته بمناهضة رومة فزوّدها بالقموح والجنود والفيلة .

وسار في الداخل سيرة أبيه طيلة ثلاثين سنة (148 — 118) فقد زاد في تجميل سيرتة التي جزم "سترابن" أنّها كانت بفضله «مجهّزة بكلّ شيء» وعاش "ميسبسا" في مدينته بين الأدباء والفنّانين الإغريق ويقال إنّه كان يمضي أوقات فراغه في البحث وخاصّة دراسة الفلسفة .

وضرب نقودا بها صورة والده ، واهتم بتنمية المدن وتنظيمها ، ففي عهده صارت باجة(vaga) — وعلى رأسها مجلس شيوخ و"بلّة ريجيا" (قرب سوق الإربعاء) في الدخلة — مدينتين ويستبعد أن يكون استعمل ولاة ملوكيين لمراقبة الإدارة في المدن والأرياف ، وفي عهده أيضا أمكن للتجّار أن يتعاطوا نشاطهم بكامل الحرية في نوميديا .

ولم يبلغ "ميسبسا" عظمة "مسنيسا" ولكنّه يبدو في نظر الرومانيين قويا . وقد ذهب المؤرّخون حتى إلى التساؤل فيما إذا كانت محاولة تعمير افريقية بالايطاليين التي قام بها "قراكوس" عملية موجّهة ضدّه .

وكان "ميسبسا" يودّ لو يقسّم ملكه بين ابنيه الشرعيّين "آذربعل" و" يَمْبسَال الأول " (Hiempsal) غير أنّه كان في العائلة ثلاثة أبناء من إخوته فالأول هو "ماسيبا" ابن غلوسة وكان إذ ذاك طفلا صغيرا. وأمّا الآخران فهما ابنا "مستنبعل" "غودة" و"يوغرطة" فغودة وهو الابن الشرعي كان ضعيف العقل ، أمّا "يوغرطة" وهو من أم ولد فقد كان — كما سيبيّن لنا ذلك التاريخ — شخصية ممتازة .

6 — يوغرطة

كان "يوغرطة" جميلا ذكيا يتّقد حيوية ماهرا في استغلال ضعف خصومه ، ولكنّه كانت تتوالى عليه حالتان : نشاط زاخر وانكسار كبير .

وكان سحر فتيان رومة النبلاء (سنة 134) أثناء حصار «نومانس» حيث كان في أركان حرب "شيبيون الايميلي" واضطرّ "ميسبسا" أن يقرأ حسابا لشعبيته بين النوميديين ، وللضغط الذي سلّطه الإيميلي لفائدته فألحقه بنسبه وتبنّاه وعهد إلى ولديه وإلى ابن أخيه بالملك كاملاً . غير أنّ أبناء العمّ الثلاثة لم يتّفقوا على توزيع السلطة بينهم واستغلّ مندوب رومة هذا الخلاف لتجزئة المملكة النوميدية وإضعافها ، وكادت سياسة مجلس الشيوخ تدرك غرضها ، فعوض أن تجد رومة نفسها إزاء مملكة نوميدية متّحدة لن تجد إلاّ ثلاث ممالك متناحرة .

وما كان "يوغرطة" ليرضى بالتقسيم . فأوعز باغتيال "يمبسال" وهزم في ساحة القتال آذربعل الذي التجأ إلى رومة وبذلك ضمن لنفسه امتلاك نوميديا كلّها (سنة 116) .

وتردّد مجلس الشيوخ في الموقف الذي يجب عليه أن يقفه . فكانت الأقليّة بزعامة "م. اميليوس سكوريوس" تنوي بفضل الحرب أن تسلّم افريقية لقمة سائغة لتجارة طبقة الفرسان ولكنّها لم تتمكّن من حمل أعضاء مجلس الشيوخ (Patres) على التصويت لأنّهم أثّرت فيهم عداوة الشعب أو رشاهم "يوغرطة" . وكُلّف عشرة نواب يقودهم "أوبنيموس" العدوّ الألد للملك النوميدي وهو محافظ متطرّف بفضّ المشكل على العين . وكان "يوغرطة" يعرف معرفة جيّدة طبقة النبلاء الرومان التي أفسدتها الرشوة وحبّ المال فتيسّر لرسله تطمين المبعوثين الرومان الذين وافقوا على تسليم القسم الغربي من المملكة أي من غربي سيرتة إلى نهر الملوية .

وثمّة ترصّد "يوغرطة" الفرصة السانحة طيلة أربع سنوات بينما استرجعت الطبقة الارستقراطية الحكم بفضل قضية الفسطال (Vestales) التي خرجت طبقة الفرسان منها مخزية . وفجأة زحف "يوغرطة" على مملكة "آذربعل" وطارده حتى بلغ سيرتة ولم يحل بينه وبين الدخول إلى هذه المدينة سوى تدخّل التّجّار الايطاليين المسلّح (سنة 113) وتردّدت رومة التي كانت مهدّدة بهجوم التيتون (Les Teutons) في خوض المغامرة بغزوة في افريقية واستقدم وفد من مجلس الشيوخ كان "سكورس" أحد

أعضائه الملك إلى "أوتيكة" واكتفى بمعسول القول . واضطرّ "آذربعل" إلى التخلّي عن سيرتة تحت ضغط الايطاليين الذين أخذوا بسلاحهم وقتلوا عن آخرهم كما قتل الملك (صيف سنة 112) فلم يكن لرومة عند ذلك بُدّ من أن تردّ الفعل .

حرب النبلاء

اتّفقت جميع الأحزاب على تحطيم البربري غير أنّ حربا طويلة مشكوكا في نتيجتها لا يعزّزها ولا يقودها أمير بربري كان يخشى أن تؤول إلى خيبات ذات انعكاسات سياسية خطيرة . ولمغالطة الرعاع تظاهر مجلس الشيوخ باستئناف عمل «القراك» وإعطائه الصبغة الشرعية بسنّ "قانون ثوريا" سنة 111 وانطلت الحيلة ، ويقول ج . كاركوبينو : إنّ الشعب رحّب كما لو كان هو المنتصر بالمصادقة على ذلك القانون الفلاحي الذي كان يفعل بلبّه مفعول الطلسم وإن لم يكن من أثر له سوى انتزاع أراض جديدة من حيّز الأملاك العامة، ولا من غاية سوى توتير الأعصاب بغية التمهيد للحرب الافريقية ».

وقام رجلان من الطبقة الارستقراطية : القنصل "كلبرنيوس بستيا" "خائن القراك" وأمير مجلس الشيوخ "سكوريوس" وهجما على مملكة يوغرطة ثم قبلا التفاوض معه بطلب منه وسالماه مقابل مقدار بخس من المال والماشية وأكّد "سالوسطس" أنّ يوغرطة اشترى ذمّتهما وليس هذا بغريب وربّما يجب أن نتبيّن مع "كاركوبينو" من تسرّعهما إلى المصالحة اعتبارات انتخابية بالنسبة "لبستيا" ورغبة "سكوريوس" في أن يسلّم فورا إلى الرأسمالية الرومانية سوق "لبتيس مقنى" (لبدة) التي لم يمض على خروجها من التّبعية النوميديّة زمن طويل .

وفضح الحزب الشعبي في ضجّة ارتشاء النبلاء وطالب بحضور يوغرطة كشاهد فتجاسر يوغرطة وقدم إلى رومة وليس من المستبعد أن يكون بستيا وسكوريوس قد أحاطاه علما بما يجري فقام أحد نواب الطبقة الشعبية وأمر يوغرطة بتوضيح موقفه لكنّ نائبا آخر منعه من الكلام . ويظهر أنّه من الصعب أن نَعْزو — كما ظنّه ستيفان قزال — هذه المقاطعة

إلى رغبة القوم في تجنّب نقاش يَمَسّ بكرامة المجلس . فرومة عرَفَتْ الكثير من هذه المناقشات خاصة وأنّ بسطة النائب الأول كشفت جميع الفضائح ولم يكن من عمل الثاني الموافق للمجلس إلاّ منع إثبات ذلك. وأسرع القوم في حضّ الاغليد على السفر وقد كان "لبقشيشه" مفعول ساحر ووصلت به الجرأة إلى أن أوعز بقتل أمير بربري مناوىء له في رومة نفسها . وقيل : إنّه عندما كان على أهبة السفر ألمع إلى الموقف في جملة مقتضبة جزئية وقال : "مدينة للبيع مصيرها الهلاك إن وجدت من يشتريها" .

ونجا يوغرطة لأنّ في إدانته إدانة "بستيا" القوي وشركائه . ولكن كان من الصعب أن تقف الأمور إلى هذا الحدّ : فقد سلّمت مقاليد المملكة النوميدية إلى القنصل بوستيميوس البينوس الذي كان ينتظر دورهُ في قيادة الحرب . وجرّ الاغليد خصمه في مفاوضات لا نهاية لها . فاضطرّ إلى التخلّي عن قيادته لمعالجة وضعه السياسي في رومة . وعوّضه في القيادة أخوه أولوس (Aulus) وأسند إليه لقب مساعد (Légat) ولأوّل مرّة يمنح لقب نائب للقائد (Legatus propraetor) فانهزم في زحفه على ستول (وليست هي قالمة بل مدينة قريبة منها) واضطرّ إلى الخروج من البلاد في أجل لا يتجاوز عشرة أيّام (شتاء سنتي 110 و 109) .

وهكذا لم تكشف طبقة النبلاء عن ارتشائها فقط بل عن عجزها أيضا . فأمرت مجالس الانتخاب بفتح بحث عن فضائح افريقية . وكانت تقصد بالخصوص سكوروس التي كانت أعماله محطّا للكثير من الريب . غير أنّ أمير المجلس كان أقوى من أن يتنازل لتبرير موقفه . فقطع الداهية المناور صلته بطبقة النبلاء واتّجه نحو الفُرسان والشعب وتوصّل إلى أن يعيّنوه على رأس لجنة البحث وتخلّص هذا المدافع بحق عن الفضائل الجمهورية من متطرّفي اليمين . فلم يبق لأونيموس زعيم الرجعية السفّاح وألبينوس وبستيا إلاّ طريق الهجرة . ورُمي إلى السوقة بفريسة تتلهّى بها وهو قانون فلاحي جديد (lex mamilia agraria) (سنة 109) أكثر مهارة من قانون ثوريا لأنّ غرضه هو تحويل الأراضي العمومية تحويلا جماعيا إلى الرأسماليين والمتوسّطين المقيمين بإيطاليا من غير أن ينتفع فقراء المدينة بالحركة التي غذّتها ثورة "القراك" باسمهم (ج. كركوبينو) غير أنّ الشيوخ

المنتصرين الذين اتّحدوا مع الفرسان ونواب الطبقة الشعبية ليخدعوا الشعب سيلقون من بعد مع ماريوس (Marius) جزاء ما قدّمت أيديهم .

8 — ميتيلوس

وأول نتيجة لهذا الاتّحاد كانت انتخاب ميتيلوس أحد المتوطئين مع سكوريوس قنصلا(وهو كيسليوس ميتيلوس وقد لقّب فيما بعد نوميدوكوس) وكان هذا الارستقراطي الذي تولى قيادة الحرب بافريقية نسيجَ وحده (Rara avis) أمانة وثقة . وحرّض مع مساعديه ريتيلوس روفوس (P. Rutilius Rufus) النبيل المتصلّب وماريوس — الرجل الجديد — على إرجاع الطاعة في صفوف الجيش بعد أن اضطرب حبلها بسبب عجز القوّاد وتواطئهم (ربيع سنة 109) وعندما عرف يوغرطة أنّه لا يمكن له اشتراء ذمّة هذا الرجل ولا التلاعب به عرض عليه مرتين اثنتين أن يوكّل أمره إلى رحمة الشعب . وأعار القنصل أذنا صاغية لهذه العروض ولكنّه اكتفى بحمل الرسل على اغتيال ملكهم .

توغّل الجيش في الأرض النوميدية من دون أن تعترضه أيّة عقبة مخترقا وادي مجردة واحتلّ باجة مستودع القموح بالنسبة للسهول الكبيرة، وقرب "مطول" (وهو واد ملاق حسب ستيفان قزال وواد تسه حسب شارل سوماني) اصطدم بجيوش العدوّ وشتّتها شرّ مشتّت وانتصر عليها انتصارا دفع ثمنه غاليا (أوت سنة 109) عند ذلك عاث ميتيلوس في البلاد ودخل الكاف (Sicca) التي فتحت أبوابها ولكنّه لم يتجاوزها إلى التراب الجزائري وحاول أخذا بألباب الناس أن يشنّ هجوما على جامة (بين الكاف ومكثر) ولكنّه أخفق واضطرّ إلى الرجوع على أعقابه (أكتوبر سنة 109) وعند انتهاء مدّته أقرّه مجلس الشيوخ قائدا ولقّبه بلقب قنصل مساعد .

وفي شتاء سنتي 109 و 108 اغتنم أهالي باجة الاحتفال بالإلهتين "سريراس" (Cérères) للفتك بالرومان كلّهم باستثناء قائدهم . فأسرع متيلوس إلى المدينة وعاث فيها فسادا ولم يكن ذلك إلاّ حادثا طارئا

إذ أنّ خيبة جميع المؤامرات ضدّ يوغرطة اضطرّته إلى مواصلة الحرب فسارت الكتائب مخترقة السباسب حتى وصلت تالة التي لا يزال موقعها محلّ نقاش وفيها اعتصم الاغليد . وبعد أربعين يوما دخلت الكتائب المدينة ولكنّ يوغرطة كان قد لاذ بالفرار ومعه كنوزه ثم استطاعت أن تقتحم سيرته حيث أقامت بها مدّة الشتاء (108) وبذلك سيطرت على وسط نوميديا وشرقها .

وسعى يوغرطة حينئذ في إثارة عداوات جديدة ضدّ الرومان فجيّش الجيوش من جدالة وأخذ يهيّء الجوّ لدى صهره ملك موريطانيا بوخوس الأوّل لحمله على التدخّل فسار النوميديون والموريون معا في اتّجاه سيرته . وعلم ميتيلوس في ذلك الوقت أنّ مساعده ماريوس عُيّن قنصلا وعهد إليه بمواصلة الحرب في نوميديا . فكلّف ريتيلوس بتسليم مقاليد السلطة . ذلك أنّ المجالس المنتخبة تركته ينتظر طويلا الإذن بالدخول إلى رومة حتى ينتصر على "النوميديين والملك يوغرطة" وليس من شك في أنّ فرسان افريقية كان لهم ضلع في أفول نجم رجل ما كانت أمانته لتسهل عليهم تجارتهم .

9 — ماريوس C. Marius

كان ماريوس من طبقة الفرسان وكان جنديا صُعْلُوكا جلْفا محدود الذكاء ولكنّه شجاع قد برَع في فنّه . وكان يقول فيه شيشرون "هو رجل عديم الثقافة من فرسان أربينوم ولكنّه رجل بحقّ" .

وكان هيّأ نفسه منذ زمان ليخلف حاميه "ميتيلوس" الذي كثيرا ما جرح شعوره بكبريائه وعَجْرَفَته . ولقد قام بحملته الانتخابية ضدّ النبلاء وكوّن أنصارا من بين تجّار أوتيكة وحمى "غودة" الضعيف ضدّ أخيه وتباهى بأنّه رجل جديد حديث النعمة غايته الانتقام من الأغنياء . ولأوّل مرّة تألّب على النبلاء الفرسان — وهم أعداء ميتيلوس — والرعاع وكانوا يعانون مرارة الخيبة . ثمّ فرضوا مرشّحهم . فضمّ ماريوس المُعْدَمين إلى كتائبه وكانت متركّبة من المزارعين وحدهم ومهّد بذلك

الطّريق إلى هؤلاء الجنود المحترفين الذين لا يهمّهم من أمر رومة شيء إذ ربطوا مصيرهم بمصير قائدهم وأصبحوا يُولُونَ وَيَعْزِلُونَ الملوك وقد جيّش على هذا الأساس جيوشا كثيرة .

وفي نوميديا عوّد جنوده الجدد بشنّ هجومات خاطفة على القرى والمدن ثم أراد أن يأخذ بألباب القوم فدفع في أواخر الصيف بجيشه نحو مدينة السباسب : قفصة (Capsa) بعد أن أجهده إجهادا ودخلها غرّة . فأحرقها وأباد كلّ من كان في سنّ حمل السلاح من بين سُكّانها ولم يفقد ولو جنديا واحدا (سنة 107) .

ولا نعرف في أيّ مكان قضى فصل الشتاء . وفي الربيع استأنف حملته وظلّ أشهرا عدّة يجوب نوميديا الغربيّة إلى أن بلغ — حسب سالوسطس — الملوشة (الملوية) (سنة 106) وبالقرب من هذا النهر اغتصب الحصن المقام على تل وعر (ولعلّه حسب ج. كركوبينوتل توريرت) وكان كنز الملك مُوَدعًا فيه . غير أنّ هذا الانتصار دفع القبائل المورية إلى التمرّد على الرومان . وأفلت ماريوس أثناء رجوعه ، بأعجوبة ، من هجوم يوغرطة وبوخوس ولكنّه أخذ بثأره ودخل سيرته منتصرا وقد احتلّها النوميديون في غيابه (أكتوبر سنة 106) وهكذا خرج موفورَ الكرامة من معركة أخطأ فيها أفدح الأخطاء وأشرف أثناءها على الخيبة لولا وكيل المال سيلا (Cornelius Sylla) الذي أبلى فيها البلاء الحسن .

وفي السنة الموالية لم يبق ليوغرطة سوى عدد قليل من الجنود ولم يعد يعتمد إلاّ على بوخوس وأصبح مستشارو ملك موريطانيا الذين اشتراهم الرومان بواسطة عملاء سرّيين يدافعون عن رومة أثناء المفاوضات التي أجراها سيلا بكامل المهارة . فكاد بوخوس لملك نوميديا مكيدة وسلّمه إلى وكيل المال الروماني .

ولم يغفر ماريوس لسيلا هذا الانتصار (صيف سنة 105) كما أنّ "بيجو" لم يغتفر للاموريسيار حصوله على استسلام عبد القادر . وأحسّ ماريوس كما أحسّ "بيجو" بعده بأنّه أضاع شيئا من مجده في نظر الرأي

العام لأنّ الانتصار لم يكن انتصاره إذ أنّ ديبلوماسية سيلا هي التي وضعت حدّا لحرب دامت ثلاث سنوات .

وعلى كل فإنّ انتصاره كان باهرا (أوّل جانفي سنة 104) وبقي يوغرطة طيلة ستة أيّام يقاسي آلام الجوع في "تلانيوم" حتى أراحه حبل المشنقة من كلّ ذلك . ولكنّ ذكرى الاغليد الذى قاد النوميديين في كفاحهم ضدّ الاستعمار الروماني بقيت عالقة في أذهانهم .

ونال الخائن بوخوس شرف لقب حليف الشعب الروماني وصديقه وأسند إليه بعنوان الحثّ على الخير الثلث الغربي من نوميديا . أمّا القسم الشرقي فقد كان من نصيب غودة . وليس من شك في أنّه وجد بين هاتين المملكتين دولة بربرية تفصل بينهما ممتدّة الاطراف يسمّيها شيشرون " مملكة المستانزوسوس " (Mastanesosus) ولم تشأ رومة توسيع مقاطعة افريقية إذ أنّها لم تكن لتخشى ملكا ضعيفا وملكا آخر عميلا ما كان يمكن لهما أن يمانعا في إفساح المجال للفرسان كي يتاجروا كما طاب لهم في بلادهما .

10 – بلاد البربر في أوائل القرن الأول قبل المسيح

لا نعرف شيئا يذكر عن بلاد البربر أثناء السنوات الخمسين التي تلت هذه الأحداث . ففي موريطانيا بقي بوخوس الأوّل أو القديم مخلصا لالتزاماته نحو رومة وخاصّة لصديقه القديم سيلا وظلّ يزوّد ملاهي رومة بالوحوش الضارية .

وكان القائد الديمقراطي سرتوريوس الوالي القديم لإسبانيا الجنوبية الثائر على السيليين تخلّى عمّا كان يعتزمه من نزول بجزائر مادير (Madère) ودخل موريطانيا حيث زجّ بنفسه في الخلافات القائمة بين الأمراء المحلّيين ونجح في الاستيلاء على طنجة (Tingi) وارتاح الأهالي لإدارته وتبعه مئات منهم إلى اسبانيا التي دعاه إليها " اللوزيتانيون " (Lusitaniens) (81 – 80) بعد أشهر قليلة .

ولا نعرف في أيّ تاريخ انقسمت موريطانيا إلى مملكة غربية يملكها بوغود ومملكة شرقية يملكها بوخوس الثّاني أو بوخوس الشّاب . إلاّ أنّ هذا التقسيم كان موجودا سنة 49 منذ بداية الخلاف بين قيصر وبومبيوس ، ويظهر أنّه تمّ عند وفاة بوخوس الأول حوالي سنة 70 . وربّما استولى على نوميديا الغربية مسينسا جديد . وفي المملكة الشرقية مات غودة سنة 88 وخلفه ابنه يمبسال الثّاني . وفي السنة نفسها عندما زحف سيلا على رومة فرّ ماريوس إلى افريقية وأطلق العنان لتأمّلاته بعد أن جلس "لاجئا على أطلال قرطاج" والتجأ ابنه إلى يمبسال ولم يتمكّن من الفرار إلاّ بفضل مساعدة امرأة .

وفي سنة 84 تنازع الديمقراطيون والسيلانيون مقاطعة افريقية . وفي سنة 82 أحرق المواطنون الرّومان واليا من شيعة ماريوس في قصره بأوتيكا لاستغلاله رعاياه استغلالا فاحشا سنة 82 .

واغتنم حرباص أحد الأمراء النوميديين هذه القلاقل وأزاح عن العرش مسينسا ويمبسال ونصب نفسه اغليدا على نوميديا كلّها وناصر جماعة ماريوس الّذين كانوا ينظّمون صفوفهم في الوطن القبلي بقيادة دوميتيوس أحنوبربوس (n. Domitius Ahenobarbus) . وبعد رجوع سيلا من الشرق كلّف "بومبوس" (Cn Pompeius) وهو فارس شاب في السّابعة والعشرين من عمره بالدخول إلى افريقية حيث كتب له النّصر فقتل دوميتيوس وخلع "حرباص" وأعاد يمبسال ومسينسا إلى عرشيهما فاعتبر سيلا أنّ نجاح هذا الشّاب أسرع من المعقول فاضطرّه إلى التخلّي عن جيوشه وإرسالها إلى رومة ولكنّ بومبيوس رفض ونال لقب "مانيوس الأكبر" (Magnius) ولقب المنتصر «خارج افريقية» (ex Africa) من غير أن يمارس القضاء 12 مارس سنة 80 .

وبعد رجوع هذين الملكين إلى ملكهما لا نعرف بالضبط مصير الممالك النوميدية. فنحن فيما يخصّ المملكة الغربية لا نتعدّى الفرضيات. أمّا فيما يخصّ المملكة الشرقية فإنّ يمبسال الملك الأديب حكم

في أمن وطمأنينة أكثر من عشرين سنة . أمّا ابنه "يوبا الأول" فإنّه عند مناوأته قيصر لم يكن قد تحصّل على لقب صديق الشّعب الرّوماني الذي منحه فيما بعد وفي سنة 50 ذهب نائب الشعب "كوريون" (Curion) إلى أن اقترح تجريده من مملكته .

11 – أنصار قيصر وأنصار بومبيوس

كانت افريقية أحد الميادين الكبرى التي دارت فيها رحى المعركة بين أنصار "بومبيوس" وقيصر . ولمّا أجبر قيصر على خوض الحرب الأهلية بسبب التعنّت السخيف الذي أظهره "بومبيوس" عندما رفض كلّ حلّ وسط وعبر الروبيكون (11 جانفي سنة 49) غادر أنصار "بومبيوس" حينئذ ايطاليا لينظّموا صفوفهم في البلقان وافريقية واسبانيا فقاد قيصر بنفسه الهجوم في اسبانيا وكلّف "كوريون" بطرد "قاطون" حفيد "قاطون الأكبر" من صقلّية ثم الدّخول إلى إفريقية حيث تمكّن الوالي آتيوس فاروس "التابع "لبومبيوس" (P. Attius Varus) من محالفة "يوبا" وأصبح ماسكا بزمام "أوتيكة" و"حضرموت" .

نزل "كوريون" على رأس كتيبتين بشواطىء الوطن القبلي وبعد أن سجّل جيشه بعض الانتصارات استدرجه النوميديون وكادوا أن يبيدوه عن آخره في الشمال الشرقي من «الجديّدة» وأمر "يوبا" بأن يأتي له برأس الرجل الذي أراد الإطاحة بملكه . أمّا الجنود الذين بقوا في كسترا كورنيليا (Castra cornélia) فإنّ أغلبهم هلكوا عندما أرادوا الالتحاق بصقلّيّة، وأمّا الذين سلّموا أنفسهم فقد أبادهم "يوبا" رغم وعود "فاروس" (سنة 49).

والذي زاد في فداحة هذه الكارثة أنّها وقعت في نفس الوقت الذي انهزم فيه أنصار قيصر في دلماسيا (Dalmatie) وثورة الكتائب في بليزنسا (Plaisance) وأضفى مجلس الشيوخ الموالي "لبومبيوس" في مقدونيا على ملك نوميديا لقب صديق الشعب الروماني أمّا مجلس الشيوخ الموالي لقيصر فإنّه قرّر أنّ "بومبيوس" عدوّ ألدّ ومنعت ثورة جنود بيتيك "كاسيوس لونجيوس" (Cassius longinus) من الالتحاق

بموريطانيا لمهاجمة النوميديين من الجهة الغربية وبقي أنصار بومبيوس يسيطرون على افريقية،أمَّا قيصر فإنّ مَهَامّ أوْكَدَ كانت تنتظره في مكان آخــر .

وعندما هزم قيصر في فرسال (بيتساليا) جيوش "بومبيوس" (9 أوت سنة 48) انقسم أنصار "بومبيوس" فمنهم من تبع قائده إلى مصر حيث قتل بأمر من مقرّبي الملك،ومنهم من التحق بافريقية مع "شيبيون" وهو زميل قديم لـ "بومبيوس" في القنصلية ورجل جلف محدود المدارك، ومع ضابطين قديمين كانا تابعين لقيصر من "بيسونيوم" ثم تخلّيا عنه عندما هاجم معقل "بومبيوس" وهما "أفرانيوس" الذي عفا عنه قيصر بعد استسلامه في اسبانيا و"لابنوس" أحسن مساعد لغازي بلاد غوليا .

وسرعان ما التحق بهم "قاطون" وهو رواقي متصلّب كان يتصوّر الجمهورية تصوّرا خاطئا أخنى عليه الدّهر وكان تقشّفه ينسجم مع الدّفاع عن "بومبيوس" ممثّل رجال الأعمال ولا يتعارض أيضا مع تدبير الزيجات الرابحة حسب ما ذهب إليه قيصر. فأقنع "قاطون" "فاروس" بأن ينسحب "شيبيون" وأشعر "يوبا" بأنّه شريك له لا سيّده . غير أنّه لم يُبْدِ أيّ اعتراض في فرض الضرائب على الأفارقة لتكوين ميزانية للحرب . فجنّد أنصار "بومبيوس" ما يقارب 000 40 من المُشاة و500 1 من الفُرسان وجمعوهم في ضواحي أوتيكة خاصّة ثم بالقرب من "حضرموت" وكان "يوبا" على رأس جيوش جرّارة وكان كلّ شيء يدلّ على أنّ حملة افريقية تبشّر بالخير حتى أنّ "شيبيون" — وكان لا يترك فرصة تمرّ دون الوقوع في الخطأ — قال : «لم نعرف حملة أحكمَ ولا أكملَ عُدّةً من هذه الحملة».

12 — رأس ديماس Thapsus

وكان قيصر في هذه الأثناء يواصل القيام بمهمّته الشاقّة،فبعد أن أطال المكث مدّة تسعة أشهر في مصر لدى "كليوبطرة" وأخمد بِمَشقّة نَارَ الفتنة المندلعة بين اكتوبر سنة 48 — وجوان سنة 47 وخاض معركة حاسمة لوضع حدّ للاضطرابات في الشرق (2 أوت 47) وقع استدعاؤه إلى رومة ليُهَدّئ من حدّة التّوتّر الاجتماعي ومن هيجان الكتائب .

فأقام ردحا من الزمن بها ثمّ قرّر الانتقال إلى افريقية على رأس عشر كتائب أي بما يعادل جيوش "شيبيون" . وكان يعتمد في مقاومته "ليوبا" على مساعدة "بوغود" و"بوخوس الأصغر" ملكي موريطانيا وأعانه إعانة حاسمة من حيث لا يحتسب "ستيوس" (P. Sittius) وهو رئيس عصابة إيطالي رأى من الأسلم له بعد الإفلاس والفضيحة أن يلتجىء إلى موريطانيا حيث خاض الحرب الأهلية مناصرا لقضية قيصر .

وكان قيصر مهيمنا على البحر فشقّه بكلّ حرية مصحوبا بنصف جيوشه ولكنّ العاصفة لم تسمح له إلاّ بإنزال 000 3 من المُشاة و 150 من الفُرسان قرب "حضرموت" (28 ديسمبر) فلم يتمكّن من محاولة فتح المدينة عنوة بمثل هذا العدد الضئيل من الجنود وآثر الالتحاق بلمطة ثم روسبينا (وهي بلا شك هنشير تنير (لاتبعد كثيرا عن المنستير) ، وعسكر بها. وكان لا مناص من أن تدور رحى المعركة على الأرض وكانت الدّلائل تنبىء بأنّ الصفقة لن تكون في صالح قيصر الذي كان يأتيه المدد بصورة غير منتظمة .

وكان الخصم شديد البأس فقد كان لأنصار "بومبيوس" خيّالة عتيدة يقودها "لابينوس" أحسن ضابط، ولما التقى الجمعان لأوّل مرّة حاصرت خيّالة "بومبيوس" جيش قيصر فلم يفكّ عنه الحصار إلاّ بمناورة جريئة . وعند ذلك زحف شيبيون بكتائبه الثمانية وكان "يوبا" قد تحرّك هو بدوره ولكنّ "بوخوس وستيوس" قاما بهجوم فجائي وفتحا سيرتة فاضطرّ إلى الرّجوع على أعقابه وحاصر أنصار "بومبيوس" قيصر في روسبينا وكانت الميرة تأتيه بمشقّة وأخيرا أسعفه أسطوله بالمدد وأصبح عدد جنده 000 33 رجل، وعند ذاك فكّر في الهجوم فبادر بالرّحيل وعسكر على حافة نجد يشرف من الشرق على سهول أوزتة (Uzitta) وفرّ على بعد ثمانية كيلو مترات من الجنوب الغربي من رسبينا . وكان "شيبيون" أنزل فيها جيوشه التي عزّزها "يوبا" بثلاث كتائب . وظنّ قيصر أنّه في إمكانه "أن يتوغّل في اتّجاه المقلوبة (Aggar) (ربّما تكون قرب قصور الساف على بعد 10 كلم من الجنوب الغربي من المهدية و 34 كلم من الجنوب الشرقي من معسكر قيصر) ثم حاول الهجوم مرّات عديدة ناوشته فيها خيالة "لابينوس" . وهكذا لم يتمكّن بعد أن مرّت أربعة أشهر على

نزوله من أن يستدرج "شيبيون" ويحمله على الدخول في المعركة وجها لوجه .

فرحل فَجْأة مرة أخرى وعسكر برأس ديماس قرب تابسوس (ليلة 4 أفريل من سنة 47) وكان الموقع خطيرا يزيد في خطورته أنّ أنصار "بومبيوس" كان في قدرتهم سدّ البرزخين اللّذين يتّصلان «بالدخلة» غير أنّ "قيصر" كان يؤمّل التخلُّص من هذا الوضع بشنّ معركة نظامية .

وفي 6 أفريل قام بهجومين وهزم أعداءه، فأمّا الهجوم الأوّل فقد وقع تلقائيا ومن دون سابق قصد واستهدف جيش "شيبيون" فأرغمه على الفرار بسرعة . وأمّا الهجوم الثاني فقاده قيصر بنفسه نحو الشمال واستهدف معسكرات "افرانيوس" و"يوبا" في الجنوب واستولى عليها من دون قتال وراح جنوده بالرغم من ممانعته يقتلون أعداءهم قتلا ذريعا فبلغت خسائر أنصار "بومبيوس" 10 000 رجل ولم يخسر أنصار قيصر إلاّ خمسين فقط وفي نفس الوقت تقريبا أباد "ستيوس" الجيش الذي يحمي نوميديا تحت إمرة مساعد "يوبا" .

13 ـ خضوع بلاد البربر ونظامها

اتّجه قيصر بعد انتصاره إلى أوتيكة وكان "قاطون" قد أغمد سيفه في بطنه إباءً أن يستسلم لطاغية كان يمكن أن يعفو عنه مثلما عفا عن ابنه وقد احتاط قبل ذلك في رَبَاطَة جأش عظيمة فنظّم فرار أصدقائه. وما نصب البرونز الذي عثر عليه حديثا في وليلى إلاّ دليل على أنّ ذكراه لم تُمْحَ حتى من افريقية .

وكان رجال المال وتجّار هذه المدينة ينتظرون أن ينتقم منهم قيصر شرّ انتقام ولكنّه اقتصر على مطالبتهم بدفع غرامة باهضة وأحرق جميع أوراق "شيبيون" المورّطة كما فعل من قبل بأوراق "بومبيوس" أمّا "شيبيون" و"يوبا" فقد انتحرا، ونقل أنصار آخرون "لبومبيوس" الحرب إلى اسبانيا وفتحت جامه أبوابها لقيصر بعد أن أغلقتها في وجه ملكها

القار فأحسن قيصر مكافأتها على ذلك . واستسلمت له جميع المدن إذ وضعت معركة رأس ديماس وانتصار "ستيوس" حدّا لكلّ محاولة للمقاومة.

وغيّر قيصر نظام افريقية تغييرا عميقا فأزال مملكتي "يوبا" و"مسينسا" اللّتين ناصرتا "بومبيوس" وجعل من القسم الشرقي من نوميديا مقاطعة نوميدية جديدة سمّاها افريقية الجديدة التي ضمّت بعد عشرين سنة إلى القديمة التي سمّيت افريقية العتيقة .

وكان يحدّ إفريقيا الجديدة من الشرق خندق "شيبيون الايميلي" ومن الغرب الخطّ الذي يمرّ غربي عنّابة (Hippo regius) وغربي قالمة (Calama) وجنوب غربيّها . ويصعب البتّ في ما إذا ألحقت سيرته إليها أو إلى افريقية العتيقة وتيسّر لبوخوس الأصغر أن يوسّع ممتلكاته نحو الشرق ولا شك أنّها وصلت إلى المساقة (الواد الكبير) . وربّما كان هو الذي أقام قرب شرشال الضريح الفخم الأسطواني الشكل (قطره 64 م. وارتفاعه 40 م تقريبا) . وهو نسخة من المدّراسن الذي سمّاه أهل البلاد "ضريح النصرانية" وأنشأ قيصر لفائدة ستيوس دولة فسيحة الأرجاء تفصل بين موريطانيا التي خرجت معزّزة من الحرب وبين إفريقية الجديدة وتشتمل هذه الدولة على القسم الشرقي من مملكة مسينسا والقسم الغربي من مملكة "يوبا" أمّا مستعمرات سيرتة التي استقرّ بها الستيون وهي مدينة سيرتة (قسنطينة) وسكيكدة (Rusicade) والقالة (Chullu) والميله (Milev) فقد ألحقت من دون شك بعد موت الدكتاتور (سنة 44) "بإفرييقة الجديدة" ، ولكنّه بقي لها من استقلالها القديم الحقّ في أن تتّحد في ظلّ نظام إداري خاص .

14 — افريقية الرومانية في عهد قيصر

لم تعرف افريقيّة الجديدة المدنية الرومانية من أوّل وهلة بوجهها المشرق . فقد قام الحاكم الروماني الأول وهو المؤرّخ سالوسطس بأعمال فظيعة بشهادة معاصريه أنفسهم وقد تجاوزت فظاعتها ما كان مألوفا . وقد أضيفت الأراضي الملوكية إلى الأملاك العامة (Ager publicus) ويظهر أنّها عادت بالفائدة لنفس الأشخاص .

ويستبعد أن يكون قيصر وجد الوقت الكافي لإنشاء مستعمرات في نوميديا إلاّ أنّه أقرّ في إفريقية العتيقة جماعات من أبناء الشعب المعوزين وقدماء الجند وكان في حسبانه أن يؤسّس مستعمرة في قرطاج (Colonia Julia Carthago) على غرار قراكوس الذي اتّخذه قيصر مثالا له . وقد تمّ ذلك خارج المنطقة الملعونة حسب برنامجه وربّما في نفس السنة التي اغتيل فيها أو عام أو عامين بعد ذلك على أقرب الظنّ . وقد استقرّ معمّرون آخرون سنة 39 وأحيوا عبادة سيرس (Ceres) وأغلب الظنّ أنّ قيصر هو الذي أسّس مستعمرات قربة (Curubus) وقليبية (Clupèa) وهنشير مرايسة (Carpis) وبنزرت (Hippo Diarrhytus) والجم (Thysdrus) وكلّها كانت بالقرب من مدن قديمة .

وكانت افريقية مسرحا للاضطرابات بعد موت قيصر وتنازع أنصار قيصر والديمقراطيون حكم إفريقة القديمة وإفريقة الجديدة فاستبدّ به أوكتافيوس وأنطونيو وليبيديوس (Lépide) بحسب ما تعاقب من الأزمات أو الاتّفاقات .

وأسندت إدارة إفريقة العتيقة في هذه الأثناء إلى كورنيفيسيوس (Q. Cornificius) وهو جندي ديمقراطي صديق لشيشرون كان مجلس الشيوخ الحريص على تزويد رومة بالقمح يشجّعه على الصمود في وجه مطامح أنصار قيصر . أمّا إفريقية الجديدة فقد كانت مقاليدها في يد والٍ سمّاه قيصر يدعى ت. سكستيوس (T. Sextius) وسرعان ما جرّده مجلس الشيوخ من كتائبه فكان لامناص من نشوب الخلاف بين أنصار سياستين متعارضتين. وقد ثارت بالفعل تلك الخصومة غداة تكوين الهيئة الثلاثية من أكتافيوس قريب قيصر ومارك أنطونيو القنصل المنتخب سنة44وليبيديوس والي اسبانيا السيتيرية والنربونيّة الذي لم يمرّ على تعيينه وقت طويل (27 نوفمبر 43) وعندما وزّعت الولايات كانت افريقية من نصيب أكتافيوس وكذلك صقلّية وسردانية . وسرعان ما انضمّ سكستيوس إلى الهيئة الثلاثية فجيّش الجيوش في مقاطعته واحتلّ البلاد التي كانت تحت سلطة كورنيفيسيوس الذي لم يعترف إلاّ بسلطة مجلس الشيوخ . وبعد أن شنّ هجوما جريئا بلغ به إلى حضرموت رجع مدحورا إلى نوميديا . ثم أمكنه بإعانة الجيوش البربرية التي أسعفه بها ابن

مسينسا أربيون أن يقوم بهجوم معاكس عنيف وأن ينتصر على كورنيفيسيوس فقتله وأصبح سيّد "إفريقية" الجديدة والقديمة .

وكانت نتيجة توزيع المقاطعات من جديد (سنة 42) أن أسندت إفريقية القديمة إلى انطونيو والجديدة إلى أكتافيوس بينما وُعدتا لليبيديوس وأدّت القطيعة بين عضوى الثالوث إلى نشوب الحرب بين واليبهما وانتهى الأمر لصالح انطونيو ولكنّه اضطرّ إلى تسليم المقاطعتين إلى ليبيديوس الذي لم يسخّر جيوشه الجرّارة للفتوح واقتصر على تصريف شؤون الحكم طيلة أربع سنوات بدون أن يسجّل أيّ عمل يدعو إلى الفخر (سنتي 40 و 36) وابتداءً من سنة 36 صار أكتافيوس سيّدا أوحد على إفريقية الجديدة والقديمة وممالك ستيوس التي سرعان ما كوّنت مقاطعة واحدة خاضعة لنظام البروقنصلية ومجلس الشيوخ (سنة 27) .

وقد أقرّ سنة 29 معمّرين جُدُدا في قرطاج لا خارج المنطقة الملعونة بل في قلب المكان الذى كانت العاصمة البونيقية مشيّدة فيه قبل ذلك بـ 117 سنة . ذلك أنّه كان يشعر بأنّ له من القوة ما يستطيع معه أن يتحدّى العواطف الدينية التي لم يتجاسر فلاكوس وقراكوس على تجاوزها. وبقي على فيرجيل (Virgile) أن يضفي على الواقعيّة الجريئة التي أظهرها "سيّد العالم المنشّط للنحل العامل تحت أشعّة شمس الصيف" ثوبا من الشاعرية فخْما .

وإذا كان من العسير معرفة ما كانت عليه قرطاج البونيقية فإنّ المستعمرة القيصرية تكشف إلى اليوم عن الخطوط العامّة لهندستها . وقد أمكن لشارل سوماني بفضل دراسة آثار "الخنادق" حسب مبادىء Gromatici Veteres أن يثبت موقع الحارات الموزّعة توزيعا منتظما والمجموعة في أربعة (Centuriae strigatae) وأن يضبط مكان (Decumarns maximus) و(Cardo maximus) وتوصّل المهندس "دافان" حديثا إلى ضبط الاتّجاه العام لعمليّة مسح الأرض وإلى معرفة عرض الأنهج ووضع بعض "الجزر" (insulae) وذلك بالاعتماد على آثار الخنادق التي كانت غالبا مبنيّة

في محور الشوارع وبالاعتماد أيضا على نظام المباني المرتبطة وثيق الارتباط بتخطيط الطرق العامة .

ولم يقصر "اكتافيوس" جهوده على قرطاج بل بدأ يسلك سياسة التعمير والتمدين ثم توسع فيها بعد أن دشن "إمارته" بحمل لقب أغسطس فأسس بلديات أهلية مستقلة ومستعمرات في الكاف (Sicca veneria) وهنشير قصبات (Thurbubo maïus) ووذنه (Uthina) من غير شك .

15 – موريطانيا في عهد أوكتافيوس

وبعد مقتل الطاغية استرجع أربيون ابن مسينسا الذي صحب أنصار بومبيوس إلى أسبانيا ملك أبيه على حساب ستيوس الذي تخلص منه وبوخوس. ولكن الوالي الروماني سكستيوس اغتاله لأنه انتصر بفضل إعانته فكان يخشاه واسترجع بوخوس الثاني ممتلكاته وتمكن من توسيعها بإضافة ممالك بوغود الذي كان انتصر لانطونيو على أوكتافيوس ومنذ ذلك الوقت امتدت موريطانيا من البحر الأطلس إلى المساقة (الرمل) .

وعندما مات بوخوس لم يبق خلفا له فحكم أكتافيوس موريطانيا من دون أن يلحقها بممالكه بصورة رسمية ولعله فعل ذلك بواسطة والبين واغتنم الفرصة فأسس في موريطانيا التي كانت تابعة لبوخوس ست مستعمرات بالقرب من موان قديمة وهي : جيجلي (Igigili) وبجاية (Saldae) وعزفون أو ميناء قيدون (Port Gueydon) على سواحل بلاد القبائل الكبرى ورأس متيفو قرب عاصمة الجزائر (Rusguniae) وقبة سيدي ابراهيم قرب غراية على بعد 28 كلم من غربي شرشال (Gunugu) وتنس (Cartennae) وثلاث مستعمرات في داخل البلاد : تيكلات على بعد 92 كلم من الجنوب الغربي من عنابة (Tubusuptu) وحمام ريغة (Aquae Calidae) ومليانة (Zuchabar) وأسس في مملكة بوغود مستعمرات زوليل (أو زيليس ؟) وهي أرزيلة بين طنجة والاعراش وبابا

كمبستريس (Babba Campestris) (وهي بلدة مجهولة قرب وزان) وسيدي علي بوجنون على واد سبو بين بورليوتي والقصر الكبير (Valentia Banasa)

16 — يوبا الثاني

إنّ تأسيس هذه المستعمرات في مواقع طبيعية أُحسن اختيارها لتكون مراكز إشعاع للنفوذ الروماني كان ينبئ على ما يظهر بإلحاق البلاد بالحكم الروماني . ولكنّ شيئا من ذلك لم يقع . ففي سنة 25 جعل أغسطس موريطانيا التي اتّسعت حدود مملكتها تحت إمرة يوبا الثاني ابن يوبا الأوّل.

إنّ هذا الملك الشاب لنموذج بربري غريب . وقد ربّته في رومة أخت أوكتافيوس في ظلّ أسْرٍ عمّه الرّخاء وزوّجه حماته بكيلوبطرة سيلني ابنة كيلوبطرة الكبرى وأنطونيو . وإذا تُصُدّق على ابني عاهلين مخلوعين بمملكة فلأنّ في تربيتهما وتأثير رومة ضمانا لإخلاصهما للرابطة التي تربطهما برومة . وبهذا الثمن سمح أغسطس لنفسه بإرجاع الملك لأصحابه من دون أن يخشى شيئا .

ولم ينشط العاهل الجديد نشاط آبائه . ولمّا لم تترك له الحماية الرومانية إلاّ المظاهر فقد تسلّى بالاعتناء بالمجموعات الفنّيّة والأدب الرخيص .

لقد بني عاصمة في شرشال (jol) وسمّاها قيصارية (Caesaria) لإرضاء سيد العالم وكان يأمر رعاياه بأن يقدّسوا قيصر بصورة رسمية ثم جمّل عاصمته بإقامة مبانٍ ذات نمط كلاسيكي ويمكن لمن تأمّل بعض آثارها اليوم أن يتصور مجموعة ضخمة من البنايات بما فيها المعبد والقصر والمسرح . وكان يوزّع في كلّ مكان عددا من التماثيل ممّا هو الآن ثروة متحف عاصمة الجزائر وخاصّة متحف شرشال . فتجد صورة ضخْمة "لابولون" وهي ربّما تكون نسخة من عمل قام به "فيدياس" (Phidias) في شبابه ونجد الاهتين لابستين الفستان الدوريسي وصورة لإلاهة أتينا من المدرسة نفسها ونصبا "لدينيزوس" من مدرسة براكسيتال ونصبا آخر لافروديت نسخة من أصل وجد في القرن

الثالث أو الثاني وكذلك صورة "لاغسطس" وهو لابس درعه وقد أصبح اليوم بلا رأس . ولا شكّ أنّه يجب أن ينسب إلى "يوبا" مجموعة البرونز الموجودة في متحف وليلي إذا كانت هذه المدينة كما ظنّ "كاركوبينو" عاصمة ثانية "ليوبا الثاني" .

وكان هذا الملك يحسن اليونانية واللاتينية والبونيقية وكان في تآليفه آخذا من كلّ شيء بطرف فلم يبق علم واحد غريبا عنه، وكان في إمكانه أن يكتب في كلّ موضوع بفضل مكتبته الثرية ونُسّاخه الذين لا يعرفون التعب غير أنّ تآليفه لم تبق بعده ولعلّه من المؤسف أن يكون كتاب "لبكا" Libyca قد ضاع إذربّما وجدنافي كتاباته عرضا لبعض المعلومات عن التقاليد المحلّية .

ولقد أثارت قبائل جدالة العراقيل في طريق هذا العاهل الذي لم يحجب لقب الملوكيّة المُضْفَى عليه تبعيته الحقيقية وقال "ديون كاسيوس" : «كانت حنقة على "يوبا" متمرّدة على رومة فثارت على الملك وعاثت فسادا في الأرض المجاورة وقتلت عددا كبيرا من الرومان ممّن قد حاربوها قبل ذلك (نقل ستيفان قزال) ومن الطبيعي أن كان القائد الذي كلّف بالتهدئة رومانيا وأن كانت هذه التهدئة من العنف بحيث استحق شرف الدخول في موكب الظفر بعاصمة رومة ولقب "قيتوليكوس" على حدّ تعبير "ديون" . ونال "يوبا" الملك البربري نفس الشرف لأنّه ساهم في انهزام البربر .

وسعيا في تلافي هذه الأخطاء اتّخذ أغسطس عدّة تدابير إدارية وعسكرية – غير أنّها لم تمنع شقاًّ من الموريين من الانضمام إلى ثورة النوميدى "تكفاريناس Tacfarinas" (سنة 17 بعد المسيح) . وفي هذه المرة أيضا أعان ملك موريطانيا رومة على قمع رعاياه "المتمرّدين" .

17 – بطليموس

توفي "يوبا الثاني" في أواخر سنة 23 وسنة 24 بعد المسيح وخلفه ابنه بطليموس فاقتصر طيلة أيام ملكه السبعة عشر على التباهي ببذخه مُوكلا

السلطة إلى المُعْتَقِين من عبيده وذلك ممّا دفع — حسب تاسيت — عددا كبيرا من الموريين إلى مناصرة قضية "تاكفارناس" الذي لم تقدر عليه كتائب رومة حينذاك . وساهم "بطليموس" في مقاومة المتمرّدين وكان دائما مخلصا في وفائه إلى الامبراطورية وجوزي على ذلك أكرم جزاء فقد أوعز الامبراطور "قاليقولا" باغتياله في ليون ثم استولى على أمواله ومملكته (سنة 40) وكانت هذه السنة نقطة انطلاق بالنسبة للعهد الموريطاني .

وقد تسبّبت هذه الجريمة في حدوث فتنة في موريطانيا امتدّت إلى الأطلس تحت قيادة معتَق من معتقي "بطليموس" وهو «آدمون» واضطرّ الامبراطور "كلوديوس" حالما خلف "قاليقولا" إلى إرسال قوّاد كثيرين يظهر أنّ مهمّتهم كانت شاقّة لأنّ العمليات الحربية دامت عامين بعد موت الملك .

واقتفى القائد الروماني الجديد "بولينوس" آثار الموريين حتى جبال الأطلس حيث وصل بعد عشرة أيام من السير ثم شقّها إلى أن وصل واد جار (ربّما يكون واد قير) ولاقت الجيوش الأمرّين من جرّاء العطش والحرّ والشتاء على أشدّه . ولم تَسْتَهْوِ البلاد الرومان لرملها الأسود وصخورها التي تبدو محترقة . ويظهر جليّا من حملة "بولينوس" وحملة خلفه "جاتا" أنّ الرومان سرعان ما أدركوا مدى الخطر الكامن في رجل الصحراء.

وكان "قاليقولا" قد عدل عن إخفاء الهيمنة الرومانية تحت ستار الحماية فألحق بمملكته موريطانيا التي قسمها "كلوديوس" إلى مقاطعتين امبراطوريتين : موريطانيا الطنجية وموريطانيا القيصرية (سنة 42) وكانتا قبل ذلك بيدي "بوغود" و"بوخوس" .

وبذلك بسطت رومة نفوذها على بلاد البربر كلّها وسوف يبقى الأمر كذلك طيلة 4 قرون كاملة إلى زحفة الوندال (من سنة 42 إلى سنة 429) .

الباب السادس

أفريقية الرومانية من عهد أغسطس إلى غرديانوس الثالث: احتلالها وتنظيمها

1 - الاحتلال. 2 - جيش أفريقية. 3 - تنظيم المقاطعات والبلديات. 4 - النمو الاقتصادي والاستعمار



I ـ الاحتــلال

1 ـ تمرّد المزالمة وجدالة في حكم اغسطس

تواصلت الهيمنة الرومانية على افريقية إلى سنة 238 من دون أن تهدّدها أخطار كبيرة ولكن كلّما حاول الرومان قطع مرحلة جديدة في بسط نفوذهم اصطدموا بثورات أهليّة بالغة الخطورة أحيانا فاضطرّوا إلى شنّ حملاتهم بلا انقطاع للقيام بما سُمّي مجازا في عرف الاستعمار "تهدئة البلاد" . وفي عهد أغسطس تجاوز تمرّد جدالة على يوبا حدود موريطانيا الجنوبية . واضطرّوا إلى مقاومة قبيلة "المزالمة" الكبيرة المستقرّة بالجزائر وتونس جنوبي مجردة وبالخصوص على ضفاف واد ملاق أو واد تاسة (مطول muthul) كما قاوموا جدالة « جوار سيرتا الصغرى والكبرى » الذين كانوا مستقرّين على طول السباسب جنوب البلاد التونسية . ولا يمكننا لقلّة المعلومات ضبط خصائص هذه الحركة التمرّدية . إلاّ أنّ انتشارها والصعوبات التي لاقاها القائد كوسوس كرنليوس لنتولوس (Cossus Cornélius Lentulus) للقضاء عليها تحملنا على الاعتقاد بأنّ غَلَيَانَ القبائل الجنوبية وهجوماتها على التراب الروماني لم تنقطع طيلة أكثر من ثلاثين سنة . ولم يذكر المؤرّخون أيّة ثورة في السنوات الثمانية الأخيرة من إمارة اغسطس إلاّ أنّ الظروف أرغمت الامبراطور على التخلّي بعض مشيء عن خطّته السياسية التي رسمها سنة 27 قبل المسيح والمقتصرة على مجرّد الدّفاع .

2 ـ تكفاريناس

إنّ ما نعرفه عن ثورة البربري تكفاريناس (Tacfarinas) الذي قهر في عهد تيبريوس (Tibère) الجيوش الرومانية مدّة سبع سنوات مُسْتَمَدّ من بعض أسطر كتبها تاسيت (Tacite) . فقد جاء في الحَوْليات ج 2 ص 52 ما يلي : "اندلعت الحرب في افريقية في نفس هذه السنة (17) وكان على رأس الثوار قائد نوميدي يسمّى تكفاريناس كان انتظم بصفة مساعد في الجيوش الرومانية ثم فرّ منها . وفي أوّل أمره جمع حوله بعض العصابات من قطّاع الطريق والمشرّدين وقادهم إلى النهب . ثم جعل منهم مُشاة ففرسانا نظاميين وسرعان ما تحوّل من رأس عصابة لصوص إلى قائد حربي للمزالمة وكانوا قوما شُجْعَانًا يجوبون الفلوات المُتَاخِمَة لافريقية .

وحمل المزالمة السلاح وجرّوا معهم الموريين جيرانهم الذين كان يقودهم "مازيبا" . واقتسم القائدان الجيش فَاستَبْقَى تكفاريناس خيرَةَ الجند أي جميع من كانوا مسلّحين على غرار الرومان ليدرّبهم على النظام ويُعوّدهم الامتثال . أمّا "مازيبا" "فكان عليه أن يُعمل السيف ويُشعل النار ويَنْشُر الذّعر بواسطة العصابات" .

وكان شأن تكفاريناس شأن الكثير ممّن تزعّموا الثورات من يوغرطة إلى عبد القادر . فقد حذق فنّ الحرب وغذّى حقده على الأجنبي وهو يعمل في صفوف المُغيرين . وكان في أوّل أمره رئيس عصابة أي أنّه وجد نفسه ولا شكّ أمام ثورات تلقائية تتجلّى في عمليات سطو . ثم كان عليه فيما بعد أن يحمل أتباعه على الانقياد والنظام وأن يجعل من خليط القبائل الفوضوية جيشا نظاميا . ولئن نجح في سعيه كما أكّد ذلك "تاسيت" (Tacite) فمعناه أنّه لم يكن مجرّد مغامر بل قائدا من طراز ممتاز .

وامتدّت الحركة التمرّدية إلى موريطانيا غربا وسيرتا الصغرى شرقا . وكانت ثورة عامة شنّتها قبائل الجنوب وشبّت نيرانها في الأراضي التي

كانت تحتلّها رومة . وبعد معركة نظامية هزم البروقنصل (M. Furius Caurillus) تكفاريناس وكان على رأس كتيبة أغسطس الثالثة وعدد من الاحتياطيين . فخوّل من أجل ذلك شرف الانتصار (سنة 17) إلاّ أنّ الثورة البربرية لا تفتر إثر المعركة الأولى فحالما شعر النوميديون بأنّهم غُلِبُوا على أمرهم تفرّقوا حسب خطّتهم الأبديّة ليجمعوا شتَاتَهُمْ في الصحراء . ومنها وجّه تكفاريناس هجومات فُجائيّة على القرى والأرياف المُتَاخِمة بل إنّه نجح في تشتيت سَرِيّة رومانية واغتصاب قلعة (سنة 20).

واضطرّ البروقنصل أبرونيوس (L. Apronius) إلى الهجوم بفضل النجدات الآتية من بَنُّونِيَا لتخليص مركز محاصر . ولم يكن النوميديون بارعين في فنّ محاصرة المدن . فكان من سداد رأي تكفاريناس أن عدل عن ذلك واكتفى من جديد بالهجومات الخاطفة . فعجز الرومان عن إلقاء القبض على عدوّهم الذي كان يوجّه ضرباته في أماكن غير مُنتظَرَة ويختفي بغنائمه قبل أن يتمكّنوا من ردّ الفعل . إلاّ أنّ ابن البروقنصل (L. Apronius Caesanius) باغته مرّة وأرغمه على الالتجاء إلى الصحراء . وكان هذا الانتصار وقتيا فلم يمنع النوميدي من الظهور ثانية وتوجيهه رسلا إلى تيبيريوس لمطالبته بتسليمه هو وجيشه الأراضي عن طيب خاطر وتهديده إذا هو امتنع "بشنّ حرب لا هوادة فيها" .

واعتبر تاسيت هذا الإنذار جُرأة نادرة . غير أنّه إن دلّ على شيء فعلى حاجة النوميديين الحيوية إلى التزوّد من السهول الخصبة التي كان الاحتلال الروماني حائلا دونها . ورفض تيبيريوس المفاوضة . يقول "تاسيت" : "يروى أنّ تيبيريوس ما تأثّر قطّ بسبّة موجّهة إلى الامبراطور والشعب الروماني تأثّره من هارب قاطع طريق انتصب قوة معادية" . وما كان له أن يرضى "بأن تتخلّص الامبراطورية وهي في أوج سلطانها من لصوصية تكفاريناس بالتصالح والتنازل عن الأراضي" .

وقام بروقنصل جديد يسمّى ق. يونيوس بليزوس (junius Blaesus) بعمل مزدوج للقضاء على النوميديين . فأحدث شقاقا بينهم بفضل مهارته في قطع الوعود وكذلك بالتنازل عن بعض الأراضي من غير

شكّ ثم دبّر خطّته وفقا للضرورات الافريقية على غرار ما فعل فيما بعد "بيجو" في محاربته لعبد القادر . فجهّز فرقا سريعة التنقّل لمناوشة العدوّ . وعَسْكَرَ بجيوشه في مراكز مُحَصّنَة على طُول الحدود وتمكّن بذلك من مواصلة هجومه حتى عند اشتداد برد الشّتاء إلاّ أنّه لم يُوفّق إلى إلقاء القبض على تكفاريناس كما كان أمره بذلك الامبراطور ويقال : إنّه لم يمنح شرف النصر إلاّ لأنّه كان عمّ قائد الحرس البريطوري القدير المسمّى سيجان (Sejan)

ورجعت الحالة إلى ما كانت عليه من خطورة بعد رحيل بليزوس (Blaesus) . ولمّا ولي بطليموس الأمر في موريطانيا ثار الموريون من جديد وجمع تكفاريناس أنصارا جُدُدا . وكان يعلم أنّ كتيبة وقع سحبُها من الجيوش الرومانية فعمّت الثورة البلاد من موريطانيا إلى سيرتا الكبرى . وتبنّى البروقنصل "دولابلا" (P. Cornelius Dolabella) خطّة بليزوس وانتهى به الأمر إلى الظفر بتكفاريناس بالقرب من "قصر متداع يسمّى "أوزية" كان أحرقه النوميديون يقع وسط غابات كثيفة وكان تكفاريناس وصحبه يعتقدون أنّهم في مأمَن من كلّ خطر" وأكّد بعض المؤرّخين دون استناد إلى حجج قاطعة أنّ هذا الحصن كان موقعه في سور الغزلان وإن كان الأرجح أن يكون أقرب من حيث الموقع إلى الشرق . فذبح الجنود الرومان «في سورة نقمتهم وبطشهم» ما طاب لهم أن يذبحوا من النوميديين . وقد بُوغِتوا ولم يكونوا على استعداد للمقاومة فرمى تكفاريناس بنفسه مُواجِها العدوّ وتخلّص من أسره بميتة دفع أعداؤه ثمنها باهضا . وانتهت الحربُ بقتل القائد .

3 ــ الزحف نحو الجنوب في عهد تيبيريوس

اتّسعت رقعة الاحتلال الروماني عند انتهاء الحرب. وتشهد صُوًى اكتشفت جنوب تونس بالقرب من شطّ الفجاج وضعها جنود مكلّفون بمسح الأراضي بأنّه وقع التوسّع في عمليّة تقسيم الأراضي الجديدة فأصبح لها خطوط رئيسية (Decumanius maximus et Cardo maximus) تتركب من خطّ يمتدّ عرضا من الشمال الغربي ابتداء من مكان يقع بين سكيكدة وعنّابة

لينتهي في الجنوب الشرقي قرب قابس ، ومن خطّ ينزل طولا من الوطن القبلي ويكون مع الخطّ الأول زاوية قائمة في حيدرة (على بعد 32 كلم من الشمال الشرقي من تبسّة) .

وفي هذا المسح الجديد للأراضي الذي كان يتوسّع بحسب تقدّم الجيوش الرومانية دليل على أنّ الرومان عدلوا شيئا فشيئا عن الخطّة الدفاعية وقرّروا ضمّ الجهات المجاورة للشّطوط التونسية . وهكذا فإنّ افريقية التي كانت شملت في عهد أغسطس بلاد سيرتا الصغرى والكبرى المقتطعة من بلاد القريني استحوذت على جانب من أراضي الجنوب في عصر تيبيريوس .

ولم يذكر المؤرّخون القُدامى عند الحديث عن افريقية في عهد تيبريوس (Tibère) وقاليقولا (Calligula) إلاّ ثورة واحدة اندلعت في موريطانيا بعد مقتل بطليموس . ولكنّهم يؤكّدون ، وحقّ لهم ذلك ، أهميّة القرار الذي اتّخذه قاليقولا عندما نزع قيادة الجيوش من البروقنصل وأسندها إلى المساعد الذي كان يقود جيوش نوميديا سنة 37 . وفي إمارة كلوديوس (41 و 54) امتدّت ثورة الموريين إلى جنوب نوميديا فتجرّع البروقنصل قالبه (Ser. Sulpicius Galba) الأمرّين في سبيل إخمادها وقد أسندت إليه هذه المهمّة بصورة استثنائية وهو الذي أصبح فيما بعد امبراطورا .

4 – الاضطرابات في عهد الفلافيين والانطونيين والسيفريين

وفي أثناء الاضطرابات التي تبعت موت نيرون (78) حمل كلوديوس ماسر (L. Clodius Macer) المساعد الذي كان على رأس الكتيبة كلاًّ من لوسيوس ألبينوس (Lucceius Albinus) وكيل الامبراطور (Procurateur) والبروقنصل كالبرنيوس بيزو (L. Calpurnius Piso) لواء الثورة الواحد بعد الآخر . وشتّت (Valerius Festus) فاليريوس فستوس قائد نوميديا المساعد الذي أوعز بقتل البروقنصل بيزو غرامانت فزان الذين استجابوا إلى دعوة سكّان (Œa) طرابلس وحاصروا مدينة لبدة واكتشف طريقا جديدة تربط بين طرابلس ومرزوق عَبْرَ صحاري

الحمادة الحمراء الخالية وبفضلها يمكن اقتصاد عشرة أيّام بالنسبة للطريق المألوفة المارّة بالسكني وجبل الاعتر إلاّ أنّها أشقّ لقلّة عيون الماء فيها .

ولم يجد الامبراطور الأوّل للأسرة الفلافية فسبازيان (Vespasien) (79 — 69) صعوبات كبيرة على ما يظهر. أمّا دوميتيانوس (81 — 96) فقد اضطرّ إلى مواجهة ثورات عديدة وخاصّة في موريطانيا وعلى ساحل سيرتا الكبرى حيث انتقم النازمون (Nasamons) ممّا كانوا يقاسونه من صُنوف الاغتصاب فقتلوا جامعي الضرائب (85 — 86) . ولربّما وجه بالاتّفاق مع ملك الغرامانت بحملة بلغت السودان. وقضى الامبراطور تراجانوس (98 — 117) وهو أوّل من تولّى الحكم من أسرة الانطونيين بعد نيابة نارفا (Nerva) المحدودة في الزمن حياته مقاوما "الداس" و"البارثيين" دون أن يضطرّ إلى التدخّل في افريقية بالرغم من احتمال حصول بعض الاضطرابات بموريطانيا الطنجية.

وتداخل هادريانوس (117 — 138) وخلفاؤه في الغرب خاصة. ونشبت ثورة عند تولّيه الحكم في موريطانيا (118) وتواصلت طيلة سنوات كثيرة رغم نشاط القوى المحلّية وتدخّل الأمير بنفسه . وبلغت من الشدّة في عهد انطونان الورع (138 — 161) ما جعل القوم يطلبون النجدة من سوريا واسبانيا وبنونيا لتخليص المنطقة الشمالية حتى الأطلس (144 إلى 152) وبلغت الثورة منطقة أوراس حيث دخلت الجيوش الرومانية لأوّل مرّة على ما يظهر وبلغت أيضا (Les mauritanies) موريطانيا الشرقية والغربية .

ونشبت الثورة من جديد في عهد مرقس أوريليوس (Marc-Aurèle) (161 — 180) وعهد كومودوس (180 — 192) وزاد في خطورتها تسرّبات الموريين إلى بلاد البيتيس وكان على كومودوس أن يقوم أيضا بنشاط كبير جنوب الاوراس ولاقى سيبتيموس سواريوس (193 — 211 (Septime Sévère) وسواريوس الاسكندر (222 — 235) بدورهما صعوبات لمواجهة الحالة في هذه المنطقة التي لا تلين قناتها . واضطرّ الامبراطور حسب العبارة نفسها التي وردت في "حياة سواريوس (vita severi) إلى صدّ "الشعوب السبّاقة إلى الحرب" التي تهدّد الحدود وخاصّة موريطانيا على ما يظهر .

5 ـ أسرة الغرديين الأباطرة الافريقيين

كسب ماكسمان (Maximin) (235 ـ 238) وهو الامبراطور الذي بايعه جيش الرين بعد مقتل ساوريوس الإسكندر ثقة الجنود بأن أغدق عليهم أموالا طائلة كان يجمعها بفضل نظام جبائي مرهق . وتمرّد البرابرة وكانوا مفطورين على قلّة الولاء ومناهضين لتبذير الامبراطور في الميدان العسكري ممّا ساهم في خلع ماكسمان بعد أشهرٍ قليلة .

وأسفرت الاضطرابات الأولى التي شارك فيها سكّان المدن وسكّان الأرياف عن قتل وكيل الامبراطور في مدينة لجم (Thysdrus) وكان قد أرهق البلاد بتصرّفاته المشطّة . ولم يعد الأمر مجرّد حادث من حوادث الحدود ، وإنّما هو تمرّد المدنيين على طغيان الجند المشاغب . واختار المتمرّدون امبراطورا عليهم البرو قنصل الشيخ أنطونيوس غرديانوس (غرديانوس الأوّل) الذي أشرك ابنه في الحكم وكان يحمل نفس اللّقب (غرديانوس الثاني) .

وقد صادف الإعلان عن تسمية هذا النبيل العريق النسب رضا مجلس الشيوخ والشعب الروماني وكانا يضمران نفس الحقد على الجند ولكنّه أثار خفيظة الجيش . لذلك لم تتردّد أرستقراطية الشيوخ في الاعتراف بامبراطور سكّان المدن التابعة للبروقنصلية بينما أسرعت جيوش نوميديا تحت إمرة القائد المساعد كبالينيوس (Capallionus) بالزحف على غرديانيوس وابنه . ولم يجد جند الكتائب مشقّة في الانتصار على جيوش غرديانوس المرتجلة . وبعد مضي ثلاثة أسابيع من الحكم هلك الابن محاربا وأبى والده البقاء حيّا بعد الهزيمة (ماي 238) . وأظهر الجند المشاغب بأسه بنهب المدن والمعابد وبالإمعان في تقتيل المدنيين وفي رومة بايع الحكّام حفيد الشيخ غرديانوس امبراطورا أثناء الحوادث التي كانت الامبراطورية مسرحا لها . غير أنّ غرديانوس الثالث هلك قبل مضي ستّ سنوات .

وكان تولّي أسرة غرديانوس فاتحة عهد من القلاقل دام إلى مجيء الوندال ومعنى ذلك أنّ القرنين الأوّلين من الاحتلال الروماني (40 ـ 244)

هما اللّذان يمثّلان أكثر الأطوار التي مرّت بافريقية ازدهارا حيث توطّدت أركان الاستعمار بكلّ حرية في نطـــاق الأنظمة الامبراطورية .

6 — الليمس Le limes

كان الباحثون يميلون حتى السنوات الأخيرة إلى اعتبار "الليمس" خطّا محصّنا كان القوم يتقدّمون به كلّما امتدّ النفوذ الروماني . وقد بيّنت أعمال براديز (Cl. G. Baradez) المعتمدة على فحص مدقّق شامل للصور الجوية أنّ الأمر أكثر تعقيدا من ذلك . وإذا أرجعنا الليمس إلى معطياته الأصلية وجدناه يتركّب من عناصر رئيسيّة ثلاثة — أولا : الخندق (fossatum) تتخلّله أسوار وأبراج وحصون ومراكز محصّنة مبنيّة بالحجارة أو بالطوب بحسب الجهات . ثانيا : أجهزة محصّنة منفردة تقع أمام الخندق ووراءه . ثالثا : شبكة من الطرقات مسطّرة بالاعتماد على الضرورات الستراتيجية . ومعنى ذلك أنّ الليمس ليس مجرّد خطّ دفاعي فقط إنّما هو جهاز معقّد . وعلى أساس هذه النظرية التي أصبحت مسلّما بها فإنّ تحصين منطقة ما،كان بصفة عامة خلقا متواصلا ولو أنّ المخطّط العام وضع مسبّقا . والحفريات المتعدّدة هي وحدها التي تسمح بضبط صيغ إقامة هذا الجهاز المحصّن أو ذاك . لكن يظهر أنّه لم يعد من الممكن التسليم بأنّ ضبط تاريخ جهاز دفاعي ليس من شأنه أن يسمح بالتعرّف إلى أيّ هيكل ينتسب . وإذن فإنّ معظم الآراء المسلّم بها سابقا أصبحت موضع شك . ومن جهة أخرى فإنّه يجب ملاحظة أنّ "ليمس" نوميديا وامتداداته القريبة هي وحدها التي وقع درسها دراسة متفاوتة ولذلك فلا نزال نجهل هل أنّ جميع أجزاء "ليمس" افريقية على نفس التعقيد . والجواب بالنفي على ما يظهر .

فالليمس كما رأينا هو فعلا الحدّ الأقصى للجهاز الستراتيجي يُحكم وضعه ثم يُشرع في عمليّة الاستعمار . وتشهد كتابة منقوشة عثر عليها في قلالية (جنوب شطّ الهدنة) أنّ عمليات توزيع الأراضي تبعت الاحتلال العسكري . ويبدو في آخر الأمر أنّ رومة كانت تريد ضمّ افريقية " الصالحة" وأنّ الجهاز الدفاعي كان نهائيا أو وقتيا بحسب بلوغ الهدف أو عدمه

وعندما بلغ الاحتلال الروماني منتهاه في أواسط القرن الثالث طابقت الحدود المرغوب فيها الحدود الحقيقية بالنسبة لليبيا وتونس والجزائر الشرقية . أمّا في غرب الجزائر فيبدو أنّ الليمس لم يكن سوى "منطقة محروسة". وقال : (ل. ليشي L. Leschi) "وضعت الحواجز بصورة لا تتعطّل معها التنقّلات الدّورية" . أمّا في المغرب فإنّ الضرورة الستراتيجية في ذلك الوقت هي التي فرضت خطّ الحدود التي لم تعتمد على قواعد جغرافية ظاهرة .

7 ـ الحدود في القرن الأول والليمس

اقتصر الرومان في القرن الأوّل على احتلال الموانى وحاشية ساحلية ضيّقة في ليبيا الحالية . ففي غربي قابس يقف الاحتلال عند شطّ الفجاج ، ثم تمرّ الحدود متّجهة نحو الشمال بقفصة (Capsa) وفريانة (Thelepte) وتبسة (Theveste) وتدور حول جبل أوراس شمالا ، وتتّجه بالنسبة للشمال الغربي إلى سهول سطيف ومجانة . وربّما بلغت سور الغزلان (auzia - aumale) ثم تنزل غربا حتى تلتحق ببرواغية (Berroughia) ، وتساير وادي شلف عبر دي بري (oppidum novum) ومدينة الأصنام (Castellum - Tingitanum) ، وتجتاز الميناء بالقرب من ريليزان (Relizane) والهبرة ببريقو (Castra - nova) والصيغ في سان دني (Tassaccora) ، ثم بعد ذلك تقترب من الساحل فتشقّ نهر الملوية في مكان قريب جدّا من مصبّه ، وتصل إلى البحر في المليلة (Rusadohi) وتبدأ المنطقة الخاضعة للرومان من جديد في طنجة (Tinji) وراء الريف الذي لم يخضع للنفوذ الامبراطوري وتمتدّ حتى سلا (Sala) .

وهكذا فإنّ افريقية الرومانية كانت منحصرة شرقا في منطقة الموانى الليبية الضيّقة ، ثم اتّسعت أبعادها في البلاد التونسية ثم ضاقت غربا حتى المليلة لتظهر من جديد بعد انقطاع وراء مضيق جبل طارق في حاشية الساحل الأطلسي . وقد بقي قسم من التلّ الجزائري ومعظم البلاد الليبية والمغرب الأقصى خارجة عنها .

وقد شرع في رسم الحدود منذ أوائل عهد تيبريوس . وقد بادر القوم ببناء الطريق المحصّنة الرابطة بين قابس (Tacapae) وحيدرة (Ammaedara) حيث عسكرت الكتيبة الثالثة أوغسطة . وكانت هذه الطريق تشقّ الأراضي التي ينتجع فيها المزالمة . ولا شكّ أنّ ذلك كان سببا من أسباب ثوراتهم ثم شرع في بناء طريق أخرى تنطلق من قابس متّجهة نحو لبدة . وقد نقل مُعَسْكَرُ الكتيبة إلى تبسّة في عهد فسبازيان (Vespasien) وربطت طريق ستراتيجية هذه المدينة بعنابة (Hippo Régius) . ورغم أنّ مراكز منفردة كانت تحمي في أغلب الظنّ هذه الشبكة من الطرقات من الهجومات الواردة من الجنوب فإنّ ليمس القرن الأول لم يُحْكم تنظيمه في الواقع إحكاما عميقا ، وربّما حفر جبل تباغة (Tepaga) ابتداء من ذلك الوقت وليس ذلك إلاّ مجرّد افتراض.

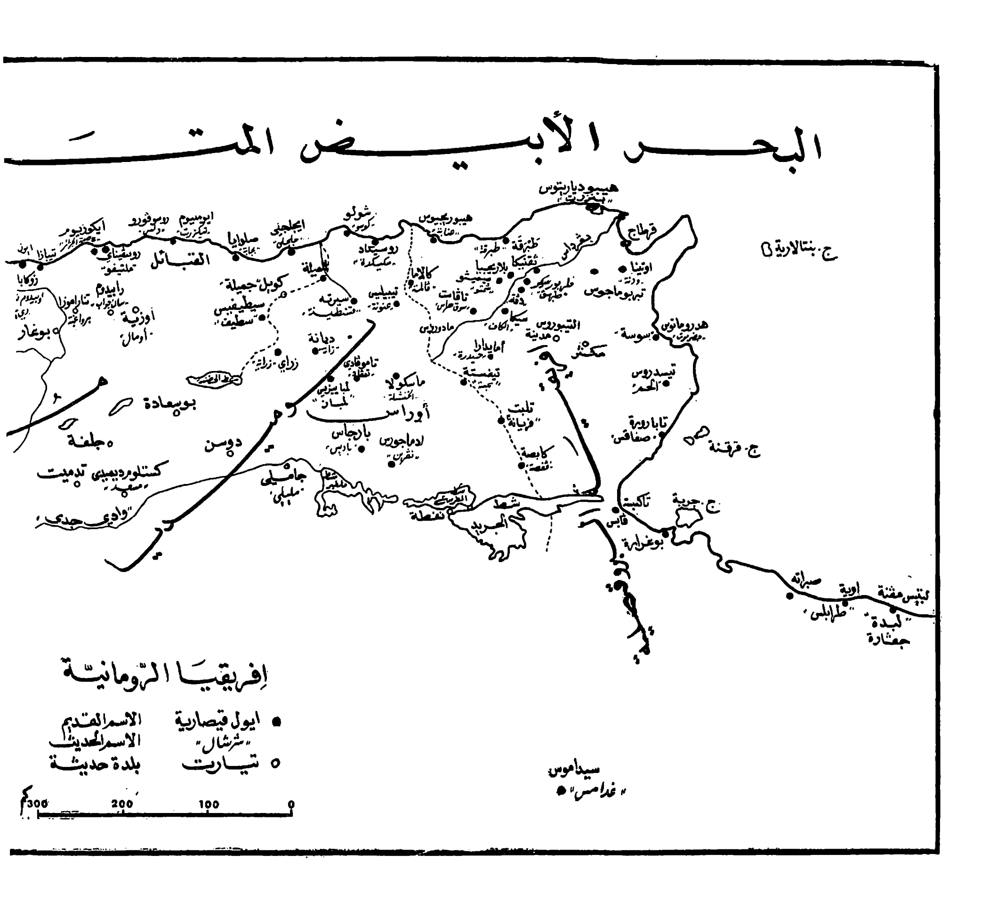
8 — امتداد افريقية الرومانية وليمس القرن الثالث

تواصل توسّع الرومان في افريقية إلى وسط القرن الثالث . فنقل معسكر الكتيبة في عهد تراجانوس (؟) من تبسّة إلى لَمْبَازْ (Lambaesis) الكائنة على بعد 170 كلم من غربي تبسّة . ويدلّ ذلك بطبيعة الحال على حرص شديد في مراقبة قبائل الأوراس غير المنقادة كما يدلّ عليه تأسيس قلعة ادماجورس (هنشير بسرياني) سنة 105 . ومن يومئذ أصبح جبل أوراس مُحاطا بشبكة ستراتيجية اكتملت بتحصينات أقلّ أهمّيّة .

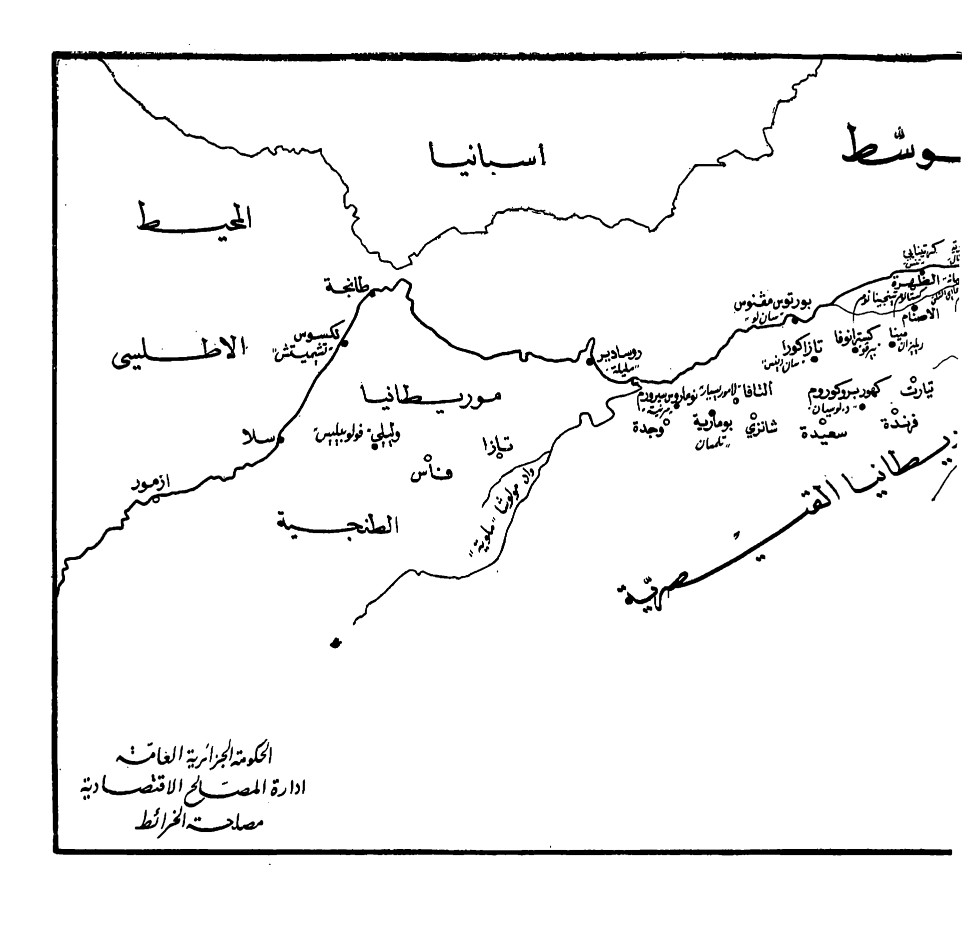
ويظهر أنّ حكم هادريانوس وخليفتيه وافق فترة توطّد فيها الحضور الروماني ، خاصّة وأنّ الثورات البربرية كانت تتعاقب الواحدة بعد الأخرى. وعند إنشاء معسكر جمالة (Gemallae) سنة 126 بلغ الليمس جنوب واد جدي بينما أظهر بناء معسكر رابدوم (Rapidum) (سور جواب) عزم الرومان على مراقبة التخوم المورية مراقبة فعّالة . وأخيرا فإنّه ليس

من المستحيل أن يرجع تاريخ أجزاء كثيرة من الخندق إلى هذه الفترة . لكنّها مجرّد فرضية إذ يمكن كذلك نسبتها إلى عهد غرديانوس الثالث أو حكم الأربعة (Tètrarchie) .

وقد استأنف الرومان زحفهم في عهد كومديوس وخاصّة السفيريين وواصلوه في عهد الغرديانيين . وقد شرع في بناء الليمس الذي يحمي جهة سيرتا الصغرى والكبرى منذ تولّى كومديوس الحكم واستكمل أجزاءه الرئيسية في عهد سبتيموس سواريوس (Septime sévère) ويظهر أنّ هدف الرومان في نوميديا كان احتلال المناطق الموجودة بين شطّ الهدنة شمالا وواد جدي جنوبا إلاّ أنّهم لم يبلغوا نهاية أربهم . وكان الليمس الرابط بين دوسن وسدوري الذي وقع تحصينُه في عهد غرديانوس الثالث على أقصى تقدير وربّما قبل هذا التاريخ ثم الطريق الواصلة بين سدوري والقهرة هي الحدود التقريبية التي كانت تتواصل بعد ذلك نحو بوسعادة في الشمال الغربي . وفي موريطانيا القيصرية بنيت الطريق الفاصلة حوالي سنة 201 (أ. البرتنـِي) ويظهر أنّ الجيوش الرومانية ضاعفت العمليات الاستطلاعية . وأبقى لنا نقش القنب (على بعد خمسين كلم من الجنوب الشرقي من شطّ الشرقي) ذكرى السرية التي قامت بعمليات على بعد 400 كلم من قواعدها (سنة 174) . وقد وقع احتلال مراكز تتفاوت في البعد منها بونجم وسي عون وغدامس (Cydamus) في ليبيا وكانت تراقب المفاوز وأشهرها اليوم مركز مسعد (Castellum Dimmidi) (على بعد 80 كلم من جلفة) كشفه بيكار (G. Ch. Picard) وقد وقع احتلاله من 198 إلى 238 تقريبا .



وإذن فإنّ الحدود كانت تنطلق في أواسط القرن الثالث من معابد النيلان (Autels des Phillenes) في أقصى بلاد القريني وتحاذي في أوّل الأمر السواحل ثم تبتعد عنها ابتداء من لبدة (Leptis Magna) لتستند إلى المرتفعات الوعرة التي توازي في الجنوب السهول الساحلية جنوبا وهي بذلك تشمل منطقة لا يتجاوز أقصى عرضها 170 كلم . ثم تجانب جبال مطماطة وجبل تباغة (Tepaga) حتى الضفّة الشرقية من شطّ الجريد (Lactritonis) وبعد نفطة تميل نحو الشمال الغربي ثم تسير غربا في خطّ مُوَازٍ للأطلس الصحراوي لا يبعد عنه أكثر من ثلاثين كلم .



وبعد ساقية بنت الأخرس تميل ثانية نحو الشمال الغربي متّجهة إلى سيدي عيسى ضامّة بذلك سهول الهدنة . ثم تساير موازية للساحل الجانب الجنوبي للأطلس التلال فتنحصر بذلك منطقة الاحتلال في رقعة من الأرض يتفاوت عرضها من 120 كلم إلى 130 وتتناقص كلّما اقتربت من الملوية . وقد بقيت السهول العليا الجزائرية المغربية خارجة عن الأملاك الرومانية . وسمحت بعض المراكز كمركز مجدل المبنيّ سنة 148 و 149 على بعد خمسين كلم غربي بو سعادة أو جلفة بمراقبة حركات البدو . وعلى كلّ فقد بقيت بعض مناطق جبليّة في قلب البلاد الخاضعة للنفوذ الروماني متمتّعة عمليا باستقلالها.

9 – مشكلة المغرب الأقصى الروماني

إذا أمكن ضبط رسم الحدود الرومانية ولو بصفة تقريبية حتى التخوم الشرقية للمغرب الأقصى فإنّ الأمر متعذّر بالنسبة لما وراء هذه التخوم. وعلى بعد بضع كيلومترات من جنوب "سلا" حفر ابتداء من الساحل خندق وكان اتّجاهه من الغرب إلى الشرق . وقد أمكن تتبّعه في مسافة طولها عشرون كيلومتر . ولا شكّ أنّه أطول من ذلك وأنّه يمرّ من مكان لا يبعد كثيرا عن جنوب مكناس وفاس إلاّ أنّ الآثار الرومانية مفقودة تماما بين بو حلو (على بعد 15 كلم من غربي تازة) ولله مغنية (Numerus Syrorum) أي في منطقة عرضها 200 كلم تقريبا تقابل منطقة الملوية الأمر الذي حمل بعض المؤرّخين أمثال فابريسيوس دي لاشابال وتيراس (Fabricius H. Terrasse F. de la chapelle,) على الشكّ في وجود وحدة ترابية على الأقل بصفة مستمرّة بين موريطانيا الشرقية والغربية . وقد دافع ج. كركوبينو عن النظريّة المعاكسة وأدلى بحجج قويّة جدّا لتدعيم رأيه ومن بين هذه الحجج بالخصوص أنّ المقاطعتين خضعتا مرّات كثيرة إلى سلطة واحدة (إحدى عشرة مرة في الفترة الواقعة بين حكم كلوديوس وديوقليسيانوس). إلاّ أنّه يجب الاعتراف بأنّ الحجّة في معناها المضبوط ما تزال مفقودة ومهما يكن من أمر فإن ّالمواصلات الرومانية سواء تمّت عبر تراب خاضع للنفوذ الروماني أم لا كانت دائما مهدّدة ولم يفت الباكات والبافار الذين كانوا ينتجعون في السهول العليا الجزائريّة المغربية أن ينالوا من الأمن فلم يجد الرومان بدّا من أن يبرموا مرات كثيرة معاهدات كشفت عنها نقوش وليلى .

II ـ جيش افريقية

1 ـ جيش الاحتلال

لم يكن لرومة من قوّة تحمي البلاد المحتلّة سوى جيش قليل العدد يحتوي بالنسبة لبلاد البروقنصل (Proconsulaire) ونوميديا على كتيبة تعدّ 5 500 رجل وعددا أكثر بقليل من الإضافيين المشاة والفرسان خاصّة أي 13 000 رجل في الجملة تقريبا . وكان 15 000 إضافيّ مكلّفين بحماية موريطانيا الشرقية والغربية وكان على القبائل أن تجنّد عند الحاجة عددا كبيرا من القوم .

وكان يشترط على من يريد الانخراط في الكتائب أن يكون مواطنا كما هو الأمر في بقية الامبراطورية إلاّ أنّ الامبراطور كان يسند هذا اللّقب إلى من يتَطَوّعُ حال دخوله في الحياة العسكرية . فكان جنود الكتيبة الثالثة منحدرين في أوّل الأمر من مقاطعات غرب البلاد اللاطينية وخاصّة بلاد غوليا وفي أواخر القرن الأوّل كانوا يجنّدون من الشرق اليوناني والبعض منهم من افريقية نفسها . ومنذئذ لم ينفكّ التجنيد المحلّي في ازدياد مستمر . ومنذ تولّي هادريانوس الحكم أصبح عدد الجنود الأفارقة يفوق جنود الشرق . وقد ضبطت بعد موته بثلاث سنوات قائمة في جند الكتائب لم تحتو إلاّ على عناصر من أصل افريقي ونوميدي لتسهيل عملية الانخراط وعمدت رومة كما كان شأنها في سائر افريقية إلى تجنيد أبناء الجند الذين شبّوا على الطاعة والنظام في المعسكرات . وهكذا ابتداء من أواخر القرن الثاني أصبح أبناء جند كتيبة لمباز بانخراطهم في الجنديّة وتسويتهم لوضعيتهم القانونية الملتبسة يزوّدون الجيش الروماني بعدد متزايد من العناصر الجديدة .

وأصبحت الفيالق المساعدة تجنّد أيضا من خارج افريقية فتشير نقوش نوميديا إلى وجود جنود اسبان ولوزيتانيين وكلكدونيين (Chalcidéniens) وكمّاجيين (Commagéniens) أمّا في موريطانيا فنجد جند اسبانيا وكورسيكا وسارديا وغاليا وسيكمبريا (Sicambres) ودلماسيا وبنونيا وبروكيا وبريطانيا وبرتيا. لكنّ

السرايا والأجنحة التي أقامت طويلا في افريقية وإن هي حافظت على أسمائها الأصلية فإنّها ما لبثت أن أحجمت عن جلب الجنود من بلاد ما وراء البحار . فقد أصبح في أواسط القرن الثاني التقييد المحلّي في الجندية قاعدة يخضع لها الإضافيون وجند الكتائب على حدّ سواء . فأنشئت بذلك بعض الفيالق مشتملة فقط على عناصر افريقية بحتة مثل (Ala Numidica) في نوميديا و(سرية المزالمة) Cohors. Musulamiorum و cohors maurorum في موريطانيا . وحوالي سنة 150 رأت رومة أنّ سلطتها قد تدعّمت بحيث أمكنها الاعتماد على الجند البربر وحدهم في توطيد الأمن . غير أنّ الظروف الخاصّة التي فرضتها محاربة بدو الصحراء في القرن الثاني حملت الأباطرة على أن يعهدوا بحماية جبهة واد جدي الجديدة إلى إضافيين شاميين ، من تدمر خاصّة (Palmyre) وكانوا قد مرّنوا حسب الخطّة التي تقتضيها التخوم الصحراوية .

2 ـ الكتيبة الثالثة : أغسطس

لا شك أنّ الكتيبة الثالثة التي ربّما أنشأها قيصر ناصرت قضية أُكْتَافيوسْ فأضفي عليها اسم Augusta عندما نسّق الجيش النظامي وذلك بعد تأسيس إمارته . ولعلّه أقرّها بافريقية مباشرة واضطرّت إلى إقامة معسكرها بحيدرة (في الشمال الشرقي من تبسّة) (Ammaedara) في قلب بلاد المزالمة وذلك ليحمي جهة سيرته (Cirta) وبلاد البروقنصلية . ويجب تعيين موقع معسكر الشتاء (Castra hiberna) في حيدرة لا في تبسّة وكذلك بالنسبة إلى النقطة التي تلتقي فيها الطريقان الرئيسيتان ثمرة عمليّة المسح الكبرى التي أذن بها أغسطس وهذا المعسكر كان وصله جند الكتائب سنة 14 بعد المسيح بقابس (Tacapae) بواسطة طريق يبلغ طولها 270 كلم . ونظرا لانعدام الآثار فإنّ نقوش قبور جند الكتائب العديدة والكتابات التي تشهد بإقامة قوّاد الجيش هناك طويلا تجعل استقرار الكتيبة محتملا في ذلك المكان بعينه . ولكنّها اضطرّت إلى النزوح عنه في أواخر أيّام فسباسيان (Vespasien) لتنزل بتبسّة (Theveste) حيث كان في إمكانها كذلك أن تمتد سطوتها حتى البحر شرقا وحتى حدود موريطانيا

غربـا ولسنا نعرف بالضبط في أيّ تاريخ انتقلت إلى لمباز ممعنة نحو الغرب في مكان توفّرت فيه العيون الغزيرة على مقربة من ممرّ عامر بين الصحراء الكبرى والتلّ والاوراس ومنه تمكّنت من مراقبة سكّان الجبال وإذا أخذنا بما افترضه شارل سوماني فإنّهـا تكون قد أقامت بتمغاد (Thamugadi) قبل ذلك بقليل.ويرجح أنّ تراجانوس هو الذي رحّلها عن تبسة حيث أنشأ مستعمرة كما فعل بالضبط "فاسباسيان" في حيدرة في ظروف مماثلة .

ولم يلبث هادريانوس بعد استقرارها بقليلأن قادهترحاله المتواصل إلى افريقية فتفقّدها . وقد عثر على جانب من الخطاب الذي توجّه به إليها بعد المناورات وقد ضمّنه عبارات امتنانه .

ولم ترسل الكتيبة الثالثة أغسطس فرقا خارج افريقية إلاّ بصورة استثنائية . ويرجّح أنّها استحقّت لقب (Pia Vindesc) ابتداء من سنة 198 لإعانتها للافريقي سبتيموس سواريوس (Septime sévère) على منافسه في الامبراطورية . وعلى العكس فإنّها وقفت موقفا مناهضا لغرديانوس الأول فحلّها غرديانوس الثالث عقابا لها على خذلانها وشتّت عناصرها ولا شكّ أنّه وزّعهم على حاميات الرين والدانوب ذات الأعباء المرهقة (سنة 238) ولم ترجع هذه الكتيبة إلى سالف عهدها إلاّ في حكم فالريانوس (Valérien) بعد ذلك بخمسة عشر عاما (سنة 253) .

ووضعت فرق الاحتلال في أوّل الأمر تحت سلطة البروقنصل الذي كان يحكم باسم مجلس الشيوخ المقاطعة الجديدة لافريقية والبروقنصلية (سنة 27 قبل المسيح) فكان هذا البروقنصل هو الوحيد الذي قاد قوّات جرّارة وهو لا يخضع لسلطة الامبراطور مباشرة . فوضع قاليقولا حدّا لهذا الأمر بسحب القيادة عن البروقنصل وإسنادها إلى قائد مساعد يسمّيه هو مباشرة (سنة 37) وبقي هذا القائد المساعد يأتمر ظاهريا بأوامر البروقنصل ولكنّه كان في الحقيقة يسيطر لا على الجيش فقط بل على جهة نوميديا العسكرية في استقلال تام .

3 – معسكر لمباز

كانت الكتيبة الثالثة : أغسطس في عهد هادريانوس ترسل إلى قرطاج كلّ سنة إحدى سراياها التي كانت تعدّ 600 رجل لحراسة البروقنصل . أمّا بقية الجند فإنّه يبقى في نوميديا . واستقرّ المعسكر المركزي والقيادة العليا للقائد المساعد في لمباز (Lambaesis) والآثار الباقية لهذا المعسكر هي من أهمّ ما تبقّى دالاّ على العالم الروماني . فهي تمكّننا من إحياء معالم مُعَسْكَر في الفترة التي سمح فيها سبتيموس سواريوس لجند الكتائب بأن يجتمعوا في جمعيات عسكرية . وطول هذا المُعَسْكَر 500 م وعرضه 400 م . وله حسب المألوف أربعة أبواب تعزّزها تحصينات في منتهى الطريقين : الطريق الرئيسية (Via principalis) الواصلة بين الأبواب الرئيسية والطريق الخلفية (Decumanus) أو الطريق البريطورية التي تصل الباب البريطوري المواجه للبريطوريوم بالباب الخلفي (Porta Decumana) ولا تمثّل (Praetentura) أي القسم الأمامي الواقع بين الباب البريطوري إلاّ ربع مساحة المعسكر كلّه وكانت بيوت الضبّاط مبنيّة على طول الطّريق الرئيسية بحسب العرض . (Per. Scamna) أمّا الثكنات والفساقي والإصطبلات والمخازن فقد كانت على العكس مجموعة في مستطيلات موازية لضلعي المُعَسْكَر الطويلين في اتّجاه الباب البريطوري (Per. Strigas) وعلى حافتي البريطوريوم توجد الثكنات على نسق واحد . وفي القسم الخلفي من المُعَسْكَر امتدّت حمّامات كبيرة ويعتبر بناؤها في ذلك الوقت عملاً طريفا وتحتلّ ثكنات أخرى شبيهة بثكنات الا Praetentura حاشية المعسكر الأخيرة المتّصلة بالباب الخلفي (Porto Documano) وكانت التحصينات ذات الطنوف المشرفة على داخل المُعَسْكَر المتراوح عددها من أربعة بالنسبة لعرض المُعَسْكَر إلى خمسة بالنسبة لطوله كانت تستعمل قواعد للالآت الحربية ومدارج تفضي إلى مسارب الحراسة.

ورغم أنّ البريطوريوم أعيد بناء قسم منه كما هو الشأن بالنسبة لأسوار المُعَسْكَر بعد زلزال سنة 267 الكبير ورغم أنّ القوم اضطرّوا إلى تغيير وضعه عند إنشاء الهيئات العسكرية فإنّه بقي محتفظا بخطوطه العامّة

وبهيئته عند بنائه سنة 128 . وكان القائد الأعلى مستقرّا هناك ومعه مصالحه . وكان يحتوي أوّلا على مدخل تشقّه الطريق الرئيسية (Via principalis) التي كانت تظهر في مظهر قوس نصر عظيم ذي أربع واجهات وفرجات عديدة، وثانيا على بطحاء معبّدة تنتصب على حافتها ساحة مسقّفة فيها مخادع جانبية تحتوي على النسر والشعارات كما يوجد في هذه البطحاء مكاتب الهيئات العسكرية ونواديها .

4 ـ الجنود المُحْتَرِفُون

أصبحت الخدمة العسكرية منذ تولّي أغسطس طويلة الأمد بالنسبة لجند الكتائب الذين أصبحوا طيلة عشرين سنة لا يعرفون إلاّ حياة المُعَسْكرات وليس لهم من طموح إلاّ نيل رتبة قائد وحدة التي تجعل منهم ضبّاطا صغارا . وأصبح من الضروري في بعض الأحيان تطبيق قواعد قانونية خاصّة على هذه المجموعات الصغيرة التي تكوّن الكتائب إذ ليس من الممكن منع الجنود من التسرّي والإيلاد وكانت هذه الزيجات مخالفة للقانون العام لكن بما أنّها أمر واقع وَجَبَ إكساؤها الصبغة الشرعية مع تحجير السكنى المشتركة . واضطرّ سبتيموس سواريوس في آخر الأمر إلى السماح لجند الكتائب بمساكنة زوجاتهم والقدوم إلى المُعَسْكَر للتموين فقط . وهكذا نمت البلدة المجاورة للمباز وكانت تربط بينهما طريق واسعة معبّدة جمّلها الجنود بالمباني الفخْمة في أوقات راحتهم . وكانت تسوّى حالة أطفالهم بأن تتزوّج الإناث جنودا وأن ينخرط الذكور في سلك الكتائب . وهكذا تكوّن في لمباز جيش ترابي منتدب من افريقية وخاصّة من بين أبناء المُعَسْكَرات (Ex. castris) وكان الضبّاط وحدهم أو على الأقل غالبهم ليسوا من أبناء البلاد .

5 ـ قدماء الجنود

كان جند الكتائب بما فيهم القادمون من بلاد ما وراء البحار لا يفكّرون قطّ في مغادرة البلاد عند إحالتهم على المعاش وبالأحرى الأفارقة . وكان

الكثير منهم يستقرّون في القرى المجاورة للمُعَسْكَر فتصبح شيئا فشيئا مراكز هامّة أحيانا كما هو الأمر في لمباز طبعا وفي مركونة (Vereconda) حيث كان عددهم كبيرا وفي قصور الجمعية والمدر (Casae) وفي باستور (Lamig giggaoui) وفي زانة (Diana veteronorum) حيث كانوا الأغلبية الساحقة . وفي شمال الجزائر عمّر الجنود القدماء ديبري (Oppidum Norum) ومداوروش (Mdaouros) وسطيف (Sitifis) وجميلة (Cuicul) . وبصفة عامّة لم تكن المدن الجديدة ملاصقة للمُعَسْكَر . فقد كانت لمباز تبعد عنه بميل إلاّ أنّ البلدة المدنيّة كانت تستند إلى خنادق المُعَسْكَر (Valum) . ففي سور جواب (قرب مسكرة على بعد 35 كلم من غربي سور الغزلان) (Rapidum) كانت مجموعات من الأكواخ متراصّة على أسوار المُعَسْكَر . وكان سكّانها من بربر وقدماء الجنود ومواطنين رومان يعيشون تحت النظام العسكري مع الاحتفاظ بنظامهم التعاضدي الخاصّ الذي تطوّر إلى مرتبة (Pagi) في النصف الثاني من القرن الثاني .

وكان على قدماء الجنود المستقرّين على الحدود أن يسعفوا عند الحاجة رفقاءهم العاملين تحت لواء الجنديّة . وخطا الامبراطور سواريوس الاسكندر (Sévère Alexandre) إلى أبعد من ذلك في هذا الصّدد فوزّع الأراضي المحتلّة بماشيتها على الجنود الذين كان في إمكانهم أن يُحلّوا محلّهم أبناءهم والذين أقرّهم في مراكز سهول سطيف المحصّنة (Castella) ليمنعوا هجمات البدو.وواصل غرديانوس الثالث هذه السياسة الاستعمارية العسكرية وتوسّع فيها . وتولّى مرة أخرى قدماء الجند الدّفاع عن التخوم الصحراوية جنوب نوميديا بالاشتراك مع جند الكتائب ثم حمّوها وحدهم عندما وقع سحب الحاميات . وهكذا فإنّ الجند الفلاّحين قاموا في تخوم الصحراء ابتداء من القرن الثالث بالدور الذي حدّده هو نوريوس (Honorius) في دستور سنة 409 فيما يخصّ سكّان الحدود (Limitanei) المكلّفين بصيانة "الليمس" وصدّ كلّ هجوم على الخندق الافريقي .

6 ـ أعمـال الـكتيبـــة

لم تقصر الكتيبة عملها على الدّفاع عن البلاد فقط بل ساهمت في تحسينها مساهمة فعّالة وكان ذلك مبدأ من مبادىء القيادة التي لا توصي بتمرين الجندي تمرينا متواصلا فقط بل بتعويده على القيام بشتّى المهمّات الأخرى . فجند الكتائب هم الذين أقاموا المباني المنتشرة في النجد الذي شيّدت فيه لمباز وهم الذين بَنَوْا الطرقات ومدّوا الجسور وأحيوا الأراضي القاحلة . وهم الذين جعلوا في عهد تراجانوس (100) من مركز تيمقاد العسكري الصغير المستعمل في القرن الأول لمراقبة منافذ جبال الاوراس مركزا رومانيا وكانت المباني التي أقاموها بمثابة نواة للمدينة التي خُطّت على شاكلة رقعة الشطرنج والتي امتدّت منتشرة في النجد حالما هدّمت الأسوار وقد ضاقت بها .

7 ـ أسطـول شرشـــال

تضاءلت أهمّية الأسطول الروماني في عهد الامبراطورية واقتصر على مراقبة القراصنة . وهكذا فإنّ مجموعة من السفن الإفريقية متركّبة من طوّافات سريعة مستعارة من أساطيل الإسكندرية والشّام طاردت طوّافات الريف وموريطانيا الطنجية. وقد وضعت هذه المجموعة من السفن تحت قيادة والي موريطانيا القيصرية تدعيما لحماية الساحل الغربي المعرّض وحده للأخطار وكان مقرّها شرشال حيث كان يوجد إلى جانب الميناء التجاري ميناء حربي صغير لكنّه في مأمن من الأخطار ويصلهما برزخ ضيّق .

III ــ تنظيم المقاطعات والبلديات

1 ــ المقاطعات الأربع

لم تتكوّن هذه البلاد المعتمد في حمايتها على الليمس والكتيبة الثالثة أو الجند الإضافي من مقاطعة واحدة بعاصمتها وواليها العام وقد نظّمت رومة هذه البلاد تنظيما واقعيا من دون فكرة قبلية على أساس أربع وحدات إدارية وحسب طرق ثلاث للحكم : افريقية البروقنصلية أو افريقية بأتمّ معنى الكلمة ونوميديا وموريطانيا القيصرية وموريطانيا الطنجية .

وتنقسم البلاد من الوجهة الترابية إلى مناطق Tractus إدارية عامّة "تناسب كلّ منطقة منها دائرة " (شارل سوماني) وتنقسم كلّ منطقة Tractus بدورها إلى جهات (Regiones) .

2 ــ البروقنصلية

بعد أن انتصر "أكتافيوس" على أعدائه ولعب دور المتخلّي عن الحكم في مهارة منحه مجلس الشيوخ والشعب لقب أغسطس وأسند إليه سلطة البروقنصل وحقّ تأسيس الملوكية وحينئذ جعل عند توزيع المقاطعات افريقية من حظّ مجلس الشيوخ سنة 27 وكانت افريقية في ذلك الوقت تنقسم إلى افريقية القديمة وافريقية الجديدة (ولربّما ضمّت إليها مملكة ستيوس ابتداء من سنة 44) وقد اندمجتا فيما بعد في مقاطعة واحدة في تاريخ لم يحدّد بعد .

ومنذ أن اقتطع قاليقولا نوميديا من افريقية انحصرت هذه في طرابلس والبلاد التونسية وجانب من الأرض الجزائرية . وتبتديء الحدود الغربية وهي عسيرة التحديد من عنابة (Hippo Regius) على البحر الأبيض المتوسّط وتنتهي في ملتقى واد شرف وواد بو حمدان ويختلط هذان النهران فيكونان واد سيبوز قرب مجاز الأحمر (على بعد 12 كلم من الجنوب الغربي من (ڤالمة) . وكانت عنونة (Thibilis) الكائنة

غربي واد شرف وعلى بعد 18 كلم من الجنوب الغربي من ڤالمة ضمن نوميديا ولكنّ ڤالمة (Calama) وعين نجمة (على بعد 4 كلم ونصف من الجنوب الغربي من ڤالمة) كانتا تابعتين للبروقنصلية . وإذا تجاوزنا مجاز الأحمر فإنّ الحدود تواكب واد شرف حتى الجنوب الغربي من صدراته (على بعد 53 كلم من الجنوب الغربي من سوق اهراس) أمّا خميسة (Thubursucu Numidarum) وتورة (Thagura) على بعد 21 كلم من الجنوب الشرقي من سوق اهراس) فإنّهما كانتا تابعتين لافريقية . وكانت مداوروش (Madauros) في أوّل الأمر تحت نفوذ قائد نوميديا المساعد ثم ألحقت بالبروقنصلية وهي مستعمرة لقدماء الجند أسّست في نهاية القرن الأول على التخوم الشمالية لبلاد المزالمة وكذلك الأمر بالنسبة لتبسّة (Theveste) التي كانت تحتلّ نفس الموقع في الجنوب ولربّما اقتسمت المقاطعتان أرض هذه القبيلة العظيمة .

وكانت افريقية تضمّ البلدان الأكثر تطوّرا وقد حذقت قبل مجيء رومة بأمد طويل أساليب البونيقيين في التجارة والفلاحة وعجّت بالمدن الحيّة الناشطة التي توفّرت لها أسباب السلم من يوم أن جرّد المزالمة من السلاح وضيّق عليهم الخناق وذلك في أواخر القرن الأوّل . وهكذا فإنّه كان في إمكان أغسطس أن يعهد من دون خشية بمقاطعة على قسط وافر من الاستقرار إلى بروقنصل وهو عضو في مجلس الشيوخ برتبة قنصل خاصّة وأنّ أعوان الامبراطور الذين يتّصلون به مباشرة كانوا يحدّون سنة بعد سنة من نفوذ الوالي .

3 — نوميديا

كانت نوميديا توجد في غرب افريقية وكان أغسطس قد افتكّها من يوبا الثاني بعيد تقسيم المقاطعات ليضمّها إلى البروقنصلية (سنة 25) وخلافا لما جرت به العادة فإنّ البروقنصل كان يتصرّف في فرقة كبيرة من جند الاحتلال فوضع ڤاليڤولا حدّا لهذا الشذوذ بأن عهد إلى مندوب مفوّض Legat بقيادة الكتيبة الثالثة وإدارة تراب نوميديا العسكري (سنة 37)

وليس من شك في أنّ هذا المندوب كان يخضع قانونيا إلى البروقنصل ولكنّ مسؤولية الأمن كانت تدعوه إلى اتّخاذ قرارات هامّة في عين المكان فكان يتصرّف في الأمر بكلّ حريّة وهو القائد العام الذي كانت تخضع له حاميات طرابلس والجنوب التونسي ونوميديا ويسمّيه الامبراطور مباشرة . ولم يتجاوز سبتيموس سواريوس عندما جعل نوميديا مقاطعة مستقلّة أن كسا الأمر الواقع الصبغة القانونيـــة .

وكانت الحدود الغربية لنوميديا تنطلق من مصبّ المساقة (الواد الكبير) وتواكب الضفّة اليمنى لهذا النهر ثم تميل في رفق نحو الجنوب الغربي وتشقّ مجموعة من الأودية في اتّجاه الجنوب بحيث تكون جميلة (Cuicul) في نوميديا وسطيف (Setifis) في موريطانيا القيصرية ثم تمرّ هذه الحدود بسراية (Zraia) فتخترق سهول الهدنة التي يتبع الجنوب الشرقي منها والجنوب نوميديا وتجتاز الظهر الشرقي وأخيرا تنزل نحو الجنوب في اتّجاه الاغواط .

وكانت تعدّ هذه المقاطعة نقطة انطلاق للعمليات العسكرية إلاّ في الشمال حيث تكون سيرتة والمدن الثلاث : القل (Chullu) وسكيكدة (Rusicade) والميلة (Milev) جامعة تحتوي على بلاد واسعة فيها قرى عديدة ومناطق فلاحية (Pagi) متمتّعة باستقلال كبير . وكانت هذه المدن قد سلّمت فيما مضى إلى القائد ستيوس وجنده القدماء.

4 — موريطانيا القيصرية وموريطانيا الطنجية

كانت موريطانيا تحتوي من عهد كلوديوس على مقاطعتين يفصلهما نهر الملوية وهما: موريطانيا القيصرية وموريطانيا الطنجية وكان يحكمهما وكلاء الامبراطور (Procurateur) من مرتبة الفرسان ويرجعان بالنظر إلى الامبراطور مباشرة (سنة 46) .

وكان وكيل الامبراطور في موريطانيا القيصرية إحدى الشخصيات الكبيرة الساهرة على النظام إذ كان لا بدّ من موظّف سام يتمتّع بسلطة واسعة للمحافظة على الأمن في مقاطعة على جانب كبير من الاضطراب

ولذلك وضع تحت تصرّفه قوّات كبيرة من الجند الإضافي فكان لا يحدّ من نفوذه أحد إلاّ إرادة الامبراطور . فهو الذي يوظّف الضرائب ويشرف على الأشغال العامّة ويحكم بين النّاس ويراقب البلديات ويدير شؤون الأهالي وكان يقيم بقيصارية (شرشال) (Caesarea) التي أصبحت مدينة الموظّفين والجند والتجّار بعد أن كانت مستعمرة من عهد كلوديوس فازدهرت بمزيد السرعة .

واسم موريطانيا الطنجية نفسه هو الذي جرّ القوم بالطبع إلى جعل طنجة (Tingi) عاصمة المقاطعة غير أنّه يظهر كما بيّنه ج. كركوبينو أن وَليلي (Volubilis) كانت مقرّ إقامة وكيل الامبراطور الاعتيادية . وكان الجند الإضافي المجعول تحت تصرّف هذا الحاكم لحماية المقاطعة أقلّ من جند والي المقاطعة القيصرية وكان عليه أن يستنجد بجيوش المقاطعات الأخرى إذا داهمه الخطر .

أمّا بالنسبة لمناطق الحدود فلم تكن رومة لتهمل شأن القبائل البربرية التي شكّلت كم من مرّة خطرا داهما عليها . لذا فقد كانت تزكّي قوّاد البربر بخلع المعْطَف عليهم وتكسب ولاءهم بمنحهم جِرَايات قارّة .

وبقي نظام المقاطعات المنبثق عن ظروف الاحتلال معمولا به في بلاد البربر إلى عهد دقليانوس (Dioclètien).

5 — البلديات وأنواعها المختلفة

كانت بلديات المقاطعات الأربع ذات أصناف شتى وكان يخضع سُكّانها إلى أنظمة متنوّعة فتأتي المستعمرات الرومانية (Coloniae) في المرتبة الأولى وكان أسّسها المواطنون الرومان أو نالت هذه التسمية بقرار امبراطوري من دون أن يسكنها معمّرون وكان أهلها يتمتّعون بنفس الحقوق تقريبا كما لو كانوا يسكنون رومة بالذات ، أمّا البلديات الرومانية (Municipia) فقد كانت مدنا تتشبّه بالمدينة الأمّ مقلّدة لأنظمتها . فكان لها مجلس بلدي (Ordo-Decurionum) يقوم مقام مجلس

الشيوخ وحاكمان بلديان يقومان مقام القناصل (Duumvirs ou Duumviri ou Duoviri) ينتخبان لمدّة عام ويجلسان على كرسيّ من العاج ويلبسان حلّة بيضاء ذات حاشية من أرجوان يخفرهما جنديان يحملان حزمة من الأعواد بدون فأس . وكان يسهر على الخزينة البلدية وكيلان ماليان وكان عضوان بلديان يسهران على الطرقات والأسواق وتوزيع الحنطة والألعاب ويمكن إلحاقهما بالحاكمين البلديين صاحبي السلطة الحقيقية وبهذه الصورة ينقص نفوذهما . وكان السكّان يعتبرون جميعهم مواطنين رومانيين ، لكن كانت تُوَظّفُ على أملاكهم العقارية ضرائب لا توظّف على أهل المستعمرات.

وكانت رومة تطبّق بالنسبة لسكّان البلديات اللاطينية قانونا وسطا بين ما يجري على المواطنين وبين ما يجري على الأجانب وقد فرضته سنة 338 قبل المسيح على أعضاء الجامعة اللاطينية التي قرّرت حلّها . غير أنّها منحت اللاطينيين الذين سبق أن باشروا خطّة حاكم إلى جانب خطّة أخرى حقّ المواطنة كاملا ثم حصرت ذلك ابتداء من عهد هادريانوس في شيخ الجماعة (Decurion) وبما أنّ لقب المواطن الروماني وراثيّ فإنّ عدد اللاطينيين أخذ في النقصان ضمن البلديّة فتغيّرت بذلك خصائصها .

وكانت البلديات الأجنبية آهلة بالأجانب وهم رعايا يكاد يكون غالبهم بربرا بدوا كانوا أو حضرا . ولم يخضعوا كلّهم لنظام واحد . فكانت رومة تقتصر تارة على تزكية قواد البربر الوراثيين بخلع الحلّة الحمراء عليهم وتسليمهم عصا العاج وتعيينهم ولاة أو أمراء (Praefecti, principer) وربّما اتّخذوا في بعض الأحيان لأنفسهم لقب الملك (reguli) وتحتفظ طورا ببعض النظم القرطاجية وعلى الأقل بلقب الشافط* وطورا آخر تُكَوّن مجلسا أهليا يكون نواة لمجلس بلدي لاطيني أو روماني .

6 — منزلة الأفراد وتنوّعها

كانت منزلة الأفراد متنوّعة تنوّع البلديات . فأصحاب الأراضي هم وحدهم المعترف لهم بحقوقهم في المدينة سواء كانوا من قدماء الجند أو

* هي كلمة معربة عن البونيقية « شفط » (suffète) وفي معناها القاضي

من النازحين أو من البربر . أمّا التجّار الصغار والصنّاع والعمّال فإنّهم كانوا يعتبرون أجانب مستوطنين (incolae) . وكان المزارعون المنتشرون في الأرياف أحطّ درجة من الأجانب المستوطنين (incolae intramuri) فالنظام الذي كان يخضع له الفرد لا يرتبط بنظام البلدية التي كان يقطن بها إلاّ مبدئيا . وكان يمكن للامبراطور أن يرفع من شأن الأجنبي أو الحاكم. وهكذا فقد كان للحكومة وسيلة للتشجيع شبيهة بالأوسمة في وقتنا هذا وبواسطتها تعرف كيف تُذْكِي المنافسة وتجلب الأنصار . وكانت بإغداقها وتعميمها للترقيات الفردية التي كانت تجرّ النفع لكافّة أعضاء العائلات المعنيّة بالأمر تقويّ جيلا بعد جيل الرصيد البربري ممّا كان من أثره أن جدّد طبقة الموظّفين التي تحتاج إليها لتنمية التأثير الروماني في المغرب.

ولم تدع الامبراطورية فقط إدارة الأهالي مباشرة فلقد تركت للأنظمة البلدية التي بقيت إطاراتها بربرية كلّها مجالاً واسعا لروح المبادرة حتى في الميدان المالي والقانوني "فكان لكلّ مدينة كيانها الذّاتي بإشراف حكّام منتخبين . وكان الأباطرة يضيّقون على جميع مظاهر الحياة العامّة في رومة بينما هم يشجّعونها في المقاطعات التي كان هذا النشاط من شأنه أن يعجّل بإدماجها في الحضيرة الرومانية" . فتكوّنت في المدن طبقة بورجوازية تسوارثت شؤون الحكم وتضامنت مصالحها مع مصالح الرومان ممّا ضمن ولاءها لرومة . وما القانون الذي سنّه زعماء سلّا " Sala " لفائدة سولبيسيوس فيليكس (M. Sulpicius Félix) في عهد انطونان الورع (سنة 144) إلاّ دليل على مدى حذْق الموظّفين الرومان في بعث محكوميهم على الولاء دون أن يجلب نجاحهم اعتراف أصحاب السلطة لهم بذلك . وكثيرا ما كانت تنتخب من بين بورجوازية البلديات رجالاتها المرموقين . فكانت عنون (Thibilis) موطن عظيمين من عائلة آنتستي (Antisti) قام أحدهما بدور عظيم في عهد مرقس أوريليوس ولا شك أنّ الثاني صاهر الامبراطور.وفي نفس الفترة تقلّد أحد سكّان الكاف (Sicca veneria) مهامّ وزارة المال (procurator arationibus) وقد توّجت حياة شخصين من عائلة آتيي (Attié) أحدهما من هنشير قصبات (Thuburbo Maius) والآخر

من هنشير الداموس (Uchi Maius) بأن عيّنا واليين يجمعان بين إمارة جيوش ايطاليا ورئاسة مجلس التعقيب . وأول افريقي فاز برتبة قنصل على ما نعلم هو كليمانس (Q. Aurelius Pactumlis Clemens) معاصر فسباسيان أصيل سيرتة. وأخيرا فإنّ سبتيموس سواريوس الإفريقي المنحدر من لبدة قد اعتلى سنة 193 عرش الامبراطورية . والذي من شأنه أن يحمل على الاعتقاد في انسجام الغالب مع المغلوب ووجود مراقبة المحكوم للحاكم هو ما كان عليه نظام عبادة الامبراطور، وكذلك اجتماعات نواب المدن الدورية في مجالس يبسطون فيها رغائبهم في مهارة .

وفي الواقع فإنّ رومة قد اعتمدت على ارستقراطية البلديات لتوطيد استعمارها لبلاد البربر من دون أن تكترث بالجماهير البربريّة .

IV ـ النمــو الاقتصــادى والاستعمــار

1 ـ بلاد البربر مستعمرة للاستغــلال

كانت بلاد البربر بالنسبة لرومة مستعمرة للاستغلال لا للعمران فلم يكن الباعث على التوسّع الايطالي في عهد الامبراطورية كما هو الشأن في أيامنا هذه الضرورة الديموغرافية فقدكانت ايطاليا في آواخر العهد الجمهورى تعدّ ما يقرب من 14 مليونا من السكّان من بينهم أربعة ملايين من العبيد وتضاءلت الهجرة بسبب تناقص العمران الذي حاول أغسطس الحدّ منه بدون جدوى،وتوافد الفلاّحين على المدينة التي كانت تستهويهم . وهكذا فإنّ عدد الأجانب في بلاد المغرب لم يكن عظيما . فإذا استثنينا الموظّفين السامين والملاّكين الكبار المقيمين على غير عاداتهم بأراضيهم وتجّار الموانى أو المراكز الكبيرة وسلالة قدماء الجند فإنّ بقية السكّان تكاد تكون محصورة في البربر . فإذا تحدّثنا عن الاستعمار الروماني يجب أن يفهم من ذلك أنّ رومة قامت بتهدئة بلاد البربر وتنظيمها ولكنّ الأهالي هم الذين نهضوا بالعمل الحقيقي.لقد أصبح ازدهار بلاد المغرب في عهود الامبراطورية الأولى مضربا للأمثال ولا تزال عبارة "مطمورة رومة" إحدى العبارات المبتذلة السهلة يستنجد بها الخطباء الرسميون والدّعائيون . والحقيقة أنّ البلدان التي استعمرها الرومان لم تكن خصبة كلّ الخصب فقلّة الأراضي الطيّبة ووجود طبقة من الكلس المستعصية على المحراث والجفاف كلّها عوامل حالت بالأمس كما تحول اليوم دون وفرة الإنتاج إلاّ نادرا . غير أنّ اتّساع الريّ الفلاحي إلى جهة الليمس أتاح ولا شك استغلال أراض هي اليوم قاحلة . ولكنّ الأرض ظلّت مصدر الثروة الوحيدة في هذه المقاطعات المحرومة من كلّ نشاط صناعي .

2 ـ الزراعة في القرن الأول . القمح

إنّ الرومان لم يلقّنوا البربر أساليب الفلاحة التى نمت على عهد

قرطاج والملوك النوميديين . ففي طرابلس وتونس كان القوم قبل مجيء الرومان يغرسون الزياتين والكروم ويزرعون القمح والشعير وكانوا في بقية البلاد يقتصرون على ممارسة زراعة الحبوب، وساعد على ازدهار الزراعة الأباطرة بتوطيدهم الأمن وتعديد وسائل الإنتاج وإحياء أراضي الانتجاع وتنظيم الأسواق . وهكذا ظهرت افريقية في مظهر الضيعة المستغلّة استغلالا حكيما شاملا .

وفرضت الحكومة أثناء القرن الأوّل زراعة القمح الصلب لأغراض سياسية بالخصوص إذ كان مائتا ألف من المواطنين الرومان يستهلكون منذ عهد أغسطس مليون مدّ مجّانا كلّ شهر ، وهو قدر كانت ايطاليا عاجزة عن إنتاجه لتناقص عمرانها وطغيان المستنقعات والأرض الموات عليها وكانت تحدث المجاعات والاضطرابات في كامل أنحاء الامبراطورية بسبب فقدان القمح وهو ما لم يكن ممكنا تعويضه بوفرة إنتاج الخمر والزيت وقد حاولت رومة تلافي أزمة القمح فقرّرت توسيع رقعة مزارع الحبوب على حساب مناطق الكروم والزياتين وذهب دوميتيانوس (Domitien) حتى إلى محاولة منع غراسة الكرم ونفّذت الإجراءات التي اتّخذها لهذا الغرض في افريقية خاصّة التي رجعت إلى ممارسة نوع واحد من الزراعة وقد نجحت هذه التجربة،وساعد على ذلك وجود أراض بكر غنية بالفسفاط كان إنتاجها مرضيا في الدخلة وفي غربي سوسة وفي ضواحي سوق أهراس وقالمة وقسنطينة وفي مرتفعات سطيف وسهول مجانة ونجاد تيارات وسرسو وسهول سيدى بلعبّاس. وتحدّث بلين عن البذور التي تنتج 150 مقابل واحد وكيف أنّ الحبّة الواحدة تنبت 400 قصبة وليس إنتاج 100 أو أكثر مقابل واحد "من غرائب علم النبات" على حدّ قول ج. ديبوا . إلاّ أنّ مثل هذه النتائج خارقة للعادة ولا تأتي إلاّ في بعض السنوات المواتية جدّا وفي مناطق محدودة .

ورقم 10 مقابل واحد الذى ذكره القدّيس أغسطينوس بالنسبة لبلاد جدالة يعبّر عن واقع مألوف . أمّا ما يؤكّده استرابن من أنّ بلاد البربر تنتج مرتين في السنة فلا يثبت قط عند البحث لأنّ زراعة القمح بافريقية تعاقبت عليها نفس الأطوار التي مرّت عليها بفرنسا ولأنّ القوم كانوا

يجهلون حينذاك أنواع القمح التي تنمو بسرعة وسرّ نجاح القمح الافريقي في صلابته وجودته بالخصوص . وكان القوم على حدّ قول بلين يستعملون المحراث البدائي "يسندون إليه من جهة حمارا حرونا ومن الجهة الأخرى امرأة" وكانوا يحرثون في موسم الأمطار وبعد البذر لا يعزقون الأرض ولا يستأصلون منها الكلأ فلا يعودون إليها إلاّ ليحصدوا بواسطة المنجل،وكانت الحيوانات تدوس السنابل،ويحفظون الحبوب في المخازن وكانوا يزرعون الأرض سنة ويتركونها بُورا في السنة الموالية كما هو الشأن اليوم . وكان البربر يزرعون الشعير للاستهلاك الخاص حتى في الوقت الذي انصرفت فيه افريقية إلى زراعة القمح .

وإلى جانب القمح كان القوم يحصدون العلس والبيقة . وكان يوجد أشجار مثمرة كشجر التين والرّمّان واللوز والإجّاص والسفرجل والليمون والجوز،ونباتات غذائية كالحمّص والسلجم والفول والخرشوف والبطّيخ والهليون البرّي ، والثوم والبصل والكمء الافريقي والكمّون،وكانت تزرع الخضر خاصّة في ضواحي قرطاج . وكان أغنياء الرومان يتذوّقون الغلال الغريبة عنهم،من ذلك أنّ التين الافريقي كان موجودا على مائدة تريمليسون (Trimalsion) الحديث النعمة .. في المأدُبة التي وصفها "بيترون" (Pétrone) .

وكانوا يربّون كما هو الشأن اليوم الخيل البربرية وهي ثقيلة المظهر ولكنّها سلسة القيادة سبّاقة صبورة،ويربّون البغال المستحسنة من نتاج الحمار المغربي والفرس البربرية،وكذلك بقرا صغيرا من الجنس المعروف بجنس ڤالمة،والضأن ذا الألية أو الذنب الرقيق،والأحمرة الموريطانية القنوعة الخفيفة،والخنازير التي توجد لحومها ضمن طعام الجندي الروماني ويربّون أيضا الدّجاج والإوز والبطّ والحمام والغرغر والحجل الداجن بلاشك والنّحل . وكانت افريقية مستودعا للوحوش الضارية وخاصة الأسود والفهود والدّببة . تتزوّد منه الملاهي وقد قتل في عهد أغسطس 3 500 وحش في المسارح في مدّة قدرها 26 يوما بمناسبة الأفراح والأعياد ولذا شاعت تسميتها "بالحيوانات الليبية" أو "الحيوانات الإفريقية" أو بعبارة أوجز "الافريقية" وكانوا يصطادون الفيلة حتى أبادوها وذلك لسدّ حاجات الملاهي

ولتهيئة طعام الشرهين الذين كانوا يستسيغون - كما ذكر ذلك بلين - غضاريف الخرطوم وخاصّة من أجل العاج (Dentius causa) .

3 - التجارة والصناعة في القرن الأول

لم تكن افريقية تصدر إلاّ الموادّ الأولية الثمينة كخشب السندروس الأصهب العسلِيَ ذي النواتىء الملتفّة الجميلة الصالحة لصنع الموائد الممتازة وكالحجارة الكريمة والعقاقير . وكان الرومان لا يستغلّون مقاطع كرّار (Carrare) إلاّ قليلا فكانوا يجلبون المرمر بأثمان باهضة من نوميديا (مقاطع فلفله على بعد 23 كلم من شرقي سكيكدة) أو من مقاطع شمتو (Simitthu) وأبوا أن ينتفعوا في افريقية من مخابىء المعادن التي كانت عديدة ولكنّها فقيرة لأنّه كان في إمكانهم أن يتزوّدوا من بلدان أخرى في أوروبا نفسها، وإن استعملت المناجم في المغرب فإنّما كان ذلك للاستهلاك المحلّي . ويظهر أنّ هذه المناجم تزايدت قيمتها عند تدهور الصناعة الاوربية في القرون الوسطى وانقطاع العلاقات بين النصارى والمسلمين.

4 - الفلاحة ابتداء من القرن الثاني - الزياتين

تبدّل الوضع الاقتصادي في بلاد البربر عندما أفسحت الامبراطورية في القرن الثاني المجال لتطوّر المقاطعات تطوّرا حرّا ، فلقد انتشرت بسرعة غراسة الزياتين والكروم إلى جانب زراعة القمح ولاشك أنّ أسرة القياصرة الانطونيين لم تشجّع كثيرا زراعة الكروم فقانون تراجانوس لم يسمح إلاّ بتعويض الكروم العتيقة ونصّ قانون آخر في عهد هادريانوس على تمكين زارعي الزياتين والأشجار المثمرة من امتيازات لم تشمل أصحاب الكروم . ورغم ذلك فإنّ إنتاج الخمور تزايد مثل إنتاج الزيوت

وكان الأباطرة يشجّعون انتشار الزياتين في دلماسيا واسبانيا وخاصّة افريقية حتى عندما كانوا يَخْشَوْنَ انتشار الكروم . فقد نجحت غراسة الأشجار في طرابلس والبلاد التونسية وأودية القبائل ووادي شلف وجهات السباسب المتاخمة للصحراء . وعندما شاهد بول بورد أطلال المعاصر

القديمة فكّر في إحياء غابات الزيتون في البلاد التونسية، ولا يذهب بك الظنّ إلى أنّ زيت افريقية كان مستطابا عند الأكل، لقد كانوا يقصرون استعماله على شؤون التجميل والإنارة بل أنْصِتْ إلى جوفينال (Juvénal) يقول مقابلا تذوّق السيّد عند استهلاكه زيت سمنيوم (Samnium) الجيّد بذلّة العامي الذي يضطرّ إلى استهلاك زيت بلاد البربر : "أيّها المسكين هذا الكرنب الباهت اللون المقدّم إليك يقطر زيت استصباح. ذلك أنّ الزيت الذي يوضع في صحونكم من صنف الزيوت التي جلبها أحفاد مسبسا في مراكب من قصب من ذوات الجؤجؤ الحادّ. وبما أنّ بوكار (Boccar) يستعمل هذا الزيت فلا أحد في رومة يرضى بالاستحمام معه، وهذا الزيت يدفع حتى سموم الثعابين السُّود" (نقل أ. ارنو (E. Ernout) وظلّت غابات الزيتون مزدهرة حتى الفتح العربي ويقال : إنّ سكّان جنوب افريقية قدّموا إلى عربي نواة زيتونة على أنّه رمز الثروة .

5 ــ تربية الحيوان

تمادى القوم في زراعة الحبوب فكانوا يزرعون القمح في نجاد سطيف وموريطانيا، وكانوا يزرعون الشعير علفا للخيل التي سجّلت أساليب تربيتها ابتداء من القرن الثاني تقدّما محسوسا خاصّة في اصطبلات الملاّكين الكبار. قال الشاعر القرطاجي "نميزيان" (Némisien) : "اخْتَرْ حصانا أصلُهُ من أرض موريطانيا ، ولْيَكُنْ جوادا أصيلا تربّى في السهول الخالية وتعوّد الصبر على تحمّل المشاقّ . إنّ رأسه قبيح المنظر وبطنه غريب الشكل ، لا يعرف كَبْحا لجِمَاحِهِ يضرب بناصيته كتفيه فلا تخش من ذلك شيئا إذ هو سلس القياد : إن مسّت العصا الليّنة رقبته الحسّاسة امْتَثَلَ . فضربة واحدة تجعله يركض ركضا وأخرى توقفه . إنّه ينطلق مخترقا فسحة السهول الواسعة المتفتّحة أمامه . فتزداد قواه في انطلاقته الخاطفة ويغلي دمُه في عروقه . ولا يلبث حتى يترك وراءه منافسيه في حسدهم . إنّه لا يثق بنفسه لقطعه المسافات الطويلة إلاّ بمرّ السنين غير أنّ طفرة الشباب تبقى ملازمة له إلى سنّ متقدّمة ولا يفقد نشاطه إلاّ عندما يأبى جسمه البالي مطاوعته" (نقل ستيفان قزال St. Gsell) وورد في نقش قديم ذكر

مآثر فارس موري انتصر مرّات عديدة في رومة كما تشيد فسيفساء بالمجد الذي ناله سائق عربة ايروس (Eros) وجياده الأربعة . وإلى جانب الخيل كانت الماشية بأنواعها كثيرة في نوميديا. وقد انتشرت تربية الجمل في افريقية بفضل أسرة "سواريوس" (Les Sévères) .

6 — التجارة في القرن الثاني والثالث

بالرغم من أنّ استغلال افريقية أصبح ابتداء من القرن الثاني أحكم تنظيما فإنّ توازنها التجاري لم يطرأ عليه أيّ تغيير ، "أ. البرتني" (Albertini) فقد بقيت بلادا تصدر الموادّ الأوّليّة خاصّة الصوف والخشب والقمح والزيت . وأقصى ما كانت تصنعه الجرّارُ التي كانت توضع فيها هذه المواد لنقلها والتي توجد في العالم الروماني بأكمله . ومن الراجح أيضا أنّ التجارة عبر الصحراء كان لها بعض الشأن منذ ذلك العهد، ويشهد بذلك على الأقل ضريح "تين حينان" في الحجار إذ يكشف عن متاع أصله روماني يرجع إلى القرنين الثالث والرابع ممّا يكفي دلالة على توغّل النفوذ الروماني في الجنوب .

أمّا التجارة في داخل البلاد فنحن لا نعرف عنها كثيرا من سوء الحظّ غير أنّ نقشا اكتشف في سراية (Zaraï) بتاريخ 202 (C I L ,VIII 4 508) يثبت لنا الموادّ التي كانت تخضع لضريبة المرور (Portorium) وبذلك يلقي أضواء على المبادلات التي كانت تقع في الأسواق المحلّية وكانت تشمل الرقيق والماشية والثياب والجلود والاسفنج والخمر والأسماك المصبّرة (Garum) والثمار كالتمر والتين الخ .

7 — أشغال الرّي

من الصعب تقدير أهمّية الأشغال التي قامت بها رومة في افريقية . إذ أنّ القرطاجيين والبربر أنفسهم لم يهملوا أمرها من دون شك . غير أنّ رومة كان لها الفضل في العناية بما وجدته والإمعان في مضاعفته فبنت خاصّة الحنايا لتزويد المدن بالماء والصهاريج لتزويد الضيعات .

وحفرت مئات الآبار خاصّة في شمال الاوراس وفجّرت الآبار الارتوازية في الواحات . وتشهد الصور الجوّية بأنّ رومة عرفت كيف تقاوم آفات الانجراف وكيف ترسم سياسة للري .

وكان الرومان يُنْشِئُون مراكز الاستعمار قرب العيون التي كانوا يعتنون بها اعتناء خاصّا . وكان لِلَمْبَازَ معبد لآلهة المياه (Nymphée) عَفَتْ آثاره، أمّا مستودع المياه في تيبازة الذى كانت تنتهي إليه الحنايا فإنّه بني على شكل نصف دائرة طولها 24 م . وكانت العين عند انبعاثها من مركز المياه تمرّ أحيانا تحت قوس نصر كما هو الشأن في حمام الدرّاجي (Bulla Regia) وهنشير سيدى خليفة بالنفيضة (Pheradi Maius) .

ولم تكن العيون المحلّية ولا الآبار الواسعة كافية لتزويد المراكز المتضخّمة يوما بعد يوم . فكان من اللاّزم جلب المياه من الأماكن المجاورة وحتى من الرّبى البعيدة، وممّا يزيد المسألة إشكالا أنّ المهندسين الرومان لم يستعملوا التعقيف إلاّ بالنسبة لأنابيب الرصاص الصغيرة وكانوا مضطرّين إلى جعل القنوات في انحدار مستمر . فوجب عليهم إذن الإكثار من الأشغال الفنّية لشقّ الجبال واجتياز الأودية .

وكان الرومان يحذقون بناء السدود حِذْقا كبيرا . فالسدّ الذي يعبُر واد درب ويشقّ القصرين (Cillium) (بين سبيطلة وتلابت) يكون قد مرّ في شكل خطّ مُنْحَنٍ اتّجه انحناؤه نحو مصبّ النهر وكان ارتفاعه عشرة أمتار وطوله يتراوح بين المائة والمائة والخمسين مترا، ويوجد في أعلاه طريق عرضها أربعة أمتار وتسعون وفي أسفله لا توجد إلاّ فرجة عرضها متران تمرّ منها المياه . وهكذا تتجمّع كمّيّة كبيرة من المياه في حوض ترسب فيه أوساخها قبل أن تصرف في الحنايا .

وكانت أهمّ الحنايا تلك التي كانت تزوّد قرطاج وكانت تتزوّد من عين كائنة بسفح جبل زغوان على بعد 132 كلم من العاصمة (Mons Zeugitanus) ، ووراء الحوض البيضي الشكل كان ينتصب معبد لآلهة المياه في شكل نصف دائرة عرضه 30 مترا مشيّد على قاعدة منبسطة مستند إلى سور من كلس، وتمرّ هذه الحنايا بأرض وَعْرة عبر مسافة

قدرها 90 كلم وكان يمكن لقناتها المبنيّة من الحصى الهشّ والمغطّاة بقبو فيه كُوى صالحة لتجديد الهواء والتنظيف أن تدرّ 400 ليترة في اللحظة و 32 مليونا من الليترات في اليوم . وتنتهي القناة إلى حوض كبير في حي مابالا بقرطاج يزوّد بدوره الأحواض العمومية والحنفيات والحمّامات. وفي بعض المدن مثل الجم (Thysdrus) كان الماء يوزّع على المنازل.

وأعظم الحنايا في البلاد الجزائرية هي حنايا شرشال وطولها 40 كلم تخترق واديا عن طريق جسر فسيح ذي ثلاثة عقود متراصفة يبلغ ارتفاعها جميعا 35 مترا . وكان قسمها الأعلى من حصى هشّ وأقواسها من الآجر وقاعدتها من حجر غير منحوت. وكانت تتدفّق مياهها من أعلى المدينة بمعية قنوات أخرى ثانوية في حوض كبير بيضي الشكل طوله عشرون مترا وعرضه 15 مترا ومنه تبدأ دهاليز توصل المياه إلى معبد عرائس الأنهار .

وبصفة عامّة لم تكن العيون تزوّد المدن بما يكفيها ولذا كانوا يجمعون بكلّ عناية ماء المطر إمّا في بالوعات يصل بواسطتها إلى صهاريج عمومية أو في قنوات صغيرة تنتهي به إلى صهاريج منزلية . وكانت الصهاريج العامّة والخاصة سقوفها معقودة محفورة في الأرض . وكانت صهاريج عنابة البلدية (Hippone) تسع 12.000 متر مكعّب وصهاريج سيرتة 30 000 متر مكعّب . أمّا في الجهات القاحلة فقد كانوا يجتهدون في استعمال الأراضي الكثيمة الواقعة حول المدن . ففي الجم (Thysdrus) وفي معظم مدن المزاق (Byzacène) كان الماء الذي يتسرّب إلى الطبقات الطفليّة يغذّي آبار المدينة بعد أن تُصَفّيه الرّمال .

8 — الـرّي

لقد اعتنى الرومان بالخصوص بتنظيم الرّي في ضواحي المدن . فكانوا يجلبون المياه التي تتجمّع في الوهاد إلى أحواض مبنيّة بالجصّ حافاتها منبسطة، ومنها يوجّهونها عن طريق مصبّ أحكمت عليه الأبواب إلى أقرب واد أو خزّان للمياه، وتلافيا لسيلان المياه على المنحدرات الوعرة استنبطوا مدارج تحدّ من اندفاع الماء وتمسك الأرض الطيّبة فتتكوّن في آخر

الأمر سطوح صالحة للزراعة ولا تزال آثارها باقية إلى اليوم في الجبال المحيطة بسهول زغوان والنفيضة بالبلاد التونسية . وقد أمكن توضيح ما كان يبدو متشعبا من أمرها في نوميديا الجنوبية بفضل الصور الجوّية (ج باراديز (Baradez) .

وكانوا يراقبون بكلّ عناية المياه التجارية وينتفعون بها كما كانوا يجمعون حتى أصغر الجداول المنسابة وراء السدود المقامة في الأودية . وكان النهر في الوادي الرئيسي وقد حدّ من اندفاعه بواسطة القنوات والخزّانات وبدّل مجراه في حواجز وسدود صغيرة لا يكتسح السهول بفيضاناته ويحتفظ في خزّاناته بالمياه المتجمّعة في فصل الأمطار وتنصب المياه عند ما تفتح الأبواب في وقت الجفاف ويوجد حول النهر أيضا جهاز كامل من قنوات الرّي والسواقي والمجاري كان يسمح بتوزيع المياه على الملاّكين حسب قواعد قارّة منقوشة على صفائح من الحجر موضوعة في الساحة العمومية . وقد اكتشف في لامسبة (Lamasba) قرب "باتنة" نقش شهير يحدّد شروط توزيع المياه على الحدائق والبساتين القريبة من المدينة ويضبط أقساط جميع الملاّكين . واجتنابا لركود المياه الباقية وضع جهاز آخر معاكس للأول يسمح بجمع كلّ المياه غير الصالحة في قناة تنصبّ بواسطتها في النهر . ونعرف من خلال ما جاء في مؤلّفات "بليـن" أنّه كان يوجد بقابس (Tacapae) نظام للري مماثل .

وقد وصف "بروكوب" في العهد البيزنطي سير نوع من (نقابة الرّي) إذ يقول : « ينحدر نهر الابيغاس (Abigas) من جبال الاوراس وعند وصوله إلى السهول يسقي الأرض كما يشتهون إذ هم يحوّلون مجراه على النحو الذي يعتقدون أنّه الأجدى : فقد حفروا عددا كبيرا من القنوات مرّت منها مياه الابيغاس . إنّها تجري تحت الأرض ثم تظهر من جديد فتتجمّع . وبذلك يكون هذا النهر في متناول سكّان معظم السهول فكانوا يسدّون القنوات بحواجز ويفتحونها بعد ذلك بحيث ينتفعون بالمياه كما شاؤوا. » (نقل ستيفان قزال) .

لم تكن الدولة قائمة مباشرة بهذه الأشغال ذات المصلحة بل كانت تترك أمرها إلى البلديات أو الجمعيات الخاصّة . وكانت الكتيبة تضع

أحيانا مهندسيها تحت تصرّف هذه المؤسّسات ولقد حفر أحدهم قناة تحت الأرض جلبت المياه إلى بجاية (Saldae) .

9 — الطرقات

لقد كان انتشار شبكة الطرقات التي لا تزال بعض أجزائها موجودة إلى اليوم أحد عوامل التّطوّر الاقتصادي لافريقية في العهد الروماني . فقد عبّد الجند طرقات كثيرة وخاصّة الطريق الواصلة بين حيدرة وقابس (سنة 14 مسيحي) والطريق الرابطة بين تبسّة وعنابة (في عهد الفلافيين) وبين تبسّة وتيمقاد(في عهد تراجانوس)وبين لمباز وجمالة(في عهد تراجانوس)وبين قرطاج وتبسّة ولمباز(في عهد هادريانوس)وبين سطيف وسور الغزلان ومراكز واد شلف(وقد شرع فيها في عهد هادريانوس)وكذلك الطريق الرابطة بين (سانت ايمي) Tasaccora و(سان دني) Cadum Castra وعين تمشانت وقد عبّدت حالما تمّ فتح موريطانيا (سنة 46) وبين كوهوربروكوروم (قرب تغرامات)ولله مغنية(في عهد سبتيموس سواريوس)وبين طنجة وسلا وبين طنجة ووليلي وبين عقبة العربي (على بعد 23 كلم من مكناس)وربما النواصر (على بعد 50 كلم في جنوب فاس) وكانت شبكة الطرقات كثيفة جدّا في البروقنصلية وكانت قرطاج محورها الرئيسي . فمنها تتفرّع طريقان نحو عنابة (Hippo Régius) فتحاذي الأولى ساحل البحر مارّة من بنزرت وطبرقة والقالة وتشقّ الثانية ضفّة واد مجردة الشمالية عبر طبربة وحمام الدراجي وشمتو وكانت الطريق الرابطة بين قرطاج وتبسّة البالغ طولها 275 كلم أعظم الطرقات وأشملها بالعناية وكانت تمرّ بمجاز الباب وتستور وعين تونقة وتبرسق والكريب ومديانة وحيدرة. وتتّجه طريق ساحليّة أخرى نحو الجنوب إلى لبدة عبر سوق الأبيض وسوسة وطرابلس وقد تجاوز طولها 800 كلم . وكانت طريق أخرى تنتهي إلى قابس بعد أن تمرّ بجنوب الشطوط .

وكانت الطرقات الكبرى مكوّنة من طبقات كثيرة متراكمة ،فالطريق الرّابطة بين قرطاج وتبسّة كانت تشتمل على أربع طبقات: الأولى من الصفا الكبيرة والثانية من الملاط والثالثة من الحصى وتشتمل الرابعة على حجارة

متفاوتة الحجم يتكوّن منها ظاهر الطريق . ولا توضع الصفائح إلاّ بالقرب من المدن . وكانت طريق الأوراس الشمالي تتركّب من طبقات خمس: فالأولى طبقة الرمل الغليظ. والثانية طبقة الحجارة الصلبة الملتحمة بواسطة الملاط. والثالثة طبقة الحصى. والرابعة طبقة الاسمنت المخلوط بالرمل الغليظ والحصباء وهي محور الطريق، وأخيرا طبقة اسمنت طبيعي ممزوج بحجارة صلبة .

والعرض الأدنى لهذه الطرقات كان ولا شكّ مترين و 37 سنتيمترا وكان عرض الطريق الرابطة بين قرطاج وتبسّة يتراوح بين ستّة أمتار و 75 سنتيمترا وسبعة أمتار . أمّا الطريق الرابطة بين قسنطينة وسكيكدة فقد بلغ عرضها سبعة أمتار وعشرين سنتيمترا .

وكانوا كثيرا ما يلجؤون إلى القيام بأشغال فنيّة كبرى لاجتياز الوهاد وقد اكتشف في الطّريق الواصلة بين قرطاج وتبسّة جدار ارتكاز مبنيّ من حجارة غير منحوتة تغطّي كتلة كبيرة من الحصى الهشّ يبلغ طوله 37 مترا وعلوه ستة أمتار . وكانت الجسور كثيرة فجسر القنطرة يبلغ ارتفاعه عشرة أمتار وله قبو ذو ثلاثة عقود وقد نقشت فيه ورود ورأس حصان وكان جسر باجة يبلغ طوله سبعين مترا وعرضه سبعة أمتار وثلاثين سنتيمترا . وكان يجتاز واد مجردة وله ثلاث حنايا ولا يبلغ جسر شمتو الملقى على نفس النّهر إلاّ خمسين مترا ولكنّه كان يحتوي على خمس حنايا، وكان للجسر الملقى على واد جلف قرب فم العفريت بالبلاد التونسية عشر حنايا وكان لجسر عنابة إحدى عشرة حنية .

وكانوا يقيمون أنصابا ميلية لتبْيَان المسافات ويكتبون عليها معلومات كثيرة عن الأباطرة والحكّام والكتائب والبلَديات والمسافات . وكانوا أحيانا يذكرون الصعوبات التي تغلّب عليها بُنَاةُ تلك الجسور .

10 – أوائل الاستعمار في عهد الامبراطورية

لقد ازدهرت بلاد البربر ازدهارا حقيقيا في عهد الامبراطورية وازداد عدد سكّانها وذلك بفضل استقرار النظام وتطوّر الجهاز الاقتصادي، وكان لا بدّ لإقرار المعمّرين وإرضاء رغائب المحتكرين من التوسّع في احتلال

أراضي أهل البلاد ممّا أثار مشاكل سياسية واقتصادية كان لحلولها تأثير على مصير الهيمنة الرومانية .

وطّد اغسطس استعمار افريقية توطيدا وكان مدفوعا فيما أنشأه إمّا بضرورة مراقبة البربر كما هو الشأن في موريطانيا حيث كانت المستعمرات العسكريّة في تنس (Cartennae) وقرب قرايه (Gungu) وبجاية (Saldae) و" تكلات " (Tubusuptu) و" أزفون " (Rusazus) بالمرصاد لمملكة يوبا التي لم تزل مستقلّة حينذاك، وإمّا بمسّ الحاجة إلى إقرار قدماء الجند أو المعمّرين الإيطاليين الذين انتزع أغسطس ممتلكاتهم .

ولقد أسّس أغسطس ثلاثة أنواع من المستعمرات . فالأولى كانت مستعمرات يعيش فيها جنبا لجنب النازحون من ايطاليا وعدد عظيم من الأهالي الذين احتفظوا بالنظام الذي كانت عليه مدينتهم فيما قبل كهنشير قصبات (Tuburbo Maius) .

أمّا الثانية فهي عبارة عن منطقة ريفيّة بأراضيها وبنظامها الخاصّ متعايشة مع المدينة البربريّة . مثل دقة (Thugga) وهنشير قرقور (Masculula) وعين تونقة (Thignica) وشواش (Sua) وعين العسكر (Suturnuca) وهنشير سيدي ناصر برقو (Medeli) .

أمّا الثالثة فهي مستعمرات ذات أهمّية أكبر لها أحيانا مناطق فسيحة جدّا . فكانت منطقة سيرتة تبلغ في الشمال واد ويدر قرب الساحل، وفي الشرق عنونة (Thibilis) وتتجاوز في اتّجاه الجنوب الشرقي عين البرج (Tigisis) وتصل غربا إلى الميلة (Milev) ولا شكّ أنّ مصب واد المساقة (Ampsaga) الكائن بالشمال الغربي كان بمثابة الحدّ بالنسبة إلى منطقة سيرتة . ولا نعرف بالضبط في أيّ فترة سبقت حكم تراجانوس أنشئت مستعمرات القالة (Minervia Choller) وسكيكدة (Veneria Rusicca) والميلة (Sarnia Milev) التي كوّنت بالإضافة إلى سيرتة جامعة المستعمرات الأربع (Res PublicaIIIIcoloniarum Cirtensium) أمّا المستعمرة التي كانت الكاف (Sicca) وهي السوق

البربرية القديمة مركزا لها فقد أصبحت تدعى سيرتة الجديدة وتحتوي كذلك على أحياء عديدة .

ووزّع أغسطس وتيباريوس أراضي كثيرة لإقرار النازحين من ايطاليا الذين أفلسوا من جرّاء الأزمة الفلاحية وعلى الأخص لإرضاء رغبات الرأسماليين الرومان المتكالبين على إنفاق أموالهم في إنتاج القمح الذي كانت سوقه رائجة وأرباحه مضمونة . فلم يستنكف ترملسيون (Trimalcion) الذي اتّسعت أملاكه اتّساعا عظيما من أن يطمع في افريقية . فهذا التكالب على أراضي البربر هو الذي أدّى إلى ضمّ نوميديا ثم موريطانيا وهو أمر لا تبرّره أيّة ضرورة عسكريّة . ولقد صرّح بلين ملاحظا هذا التكالب أنّ ستّة ملاّكين فقط كانوا يقتسمون نصف افريقية .

11 – تراجانوس وسياسة الحشد

عندما أراد تراجانوس توسيع رقعة الاستعمار اصطدم بعقبة الملكية القبلية، ولكنّه توصّل إلى حشد الأهالي وترحيلهم . فأقرّ المزالمة في أفقر جهة ووزّع الأراضي التي انتزعها منهم على ملاّكين آخرين . ونقل جانبا من قبيلة نوميديا العظيمة الكائنة أرضها قرب مداواروش وحيدرة (Ammaedara) لينزلهم أراضي جديدة يُحَيْوِنَهَا غير أنّ معظم القبيلة بقي مجتمعا حول الخميسة (Tubursucu Vunidaum) على بعد أربعين كلم من الجنوب الغربي من سوق أهراس وكانت سنة مائة مدينة بنظامها البلدي وقوّادها (Principes gentiris Numidarum) وقد جعل منها تراجانوس بعد ذلك بقليل بلدية .

انتزع الامبراطور لفائدة قابس وقفصة أراضي قبيلة نبجنّي الكائنة بالجنوب التونسي ولم يترك لها إلاّ أراضي هزيلة بالقرب من شطّ الفجاج. أمّا قبيلة سبربرة النازلة قرب العلمة (سان أرنو) فإنّها اضطرّت إلى تعويض أراضي الانتجاع بمساحة ضيّقة من الأرض قرب شطّ البيضاء .

ولقد انتهى الأمر بالسياسة الامبراطورية الاستعماريّة إلى تقسيم أملاك الأهالي العقاريّة في افريقية كما وقع في الجزيرة العربية وسوريا إلى قسمين :

قسم وهو الأصغر ترك في حوزة ملاّكيه القدماء الذين اضطرّ جانب عظيم منهم إلى أن يشتغل كعامل فلاحي في الأراضي الشاسعة ، وقسم جزّيء إلى أراضٍ فسيحة سلمت لعائلة الإمبراطور أو طبقة الشيوخ الارستقراطية وأسند جانب منه إلى المدن التي كان يسكنها قدماء الجند والطبقة الارستقراطية البربرية .

12 ـ تقدّم الحياة في المدن

نمت الحياة في المدن مع تغلغل الاستعمار ، فالمدن التي كان يسكنها قدماء الجند والملاّكون أو المراكز التي أقرّت حولها القبائل وسكّان قرى الأملاك الشاسعة ما انفكت كلّها تتزايد عددا ومكانة . وكان الأباطرة يشجّعون هذه الحركة التي كانت تساعد على توطيد النفوذ الروماني وتضمن التجنيد . ولهذا الغرض كانوا يكثرون من الجمعيات الرياضية المكوّنة من شبّان يقومون في أوقات الشدّة مقام الحرّاس ويظهرون دائما في أعين الجماهير البربريّة مظهر الجماعات المتشبّعة بثقافة الرومان ومعتقداتهم وعاداتهم،ولقد شجّع تراجانوس وهادريانوس على إنماء المدن أكثر ممّا فعله كلوديوس وأسرة فلافيان، وبعد هؤلاء رفع الأباطرة بصورة تكاد تكون آلية مرتبة كلّ المدن المزدهرة فأصبحت مستعمرات أو بلديات .

ولم يكن التخلّي عن الحياة القروية هو العامل على ازدهار المدن . فكانت المدن الافريقية باستثناء قرطاج تظهر في ذلك الوقت عظيمة غير أنّ أغلبها يفوق في الأهمّية دائرة من دوائرنا (معدل خمسة آلاف ساكن أو ستّة آلاف) ولا شكّ أنّ الكثير منها لم يبلغ هذا الرقم،ولقد كان جانب من نشاط السكّان منصرفا إلى الشؤون الريفية غير أنّ المدينة كانت رغم ذلك الخليّة الاجتماعية الحقيقية . وفي الجملة فإنّ الامبراطورية كانت جامعة مدن تعترف للعظيمة من بينها بالزعامة .

13 ـ أسرة سواريوس وانتزاع أراضي القبائل

نشطت الحياة البلدية في عهد أسرة سواريوس نشاطا كبيرا ولم ينس سبتيموس سواريوس ـ وقد أصبح سيد العالم ـ أنّه افريقي ، فأضفى نعمه على مدن بلاد

المغرب وخاصّة على مدن طرابلس موطنه . فلم يقم بتجميل لبدة (Leptis magna) فقط بل منحها القانون الايطالي . لذا نقشت هذه المدينة ما يسجّل اعترافها "بالفضل الإلهي النادر" الذى حَظِيَتْ به. ولقد ترتّبت عن سياسة الامبراطور الاستعمارية وتشتيته للبربر البدو صوب الصحراء وتكاثر الجمال نتائج أبان ستيفان قزال وأ — ف — قوتيه (Gautier) خطورتها البالغة .

وضاعف سبتيموس سواريوس وأبناؤه مقاومة البدو الذين نظّمت ترحالهم أسرة الانطونان . ومن أجل تعميم غراسة الزياتين تضاعف الإقبال على أراضي الإنتاج التي كانت — حتى ذلك الوقت — محتقرة وكان ترتيليانوس الافريقي يعبّر حينذاك في إطنابه المعهود عن المعتقد السائد في ذلك الوقت القائل بضيق مجال النشاط البشري "يزداد استغلال العالم وتعظم ثروته يوما بعد يوم ففي كلّ مكان ديار ، وفي كلّ مكان سكّان ، وفي كلّ مكان بلديات ،وفي كلّ مكان حياة . أي أبلغ دليل على تزايد الجنس البشري . إنّنا عالة على الدنيا . فالعناصر الطبيعية لا تكاد تسدّ حاجاتنا وأصبحت الضرورات أشدّ تأكّدا وأصبحت لا تسمع من الحناجر إلاّ صيحة واحدة : "إنّ الطبيعة سوف تضيق بنا" .

وكان من الضروري طرد البدو من الأراضي التي مازالوا يملكونها لتوسيع نطاق الاستعمار الروماني . فلم يقتصر الرومان على حشدهم بل طاردوهم حيثما أمكن استغلال أراضيهم،وكان تقدّم "الليمس" في طرابلس ونوميديا وموريطانيا مظهرا عسكريا لهذه السياسة الرامية إلى انتزاع الأراضي بالعنف،ولقد كان حاجزا منيعا دون هَجَمَات البربر الذين أبَوا الرضا ببؤس الحياة الحضرية والرمي بهم في الصحراء فكانوا "بؤساء تتّقد صدورهم غيظا على أهبة إضرام نار الثورة" على حدّ قول ستيفان قزال .

14 — غزو البربر الجمّالة للصحراء

كانت الصحراء الواقعة جنوب افريقية الصغرى آهلة كلّها إلى ذلك الوقت بالاثيوبيين،وكان بعضهم غير صريح النسب ممّن "قد لفحت الشمس وجوههم"

وكانوا ماهرين في نحت الصّوان يعيشون من إنتاج الواحات ولهم علاقات تجارية مع بلاد البربر ولقد أفقدهم استقلالهم حادثان متّحدان في الزمن متلازمان: وهما استخدام الجمل باستمرار وهجرة البربر وقد أثخنهم الاستعمار الروماني بضرباته .

وترتّب عن انتشار الجمل في بلاد البربر عواقب سياسية لا تحصى ولا تعدّ،وكان إلى ذلك الوقت قليل الاستعمال على الأقل لأنّ النصوص سكتت عن ذلك على ما يظهر . واتّفق أن كان انتشار الجمل موافقا في الزمن طرد البربر . وهكذا دخل الصحراء الجمل والبربري يحمل الأول الثاني. وانتصر البدو البيضُ على السُّود الحَضَر إمّا عقب هجمة واحدة أو بعد هَجَمَات متتابعة، بل ربّما بلَغ بعض هؤلاء الذين يجوبون الصحاري بلاد السودان فأسّسوا امبراطورية غانة ومملكة كوكية على ضفّة النيجر .

لم يبق من يومئذ لبلاد المغرب أجوارها الاثيوبيون المسالمون الذين لم يهدّدوا قطّ "الليمس" بصورة جدّية وأصبح أجوارها من البربر المشاغبين المتمرّدين جبلة . ولم يشكّ الرومان في أوّل الأمر هذا التغيّر . فقد كانوا يفضّلون الاتّصال بالبيض فيتّخذونهم أدلاّء لقوافلهم . وكانوا يعتدّون بقوّتهم فلا يَخْشَوْنَ هجمات القبائل المتنقّلة خاصّة وأنّهم كانوا يسمّون رؤساءها (focderai, pacati) يخضعونهم لسلطتهم ولكنّهم بذلك هيّؤوا من حيث لا يشعرون انهيار امبراطوريّتهم الافريقية . ذلك أنّهم أحلّوا البدو الجمّالة الأشدّاء المنضوين تحت لواء قبائل منيعة لا تنام لها عين محلّ بدو السباسب الرحّل .

15 — مرسوم قراقالا

بلغ العمل الذي قامت به الامبراطورية لتوطيد النفوذ الروماني في المقاطعات أوجه في عَهْد قراقالا (Caracalla)ابن سيبتيموس سواريوس. وكان تكالب "الآفاقيين" على نيل حقّ الاستيطان أحدث أمرا واقعا أقرّه المقنّنون بدستور (أو مرسوم) قراقالا الصادر سنة 212،ولم تبق إلاّ أقليّة في تناقص مستمرّ لم تحظ بهذا الحق،وبهذا المرسوم أصبح جميع أحرار

الامبراطورية مواطنين . ومنذ أن اكتشف فى جيسن (Giessen) رقّ مشوّه ربّما كان النصّ الاغريقى نسخة منه — بدأت المناقشة لمعرفة ما إذا كان هذا المرسوم ينصّ على بعض الاستثناءات، والرّاجح أنّه استثنى الفلاّحين الذين يسكنون الأرياف والسباسب من دون أن يخضعوا إلى نظام والذين لم يكن من الميسور عليهم أن يقيموا الدّليل على أنّهم أحرار . ومن ذلك الوقت بطل المشجّع الذي كان يتمثّل فى الامتيازات البلديّة والفرديّة. فلقد افتقد الاستيطان بانتشاره جانبا كبيرا من هيبته ومفعوله، فقد كان هذا المرسوم الذي أولدته الظروف مجرّد إعلان عن مرحلة أخرى في تاريخ الامبراطورية ولم يخلق شيئا جديدا .

16 — بوادر الانهيار

كان حكم أسرة سواريوس أوج الاستعمار فى افريقية غير أنّ بوادر الانهيار ما لبثت أن ظهرت.ففي عهد سواريوس الاسكندر ثار أهالي جهة سطيف وطردوا المعمّرين . واضطرّ الامبراطور — للحدّ من إفلات الأراضي من حوزته — إلى إعادة بناء القلاع أو توسيعها، وإلى التخفيف من الضرائب كما فعل ذلك قراقالا سنة 216 من قبل حسبما كشف عنه نقش وجد في بنازا (Banasa) وتشهد الأسوار العظيمة المبنيّة حول المدن والتحصينات الجديدة ومواصلة هذا العمل فى عهد غرديانوس الثالث على أنّ الأمن كان معدوما مثلما كان فى عهد سبتيموس سواريوس. فلم يعد في مقدور الامبراطورية حماية المعمّرين الذين كانت أقرّتهم، وسرعان ما اضطرّ المعمّرون الذين استوطنوا جنوب الاطلس إلى حفظ أمنهم بوسائلهم الخاصّة وراء الخندق ومراكز الليمس المحصّنة فى الصحراء .

17 — نظام الأراضي

إنّه من المفيد التعرّف إلى النظام الذى كانت تخضع له الأراضي مصدر كلّ الثروات فى عهود ازدهار افريقية ، فالأراضي التي انتزعت من الشيوخ فى فترة الجمهوريّة والتي اقتطعت من تراب القبائل العديدة كانت تكوّن أملاك الامبراطور الفسيحة (saltus) ورغم اغتصاب نيرون لبعض الأملاك

الخاصّة فإن فريقا من الشيوخ بقيت في حوزته أملاك هامّة. وكذلك كان للمدن أراض فسيحة، وكانت القبائل تحتفظ بالأراضي التي حدّدتها الدولة أو في بعض الأحيان تتمتّع بحقّ الانتجاع من دون تحديد كما هو الشأن في موريطانيا حيث كان الاستعمار أقلّ وطأة. وأخيرا فإنّ الأباطرة والجمعيات وحتى رجال الأعمال استحوذوا على مناطق المناجم والغابات.

18 – نظـام أملاك الامبراطـور

إنّ النقوش الأربعة الكبيرة المكتشفة ابتداء من سنة 1880 في هنشير متيش (116 – 117) وعين جمالة (117 – 138) وسوق الخميس (180 – 193) وعين واصل (198 – 212) وبعض النقوش الأخرى التي تقلّ أهمّية عنها تساعدنا على فهم نظام الأملاك الامبراطورية. كما تساعدنا كذلك، بالرغم عن أنّها لا تتضمّن من سوء الحظّ تدقيقات ذات بال، على معرفة قانون مانسيانوس الذي لا نعرف هل كان يشمل الامبراطورية كلّها (ج. كركوبينو) أو كان خاصّا بافريقية وحدها (م. رستفتزاف Rostovzeff شارل سوماني) ومعرفة قانون هادريانوس الذي بقي مدى مفعوله محلّ مناقشة كذلك. وعلى كلّ فإنّ هذين القانونين كانا يضبطان الأوضاع القانونية بالنسبة لهذه الأراضي وبالنسبة لفلاّحيها وإذا استثنينا بعض العادات كما هو الأمر في جهة سطيف مثلا فإنّ الامبراطور لا يستغلّ أملاكه مباشرة بل يكاريها للخواصّ سواء كانوا فرادى أو مجتمعين في شركات تجاريّة تستغلّ المزارعين الصغار باقتسامها الغلّة. (Coloni) وهؤلاء المعمّرون المستقرّون أبا عن جدّ – وغالبهم بربر – كانوا يعيشون في قرى إمّا في الأرض نفسها حول المباني الرئيسية أو قريبا منها. وكانوا يكوّنون جمعيات مستقلّة ذات طابع ديني تنتخب حكّاما (magistri) وتنظّم الحفلات الريفيّة (nundinae) وفي كثير من الأحيان تكون لهذه القرى (vici) شخصيّة قانونيّة وترتقي إلى مرتبة مدينة. وكان فيها مثل كلّ مدينة طبقتان من السكّان: طبقة القرويين (vicani) وطبقة الأجانب المستوطنين (incolae) ولا تدفع ضرائبهم لمصلحة الجبايات بل إلى مستلزمين (conductores) اشتروا لمدّة خمس سنوات حق زراعة الأراضي غير الموزّعة وقبض منابهم من محصول قطع الأراضي الموزّعة.

وكان على موظّفي الامبراطور (procuratores augusti) حماية المعمّرين ومساعدة المستلزمين على جباية الضرائب بالخصوص .

وكان للمستلزمين وزن كبير فقد كان لهم بفضل أموالهم الطائلة تأثير كبير وكانوا بتألّبهم يقضُون على النزعة الاستقلالية التي كانت تبدو من موظّفي الامبراطور .

ويأتي في أدنى درجات السلّم الإداري موظّف الأملاك الامبراطورية وهو مُعْتَق بسيط تقتصر مهمّته على التنفيذ وكان يحمل المعمّرين على الطاعة بالسوط والعصا أو السجن . ثم يأتي في مرتبة أعلى موظّف الجهة وكثيرا ما يكون فارسا تتلخّص مهمّته الافلاطونية في الحفاظ على حرّية المزايدات في وجه المستلزمين المتألّبين المتضامنين وفي ضبط قوانين إدارة الجبايات . وفي أعلى قمّة من السلّم يأتي موظّف الدائرة الإداريّة ومقرّه قرطاج وهو فارس يتقاضى جراية مرتفعة يمثل الامبراطور ويوحي إليه في الغالب بالسياسة الواجب توخّيها كما يُدير شؤون الموظّفين ويُراقبهم ولديه القوة المسلّحة . غير أنّ كلّ موظّف في أيّ سلّم كان له مساعد يُعينه ويراقبه .

إنّ قسوة موظّف الأملاك الامبراطورية لا تكفي دائما لقمع ثورات المعمرين الخاضعين لاستغلال المستلزمين فيضطرّ موظّف الدّائرة الإدارية إلى استعمال القوة المسلّحة لقمع ثورة المعمّرين كما وقع ذلك في أملاك بورينتانوس (Burunitanus) قرب بوسالم .

إنّ الإدارة الرومانية لا ترفض ما تطلبه شركات رجال الأعمال القوية وكان لبعض الأملاك الخاصّة الفسيحة (saltus privati) نظام مماثل لنظام الأملاك الامبراطورية .

كما كانت أملاك أخرى يستأجرها المزارعون أو يسيّرها ناظر .

إنّ أراضي المدن ملك من أملاك أحفاد النازحين الرومان والطبقة الارستقراطية البربرية، ومنهم كانت تتكوّن الطبقة البرجوازية البلدية . وكانوا

لا يستغلّون بأنفسهم أملاكهم الفسيحة في غالب الأحيان ويؤجرونها للأهالي أو يتّخذون لها عملة فلاحيين . وكانت توجد أملاك صغيرة ولكنّها قليلة العدد مآلها الاندماج في الأملاك الفسيحة .

19 — مُزارع حديث النعمة

إنّه من باب إقرار الأمر الواقع القول بأنّ جميع الثروات الأهلية الكبرى تفرّعت كلّها عن نواة متواضعة بل كان يحدث أحيانا أن يتوصّل مزارعون بسطاء ولكنّهم مَهَرَة (تصفهم النقوش بعبارتي (agricolo bonus, diligers agricolo) إلى التحصيل على قطعة من الأرض أو توسيع نطاقها، وبهذا تصبح لهم مكانة كبيرة في المدينة، وهذا بالضبط ما كان من أمر أحد حصّادي مكثر أصبح ذكره في هذا المقام مألوفا وقد روى قصّة حياته بنفسه (CIL, VIII, 11814) فقال: "ولدت في عائلة فقيرة ولم يكن لأبي موارد ولا دار يملكها . فانكببْتُ من يوم وُلِدْتُ على العمل في ضيعتي فلم أعرف راحة وكذلك أرضي . وإذا أتت فترة نُضْجِ سنابل القمح كنت أولَ من يقلع الكلأ ، وإذا ظهرت في الأرياف جماعات من الحصّادين يبحثون عمّن يؤجرهم في ضواحي سيرتة عاصمةالنوميديين أو في السهول التي يشرف عليها جبل جوبيتير كنتُ أوّل من يحصد قمحه . ثمّ إنّي غبت عن وطني اثنتي عشرة سنة كنت أحصد أثناءها لغيري تحت شمس من نار ولقد سهرت طيلة إحدى عشرة سنة على جماعة من الحَصَدَة وكنت أقطع سنابل القمح في ضَيعات النوميديين ولم أزَلْ أكدّ قانعا باليسير حتى أصبحت أملك دارا وأرضا، فأنا اليوم أعيش في رفاهية بل إنّي نلت شرفا كبيرا إذ عُينت في مجلس الشيوخ ببلدتي وأصبحت مُراقبا بعد أن كنت فلاّحا صغيرا . لقد رأيت بعيني أولادي وأحفادي يُولَدون حولي . لقد كانت حياتي وديعة محفوفة بتقدير الجميع" .

هذا مزارع واحد نجح بعد حرمان طويل في التحصيل على المال الذى به تسنّى له اشتراء ضيعة مكّنته من أن يحسب له حساب في المجتمع، لكنْ كم من مزارع مات بائسا بعد أن أضاع حياته بين فرق الحَصَدَة (turmae messorum) "تحت شمس من نار". ليُثريَ الملاّكين الكبار .

20 — حياة أهل القصور حسب الفسيفساء

لا شيء يطلعنا على أهمّية إدارة الأملاك الخاصّة أكثر من الفسيفساء التي كانت تزخرف منازل الأشراف البربر بالمدن أو الأرياف . وهذه الفسيفساء يمتدّ تاريخها من القرن الثاني إلى العهد البيزنطي غير أنّ الصور الدّقيقة التي تُتْحفنا بها يمكن الاستناد إليها لفهم النظام القارّ الذي كانت تخضع له الحياة الفلاحية في افريقية إذ هي تعكس مظاهر الحياة المألوفة طيلة الاحتلال الروماني كلّه .

فبقرب طبرقة (Thabraca) تصوّر فسيفساء القرن الثالث والرابع مباني مختلفة لإحدى الضيعات . ففسيفساء الوسط تصوّر مسكن السيد المبنيّ على غرار برج في منتهى ساحة وعلى جانبيه برجان صغيران مربّعان سطحهما حاد يصلهما رواق . وحول المبنى تمتدّ حديقة للنزهة وروضة مزهرة تطير فوقها العصافير والدّيكَةُ البرّية بينما الإوزّ والبطّ يمخُر ماء الغدير، وعلى جانبي الفسيفساء الأولى منظران آخران يمثّلان مباني الضيعة : فمن جهة نجد بين الزياتين والكروم اصطبلا فسيحا مُطِلاّ من ربوة وقع عليها الحجل وظهر في المقدّمة حصان يكدف وراعية تغزل الصوف تحت شجرة سرو وهي تحرس شياهها . ومن جهة أخرى نجد بناية كبيرة متركّبة — ولا شكّ — من مخازن الزيتون والخمر وأمامها دسكرة وبركة فيها سمك. وبديهي أنّنا أمام ضيعة كبيرة هيّئت لإنتاج الخمر والزيت وتربية الخيل والماشية والدواجن .

ونرى في فسيفساء وذنة الواقعة في أسفل وادي واد مليان جنوب قرطاج (أوائل القرن الثاني) مشاهد متنوّعة : فهذا راعٍ انتصب على عتبة منزل معمّر أو مستودع للحبوب واتّكأ على هراوته يحرس قطيعا من الضأن والماعز والبقر ولا يبعد كثيرا عن فلاّح يدفع محراثا يجرّه ثوران وهذا في الوسط حصان يشرب من حوض ملأه رجل من بئر قريبة، وهذا حمار يسير تحت تهديد العصا وحول هذه المناظر نرى مشاهد صيد : فهؤلاء ثلاثة من الفرسان الأغنياء يقتلون أسدا ، وهذا رجل قد تستّر تحت جلد عنز يتصيّد الحجل وهؤلاء آخرون هجموا على خنزير وحشي بالحِراب .

أما فسيفساء السيد يوليوس المكتشفة في قرطاج سنة 1920 وما تنم عليه من مهارة فهي توفر لنا معلومات قيمة حول ما كان عليه نظام الضيعات الكبيرة في القرن الرابع ولا شك وما كان يقوم به أهلها، وفي وسطها نجد منزلا يحميه برجان يصلهما رواق وقد كاد أن يكون محصنا كالقلاع ليصمد أمام الهجمات، وقد أحاطت به غابة من السرو أو النخيل وحدائق وبساتين، وحوله الزياتين وحقول القمح بالخصوص، ولا تنس الكروم والماشية وقد أشرف السيد على استغلال ضيعاته من عل. ويصرف أهم نشاطه في الصيد مع أتباعه وكلابه والساهرين عليها . أمّا زوجته الغارقة في الحلي الثمينة فهي تؤثر الجلوس على كرسي الحديقة يلاطفها النسيم العليل فتقضي هناك ساعات طويلة بيدها مروحة، تأكل الثمار الباردة وتتمتع برؤية نشاط الدسكرة وتلتذ بما يقدم لها من باكورة الزهور والثمار والماشية . فصاحب القصر وزوجته يعيشان عيشة النبلاء في ضيعتهما بينما يكدح جمع غفير من الخدم والفلاحين من أجل إرضاء شهواتهما، وهم يكدون كامل يومهم ويسكنون أكواخا حقيرة . أمّا فارسا الجم فيروق لهما كالسيد يوليوس صيد الأرانب بواسطة الكلاب السلوقية، وينطلق فارسان آخران من قرطاج إلى الصيد على متن بغل محمّل بالمؤونة يصحبهما مطارد يحمل هراوة . إنّه لهو الأمراء يعتمدون على الناظر لتصريف شؤون أملاكهم .

إنّ هذه الفسيفساء كلّها وجدت في البلاد التونسية . إلاّ أنّه عثر على غيرها في المقاطعات الأخرى . فمن بين تلك التي اكتشفت قرب زليطن في طرابلس واحدة تمثّل مشهد دراس سنابل القمح في البيدر على مرأى من الناظر وصاحبة القصر . أمّا الفسيفساء التي عنوانها "أشغال الحقل" المكتشفة في مغنى من مغاني قيصارية (caesarea) (شرشال) فإنّها تصوير حيّ ماهر ملوّن لطريقة استغلال ضيعة من ضيعات موريطانيا القيصرية، وفي أعلى المشهد فلاّح ماسك بمحراث تجرّه ثيران يضربها آخر لتنشيطها وقد انكبّ الاثنان على عملهما في اندفاع كبير ، وفي الوسط يمرّ المحراث وراء زارع الحبوب لتغطيتها ، وفي أسفل الصورة ينقّي عامل حقل الكروم يرقبه الناظر .

21 – سُوقَةُ الأرياف والإقطاعيون

إنّ هذه الفسيفساء تصوّر خدمة الأرض الشاقّة فلم يكن الإقطاعيون النُّبلاء هم الذين استخرجوا خيرات الأرض الافريقية وأتاحوا إبراز ثروتها الاسطورية، بل هم الفلاّحون سواء كانوا ملاّكين لقطع صغيرة من الأرض أو معمِّرين أو عملة فلاحيين في الضيعات الكبيرة التي تملكها الطبقة الارستقراطية الرومانية أو البربرية . فهذه السُّوقة العظيمة العدد البائسة التي لَفَظَتْهَا المدينة لم تجن من محاسن السلم الرومانية إلاّ نظاما أكثر إحكاما. وإذن فإنّه كان يوجد في افريقية بعض الإقطاعيين النُّبلاء وفي مقدّمتهم الامبراطور كانوا لا يعيشون في أراضيهم ، وطبقة ارستقراطية رومانية أو بربرية تعيش في المدن وتكلِّف عنها الوكلاء بمراقبة أملاكهم ، وفلاّحون صغار كانت الضيعات الكبيرة تهدّد أملاكهم بالابتلاع، ويوجد أخيرا خلق عظيم من الرقيق والعملة الفلاحيين يدفعون الضرائب إلى المستلزمين أو الموظّفين .

22 – الحصّة السنوية

كانَت المَنْتُوجَاتُ الفلاحية تستهلك في افريقية نفسها، أو يسلِّمها إلى الدولة المطالبون بدفع الضرائب أو شركات رجال الأعمال، أو يصدرها التجّار .

وكانت افريقية بالرغم عن وفرة سكّانها تنتج ما كان يجعلها في مأمن من المَجَاعَات التي أنهكت مقاطعات أخرى، وكانت الامبراطورية المسؤولة عن تزويد رومة تستخلص ضرائب الأفراد والشركات المستلزمة (annona) مقايضة لا نقدا وكانت هذه المنتوجات توضع أولا في مخازن منها يأخذ الجند والموظّفون حصّتهم ثم يصدر ما تبقى إلى ايطاليا أو إلى المقاطعات الأخرى ، فكان ديوان "الحصّة السنوية" المحرّك الرئيسي لتجارة البحر المتوسّط . وكانت الدولة تستعين في نقل المنتوجات بطوائف قوية من مجهّزي المراكب (naviculaici) ثم في آخر الأمر سيطرت عليهم وخضعوا لمراقبتها . وكان مجهّزو المراكب في افريقية مجتمعين

في دائرة واحدة . وكانوا يقومون بدور عظيم . فالكثير من القلال المستعملة في أوستيا(Ostie) أوبوزول (Pouzzoles) كانت تحمل أسماء افريقية . ففي أوستيا وهو الميناء الذي كان يستقبل "الحصّة السنوية" كان لمجهّزي المراكب البربر وكالات تفتح على ساحة عظيمة قريبة من المسرح . ومن بين النقوش السبعة المكتشفة ترجع ستة منها إلى قرطاج وبنزرت وصبراتة (طرابلس) وكان مجهّزو المراكب يتّخذون سفنا مختلفة الشكل . وفسيفساء المداينة (Althiburos) تصوّر نماذج متغايرة لمراكب البحر والنهر ويحمل الكثير منها اسما لاطينيا أو لاطينيا ويونانيا معا مرفوقا في بعض الأحيان بشواهد مرويّة عن شعراء لاطينيين . وهكذا فقد غنم الملاّكون الكبار والتجّار ومجهّزو المراكب من افريقية أرباحا طائلة بقي القسط الأوفر منها في هذه البلاد .

الباب السابع

أفريقية الرومانية من عهد أغسطس إلى غرديانوس الثالث: تغلغل التأثير الروماني

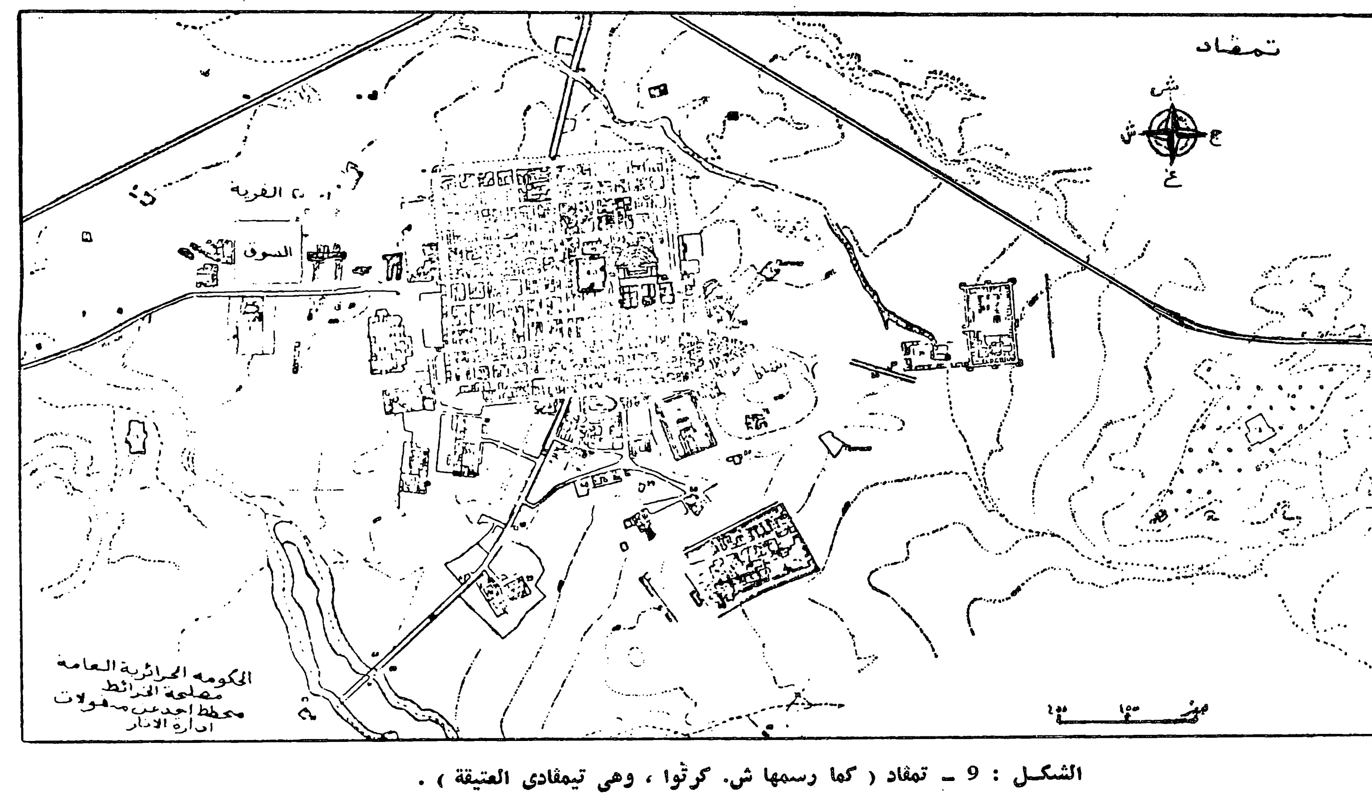
1 - المدن الرومانية. 2 - الثقافة الرومانية. 3 - الديانة الرومانية: عبادات الأهالي وأوائل المسيحية

I ـ المدن الرومانية

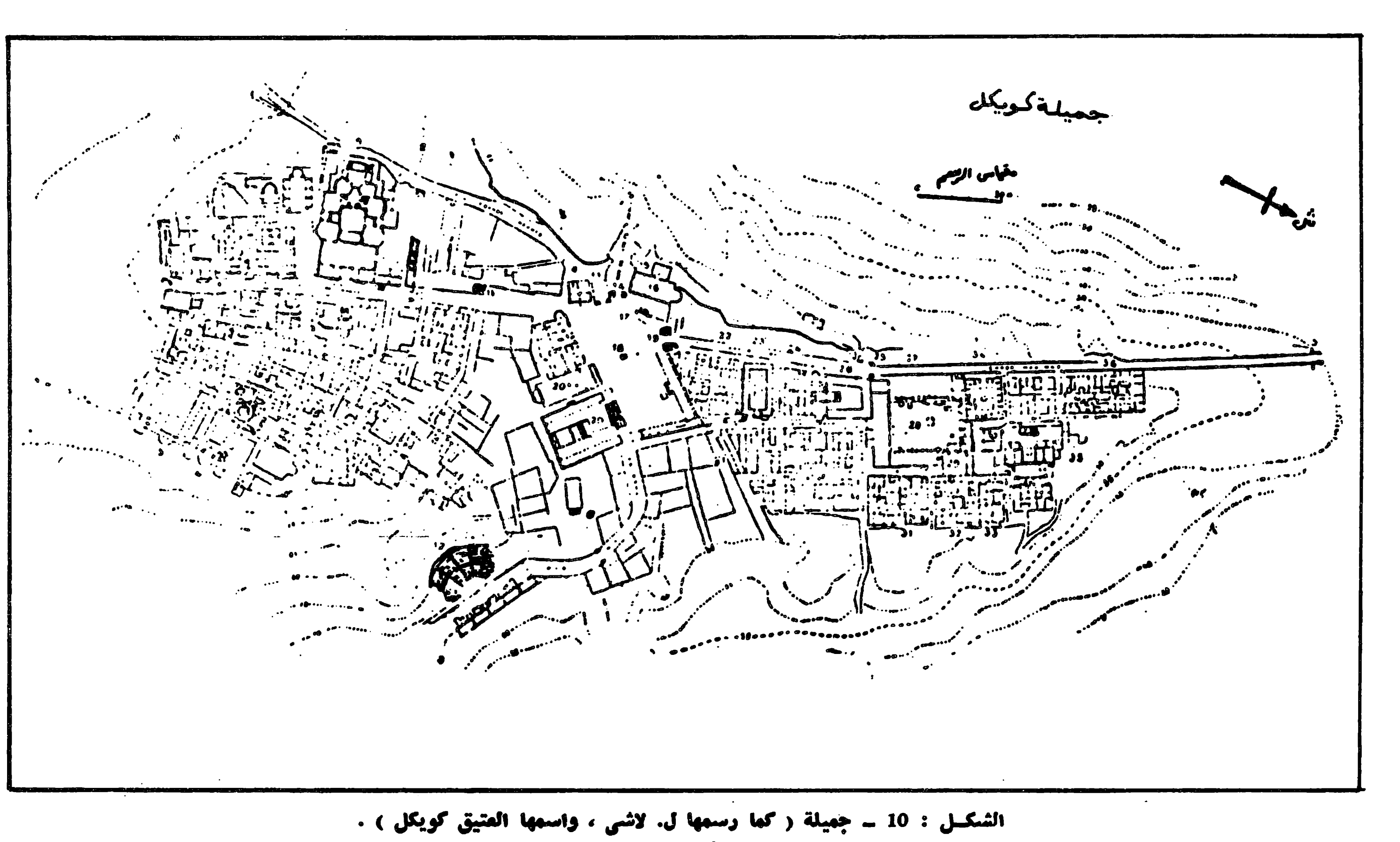
خصّص أغنياء الأفارقة جانبا من ثروتهم لتحسين منازلهم ومدنهم . ولا شكّ أنّ المنازل الريفية التي تصوّرها الفسيفساء كانت ملكا للموظّفين والمستلزمين أو لكبار الملاّكين الذين كانوا يقضون بعض الوقت في أراضيهم لقضاء شؤونهم أو للصيد — وكانت الارستقراطية الرومانية والأهلية تسكن المدن حيث كانت تسعى إلى تقليد مباني رومة وهندستها لتوفير أسباب الرخاء.

1 ـ مدن طرابلس

كانت توجد في طرابلس على ساحل سيرتا الكبرى والصغرى ثلاث مدن بلغت أوجها في عهد سبتيموس وهي طرابلس (OEA) في الوسط وصبراتة (Sabratha Vulpia) غربا ولبدة (Leptis Magna) (وعلى بعد 3 كلم من حمص) شرقا . وأعظم أثر بقي في مدينة طرابلس التي نالت منها الحضارات ومعارك الشوارع على مرّ العصور هو قوس نصر ذو أربع واجهات تمّ إبرازه وترميمه ولكنّه لا تزال توجد حوله أطلال المنازل،ولقد أثبت علماء الآثار الايطاليون في صبراتة على بعد سبعين كلم غربي طرابلس وجود معبد (الكابيتول) وكنيستين مسيحيتين ومعبد ومسرح وربّما قاعة اجتماع المجلس البلدي . ولكنّ لبدة وطن الامبراطور هي التي تزخر بأعظم الثروات الأثرية . فقد تمّ بعد الكشف عن أرصفة الميناء وقوس نصر ذي أربع واجهات على جانب كبير من الروعة وحمّامات رفيعة الزخرف تزوّد بمياه المطر



الشكل : 9 ـ تمقاد (كما رسمها ش. كرتوا ، وهي تيمقادى العتيقة) .



الشكـل : 10 ـ جميلة (كما رسمها ل. لاشي ، واسمها العتيق كويكل) .

والآبار ومياه وادلبدة . وتوجد فيها آثار منتشرة عثر فيها على ساحة الامبراطور العمومية وقاعة للعدالة ذات أروقة ثلاثة . وعثر أيضا على مسرح وملعب . ولم يبق من قابس (Tacapae) ميناء سيرتا الصغرى إلاّ آثار قليلة . إلاّ أنّه كانت توجد بالقرب من بوغرارة مدينة جيغتي (Gighti) التي تمكّن علماء الآثار من إبراز ساحتها العمومية المحاطة من ثلاثة جوانب بأرتجة ذات أعمدة كُورنْثية،والتي لا تزال ماثلة فيها آثار الكابتول وقاعة اجتماع المجلس البلدي، وبالقرب منها آثار الحمّامات والسوق(169 — 168)

2 — مدن البروقُنْصُلية

كانت البروقنصلية بلادا زاخرة بالمدن . ويوجد على ساحلها أو بالقرب منها : المهدية (Gummi) ثم رأس الديمـــاس (Thapsus) فلمطة (Leptis Minor) فالمنستير (Ruspina) وصفاقس (Taparura) وقد استعملت آثارها لتشييد القصبة والمساجد وسوسة (Hadrumetum) وقد جعل منها تراجانوس مستعمرة ولقّبها بـ (Frugifera) إشارة إلى خصب أريافها وكان لمينائها ثلاثة أحواض أحدها داخلي . كما توجد قرطاج التي سرعان ما أصبحت عاصمة من جديد،وأوتيكة التي تضاءلت أهميّتها عندما طغت على ثغرها الرمال والتي كانت بها مدينة عليا ومدينة سفلى ، فبنزرت (Hippo Diarrhytus) التي كانت تستغلّ منذ ذلك العهد مزايا خليجها الجميل وعنّابة (Hippo Regius) (وتوجد على بعد كيلومترين من عنّابة الحالية) وكانت في أوّل أمرها بلدية في عهد أغسطس ثم أصبحت فيما بعد مستعمرة وكان ميناؤها في مأمن من رياح الغرب لا الشرق وقد اكتشف فيها علماء الآثار حمّامات ومسرحا وساحة عمومية . والمؤمّل تسجيل اكتشافات جديدة في الأراضي التي اشترتها الدولة .

وفي الجهة الوعرة المتاخمة لمنطقة سوسة كانت توجد المراكز الكبرى التالية : تلابت (Thelepte) (المدينة القديمة) وتوجد على بعد 500 متر من تلابت الحالية . وفيها آثار مسرح وحمّامات ومبانٍ مسيحيّة ، والقصرين (Cillium) حيث عثر على مسرح وسبيطلة (Sufetula)

الواقعة في مفترق طرق رئيسية وكانت بلدية في أوّل أمرها ثم أصبحت مستعمرة في آخر القرن الثاني من غير شك، ولا يزال يوجد فيها ثلاثة معابد عظيمة شيّد الواحد إلى جانب الآخر في منتهى ساحة مستطيلة الشكل كما توجد فيها حمّامات وآثار مسرح وكنائس مسيحية .

وكان وادي مجردة ووادي مليان زاخرين بالمدن : منها حيدرة (Ammaedara) والكاف (Sicca Veneria) التي كانت تسيطر على المواصلات الرابطة بين نوميديا والبروقنصلية وتحتلّ موقعا ستراتيجيا هامّا ، وهنشير المدينة (Althiburos) وكانت بلدية في عهد هادريانوس. وتمتدّ الآثار العظيمة التي بقيت من ساحتها العمومية والكابتول ومسرحها وطرقها المعبّدة على ضفّتي النهر والروابي المجاورة ومكثر (Mactaris) وكانت مدينة في أوّل أمرها ثم مستعمرة في عهد مرقس أورليوس وبقي فيها إلى اليوم قوس النصر الذي بناه تراجانوس ، والساحة العمومية وميدان الرياضة ومبانٍ مسيحيّة وهنشير القصبات (Thuburbo Maius) وهي مستعمرة أسّسها أغسطس وبلغت أوْجها في عهد الانطونان ولا يزال قائما منها إلى اليوم الكابيتول ومعابد كثيرة وسوق وحمّامات ومجموعة من الأعمدة الرائعة .

وكان الناس يتهافتون على السكنى في أحواز دقّة بالخصوص (Thugga) وهي مدينة رفعها سبتيموس سواريوس إلى مرتبة بلدية وتعتبر إحدى مدن بلاد البربر العتيقة التي أحسن التنقيب عن آثارها . فهي زاخرة بالمعالم كالمسرح الذي لا يزال قائما محتفظا بروعته، والكابيتول الذي بقيت أعمدة رتاجه ماثلة، وكذلك باب قاعته وجزؤها الأخير، ويوجد أيضا في دقّة الساحة العمومية ومعبد كيلستيس (Caelestis) المشيّد في عهد سواريوس الاسكندر ولم تبق إلاّ قواعده (Soubassement) وبعض الأعمدة وقوس نصر هذا الامبراطور . وعلى مَقْرُبَةٍ من دقّة شيّدت مدينتا تبرسق (Thnbursicu Bure) وعين تونغة (Thigulca) أمّا غربي دقّة فالمدن قليلة فحمام الدراجي (Bulla Régia) وهي على بعد 7 كيلمترات في الشمال الغربي من جندوبة تمتدّ معالمها على نجد يحتفظ إلى الآن بآثار حمّامات هذه المدينة ومساكنها . وكان في شمتو (Simithu) مقاطع المرمر . وكان

يوجد بالقرب من تخوم نوميديا ڤالمة (Calama) والخميسة (Thubursicu Numidarum) وقد أصبحت بلديَّة في عهد تراجانوس ولا تزال أطلال هامّة من كنيستها وحمّاماتها ومسرحها قائمة إلى اليوم . وتوجد طاوورة وفيها بقايا حمّامات وسوق اهراس (thagaste) . وقد لعبت مدينتان ألحقتا بافريقية في تاريخ غير مضبوط دورا استراتيجيا عظيما وهما : مداوروش (Madauros) التي تحتفظ بحمّامات فسيحة وبحيّ كامل لمعاصر الزيت . وخاصّة تبسّة الكائنة في منتهى الطرقات التونسية وفيها قوس النصر المعروف بقوس ڤراقالا ومعبد شيّد في عهد أسرة سواريوس وفيها خاصّة معالم مسيحية بنيت في العصور الموالية .

3 ـ مدن نوميديا

كان يوجد في نوميديا شمالا مدينة عظيمة وهي سيرته (قسنطينة) وكانت عاصمة المستعمرات الأربع . وقد عفتْ آثار ميناء سكيكده (Rusicade) وهي منفذ سيرته وميناء القالة (Chullu) التي اشتهرت فيها مصابغ الارجوان . أمّا في الجنوب فقد كانت المدن تشرف على الطرقات المتوغّلة داخل البلاد وهي خنشلة (Mascula) المشيّدة على منحدرات شمال شرقي جبال الاوراس ولمباز وتيمقاد (Thamugadi) التي مكّنت آثارها العلماء من تشخيص مدينة قدماء الجند بساحتها العمومية وكنيستها والكابتول وقوس النصر المعروف بقوس تراجانوس وإن رجع تاريخ بنائه إلى القرن الثالث وحمّاماتها ومراحيضها ومسرحها ومكتبتها الفريدة في نوعها .

ولكنّ أبلغ مدن نوميديا دلالة على الماضي هي مدينة جميلة (Cuicul) الواقعة في بلاد وعْرة جرداء كانت تغطّيها في الماضي الغابات وسنابل القمح. وقد تأسّست في أواخر القرن الأوّل وبلغت أوْجها في عهد أسرة الانطونان . وتصوّر الآثار مدينة أحياؤها حسنة التنسيق وشوارعها محفوفة بالأرتجة وتوجد فيها ساحتان عموميتان أولاهما مُحاطة بالكابيتول وقاعة اجتماع المجلس البلدي والكنيسة والمعبد، وحول الثانية المعبد المشيّد تكريما لأسرة سواريوس وقوس نصر ڤراقالا والحمّامات التي لم يؤثّر فيها الزمان كثيرا والسوق. والمنازل المترفّهة الأنيقة .

ويجب أن نضيف إلى ما سبق معلم تيديس (Castellun Tidditanorum) الذي وقع التنقيب عنه حديثا والكائن على بعد عشرين كيلومتر تقريبا من شمال قسنطينة فهو يكشف لنا عن جوانب غريبة من مدينة صغيرة معلّقة بسفح الجبل، أمّا أهميّته فهي مستمدّة إلى حدّ ما من تواضع مبانيه وهي الساحة العمومية والكنيسة وفي أغلب الظنّ معبد ميترا .

4 ـ مدن موريطانيا القيصرية

وكان يوجد في موريطانيا القيصرية سلسلة من الموانئ الصغيرة وهي : جيجلي (Igilgili) وبجاية (Saldae) وتيغزرت (Iomnium) ودلس (Rusuccuru) وماتيفو (Rusguniae) وعاصمة الجزائر (Icosium) وتبازة (Tipaza) التي تحتفظ إلى اليوم في مشهد رائع ببقايا ساحة عمومية وقاعة العدالة ومسرح ومبان مسيحية ، وقبّة سيدي ابراهيم (Gunugu) وتبعد أربعة كيلومتر عن غراية وتنس (Cartennae) وسانت لو (Portus magnus) ونومير (Ad Fratres). وأهمّ مدينة ساحلية هي طبعا شرشال حيث تزدحم الآثار وإن غطّت أغلبها المدينة الحالية باستثناء المسرح الذي تحوّل إلى ملعب والحمامات .

وقد شيّدت على النجد النوميدي مدينة سطيف وكانت مستعمرة خاصّة بقدماء الجند بناها نرفا (Nerva) في أواخر القرن الأوّل ثم أتيح لها أن تصبح فيما بعد عظيمة الشأن.وكانت توجد في الجنوب الغربي مدينة فلاحية كبرى هي مدينة عين رواء (Horrae) وكذلك مدينة توكفيل (Thamallula) التي كانت تحرس المدخل الجنوبي لسهل ممتدّ الأطراف وكانت مدينة خربة الغدرة في الجهة القريبة تمتدّ مبانيها في مساحة قدرها 55 هكتارا وكانت سور الغزلان (Auzia) مركزا عسكريا هامّا شيّدت مبانيه على سفح نجد مرتفع يوجد بين نهرين ومنه كان من اليسير الالتحاق بالغرب أو الجنوب على السواء، وكانت هذه المدينة بلدية في أوّل أمرها ثم جعل منها سبتيموس سواريوس مستعمرة وأقيمت مدينة سورجواب (Rapidum) على منحدر كائن في سهل بني سليمان الممتدّ الأطراف وكانت تناراموزا

(Thanaramusa) تحتلّ الموقع الذي بني فيه اليوم سجن البرواغية الفلاحي كما كانت لمبدية (Lambdia) تحتلّ مكان المدية .

وفي وادي شلف انتصبت فوق نجد مدينة سوفسار (Dollfusville) وكانت مركزا إداريا لدائرة رومانية . وكانت أفرفيل (Malliana) تحتل الأراضي الخصبة المرتوية من مياه واد بوطان وارتقت أوبيدوم نوفوم (Oppidum Novum) مستعمرة كلوديوس (على بعد 1500 متر من الشمال الشرقي من دي بيري) أعلى ربوة لا تبعد كثيرا عن مخنق الوادي . وكانت المليانة (Zucchabar) تشرف على الوادي من أعلى نجد وعر مطلّ من منحدرات زكار .

وعلاوة على المدن الواقعة على الساحل فقد توغّل الاستعمار الروماني حسب خطّين عسكريين يحاذي الأول البحر ولا شكّ أنّه رسم منذ الاحتلال وهو يمرّ من عين تيمو نشانت (Albulae) وحمام بوحجار (Dracones) وأربال (Régiae) وسان دونيسي (Tasaccora) وكسترانوفا (قرب بيريقو) والحليل (Ballene) وميناء (قرب ريلزيان) و Gadaum أو Cadaum Castra (ولاشك سانت ايمي) ويمرّ الثاني الذي رسم جنوبا في عهد سبتيموس سواريوس من للة مغنية (Numerus Syrorum) وتلمسان (Pomaria) ولاموريسيار (Altava) وشانزي (Caputtasaccora) وتمزوين (Lucu) وبنيان (Ala Miliaria) وتعزامرات (Cohors Breucorum) وقد أحدثت مراكز وراء هذين الخطّين في تيارت وفالديك روسو (Columnata) . وقد وزّعت على قدماء الجند حول هذه المراكز الأراضي فنشأت المداشر أو المدن .

5 – مدن موريطانيا الطنجية

كانت الحياة في موريطانيا الطنجية مركّزة في الموانئ . وقد أصبحت طنجة منذ عهد كلوديوس (42) وكانت إحدى العواصم وتشميش (Lixus) مستعمرتين وكانت طريق تربط طنجة بسلا ووليلى (قصر فرعون على بعد 30 كلم من مكناس) وكانت وليلى المشرفة على السهول التي كان يحتلّها الرومان مدينة مزدهرة منذ القرن الأول حيث جعل كلوديوس منها بلدية . وقد أتاحت حفريات حديثة الكشف عن قوس قراقالا وعن شوارع ومنازل

ومعاصر كما أبرزت الساحة العمومية بما فيها قاعة الاجتماعات وكذلك بعض التحف الفنيّة الرائعة : منها كلب من البرنز وهي صورة حيّة عن النحت الروماني، وغلام من البرنز وهو نسخة جيدة من أصل يوناني يرجع تاريخه إلى القرن الخامس قبل المسيح، ورأس من المرمر رأى فيه بعضهم ملامح شاب بربري، وتمثالان نصفيان على قدر عظيم من الروعة يمثل أحدهما بروتوس، والثاني أميرا يحمل إكليلا ذهب بيكار إلى أنّه يمثّل هيرون الثاني .

ولا تزال الحفريات متواصلة في تمودة (على بعد بضع كيلومترات من تطوان) وتاموزيدة (سيدي علي بن أحمد) وخاصّة بنازة الكائنة في أسفل وادي سبو حيث أزيح التراب عن ساحة عموميّة وما حولها من معالم أخرى.

6 ــ الساحة العمومية

كانت المدن سواء منها الأهلية والفلاحية كدقّة في البلاد التونسية وعنونة في الجزائر ووليلى في المغرب، أو العسكرية كتيمقاد ولمباز، أو البحرية كصبراتة ولبدة وقرطاج وأوتيكة وعنّابة وشرشال وطنجة توفّر جميعها المقوّمات الضروريّة للحياة في المدينة .

وكان لعامّة هذه المدن طريقان يلتقيان في الساحة العمومية وفي حالة ما إذا أنشئت المدينة من العدم كما هو الشأن بالنسبة لتيمقاد فإنّه يبدأ بتخطيط الساحة العموميّة حسب النموذج المألوف . وفي الحالات الأخرى فإنّ القوم كانوا يجهدون أنفسهم لإقحام الساحة العموميّة في الرسم الأوّلي بإدخال بعض التنقيحات وكانت الساحة العمومية في الغالب بطحاء مستطيلة الشكل تحيط بها أرْتِجَة تُفْضي إلى المعابد والمحلاّت الإدارية (قاعة اجتماع المجلس البلدي ، قاعات الاقتراع ، منابر للخطباء) والمباني الخاصّة بأصحاب الشكايات ورجال الأعمال . فكانت الساحة العموميّة رمز الحياة العامّة ومحورها، فيها يدلي الحكّام بتصريحاتهم ويُشرفون على مواسم الفداء ويُجرون المناقصات ويَقْضُون بين الناس وفي رحابها كان يصوّت المواطنون ويدفعون الأداء ويتاجرون ويقضون أوقات

فراغهم في التنزّه بين الأعمدة وقد تمّ الكشف في بلاد البربر عن ساحات عموميّة هامّة في صبراتة ولبدة بطرابلس والمداينة وبوغرارة وسبيطلة وهنشير قصبات ودقّة في البلاد التونسيّة وجميلة وخميسة وتيمقاد في البلاد الجزائريّة ووليلى وبنازة في المغرب الأقصى .

7 ـ قاعة اجتماع المجلس البلدي وقاعات الاجتماعات

كان يوجد في مدينة تيمقاد قاعة لاجتماع الهيئة البلديّة مستطيلة الشكل ذات ثلاث فتحات وفي أقصاها منصّة مقاعدها متحرّكة مزدانة بتمثالين وكان القوم يصعدون إليها من أحد الأرْتِجَة فَيَرْقَون مدْرَجا ويمرّون من بَهْو . وفي نفس الواجهة للساحة العموميّة كان يوجد المنبر الخاص بالخطباء وهو امتداد للقسم الأمامي من معبد صغير على غرار المنصّة الحجرية المقامة في رومة أمام معبد قيصر Rostra Julia .

وكانت قاعات الاجتماعات العامة تحتوي على رِوَاق فسيح مستطيل الشكل محفوف بأرتجة ذات طابقين فكان القوم يدرسون مسائلهم في الطابق السُّفلي ويتجوّلون في الطابق العُلوي . وقد يحتوي المبنَى على أروقَة كثيرة . وكان لهذه القاعات المقامة على الأعمدة حسب رسم يوناني ناووسٌ مستطيل ذو واجهة ضيِّقة وثلاثة أروقة .

وإلى هذا النموذج قد يجوز أن ننسب قاعة اجتماعات لبدة التي يبلغ طولها 92 مترا وعرضها 38 مترا تحيط بها أرتجة لها طابقان، وقد بنى مُعْظَمَها سبتيموس سواريوس وأكملها قراقالا، أمّا الدواوين في سيغوس وهي على بعد 40 كلم من الجنوب الشرقي من قسنطينة فقد عفَتْ مَعَالِمُهَا بعد أن كانت ماثلة للعيان سنة 1850 وكذلك الشأن في تبازة وعنونة وبوغرارة ووليلى . أمّا قاعة الاجتماعات بمدينة تيمقاد فلم يكن لها أطورة وكانت مقتبسة من النموذج الشرقي والنموذج اليوناني معا إذ كان مدخلها يفتح على الجانب الأكثر عَرضا وكانت منَصّةُ الحكّام مُقامة وسط أحد الجوانب الصغيرة كما هو الشأن في قاعات الاجتماع ذات الأرْوقة العديدة.

وقد أقيمت مراحيض عمومية كبيرة في الزاوية الواقعة بالشمال الشرقي من فوروم تيمقاد وفيها سلسلة من المقاعد المتتابعة تفصل بينها متكآت في هيئة دلافين وتوجد تحتها بلاعة .

8 ــ المعابد

كان لكل مدينة معبد يحتوي بالخصوص على قاعة مستطيلة غالبا ومتجهة من الشرق إلى الغرب ومقامة على مصطبة،وفي بعض الأحيان يوجد بهو يفضي إلى الناووس . وإذا أقيمت المعابد تكريما للثالوث الإلهي : جوبيتر وجونون ومنيرفا على غرار كابيتول روما فإنه يخصص غرفة لكل إله . وكان كابيتول تيمقاد يحتوي على ستة أعمدة أمامية وصفين من الأعمدة على الجانبين، وعلى قاعة كبرى (17 م × 11،20 م) في آخرها ثلاث غرف تشتمل على تماثيل عظيمة . وكان كابيتول سبيطلة بالرغم عن أنه مكون من مجموعة واحدة يحتوي على ثلاث قاعات مسبوقة كل واحدة منها ببهو وتفضي الوسطى منها إلى مصطبة مباشرة بينما تفضي الأولى والثانية إلى هذه المصطبة بواسطة مدارج وكان معبد جميلة المشيد تكريما لأسرة الامبراطور سبتيموس سواريوس مقاما في بطحاء معبدة طولها 33، 65 م وعرضها 39، 50 م وارتفاعها 4، 90 م ويتوصل إليها بواسطة مدرج عظيم . ووجود فسيفساء رائعة في نفس هذه المدينة تصور مشاهد تتعلق بإله الخمر يبعث على الاعتقاد بأنه أقيم فيها مبنى خاص .

وكانت للمعابد المقامة تكريما لآلهة شرقية هندسة خاصة،فكان في معبد بعل ساترنس بدقة بهو ضيق وطويل ينتهي أعلى الجانب الجنوبي من المبنى . وكان له صحن من بلاط يعتبر ملكا للإله يحوط به من ثلاثة جوانب رتاج كما توجد به ثلاث قاعات متلاصقة لا شك أن القوم كانوا يودعون فيها الكنز والنذور . وكانت لمعبد كليتيس ساحة مستديرة الشكل تحوط بها أرتجة . أما الصحن فكان يوجد أمام المعبد وتليه منظرة يشرف منها المتجولون على البطحاء (parvis) .

9 ـ المسارح والملاعب والملاهي

كان عدد المسارح في افريقية يفوق عدد الملاعب وكان مسرحا تيمقاد ودقّة منحوتين في ربوة كما هو الشأن في اليونان، أمّا مسرح تيبازة فقد كان بالعكس مبنيا ومن الممكن أن يتبيّن المرء إلى اليوم في مسرح تيمقاد الثُّقَبَ المستطيلة الشكل التي كانت تمكّن من تحريك الستار . وكان مسرح دقّة المشيّد في عهد مرقس أوريليوس يحتوي على 21 مَدْرجا تنقسم إلى ثلاثة أقسام بواسطة دَرابَزين . وتوجدفي مؤخّر الرّكح خمس درجات كبرى توضع فوقها مقاعد متنقلة . ويتركّب الجانب الأمامي من الرّكح من مَشَاكٍ عديدة لا تزال ماثلة إلى اليوم . وكان طول الركح 36،75 م وعرضه 5، 50ً م مفروشا بفسيفساء ، تحملها ترابة معتمدة على أقبية . وكانت توجد ثلاثة أبواب في الجدار الخلفي من الرّكح كما يوجد بابان على جانبي الرّكح يمكن منهما التوصّل مباشرة إلى مجموعة من الأعمدة قائمة أمام المسرح .

وكان للملاعب التي تجري فيها المباريات بين المتصارعين شكل اهليلجي متفاوت الكبر، وكان طول ملعب الكوليزيوم 187 مترا وعرضه 155 مترا . ولم تتوان مدن افريقية عن تشييد هذه الملاعب فقد تبرّع أحد أثرياء صبراتة بما يسمح بإقامة مقابلات بين متصارعين طيلة خمسة أيّام في ملعب هذه المدينة الذي بلغت أبعاده ثلثي أبعاد ملعب الكوليزيوم . وقد أمكن لعلماء الآثار أن يتعرّفوا في ملعبي قرطاج ولمباز إلى الأماكن المعدّة لكبار الشخصيات . ولا تقلّ أبعاد ملعب لجم (148 م على 122 م) الذي لا تزال آثاره الشامخة تشرف على هذه القرية وحدائقها إلاّ عن أبعاد الكوليزيوم وملعب بو زول (Pouzzoles) وكان ارتفاع ملعب لجم 36 مترا وكانت له ثلاث مجموعات من الحنايا المتراكبة تعدّ كلّ مجموعة ستين حنية مقامة كلّ واحدة منها على أنصاف أعمدة من طراز مركّب أو من الطراز الكورنتي يتوّجها جميعا جدار مزيّن . وكان يمكن لستّين ألف متفرّج مشاهدة الألعاب التي كانت تجري في الميدان الذي بلغ محوره الكبير 65 مترا وقد عثر في الدهليز على غرف خاصّة بالمتصارعين أو الحيوانات

كما يوجد أيضا مكان توضع فيه جثث المتصارعين قبل دفنها (le spoliaire) .

وإذا حُجِّر تنظيم مسابقات بين المركبات في ايطاليا منذ عهد أغسطس فإنّه كان في إمكان المقاطعات أن تشيد الملاعب، والملاحظ أنّه لم ينج واحد منها من عمل الزمان وكانت في شكل مستطيلات ذات ضلعين متوازيين طويلين جدّا، أمّا، الضلعان الآخران فصغيران أحدهما في شكل نصف دائرة والآخر مقوّس قليلا، وقد اكتشفت آثار منها في لبدة وقرطاج ودقّة وشرشال التي تجاوزت أبعاد ملعبها 400 متر على تسعين . أمّا ملعب لبدة الذي يعادل ملعب شرشال والذي يشقّ ميدانه طولا جدار طويل متركّب من خمسة أحواض متتابعة فإنّه سيتيح لعلماء الآثار ولا شكّ مفاجآت سارّة.

10 — الحمّامات

من المعلوم أنّ الحمّامات كانت تلعب دورا كبيرا في حياة الرومان وبالتبعية الأهالي المتأثّرين بهم وكان الاستحمام الكامل يشتمل على سلسلة من العمليات : التعرّق في غرفة شديدة الحرارة ، الاغتسال بالماء السخن، المكوث في قاعة معتدلة الحرارة ، الانغماس في الماء البارد ، تمسيد ودلك بالزيت .

وكانت الحمامات مبنيّة على نحو يمكّن من القيام بهذه العمليات المختلفة، إذ كان يوجد فيها قاعة مرتفعة الحرارة بها حوض ، وغرفة معتدلة الحرارة، وغرفة باردة فيها حوض، ومكان خاصّ بالتمسيد . وكان القوم عند الدّخول يودعون ثيابهم في غرفة خاصة لذلك ويقومون بعد الاغتسال بحركات في ميادين الرياضة ثم يتبادلون الأحاديث في قاعات أعدّت لذلك.

وكانت المدن حتى المتواضعة منها حريصة على أن يكون لها حمّام عمومي أو أكثر، وكانت الحمّامات كثيرة في افريقية ، وقد تمّ الكشف في لبدة عن حمّامات ترجع إلى القرن الثاني وكان قد جمّلها سبتيموس سواريوس وكان يوجد في قاعتها الرئيسية ثمانية أعمدة ضخمة من مادّة

السيبولين ارتفـاع الواحدة منها ثمانية أمتار يقوم عليها القَبو وفيها مشاك تحتوي على تماثيل منحوتة من المرمر اليوناني . وقد حافظت الرمال على جدّة بلاطات الغرف ، وصفائح المرمر التي تغطّي الجدران وعلى ما يقرب من ثلاثين تمثالا للآلهة من نمط رفيع في بعض الأحيان وكان يوجد في تيمقادحمّامات كثيرة، ويمكن للباحث أن يشاهد إلى اليوم في الحمّامات الكبرى الموجودة في شمال هذه المدينة وجنوبها الغرف وكأنّ الزمان لم يؤثـر فيها ، والركائز التي كانت تحمل الصفائح وأجزاء من القنوات الفخّارية التي كان يمرّ منها الهواء السخن طول الجدران وجانبا من ليقة وأحواض الاستحمام وكان أمام المدخل الرئيسي للحمّامات الكبرى الموجودة في جنوب جميلة المتّجهة من الشرق إلى الغرب رِتَاج له اثنا عشر رواقا (Travées) وكانوا يدخلون من بهو يفضي إلى قاعة للرياضة على شكل قبوطولها 12،83 م وعرضها 20،31 م ويمرّون من إحدى قاعتي الملابس إلى قاعة التبرّد وهي فسيحة الأرجاء (voûtés en arêts) ثريّة بالفسيفساء وصفائح المرمر وفيها حوضان صغيران وحوض كبير طوله 12،66 م وعرضه 22،5 م تفصله عن الحوضين الآخرين مجموعة من أعمدة المرمر الوردية اللون . وتأتي بعد ذلك الغرفة السخنة وفي جانبيها منفذان يفضيان إلى الغرفة المعتدلة الحرارة وإلى حوض صغير ماؤه سخن وأخيرا إلى المِحَمّ (étuve).وتفضي الغرفة المعتدلة الحرارة إلى قاعة التمسيد . ونفس هذا النظام يوجد في الشمال والجنوب . وقد أضيفت إليها المراحيض كما هو الشأن في تيمقاد وكانت الحمّامات الافريقية تحتلّ مساحات كبيرة : 2 600 م مربّع في جميلة و 3 000 في لمباز وما يقرب من 4 000 في تيمقاد. أمّا حمامات لبدة — وهي أعظمها شأنا — فقد تحتلّ بالإضافة إلى توابعها ما يقرب من ثلاثة هكتارات .

11 — الأسواق والدكاكين

أصبح الفوروم بازدهار المدن عاجزا عن سدّ الحاجات المحلّية فوجب إنشاء أسواق وهي عبارة عن ساحات مكشوفة غالبا ما تكون مستطيلة الشكل يوجد في وسطها حنفية وتحوطُ بها أرتجة تنفتح عليها دكاكين . وكان لسوق سرتيوس في تيمقاد الموجودة أمام بطحاء فسيحة الأرجاء ساحة طولها 25 مترا وعرضها 15 م فيها بركة مربّعة الشكل وعندما يدخل المرء

يواجه مبنى في شكل نصف دائرة يشتمل على سبع غرف أقيمت أمام كلّ واحدة منها صفائح من الغرانيت الأزرق على ارتفاع قدره متر تعرض عليها البضائع وكانت دكاكين كوزينيوس (Cosinius) في جميلة شبيهة بدكاكين تيمقاد ولكنّها أكثر خزَفا كما كان لهذه السوق رِتاج خارجي مرفوع على ستّة أعمدة وساحة وبركة وغرفة للموازين وتماثيل للمؤسّس وأخيه والاله مركور (Mercure) .

وإلى جانب الأسواق كانت توجد دكاكين كثيرة، ففي تيمقاد كان عدد كبير منها يفتح على رِتاجين على حافة الشارع الرئيسي .

12 ـ المكتبات

لقد عثر لأوّل مرّة في تيمقاد على آثار إحدى تلك المكتبات العمومية التي كثيرا ما ورد ذكرها في النقوش والنصوص اللاّطينية ويرجع الفضل في تأسيسها إلى كرم مواطن ثَرِيّ . وكانت هذه المكتبة عبارة عن قاعة في شكل نصف دائرة تُواجِهُ الداخل إليها مشكاة كبيرة وضع فيها ولا شك تمثال الآلهة مينرفا . وكانت الخزائن الكثيرة المشدودة إلى جدرانها وقاعات المستودعات الإضافية الثلاثة مشحونة بالمخطوطات بحيث كان في الإمكان بهذه الطريقة وضع 300 2 مجلّد في مكان ضيّق نسبيا .

13 ـ أقواس النصر

كانت "السلم الرومانية" تعفي المدن البعيدة عن الحدود من إقامة الأسوار لحماية ترابها . وسرعان ما تجاوزت المستعمرات نفسها ، كما فعلت تيمقاد ، الأسوار التي أقيمت حولها حسب العادة عند تشييدها . ولقد بقيت هذه المدن محصورة في نطاق هذه الأسوار، إلاّ أنّ هذه الأسوار كانت تحيط أحيانا بالمدينة وأحوازها القريبة كما هو الشأن في شرشال حيث بلغ طولها سبعة كيلومترات تقريبا . ويرجع تاريخ تحصينات هذه المدينة إلى أواسط القرن الأول تقريبا غير أنّ أسوارا كثيرة تمّ تشييدها ابتداء

من القرن الثالث عندما تفاقم اختلال الأمن كما وقع ذلك بالنسبة لتحصينات سهول سطيف .

وكثيرا ما كان يوجد في مدخل المدن حتى التي لم يكن لها أسوار أبواب ضخمة وأقواس نصر، لها غالبا فتحة واحدة كما هو الشأن في دقّة وسبيطلة وحيدرة وجميلة، ولها أحيانا فتحتان كما نجد ذلك في عنونة، ولها في كثير من الأحيان ثلاث فتحات : فتحة كبرى في الوسط وفتحتان صغيرتان على جانبيها كما هو الأمر بالنسبة لقوس نصر تراجانوس في تيمقاد وسبتيموس سواريوس في لمباز، وقلّما يكون قوس النصر متركّبا من أربع فتحات كما كان ذلك بالنسبة لقوس قراقالا في تبسّة وقوس مرقس أورليوس في طرابلس حيث كان على المهندس أن يحلّ المشكل العويص المتمثّل في الانتقال من بناء ذي زوايا أربع غير مربّع الشكل إلى القبّة، وكان هذا القوس بمثابة رتاج حقيقي يتقدّم الباب الكائن في الجنوب الغربي .

وابتداء من القرن الثاني عدل القوم عن إقامة الأعمدة في الزوايا الخارجية على سبيل الزينة، أمّا الأعمدة التي كانت بمثابة الإطار بالنسبة لفتحة القوس الوسطى فإنّها رفعت من المبنى ووضعت على قواعد ناتئة ومرتفعة على نحو ما يوجد في قوس تيمقاد، وكانت الأقواس في غالب الأحيان كثيرة النقوش فكانت نقوش طرابلس تمثّل مرتين ما بلغه مرقس أورليوس من أوج الانتصار . أمّا نقوش قوس سبتيموس سواريوس في لبدة فقد كانت موجودة في الواجهات الأربعة، وكانت تروي حياة الامبراطور وانتصاراته ويرى فيها الناظر الامبراطور واقفا في عربة صحبة أبنائه، أو يراه وقد تقمّص ملامح جوبتر وسط جماعة فيها الإلهة رومة وعائلته والحكّام وهو يشاهد مصرع ثور قد ضحّى به شخصان .

وقد كشفت فأس علماء الآثار عن الكثير من أطلال المباني الكبيرة ولكنّها لم تكشف عن عدد كبير من أطلال المساكن التي لم تكن في الغالب فسيحة ولا فخمة، فقد كانت الارستقراطية المحلّية توجّه جهودها إلى تشييد المباني العمومية وتحسينها. ولم يكن صغار الملاّكين والتّجار حريصين على رفاهية منازلهم الخاصّة وإذ لم يبذل الأغنياء مالاً كثيرا لتوفير

الكماليات فيما كانوا يملكونه بالمدينة من منازل ليس بينها وبين المنازل المتواضعة فرق يذكر في غالب الأحيان فإنّهم فعلوا ذلك في دورهم الريفية حيث كانوا يستطيبون المقام — إلاّ أنّه توجد استثناءات لذلك . فما احتوت عليه بعض المنازل بقرطاج وجميلة من ثروة الفسيفساء وسعة في البناء، وما يوجد فيها من حمّامات يقيم الدّليل على أنّ ملاّكيها كانوا يحنّون إلى التمتّع ونعيم البيت . كما تدلّ المنازل المبنيّة في جوف الأرضية بحمّام الدراجي على تعلّق القوم بحياة الرخاء في منازلهم .

ولكنّ مستوى الفنّ في المدن والأرياف لم يكن راقيا جدّا . فهندسة البناء كانت منصرفة إلى تعداد المنازل المتشابهة، وفنّ النقش كان مقتصرا على تقليد نماذج لم تبلغ قيمتها المستوى المتوسّط وقيمة الفسيفساء تاريخية أكثر منها جمالية، وكانت القبور تقليدا لأمثلة ايطالية كثيرا ما تنقصها الدّقّة والمهارة، ولم يكن البربري الذي تغلغلت فيه الحضارة الرومانية (شأنه شأن الروماني) ذا ذوق مرهف ولكنّه كان يميل إلى الصلد والصالح والعملي. إلاّ أنّه من الممكن أن تكون الانطلاقة التي كان يوبا سببا فيها في شرشال قد استمرّ مفعولها بعده.

II — الثقافة الرومانية

لمّا ألف الحضر مهن الحياة في المدن ذات المباني الشامخة — وإن تجلّت الفخامة والعظمة في المؤسّسات العمومية خاصة — ولمّا اندمجوا في جماعات أتاحت لهم أن يشاركوا مشاركة إيجابية مستمرّة في الحياة العامة تأثّروا برومة . ولكنّ تأثّرهم كان سطحيّا إذ بقوا أفارقة أصيلين. فكان يكفي أن تضعف قوى الامبراطورية ليزوّرعنها هؤلاء البربر الذين تأثّروا في الظاهر بالرومان إلاّ الطبقة الارستقراطية فقد بقيت على وفائها لرومة تُعاضدُها في ذلك الكنيسة . وقد أمكن للملاّكين الأفارقة بفضل قُوَى الأمن أن يَسْتَبْقُوا في شبه عبودية طبقة البربر العاملين في أراضيهم، وأن يتمتّعوا بثرواتهم في مأمن من نهب الناهبين . وإنّ ما تعوّد به سُكّان المدن من حياة في كنف النظام والسلطة يبين إلى حدّ ما ولا شك لم استقبلوا بحماس بعد هزيمة البيزنطيين وثورة أهل الأرياف الفاتحين العرب الذين أقرّوا من جديد حكومة نظاميّة ومكّنوهم من دواليب الاقتصاد ضدّ العدوّ المشترك ألا وهو البدويّ البربري المناهض للنظام على دائم الأبد .

1 – اللغـة اللاّطينيـــة

لم تَعرف رومة الحقد العنصري ّ ولا التعصّب الدينيّ، ولكنّها لم ترضَ لأسباب سياسية بأن تعوّض اللغة اللاطينية لغة أخرى. قال القدّيس أغسطينوس: "إنّ الدولة الرومانية التي تعرف كيف تحكم الشعوب لم تفرض على المغلوبة منها سيطرتَها السياسية فحسب بل لغتَها أيضا."

وقد اضطرّت الحياة الحضريّة عددا كبيرا من البربر إلى تعلُّم اللغة اللاّطينية المفروضة في المحاكم والمجالس البلدية والكتائب، وبقي الكثير منهم يتخاطبون فيما بينهم باللغة اللِّيبية ولمدّة معيَّنة اللغة البونيقية، ولكنّهم كانوا يستعملون اللاّطينية في علاقاتهم الرسمية أو لقضاء حاجاتهم. أمّا في الأرياف فليس من شك في أنّ القوم ظلُّوا دهرا طويلا يجهلون لغة المُغيرين.

2 – التعليم

لقد ساهم التعليم في نشر اللغة اللاّطينية، فتسابقت البلديات والأثرياء – من دون تدخُّل الدّولة – في فتح المدارس حتى في القُرى. فكان على التلامذة الافريقيين أن يتعلَّموا كالرومان واليونان أوّلا القراءة والكتابة والحساب تحت رعاية معلّم (littérator primus magioter) ثم إذا هم راموا مواصلة دراستهم، كان عليهم أن يتَلَقَّوْا الآداب عن نحويّ يُحفِّظُهم عن ظهر قلب أمّهات الكتب، ويشرح لهم قواعد النحو، ويسهر على سلامة نُطقهم ويُدرِّسهم الآداب، خاصة القديم منها، ويطالبهم بالإنشاء في اللغة اللاّطينية، ويلقّنهم أيضا مبادىء الموسيقى والعَروض والفلسفة والرياضيات والفلك. إنّ هذا التعليم كان شديد الوطأة على نفوس الطلبة؛ ولقد عبّر عن ذلك القديس أغسطينوس عند الحديث عن أيّام دراسته الأولى، وما ناله من ضربات المعلّم أثناءها فقال: "من الذي لا يروعه أن تُعادَ لَهُ طفولتُه ولا يُؤْثِر الموتَ إذا هو أتيح له أن يحيا حياته من جديد." وكان هذا القدّيس يتذكّر بمرارة ما كان يشعر به من ملل عند دراسة مغامرات انياس، وديدوني، ويستحضر تَقَزّز زملائه من أبياتٍ هوميروس، و فيرجيليوس المحفوظــة قسراً.

وعندما يبلغ الطالب الذكي أو الثري السابعة عشرة من عمره ، يترك النحو جانبا ، ويقصد أساتذة المدن الكبيرة . وكانت البلديات تحرص شديد الحرص على جلب من ذاع صيته من المدرّسين إلى مدارسهم التي نسميها تجوّزا جامعة . وفي هذا الصّدد لمع في نوميديا نجم سيرته وتبسّة . وقد واصل في مداوروش القديس اغسطينوس في أواخر القرن الرابع دراسته التي بدأها في سوق أهراس (Thagaste) . وكانت سوسة وطرابلس ولبدة تجلب طلبة افريقية وليبيا . ولكنّ قرطاج كانت العاصمة الفكرية بقدر ما كانت العاصمة السياسية . وكان من حسن الذوق أن يظهر المرء آخذا من الآداب بطرف. فقد توجّه ابليوس إلى القرطاجيين الذين كانوا يهتفون به في المسرح قائلا : "إنّي لا أرى في مدينتكم إلاّ رجالا كرعوا من مناهل الثقافة ، وتبحّروا في جميع العلوم : أخذوا العلم صغارا ، وتحلّوا به شبّانا ، ودرّسوه شيوخا . إنّ قرطاج لهي المدرسة المقدّسة في مقاطعتينا ، وهي عروس الشعر في افريقية ، وهي أخيرا ملهمة الطبقة التي تلبس الحُلّة" **(نقل فالات)** .

وكان القوم ينصرفون بالخصوص إلى مزاولة دروس البلاغة والشعر . لقد كان الخطيب في المقام الأرفع في افريقية "مغذّية المحامين" على حدّ تعبير جوفينال . لقد كانت تغلب على الأدب والتاريخ والفلسفة النزعة الخطابية، وإذا لم تجد الخطابة متنفّسا لها في الحياة العامّة فإنّها تتجلّى في التمارين المدرسيّة وفي النوادي الخاصّة .

وكان الطلبة ينحدرون بصفة عامّة من الطبقة الارستقراطية القاطنة في البلديات . وكان بعض الأغنياء يشمل أحيانا برعايته أحد الشبّان البربر النُّجباء ، فيمكّنه من تنمية ملكاته في قرطاج . ولم يكن هؤلاء الشبّان جميعهم ، مثلا يُحتذى في المواظبة والفضيلة . فكانوا يرتادون المسارح والملاهي وينغمسون فيما سمّاه القديس أغسطينوس متندّما "مرجل الأهواء التي يندّى لها الجبين" . وكان عدد منهم مثل أغسطينوس لا يقل ولوعهم بحبيباتهم عن ولوعهم بالدرس . وكان آخرون يؤلّفون عصابات من المشاغبين ، فيهجمون على قاعات الدرس ، ويشاكسون الأستاذ ، ويُشبعون الطلبة الوديعين لكما وضربا .

وكان التعليم الذى يقوم به النحاة يزوّد افريقية بالإداريين والمحامين البارعين وبعض الحكّام الأعلام، وأشهرهم سالفيوس جوليانوس (Salvius Sulianus) أصيل حضرموت (سوسة) وصاحب "القانون الايدى" (سنة 129) ويزوّدها أيضا برجال كانت ثقافتهم إلى السطحية أقربَ منها إلى العُمْق.

3 ــ الأدب الروماني

إنّ هذا التكوين تبدو آثاره في المؤلّفين الأفارقة ، المسيحيين منهم ، والمشركين . ففي قرطاج تعلّموا كيف يستسيغون الافلاطونية الحديثة ، والتصوّف الفلسفي ، وتأمّلات مدرسة الاسكندرية، وفيها تحمّسوا لسلسطيوس وفيها كذلك هذّبوا ميلهم الطبيعي إلى الخطابة العنيفة اللاّذعة المتحدّية . إنّهم لم يكونوا بارعين في الكتابة بقدر ما كانوا بارعين في الجدال المرتجَل . ولقد نشأ عن طبعهم الذى كان يحملهم إلى الاهتمام بمادّة فكريّة غير متنوّعة ضرب طريف من التفكير والتعبير يزخَران حيوية .

لقد كان الشاعر منيليوس افريقيا ولا شك، فهو الذي عالج في عهد تيبيريوس وبأسلوب خطابي ، ولكنّه متدفّق حماسا ، موضوعا كان البربر المعروفون بالتطيُّر مشغوفين به: ألا وهو معرفة الغيب بالاستناد إلى الطالع . وكان كُرْنيتوس افريقيا ولا شك ، وهو الخطيب والفيلسوف الرواقي الذي أصبح شيخ مدرسة برومة في عهد كلوديوس ونيرون . ومن الأفارقة أيضاً سبتيموس سواريوس الخطيب ، جدّ الامبراطور ؛ وكان يتمتّع بسمعة ثقافية كبيرة حتى في أوساط مشاهير المؤلّفين ، ومنهم فلوروس الذي كاد يُجنّ عندما لم يحرز على جائزة الشعر في مهرجانات الكابيتول ، ثم أصبح من أشهر خطباء العاصمة في عهد هادريانوس وتحوّل فَجأة إلى مؤرّخ أو بالأحرى إلى مادح مُشيد بمزايا الامبراطورية . فقد طاب له أن يتفلسف في عظمة رومة عندما ألّف تاريخا مختصرا لكلّ الحروب منذ عهد الملوك . ومنهم فرونتيوس ، أصيل سيرته وهو "خطيب وقنصل وأستاذ امبراطوري" كان له من ذيوع الصيت ما حمل أنطونان على تكليفه بتلقين الأميرين الشابّين مرقس أورليوس ول. فاروس البلاغة اللاّطينية

ولكنّ فصاحته التي لا ينضب لها مَعين البارعة في كثير من الأحيان المصطبغة في بعض الحالات باللون الشعبي تناولت مادّة فقيرة تُعوزها الطرافة .

4 ـ أبليوس أصيل مداوروش

كان أبليوس (ل. أبليوس المولود حوالي سنة 125) من أشهر الكتّاب الأفارقة . لقد كان غريب الأطوار كثير المتناقضات، فهو جدّي وطائش ، متطيّر وشاكّ مُعجب بنفسه، طليق اللِّسان ، لا يطيقه الناس ويُبهرهم في نفس الوقت، لقد انحدر من الطبقة الارستقراطية في مدينة مداوروش حيث أصبح أبوه أحد الحاكمين الاثنين في أوائل القرن الثاني، وواصل بطبيعة الحال دراساته العالية في قرطاج واستكمل ثقافته أثناء رحلات قام بها في ايطاليا واليونان وآسيا الصغرى . وفي أثينا أغرم بالافلاطونية المدرسية التي ظلّ يدرسها طيلة حياته . وانبرى بكلّيته يطلب العلوم . ولا شك أنّه ارتاد دروس مشاهير السفسطائية وتلقّن غالب الأسرار التي تضمن للمؤمنين حياة أبدية سعيدة .

وصادف أثناء إقامته في طرابلس أن وقع في مغامرة غريبة، ذلك أنّه ما إن تزوّج من أمّ أحد أصدقائه ، وكانت إلى ذلك الوقت ممتنعة امتناعا شديدا من التزوّج ثانية ، حتى اتّهم بأنّه سحرها . وقد أخذ أحد المحامين على نفسه أن يقيم الدّليل على أنّه كان يحترف السحر وأنّه بذلك يقع تحت طائلة القانون . وقد حفزته هذه التهمة على أن يدافع عن نفسه دفاعا رائعا إن لم يكن كلّه مُقنعا وأنحى على خصومه باللاّئمة لأنّهم خلطوا بين الفلسفة والسحر . وقد حرّر خطابه بعد ذلك في صيغة إيجابية فأصبح يعرف بالابولوجيا (Apologie) ولا شكّ أنّ تأثير هذه التهمة لم يكن كبيرا إذ تمكّن أبليوس بسهولة من الرجوع إلى قرطاج حيث كان نجاحه سريعا . ولم يَعُقْه في ذلك لا الجمال ولا الفكر ولا المال . وسرعان ما أصبح قبلة الأنظار في هذه المدينة، والمُحاضر المحبوب الذي يعالج جميع المواضيع وخاصّة الفلسفيّ منها . ولقد احتفظت لنا الأزاهير (Florides) بثلاث وعشرين قطعة من خطاباته تتفاوت طولا جمعها أحد المُعجَبين به "كباقة" جمعت، أجمل زهور بلاغته "وكان يتبجّح فيها بأنّه يتقن الفنون

على اختلافها وكان يتوجّـه لمساعد القنصل في شيء من الخيلاء البريئة قائـلا : "أعترف بأنّي أوثر من بين الآلات شقّ القصب البسيط أنظم به القصائد في جميع الأغراض الملائمـة لروح الملحمـة أو فيض الوجدان، لمرح الملهاة أو جلال المأساة . وكذلك لا أقصر لا في الهجاء ولا في الأحاجي ولا أعجز عن مختلف الروايات، والخطب يثني عليها البلغاء، والحوارات يتذوّقها الفلاسفة ثم ماذا بعد هذا كلّـه ؟ إنّي أنشيء في كلّ شيء سواء باليونانية أم باللاّطينيّة بنفس الأمل ونفس الحماس ونفس الأسلوب" (نقل ب. فالات) .

نعم إنّه كان يكتب القصص المتنوّعة ولا شكّ أنّ أحسنها المسوخ (les métamorphoses) التي كانت تسمّى منذ القدم بالحمار الذهبي، والتي ألّفهـا لا في تيه شبابه بل حوالي سنة 170 في قرطاج . والكتاب قصّـة كان رواها لوسيان في كتابه الحمار لتحول المدعو لوسيوس إلى حمار يعود إلى صورته الآدمية الأولى بعد مغامرات عديدة تتخلّلها أطوار جزئيـة مثل قصّـة بسيشي وكوبيدون الرائعة .

ولا تزال المناقشات متواصلة امعرفة ما إذا كان أبُليوس ألّف كتابه باليونانية أولا وهل كان لحمار لوسيان والمسوخ مصدر مشترك أم هل أنّ المرجع الأصلي هو قصّـة لوسيان المطوّلة يكون "الحمار" ملخّصا لها، ومهما يكن فإنّ رواية أبليوس المتنوّعـة الطبيعية المحشوّة بدقائق العادات والتي تتتابع فيها أحاديث الفسق والتقوى هي من الكتب اللاّطينية القلائل التي لا تزال تقرأ من دون ملـل .

وإنّه يتعذّر أن نعرف بالضبط هل أنّ كتّاب افريقية ينحدرون من معمـرين رومان . وأغلب الظنّ أنّ أكثرهم كانوا من البربر المتأثّرين بالحضارة الرومانية الذين عبّـروا في لغة الفاتحين عمّا كانت اللغـة الليبية وحتى البونيقية قاصرة دونـه .

III ـ الديـانـة الرومـانيـة
عبـادات الأهـالى وأوائـل المسيحيـة

1 ـ الديـانـة الرومانيـة

لم يقتصر الأفارقة على استعمال لغة أهل الغلبة بل تبنّى الكثير منهم معتقداتهم الدينية التي كانت جزءا لا يتجزّأ من الحضارة الرومانية . فقد كان من مصلحة الدّولة المتسامحة إزاء جميع الديانات ما عدا المسيحيّة أن تشجّع عبادة الامبراطور . فكانت الجمعيات في المقاطعات لا تحصل على الولاء فحسب بل تمكّن الامبراطور من مراقبة الوُلاة مراقبة أشدّ حزما . وكان لكلّ مقاطعة افريقية مجلسُها، وابتداء من عهد فسباسيان أي في فترة متأخّرة بالنسبة لبقيّة أجزاء الامبراطوريّة، وكان على مجلس مقاطعة البروقنصلية أن يجتمع في قرطاج وفيها أيضا كان مقرّ القسّ الذي تنتخبه أرستقراطية المقاطعة لمدّة سنة . وكانت هذه الوظيفة الشرفية مرغوبا فيها كثيرا . وقد اعتبر ابليوس تولّيه لهذه الوظيفة بلوغا لقمّة المجد فأقام على نفقته حفلات رائعة في العاصمة بهذه المناسة .

وكانت الجماهير الغفيرة تحضر الحفلات المقامة عبادة للامبراطور من طواف وأضاح ومآدبَ مقدّسة وصوّر لنا ترتوليانوس مشهدا رائعا ـ وإن لم يكن أمينا ـ للأفراح الشعبية التي كانت تواكب الحفلات الدينية في آخر القرن الثاني : "إنّه حقا لتكريم عظيم هذا الذي توضع بمناسبته المواقد وأسرّة الأكل في الساحة العموميّة وتقام أثناءه المآدب في كلّ حيّ من المدينة ، وتنقلب فيه المدينة إلى ماخورة ويختلط الوحل بالخمر ويتسابق القوم جماعات إلى الاعتداءات وضروب الخلاعة والمجون" (نقل J. P. Waltzing) فهلاّ يخيّل إليك أنّك تستمع إلى ما يتصاعد اليوم من أفواه المترمّتين تشهيرا بأفراح عيد الفصح في بعض مدن الجزائر ؟

2 ـ دوام العبـادات الأهليـة

لم يشارك الشعب في هذه العبادة الرسمية إلاّ ليترك العنان لشهواته وإذن فإنّ هذه الدّيانة لم تتغلغل في نفوس الجماهير الأهلية . ولم تحُلْ

السيطرة الرومانية دون انتشار العبادات اللّيبية والبونيقية بل يذهب بعضهم إلى القول بأنّها أعانتها على الانتشار . وتشهد آلاف النذور المرسومة على الخزف والنقوش والنقود المكتشفة بأنّ القوم بقُوا يعبدون تحت اسم سترنس أغسطس بعل حمُّون في صورة شيخ جالس على عرش يمسك بيده اليمنى مِنْجَلا كما تشهد بأنّ تانيت إلهة قرطاج وحاميتها لم تزل تعبد تحت اسم كيلتيس وربّما اتّخذت هيئة الهة أمّ ترضع ولدا .

وقد عرّفنا نقش ناتىء يرجع تاريخه إلى العهد الروماني وقع العثور عليه بأسماء بعض آلهة البربر وهي ماكورتا ، يونا ، ماكورڨوس ، ماتيلا فيهينا، بونشور، فارسيسيما : (Macurgus, Mácurta, iuna, Matila, Varsissima, Vihina, Bonchor) ولكنّ شخصية هذه الآلهة لم تزل من سوء الحظّ يكتنفها الغموض . ومهما يكن فإنّ عبادة الآلهة المحلّيّة والجنّ والمغارات والأشجار والجبال والحيوان وحتى عبادة الأوادم المتمثّلة في تقديس ملوك البربر القدماء قد بقي لها أتباعها .

أمّا الطبقة الارستقراطية فقد استعاض عنها معظم أفرادها بالهة رومانية أي ثالوث الكابتول ومارس وهرمس حامي تجّار الزيت وسيريس وباخوس وأسكولاب المشرف على العيون المعدنية أو بالآلهة الشرقية ، ايزيس وأوزيريس ومترا . ولكنّ الشعب بقي متمسّكا بتقاليده القديمة . فغالب التسابيح الخاصّة بالآلهة البربريّة والباقية إلى اليوم صادرة عن مدن "أجنبية" . وكانت العبادة الحقيقية يقوم بها الفرد وحده والعائلة فإذا نظرنا في 400.1 من نقائش الإهداء المتقرّب بها إلى الآلهة لانجدإلاّ اسم موظّف رسمي واحد وبعض الضبّاط والجنود وعددا يكاد لا يذكر من أعوان إدارة مساعد الامبراطور وبعض الحكّام البلديين من دون أن يتجاوز جميعهم الستين. أمّا الباقون فهم بربر ليست لهم صفة رسمية ولا حقّ المواطنة وقد عبّر أكثرهم عن حماسه الديني بشدّة تقواه في عبادته للآلهة . وكان تأثير رومة على هؤلاء معدوما . وخلافا للبرجوازيّة المقيمة في البلديات صَمَدَتْ أغلبية البربر المتمسّكين أشدّ التمسُّك بتقاليدهم في وجه الديانة الرومانية كشأنهم إزاء الحضارة الرومانية .

3 – انتشار المسيحية

وجدت المسيحية في بلاد البربر استعدادا طيّبا إذ قد تهيّأت الطبقة الارستقراطية إلى الوحدانية بفضل الفلسفة، وتهيّأ الشعب بواسطة الديانة البونيقية التي كان أصحابها يدينون بإله واحد من دون أن يسلّموا بأنّه أوحد . ولذلك سجّلت تقدّما سريعا .

وقد حاول علماء وأتقياء اعتمدوا على تقواهم أكثر من اعتمادهم على روح الدقّة الرجوع بالدعوة المسيحيّة في طرابلس والبروقنصلية إلى عهد المسيح ولكنّ الشهادات التي استظهروا بها حديثة ومشكوك في صحّتها . وأغلب الظنّ أنّ المسيحية دخلت من المواني وخاصّة من قرطاج وأنّها وجدت أنصارا لها في جوامع اليهود (Synagogues) ومن المواني انتشرت داخل البلاد . قال ترتوليانوس سنة 197 "إنّك تلاحظ بنفسك كثرة عددنا إنّ النّاس يتضجّرون من احتلال المدينة ومن أنّ المسيحيين في كلّ مكان حتى في الحقول والقرى المحصّنة والجزر . وإنّ كلّ الأسماء مهما كان الجنس والسنّ والمرتبة أصبحت مسيحية ثم أنهم يتألمون كما لو أن خسارة لحقت بالدولة" ثم يتوجّه بعد خمس عشرة سنة إلى بروقنصل افريقية قائلا : "إنّنا جموع غفيرة تكاد تكون أغلبية في كلّ مدينة" . إنّها مبالغة محامٍ ولا شك ومحامٍ افريقيّ بالخصوص، ولكن ما كان يمكن أن تصدر منه لو لم تؤيّدها بعض الظواهر، والأمر الذي لا شك فيه هو أنّ مجمع قرطاج وهو أوّل مجمع افريقيّ ذكره التاريخ كان يشتمل في أوائل القرن الثالث على سبعين أسقفا من البروقنصلية ونوميديا تحت رئاسة الأسقف اقريبينوس (Agrippinus) .

4 – الاضطهادات

إنّ أوّل ما يذكره التاريخ عن افريقية المسيحية هو حادث الشهيدة الواقع سنة 180 . ومنذئذ لم ينفكّ حماس البربر المتدفّق يقدّم الضحايا إلى المضطهدين . قال أغسطينوس في هذا المعنى: "إنّ أرض افريقية مملوءة بأجساد القدّيسين الشهداء" . ولذا ندرك كم سلّط القمع في عنف

لا مثيل له على الأهالي المعروفين بالشغب وروح التمرّد . وكانت رومة متسامحة إزاء جميع المعتقدات ولا ترى مانعا من أن يمسك اليهود عن عبادة الامبراطور، ولكنّها كانت تقاوم بلا شفقة المنظّمات التي قد نسمّيها اليوم دولية ووجدت المسيحية الناشئة نفسها إزاء السلطة المركزية من حيث المذاهب والنظريات الجماعية في موقف شبيه بموقف الأحزاب الثّورية من حكوماتها التي تسمح لها بالنشاط في النطاق القومي، ولكنّها سرعان ما ترتاب من أمرها إذا تجاوز نشاطها الحدود . فكانت هيبة الدولة لا تتعارض مع وجود اليهوديّة داخل البلاد ولكنّها ترفض وجود نحلة يهودية وعالمية لا عسكرية وفوضويّة في آن واحد .

وكانت الحكومة ترمي إلى الإكثار من عدد المرتدّين لا الضحايا . ولم تعتقد في صحّة التهم الشنيعة الموجّهة إلى المسيحيين ولا في ما كان يلصق بالجمعيات السرّية من دعاو ، إذ كان يكفي أن يعلن المتّهم عن ارتداده حتى يطلق سراحه، وقد أمر تراجانوس بأنّه إذا ألقي القبض على أعضاء نحلة مناهضة للمجتمع وأصرّوا على الانتساب إليها وجب قتلهم، أمّا إذا وشى بهم واش فإنّه من الواجب تتبّعهم في نطاق الضمانات القانونية التي تحمي الأشخاص من وشاية الواشين . ولم تأمر غالب الحكومات بالاضطهاد الجدّي إلاّ عندما كانت مدفوعة إلى ذلك بمظاهرات شعبية عنيفة، وقد أمكن لترتوليانوس أن يعلن عن إيمانه في كثير من التحدّي من دون أن تناله العدالة . وامتنع القدّيس قبريانوس من استغلال التسهيلات التي تمكّنه من الفرار من سجنه، ويروي ترتوليانوس أنّ الولاة كانوا يلقّنون المتّهمين الجواب أثناء محاكمتهم كي ينقذوهم، ولا يكفّون عن ذلك إلاّ عندما تتعالى أصوات الجماهير .

ويظهر أنّ المسيحيين في افريقية لم يشعروا بالحاجة طيلة القرن الثاني تقريبا إلى التستّر عند القيام بشعائرهم الدينية، وأنّهم نظّموا المدن من غير أن يعوقهم عائق دون ذلك . وأوّل اضطهاد كان سببه حادث محلّي ففي 17 جويلية 180 أمر البروقنصل بقطع رؤوس 12 مسيحيا في قرية شلي .

وإذا صدّقنا ما جاء في تاريخ أغسطس فإنّ سبتيموس سواريوس يكون منع الدعوة اليهوديّة والتبشير المسيحي . ولم يذكر لا هيروديانوس

ولا ديون كسيوس قانونا لم يقع تنفيذه . وفي الواقع فإنّ المؤرّخ لاحظ اضطهادا عامّا بل وجود تتبّعات عدلية في جهتين يبلغ فيهما حماس الطبقات الشعبية مبلغا كبيرا وهما الاسكندرية وقرطاج .

فقد تمّ إيقاف خمسة مسيحيين سنة 203 في بلدة قريبة من عاصمة البروقنصلية وهي طبربة (Thuburbo Minus) وكانت بينهم امرأة في عنفوان الشباب تنحدر من الطبقة الارستقراطية لم يتجاوز عمرها الثانية والعشرين تزوّجت وولدت طفلا مازال رضيعا واسمها القدّيسة بربوتيا(Vibia perpetua) وقد سجن معها شخصان فقيران لم يمرّ على دخولهما المسيحية زمن طويل وعبدان . وسرعان ما انضم إليهم سادس عن طواعية وقد حوكم هؤلاء المتّهمون في قرطاج ورمي بهم إلى الحيوانات الضارية . وقد وصل لنا خبرهم المؤثّر عن طريق قصّة مستوحاة من النحلة المنطانوسية وينسبها البعض إلى ترتوليانوس وهي مرجع ممتاز لمعرفة النفسية المسيحية ولمعرفة ما كان يحدث في العائلات من فتن بتأثير التبشير ومن وجد الشهداء ورؤاهم وفظائع الملاعب ولكنّها أيضا أثر تغلب عليه مسحة من السذاجة ويطغى عليه رغم ذلك جوّ المأساة ، فهو بسيط وبطوليّ في آن واحد تبرز فيه ملامح وجه بربوتيا التي أُفعم قلبها محبّة وخيرا وهي تتألّم بوصفها أُمّاً وبوصفها فتاة، ولكنّها أشدّ ما تكون رغبة في الاستشهاد الذي سوف يفرّق بينها وبين جميع من تكنّ لهم الودّ .

وبعيد موت سبتيموس سواريوس أبَى مسيحيّ من لمباز كان من جند الكتائب وقد استنتج من الإنجيل وجوب العدول عن المشاركة في الحروب، أن يحمل الإكليل في عيد من الأعياد وتخلّى عن سيفه "بعد أن اعتبره غير ضروري لحماية المولى " فاقتيد إلى رومة لصلبه .

5 ــ الأدب المسيحي

إنّ لدينا المعلومات الكافية عن الأزمات التي مرّت بها المسيحية ولكنّنا لا نعرف شيئا كثيرا عن الظروف التي أحاطت بالدعوة إلى هذا الدين ولا بنظام عباداته وكانت كنيسة قرطاج التي أتتها المسيحية من الشرق على غرار كنيسة رومة وليون في استعمالها اللغة اليونانية . وقد استعمل الخطباء

الرومان في القرن الثاني اللغة اللاطينية في تلاوتهم للطقوس ولكنّهم كانوا ولا شك يُلْقُون خطبهم باللاطينية، ولا غرو أن تكون وثائق الشهداء محرّرة باللغتين في نفس الوقت. وكانت بربوتيا تتوجّه إلى رجال الكنيسة باليونانية وتخاطب أقرباءها باللاّطينية، وقد شرع ترتوليانوس في الكتابة باليونانية، ولا ريب أنّه كان يستعمل في كنيسة قرطاج اللغتين في نفس الوقت. وفي القرن الثاني اختارت كنيسة قرطاج اللاّطينية بصورة نهائية.

وكانت قد وجدت منذ سنة 180 نسخ مترجمة من الإنجيل. وكان شهداء شلي (Scilli) —وهم قوم بسطاء يجهلون اليونانية ولا شك— يملكون "كتب الشريعة الالهية المقدّسة ورسائل بولس العادل". وفي أواخر القرن الثاني كتب بابا وأسقف وزنديق كتبا باللاّطينية. ولكنّ روائع الأدب اللاّطيني المسيحي الأولى ظهرت بفضل الكاتب ترتوليانوس.

6 — ترتوليانوس

كان ترتوليانوس (Septimius Florens Tertullianus) ابن رئيس سرية تابعة لفيلق البروقنصلية. ولد بقرطاج مابين 155 و160 وتعلّم فيها ما يحتاجه الخطيب المصْقَع وما زال يدرس حتى اتّسعت معارفه وأتقن اللاّطينية إتقانَه لليونانية وأحاط بمبادىء الطبّ والعلوم الطبّية وتثقّف بالخصوص ثقافة قانونية متينة وكان يمكن أن يصبح مُحاميا لامعا ولكنّه سُرعان ما عاج عن طريقه واعتنق الدين المسيحي.

إنّنا نجهل الظروف التي تمّ فيها تنصّره. ولا بدّ أن يكون ذلك نتيجة حماسه المُفرط، شأنُه في كلّ الأعمال التي قام بها في حياته. فكلّما أدرك حقيقة اندفع وراءها بكلّ جوارحه من دون مجاملة ولا تورّط فقد كان متطرّفا لا يجمع حوله أغلبية الناس، وكان لا يميل إلى المذاهب المتنصّرة المتحالفة مع عصرها، وكان فكره ينصرف إلى المطلق ويحمله طبعه إلى الكفاح، وهو مع ذلك ناقد لاذع ممتاز ليس له مثيل في الجدل يندفع فيه بكلّيته. فهو بربري متنصّر ولكنّه لم يزل محتفظا — إلى جانب ما انطبع فيه من روح المسيحية — بأهواء البربري وصلابته ونفوره من النظام.

وكان لا يتصوّر الدين المسيحي إلاّ عملا متواصلا لا ينثني . فكان يدعو إخوانه إلى التخلّي عن كلّ شيء في سبيل العمل من أجل نصرة المسيحية وقد تقدّم بنفسه صفوف المعمعة يشجّع على الاستشهاد ويحتجّ له (Ad. Martyres) ويردّ على التّهم الموجّهة ضدّ المسيحيين (Apologeticum) ويحذّر المؤمنين من حضور الألعاب العمومية (ad nationes, ad Scapcelam والخدمة العسكرية وكان يقول : إنّ المسيحي لا يمكن أن يكون جنديّا وإنّ واجب الجنديّ إذا تنصّر أن ياوذ بالفرار كما كان يحذّر من قبول الوظائف المورّطة مع أصحاب النفوذ .

وكان هذا الخطيب المتكوّن تكوينا فلسفيا لا يرى تضاربا قطّ بين العقل والدين، بل كان يعتبر الفلاسفة روّادا خانوا أنفسهم . وكان إذا تفقّه في الدّين يتناول أخطر المواضيع وأدقّها لوجود الله ، وحقيقة الروح واليوم الآخر. وكان لا ينفكّ ينصح باتّباع الأخلاق الفاضلة والحرص على ضبط النفس وينتقد في سخرية لاذعة تبرّج النساء في زينتهنّ أو في كيفية وضع الفتيات لحجابهنّ وكان يوصي بالعفّة . ولكنّ ميدانه المفضّل الذي يبرز فيه بروزا هو الهجوم على أحد خصومه أو مقاومة بعض الأوضاع وهو في هذا المقام يوجّه الضربات القاسية إلى اليهود الذين كانوا يثيرون السلط والشعب على النصارى. وإلى أهل البدعة الذين كان في إمكان الكنيسة صاحبة الكتب المقدّسة أن تردّ عليهم بالاستناد إلى النصّ وخاصّة إلى الرسّام هرموجين الذي كان على حدّ تعبيره "يخلط بين الفصاحة والهذيان وبين الوقاحة والحزم" في احتجاجه لبقاء المادّة . وكذلك إلى المارسيونيين الذين كانوا يجدون تقاربا بين المسيح وإله التوراة وأخيرا إلى براكسيا الذي كان يدّعي حفاظا على وحدانية الاله أنّ الابن ليس إلاّ مظهرا للأب نفسه.

ولكنّ أعظم ما ألّف في الدعوة كتابه "الدفاع عن المسيحية" (Apologitique) حيث تعمّق في أصل الخلاف بين المشركين والمسيحيين منكرا الاضطهادات التي كانت تنال المسيحيين وحدهم من أجل جرائم خيالية لم يقع التحرّي في أمرها ومن أجل ازدرائهم بالديانة القومية وإمساكهم عن عبادة الامبراطور . أمّا بالنسبة للمسألة الأولى فقد كان الأمر هيّنا عليه

الشكل : 12 ـ مواقع انسحاب السلطان الروماني .

القبائل
قرطاج
افريقية الجديدة
افريقية القديمة
الريف
ورنشريس
أوراس
مسعد
الاطلس

رسم للخندق الذي خطه شيبيون الاصلي وهو الحد الفاصل للهيمنة الرومانية من 146 الى 46 قبل المسيح.

افريقية الرومانية عند وفاة قيصر (44 قبل الميلاد) بما فيها مملكة ستيوس.

افريقية الرومانية في اوائل القرن الاول بعد المسيح.

افريقية الرومانية حوالي منتصف القرن الثالث (مع طرح المراكز المتوغلة)

اهم الكتل الجبلية.

الشكل : 11 ـ التوسع الروماني .

ولكنّ مهمّته كانت أشقّ في المسألتين الأخريين . فهو عندما يشهر بإشراك المشركين ويثبت ولاء المسيحيين لا ينكر موقف النصارى بل يبرزه . ويبدو أنّه لم يدرك أنّ الأمر بالنسبة للامبراطورية ليس مجرّد موازاة بين دينين بل دفاعا عن تصوّر للنظام الاجتماعي ضدّ مذهب كانت تعتبره الدّولة مدعاة للفوضى والقلاقل .

وكان لا مناص لهذا المنطقيّ الجبّار أن يتناول بالنقد الدين المسيحيّ نفسه. ذلك أنّه عندما اطّلع على المنطانوسية وهي بدعة "براغمتية" صرفة تتعالى عن الخوض في المناقشات النظريّة وتحرص كلّ الحرص على المثل العليا الأخلاقية وعلى العمل، وتقول بالغيب والنفاذ إلى قلوب البشر والرؤى والوجد (extases) انصرف نشاطه وتصوّفه إلى المذهب الجديد وانقلب على إخوانه بالأمس فوجّه إليهم الأسلحة التي كان يستعملها لنصرة قضيتهم وأصبح يشهرّ بالجُبَنَاء الذين كانوا يضعفون أمام الاضطهاد وينكر الزواج بثانية ويوصي بالصوم الكامل ويشنّ الهجومات العنيفة على البابا كاليست (Calliste) لأنّه سمح للمتسرّين والزّناة بالدّخول إلى الكنيسة . وأغلب الظنّ أنّ المنية أدركته وهو شيخ هَرِم لم يتب إلى الله .

ولم تنجلّ طرافته فطّ في فقهه للدين إذ لا تنبىء أفكاره عن مجدّد بل عن رجعيّ أسير للتقاليد . فقد حمله فرط تفكيره في قرب زوال الدنيا إلى التنكّر لكلّ ما يربط الإنسان بمجتمعه. وكان بحكم موقفه العاطفي على هامش الكنيسة من أوّل عهده بالمسيحية ذكر أنّ الكنيسة مضطرّة إلى التلاؤم مع ضرورات العصر ولا يمكنها إذا رامت العمل الناجع أن تتجمّد في مواقف حكم عليها التطوّر . فهو عندما يعلن أنّ الكنيسة موجودة حيث يوجد ثلاثة مسيحيين ولو كانوا لائكيين وأنّ رسالتها ليست في جمع الأساقفة بل هي روحية قبل كلّ شيء فهو يطرد نفسه عن رويّة من حضيرة الكنيسة الرسمية .

وبالرغم عن كلّ ذلك فإنّ الكنيسة المتصلّبة أيّما تصلّب إزاء أهل البدعة أظهرت نحوه تسامحا لا يصدّه صادّ. ذلك أنّه استدلّ في هجومه على الوثنية بجميع الحجج التي لم يتجاوز كلّ من دافع عن الدين بعده

أن استعملها بدوره من دون أن تكون له براعة مماثلة . ولقد أمكن للكنيسة المتنصّرة أن تغضّ الطرف عن هفوات أصبحت لا تخشى حدّتها وبقيت متحفّظة خاصّة بما أظهره ترتوليانوس من صدق إيمان وذَرابة لسان . أمّا طرافته الحقيقية فيجب البحث عنها في لغته فقد كان منطقيا ميّالا إلى السخرية مجادلا لاذع العبارات ، فقيها دقيق النظر جمع الصفات على اختلافها وتوخّى أسلوبا صريحا عنيفا ، كثير الاستعارات حيّا بحياة صاحبه مشخّصا لعارم تفكيره وفيّاض حيويته .

7 — مينوسيوس فيلكس

ويقابله مواطنه مينوسيوس فيلكس الذي ألّف كتابا موجّها إلى المثقّفين بعنوان (Octavius) وهو حوار يردّ فيه مسيحيّ على الاعتراضات المألوفة الموجّهة ضدّ المسيحية، ويوفّق في آخر الأمر إلى إقناع محدّثه. ويقتصر هذا الحوار الشيّق على المقابلة بين فلسفتين في أسلوب جميل ولا يمكن أن تكون أوجه الشبه التي لاحظها بعضهم بين كتاب الدفاع عن المسيحية والاكتافيوس (Octavius) من قبيل الصدفة لكن أيّ التأليفين أسبق . إنّه من المستحيل الخروج من هذه المناقشة الميؤوس من نتيجتها بحقيقة شافية . ورغم أنّ أسبقية (Octavius) تبدو محتملة فإنّه لا يمكن البتّ في الأمر بصورة نهائية .

وعندما أدرك الموت ترتوليانوس حوالي سنة 240 بدأت بوادر التصدّع في هيكل الامبراطورية الافريقية تظهر إلاّ أنّ انحطاط العظمة الرومانية لم يعرقل تقدّم النصرانية . بل أنّ هاتين الظاهرتين تطوّرتا بصورة حملت البعض على الاعتقاد بأنّ الظاهرة الأولى سبب الثانية، والواقع أنّ الظاهرتين قد خضعتا إلى نفس الأسباب فقد ساعد زوال الروح الرومانية على انتصار الكاثوليكية وعلى القلاقل الاجتماعية في نفس الوقت وفي افريقية سوف تضطرّ الارستقراطية والكنيسة الرسمية حامية النظام إلى الاتّحاد لمقاومة المسيحيين المعدمين المعتنقين للدوناتيسية .

الشكل : 13 ـ مقاطعات افريقية فى اوائل الامبراطورية .

الشكل : 14 ـ مقاطعات افريقية فى اواخر الامبراطورية .

الباب الثامن

انحلال السلطان الروماني

1- ثورات البربر. 2- الكنيسة المضطهدة: القديس قبريانوس. 3- الدوناتوسية والثورة الاجتماعية. 4- انتصار الكنيسة، القديس اغسطينوس

I ـ ثـورات البـربـر

1 ـ مواقـع المقـاومة

إذا كان في الظاهر من المتيسّر للحضارة الرومانية الهيمنة على المدن الواقعة في أرض منبسطة فإنّها لم تقدر حتى على الاقتراب من المواقع الجبلية ببلاد المغرب . ذلك أنّ المراكز التي كانت تطوّق الجبال والطرق التي تخترقها لم تكن وسائل لنشر الثقافة بل أداة للقمع،ولقد حافظ البربر على عادتهم في جبال الاوراس وبلاد القبائل والبيبان والظهرة والورشنيس وتساله والريف . إنّهم لم يتخلّوْا لا عن لهجاتهم ولا آلاتهم ولا طقوسهم الجنائزية . ولا شك أنّ بعض سكّان الجبال تعاطَوا الفلاحة وبَنَوْا منازل من حجر ولكنّ الأغلبية الساحقة منهم كانت تلتجيء إلى بيوت من مدر أو إلى الأكواخ وكانت تعتمد في عيشها بالخصوص على الحيوان .

وكان هؤلاء الرعاة الجائعون ينظرون بعين راغبة إلى أراضي السهول الخصبة . ولو لم تكن الحراسة شديدة على التخوم الجبلية لنزلوا من الأعالي واستباحوا خيرات الفلاّحين المستقرّين لكنّ الكتيبة الثالثة والفيالق الإضافية كانت تشدّد الحراسة . فكانت هجمات النهّابين حتى عهد الاسكندر سواريوس قليلة ولا شك . ثم جاء وقت تصدّع فيه الجهاز الروماني . وحينئذ ظهر للعيان أنّ التأثير الروماني لم يتجاوز المظاهر وأنّ انتشاره كان محدودا . فالبربر حتى المتأثّرون منهم بالرومان لم يبقوا أعوانا بل رعايا كلّ أملهم

أن يُزحزحوا عنهم وصاية السيد المستبدّ . فقد أشعل سكّان الجبال طبعا نار الحرب لكن تَبَلْوَرَت حولهم مقاومة مسلّحة كادت تعمّ في وقت من الأوقات افريقية كلّها ما عدا البروقنصلية حيث بلغ العمران درجة من التقدّم كاد يكون من المستحيل على الفلاّحين معه شقّ عصا الطاعة .

2 — إفلاس نظام

إنّ تولّي أسرة غرديانوس الحكم سنة 238 كان بدءا لعهد مليء بالاضطرابات في العالم الروماني كلّه، لأنّه أقحم افريقية في المنافسات من أجل النفوذ . فبدا الصرح الفخْم الذي بناه أغسطس واهيا أمام ضَرَبَات الزمان . ذلك أنّ النّظام السّياسي الذي لا يرتكز على دستور بل على عزيمة الجيش الذي يسانده، مصيرُه الحتمي أن يصبح لُعبة في يد الجيش . وكان سبتيموس سواريوس الافريقي هو الذي أجّل وقوع الكارثة عندما واجه الأمر بصراحة تامة وأوصى أبناءه باتّباع هذا المبدإ في الحكم : "اسْعَوا إلى إثراء الجند ولا تهتمّوا بالباقي" فكان تسلسل الانقلابات بعده قاعدة وأصبحت الامبراطورية مجرّد دكتاتورية عسكرية يخفّف من حدّتها الاغتيال السياسي .

وكان هذا النّظام يحمل في طيّاته بَذْرَةَ هلاكه . إذ أنّ الكتائب وحدها كانت صاحبة الأمر والنهي . وكلّ جيش كان يرى في نفسه الصّلُوحية لتعيين الأباطرة لفضائلهم أحيانا ولثروتهم في كثير من الأحيان، كما كان يرى لنفسه الحقّ — كلّما عنّ له ذلك — أن يقتل الأباطرة الذين يبالغون في فرض طاعتهم أو الذين تنفَدُ ثرواتهم . فكان قائد الجيش المنتخب يرمي بجنده لمقاتلة الجيوش المنافسة، ولكنّ أخشى ما كان يخشاه المنتصر هو خنْجَر القاتل أو ظهور منافسين جُدُد من يوم لآخر . ولقد تنافس في عهد غليانوس لاغتصاب الامبراطورية ثلاثون طاغية — وكانوا في الواقع ثمانية عشر — وذلك رغم تهديد الأقوام المتوحّشة .

3 — الأزمة الاقتصادية

ابتداء من أواخر القرن الثاني تفاقمت الأزمة الاقتصاديّة كتفاقم الأزمة

السياسية، ففي عهد سبتيموس سواريوس انجرّ عن قلّة الذّهب تناقص في ضرب السكّة وخلطها بمعادن أخرى بنسبة خمسين بالمائة . فكانت نسبة الذهب في الـ" Antoninianus " الذي أحدثه قارقالا خمسا بالمائة في عهد غليانوس . فلم تكن السكّة كما دوّن ذلك مومسن إلاّ "أوراقا مالية لا قيمة لها" وفي نفس الوقت تَدَهْوَرَ الاقتصاد الذي كان يعتمد على النقود متّجها نحو الاقتصاد الطبيعي فانجرّ عن اضطراب الأسعار وارتفاعها بالرغم عن محاولة ديوقليسيانوس بدون جدوى ضبط أقصى حدّ لها (سنة 301) تعويض الضريبة التي كانت تدفع نقدا بضريبة تدفع عينا . غير أنّ نظام (l'annone) "الحصّة السنوية" كان يفرض على المطالَبين بدفع الضرائب أسفارا طويلة ومصاريف ثقيلة كما كان يجرّ للدولة صعوبات إدارية ممّا يذهب بثلثي المحصول . وعندما تولّى الحكم فالنتينيان الأول لم يقدر الملاّكون على حمل المعمِّرين على دفع ما عليهم نقدا . فكانت جرايات الموظّفين وحتى الجنود تدفع عينا وانتهى الأمر بالسلطة ـ لتتمكّن من ذلك ـ إلى حجز ثروات الأهالي ممّا أنهكهم إنهاكا . ولقد حاول أباطرة أشدّاء مثل أورليانوس (270 — 275) وديوقليسيانوس (284 — 305) وقسطنطين (305 — 307) تلافي هذا الانحطاط فقاموا بإصلاحات جريئة إدارية ومالية . غير أنّه لم يكن في الإمكان إنقاذ الامبراطورية . ذلك أنّه رغم الازدهار واستقرار الأمن الظاهرين فإنّ النظام الاقتصادي بقي مُشوّشا . وبقي الاقتصاد البدائي مُسيطرا رغم تعدّد المدن ولم توجد أبداً صناعة بأتمّ معنى الكلمة بين سكّان عددهم في الواقع قليل وحاجاتهم معدومة وطاقة شرائهم ضعيفة لشدّة فقرهم . ولم تكن التجارة مزدهرة أبدا رغم الظواهر بل كانت مقتصرة ـ كما هو الشأن بالنسبة للصناعة ـ على المواطنين الأثرياء المشغوفين بجمع التحف الثّمينة، وعلى ذلك فقد أتيح للشرق المعروف ببضاعته النادرة المحببّة أن يمتصّ ذهب رومة والعالم الغربي .

4 ـ الأزمة الاجتماعية

كان الملاّكون الكبار يفضّلون تقسيم أراضيهم إلى قِطَع يُكَارونها المعمِّرين إذ كانوا مضطرّين إلى استغلال ضَيعاتهم التي يعمل بها العبيد استغلالا واسع المدى كتحويلها مُرُوجا مثلا وذلك لانعدام الأسواق الكافية.

وكانت الفلاحة القديمة التي لا تعرف العمل المنظّم تقتضي سواعد عديدة ولا تنتج إلاّ قليلا . فحتى في الضيعات الكبيرة في غالب الأحيان كان نظام الفلاحة بدائيا .

ولم يكن للارستقراطية ما للرأسمالية العصرية من نشاط وبراعة . لقد كانت أنوفة للعمل متعاطية للربا متلفة للمال . فكان إسرافها المُشطّ وإتلافها للنقود مع قلّة الذهب في المناجم هو الذي أفسد حالة السكّة .

وعجّلت الاضطرابات السياسية المندلعة في القرن الثالث بانهيار عالم متداعي الاقتصاد حتى أنّ الازدهار الظاهري تلاشى في سنوات قليلة . فلم يغن الأباطرة وقوفُهم لمقاومة أمر لا مردّ له. فقد سنّوا قوانين ربطوا بها كلّ صاحب مهنة بمهنته لا يتعدّاها سواء كان رئيس فريق أو من الأنصار أو معمِّرا. ولكنّ ذلك لم يمكّنهم من استئصال الداء الذي كان يقود الامبراطورية إلى هلاكها . وحقّ لالبرت دي بروي أن يقول في ذلك : "جرّت عشرة قرون من الفساد وثلاثة من الحكم الاستبدادي هذا المجتمع القديم إلى حالة من البؤس المعنوي والمادّي وإلى منزلة اقتصادية إن صحّ استعمال هذه العبارة العصرية أصبحت معها جميع القوانين حبرا على ورق . وفي كلمة وجيزة فإنّ رومة كانت منذ أربعة قرون تخرّب نفسها بنفسها بلا انقطاع،وقد جرّ إفلاسها المالي إفلاس جميع مواردها السياسية . وإذا قدّر لمجتمع ما أن يصبح عاجزا عن سدّ حاجاته بنفسه فإنّه يعجز عن الدّفاع عن كيانه أمدا طويلا" .

وبقي للأمبراطورية الرومانية هذا الهيكل الرائع في الظاهر المتداعي الأركان في الواقع هيبة لم تنل منها القرون وذلك بفضل ثقافتها الكلاسيكية وسحر فتوحها .

غير أنّ التاريخ لم يعرف أنظمة سياسية كثيرة أفلست مثلها فادح الإفلاس . وقد انتهى الأمر بمدينة "التيبر" التي بسطت نفوذها على قارّات ثلاث من دون أن تغيِّر من نظمها الأساسية شيئا أن سلمت من دون مقاومة البلدان التي كانت تعهّدت بحمايتها من زحف الأمم المتوحّشة .

5 — الثورات

اندلعت الثورات البربرية من عهد الاسكندر سواريوس ولم تنفك نارها مشتعلة منذ ذلك التاريخ . ولا شك أننا لا نعرف خبر الكثير منها لقلة الوثائق، غير أن ما اكتشف من النقائش يسمح لنا بمعرفة مدى الخطر الذي كان يهدد الامبراطورية في بعض الفترات .

وامتدت الثورة سنة 253 إلى نوميديا وموريطانيا القيصرية . ولا بد أن الأهالي كانوا على علم بالصراع القائم حينذاك بين فاليريانوس ومنافسه ايميليانوس أصيل افريقية حيث كان يوجد أنصار له . ولا شك أنه أتاهم خبر هجومات الفرس والجرمان والقوط على تخوم الامبراطورية، وأقل ما يقال في هذا الصدد هو أن الأزمة المستفحلة ظهرت لهم في ضعف السلطة التي كانت تضطهدهم . فكان حل الكتيبة الثالثة خطأ فادحا استوجب فيما بعد تلافيه بإرجاعها إلى الوجود .

لقد اصطبغت الثورات التلقائية التي اندلعت حينذاك من دون رابط يربطها بصبغة الصراع الطبقي ولم تكن تعبيرا عن حقد جنسي . فلم يثر الفلاحون البربر في وجه الرومان بوصفهم رومانا بل ثاروا في وجه كل من اضطهدهم كائنا من كان وخاصة البربر المتشبهين بالرومان فنهبوا أراضيهم نهبا . بدأت الثورة سنة 253 على الأقل في الجهة الشرقية من موريطانيا القيصرية وقد شملت البافار أو بعض قبائلهم على أغلب الظن وكانت في حوزتهم النجاد الممتدة من أعلى نهر الملوية إلى الجنوب الشرقي من سطيف كما بين ذلك ر. توفينو كما شملت قبائل الحلف الخماسي (Quinque-gentiani) التي كانت تحتل كل بلاد القبائل الكبرى أو جزءا منها وكذلك جيوش القائد البربري فراكسن المجهول النسبة(Gentiles Fraxinens)

دخل الحلفاء الموريطانيون نوميديا، ونهبوا الأراضي وأسّروا وسبوا. ولقد اضطر القديس قبريانوس إلى إرسال مائة ألف سسترس(100 000sesterces) جمعها من كنيسة قرطاج لافتداء المسيحيين الأسارى وخاصة العذارى وكان يخشى عليهن عنف المتوحشين (Insultantium libidinis contagione) .

وإنّه من المتعذّر تصوّر الأحداث لكنّ بعض الكتابات تكشف لنا عن بعض الوقائع. منها أنّ جمعا من الثوار انهزم في أوت 254 في وادي الأكحل ، وأنّ فرسانا موريين آتين من موريطانيا القيصرية خاضوا معركة سنة 255 في جهة سور الغزلان (Auzia) ولقد حمد قائد جيوش أغسطس الثلاثة في نوميديا الإله جوبيترا على ما أسداه له من نصر، ومنها أنّ الجيوش المتنافسة التقت في مكان لا يبعد عن لاموريسيار (Lamoricière) وأنّ القائد هزم سنة 259 القبائل المتحالفة المتوغّلة في نوميديا فأوقع بها قرب الميلة ثم على حدود موريطانيا القيصرية، وقد تمكّن قائد من قواد الفرسان الموريين من الظفر بفراكسن وقتله، ولكنّه هلك هو أيضا بعد ذلك بسنة عندما التقى بالبافار قرب سور الغزلان .

وفي سنة 262 استتبّ الأمن في موريطانيا القيصرية . وصادف رجوع النفوذ الروماني تحسّن حالة الامبراطورية وقتيا بعد انتصارات غاليانوس على الالامان (les Alamans) وابتعاد خطر الفرس . وهكذا فإنّ الأزمة العامّة الشاملة ظهرت في افريقية في هذه الثورات المتتابعة التي كانت طيلة عشر سنوات تندلع من حين لآخر في جميع جهات موريطانيا القيصرية أي في مقاطعة قد وقع احتلالها كلّها وشدّدت عليها الحراسة الجيوش الإضافية .

وبقيت البلاد في مأمن من الأخطار الجدّية إلى سنة 289 والنصوص في هذا الصدد لاتذكر إلاّ أخبار قلاقل محلّية وعلى كلٍّ فإنّ هجومات الأقوام المتوحّشة كان لها تأثيرها الأوّل في افريقية . ففي عهد غاليانوس أثخنت القبائل الافرنكية (Francs) في سواحل موريطانيا وكانت اقتحمت قبل ذلك حدود غوليا وتوغّلت في اسبانيا ولا شك أنّ الرومان اضطرّوا أيضا إلى مقاومة قبائل الأوراس أو قبائل جنوب نوميديا التي ما انفكّت تهدّد الامبراطورية .

أمّا الأزمة الثانية التي دامت فيما يظهر ثماني سنوات على الأقل فإنّها كانت أشدّ خطورة من الأولى . فقد ظهرت بوادرها حوالي سنة 289 في وادي واد الساحل وانتشرت ببلاد القبائل ووصلت ولا شك إلى الجنوب حتى الحضنة ، والأخبار غامضة في هذا الصدد لكن يظهر أنّ الوالي أورليوس

لوتيا (Aurelius Litua) انتصر سنتي 289 و290 انتصارات باهرة وأنّه رمى بالبافار خاصّة بعيدا عن شط الحضنة . غير أنّه لم يتمكّن من فرض التهدئة بصورة كاملة فتواصلت الاضطرابات إلى السنوات الموالية . لذا قدم الامبراطور بنفسه إلى افريقية لقمع الثورة (290) وقد كان شغوفا بتسجيل الانتصارات . وكانت الوقعة الهامة التي خاضها انطلقت من تيكلات (Tubusuptu) ضدّ قبائل الحلف الخماسي . فانتصر فيها ودخل الامبراطور قرطاج ظافرا وشاطره زملاؤه شرف اعتراف افريقية له بتوطيد الحكم .

ويظهر أنّ الهدوء عاد في أوّل القرن الرابع إلى سالف استقراره ولكنّ "السلم الرومانية" بقيت مهدّدة ، وتلافيا لكلّ شغب كفّ الرومان عن الاعتماد على الجند الذين كثيرا ما كانوا يميلون إلى الثوار ويفرّون من ساحة الوغى والحرب على أشدّها . واضطرّ المعمّرون الموجودون على الحدود إلى عدم الاعتماد على القبائل الحليفة ونظّموا أنفسهم لصدّ الغارات على الأراضي الرومانية ، أمّا في داخل المقاطعات فإنّه تحتّم تحصين المدن والقرى وحتى الضيعات المنعزلة .

6 — إصلاحات ديوقليسيانوس — المقاطعات

سعيا لوضع حدّ لانحلال الامبراطورية فصل ديوقليسيانوس بين الخطّة العسكرية والخطّة المدنية بصورة نهائية ، وقسّم المقاطعات تقسيمات جديدة. وكان يأمل أن يكون العسكريون أكثر مقاومة للأمم المتوحّشة والفرس من المدنيّين الذين كانوا يقودون الكتائب حسب اختيار مجلس الشيوخ . ومن ذلك الوقت أصبح القواد ينتخبون من طبقة الفرسان وحتى من بين الممتهنين للجندية . وإن زاد في عدد المقاطعات فأصبح سبعا وثمانين فذلك لتحسين إدارتها وليتمكّن من مراقبة الوُلاة مراقبة ناجعة إذ هم أصبحوا بذلك يأتمرون بأمره مباشرة وعرضة لتجسّس أعوانه . أمّا المقاطعات فقد جمعت في اثنتي عشرة دائرة يحكمها وكيل مرتبته بين الوالي وبين الحكّام الذين أصبحوا بالفعل وزراء للداخلية .

وهكذا أصبح عدد المقاطعات في افريقية نتيجة لإصلاحات ديوقليسيانوس ثمانية بعد أن كان أربعة . فقد قسمت البروقنصلية إلى ثلاث ولايات : ولاية طرابلس وولاية مزاق ـ وهي وسط البلاد التونسية وجنوبها ـ وعاصمتها سوسة، وولاية البروقنصلية بأتم معنى الكلمة أو ولاية زغوان (Zeugitane) وهي تمتد من شمال البلاد التونسية إلى الشمال الشرقي من البلاد الجزائرية وعاصمتها قرطاج . أمّا نوميديا فقد وقع تجزئتها إلى ولايتين : ولاية نوميديا وعاصمتها سيرتة شمالا، وولاية نوميديا العسكرية جنوبا وعاصمتها لمباز . ولا شكّ أنّه ابتداء من سنة 313 ضمّ قسطنطين الولايتين من جديد بعضهما إلى بعض فسمّيت عند ذلك سيرتة : قسنطينة تكريما له . وفي موريطانيا اقتطع ديوقليسيانوس الجهة الشرقية من موريطانيا القيصرية وأحدث ولاية جديدة سمّاها موريطانيا السطيفية وقاعدتها سطيف . أمّا موريطانيا الطنجية فلم يقع تقسيمها وإنّما فُصلت عن الإدارة الافريقية وضمّت إلى دائرة اسبانيا .

يتّضح إذن من هذا الإصلاح أمران يجب التنبيه إليهما : الأمر الأوّل هو أنّ هذا الإصلاح لم يقع دفعة واحدة ولكن على مراحل. فكان تقسيم موريطانيا القيصرية قبل سنة 288 وتقسيم نوميديا والبروقنصلية بعد سنة 295 . ثمّ إنّ مقاطعة طرابلس لم تحدث في نفس الوقت الذي أحدثت فيه مقاطعة مزاق . والمؤسف هو أنّ تواريخ مراحل هذا الإصلاح لا يمكن ضبطها بدقّة لانّنا نجهل تاريخ قائمة فيرون (Vérone) (296 — 297 أو على سبيل التقريب 305 — 306) .

الأمر الثاني ولا يقلّ عن الأول أهمّية هو أنّ الإصلاح تبعه حدّ من التراب الروماني. فإن كان ديوقيلسيانوس حصّن تحوم الجهة الشرقية من بلاد البربر — كما يشهد بذلك المهرجان — فإنّ انفصال موريطانيا الطنجية عن موريطانيا القيصرية كان ـ إلى ذلك الوقت ـ أمرا مقضيا أو زاد حدّة كما أكّده ج. كركوبينو فإنّه وقع اقتطاع أراضٍ من الواجهة الغربية من موريطانيا القيصرية — ربّما بلغ حدود الشلف — وهكذا فإنّ هذه الأراضي التي تركت وشأنها لم تعُدْ تابعة للامبراطورية إلاّ بقدر رغبتها في ذلك ، ولقد حافظت على اللاّطينية والمسيحية بنفس الولاء كما تشهد بذلك النقائش

المكتشفة بتلمسان (Pomaria) ووليلي (قصر فرعون) التي تتابعت حتى سنة 655 وإذا اعتمدنا الوثائق التي لدينا إلى اليوم يظهر أنّ موريطانيا الطنجية لم يبق لها إلاّ الأراضي الواقعة شمال واد لخوس (Loukkos) . ولقد كان تعبير ه. تراس (H. Terrasse) موفّقا إذ قال : "إنّ هذه المقاطعة التي أنشأها كلوديوس لأسباب افريقية بحتة بقيت في حوزة الامبراطورية وخاصّة ابتداء من القرن الثالث لأسباب تقتضيها السياسة الاسبانية .

ويجدر التنبيه إلى أنّ البروقنصلية بقيت الوحيدة في الامبراطورية مع آسيا التي يحكمها بروقنصل يأتمر بأوامر الامبراطور مباشرة من دون أن يكون بينهما وكيل .

7 – الجيش

إنّ فيالق الاحتلال في افريقية لحقتها نفس التغييرات التي لحقت جيوش الامبراطورية بأجمعها . فقد وضعت جيوش على طول الحدود وظلّت تحرس باستمرار حصون الليمس (Limitaei, limes) وأخرى في نقط متعدّدة، داخل المقاطعات فكانت وحدات متحرّكة مهمّتها نجدة الأماكن المهدّدة، وقد سمّيت "الجيوش المواكبة" وقد عهد ديوقليسيانوس إلى قوّاد بقيادة الجيوش مكان الوُلاة .

ولم تكن كل حدود المناطق التي يحكمها العسكريون مطابقة حدود المقاطعات المدنية . فكان قائد طرابلس باسطا سلطانه إلى حدود مزاق أي حتى واد العكاريت . وكان قائد جيش افريقية الذي نال من ديوقليسيانوس لقب الكونت يسكن قرطاج . وكان يحتلّ من بين الضبّاط أعلى مرتبة في الامبراطورية، وكانت الجهة التي يحكمها تشتمل على مقاطعات مزاق وزغوان ونوميديا وموريطانيا السطيفية . أمّا قائد موريطانيا القيصرية فقد كانت مرتبته ثانوية حتى آل به الأمر إلى الخضوع لمراقبة كونت افريقية . أمّا قائد موريطانيا الطنجية الذي كان يمتدّ نفوذه إلى كامل اسبانيا فإنّه كان شخصا ذا مرتبة عالية في رتبة كونت .

ولقد عهد بالدفاع عن التخوم الجنوبية إلى جند الحدود أي إلى جند معمّرين يخضع حقّهم في الملكية إلى واجب الخدمة العسكرية (limitanei)

غير أنّهم كانوا يتمتّعون بالإعفاء من دفع الضرائب كما كلّف بالدّفاع عن هذه الحدود الشمالية بربر القبائل المجاورة التي لم تكن خاضعة لرومة ولكن حشر جنودها شيئا فشيئا في جيوش الامبراطور مقابل جراية وكانوا يخضعون لنفس القوّاد الذين خضع لهم جند الحدود (limitanei) . وابتداء من عهد ديوقليسيانوس أجبر أحفاد جند الحدود على أن يسيروا على ما سار عليه آباؤهم .

لقد فقد جيش افريقية كلّها كما كان الشأن بالنسبة لجيوش الامبراطورية في عهد ديوقليسيانوس مرونته وحزمه المعهودين فيه . فلم يبق للكتائب التي أصبحت تعدّ ألف رجل والفيالق الأخرى التي تضمّ 500 رجل ما كان لها من روح المقاومة الضرورية لإقرار النّظام في بلاد ما انفكّت مسرحا للشّغب .

واضطرّ الرومان إلى جبر الملاّكين على تزويد الجيوش بالجند عندما لم يكف التطوّع بالحاجة فكانوا ينتخبون هؤلاء الجند من فلاّحيهم أو يشترونهم عن طريق المتاجرين إذا لم يخوّل لهم تعويض ما طلب منهم بقدر من المال مساو لذلك يسمّى ذهب المجنّدين (Aurum tironicum) . فكانت الجيوش المجنّدة على هذه الطريقة في حالة يرثى لها ولا يؤمن لهم جانب .

وانتهز وكيل افريقية دوميسيوس الإسكندر (L. Domitius Alexander) الأزمة التي تبعت تخلّي ديوقليسانيوس ومكسيميانوس (305) فحمل جنده على مبايعته امبراطورا . فاضطرّ ماكسنسيوس ابن مكسيميانوس (Maximien) المنتصر على قبائل الحلف الخماسي إلى تكليف قائده بالسير إلى افريقية . فلم يقاوم جند الاسكندر مقاومة تذكر وقبض على قائدهم وخنق، واستباح قرطاج وسيرتة جند لا يصدّهم شيء ولم يفد ماكسنسيوس الانتصار الذي أحرزه نائبه إذ أنّ افريقية لم تغفر له ما نالها منه من نهب وإحراق وتقتيل .

ولمّا وقع الخلاف بينه وبين قسطنطين جيّش ماكسنسيوس الجيوش المورية ولكنّه رغم ذلك هزم عند جسر ملفيوس (Milvius) قريبا من

رومة في الثامن والعشرين من اكتوبر سنة 312 . ولمّا انتشل قسطنطير ماكسنسيوس من نهر التيبر أرسل إلى قرطاج – تبشيرا بالحدث الميم الجديد – رأس الرجل الذي كان يكرهه الأفارقة كرها شديدا .

وكان العهد الجديد على ما يبدو فاتحة فترة يسودها السلم غير أنّ نحلة الدوناتونسية المنبثقة من بؤس القرويين البائسين كان صورة ذات صبغة دينية للاضطرابات الاجتماعية التي زادت الطين بلّة وعجّلت بانهيار افريقية.

II – الكنيسة المضطهدة – القديس قبريانوس

1 – القدّيس قبريانوس

لقد أمكن للمسيحية في افريقية بعد موت سبتيموس سواريوس أن تنمو باطّراد طيلة ثمان وثلاثين سنة . فاعتاد الأساقفة أثناء هذه الفترة أن يجتمعوا في المجامع، ولعلّه وجد ابتداء من القرن الثالث أكثر من مائة وخمسين أسقفا ، وذكر لنا القدّيس قبريانوس أنّ مجمعا ضمّ تسعين أسقفا اجتمع للحكم على بريفاتوس (Privatus) أسقف لمباز ورغم تدخل أسقف قرطاج والبابا فإنّ هذا المشرك بقي يحيك الدسائس إلى المؤمنين في مهارة فائقة .

وفي سنة 249 تقلّد القدّيس قبريانوس (Saint Cyprien) الملقّب تاسيوس (Thascius) مهامّ الكنيسة في قرطاج وأخذ ينظّمها تنظيما محكما . وقد ولد ولا شك في قرطاج في أوائل القرن من عائلة ارستقراطية . وأتمّ دراسته في الخطابة وأصبح محاميا وتأثّر بقسّ اسمه كاسيليانوس (Caecilianus) فوزّع جانبا عظيما من ماله على الفقراء واعتنق المسيحية فجأة حوالي سنة 245 . فغيّر التعميد من شأنه حتى أنّه قال في حوار شرح فيه تأثير العون الربّاني : "إنّ نفحة نزلت من السماء فأحيته حياة ثانية وجعلت منه رجلا جديدا" . ولقد كان لهذا الفتى تأثير كبير على المؤمنين حتى أنّ الكنيسة بعثت به إلى مجالس الأساقفة . واستغلّت مواهبه فدوّن لأحد أصدقائه بالاستناد إلى الكتب السماوية الحجج المؤيّدة للدين المسيحي للردّ على اليهود (Testimonia ad Quirinum) .

ولمّا توفّي أسقف قرطاج أجبره الشعب على أن يخلفه في منصبه حوالي سنة 248 . فحاول في أوّل الأمر فرض نظام حقيقي في الكنيسة كلّها فأسدى النصائح للأوصياء من رجال الكنيسة الذين لم يعيّنهم القانون المدني واهتمّ بتكوين ممثّلين شبّان بواسطة فنّان مسيحي كما اهتمّ بشماس متمرّد وبعض العذارى اللاّتي وهبن حياتهنّ للاله ولكنّهن انخذلن فيما بعد. ولعلّه نصح العذارى أن يخشين شراك التبرّج .

2 ـ اضطهاد دسيوس للمسيحيين

وما لبث القدّيس قبريانوس بعد ذلك بقليل أن امتحنه الله في عمل لا يقلّ عن ذلك صعوبة . فلم يمض عام على تسميته أسقفا حتى ظهرت قضية اضطهاد دسيوس للمسيحيين سنة (250) فلقد أجبر هذا الحيوان "الحقير" كما سمّاه لكتانسيون الافريقي جميع سكّان الامبراطورية على تقديم شواهد الولاء على مرأى ومسمع من جميع الناس . وكان في إمكان ذوي النفوس الأبية وحدهم أن يتصدّوا للموت برفضهم التفوّه بعبارات الكفر أمام اللجان المحلّية التي تسعى لذلك بجميع الوسائل وإذا صدّقنا أسقف قرطاج فإنّ قيمة المسيحيّين كانت في كمّهم لا كيفهم ـ ولم تعقهم تأمّلاتهم في شؤون الآخرة عن نعيم الدنيا وقد تعلّقوا بها أيّما تعلّق وكان إغراء الشهوات وحبّ المال يدفع بهم إلى الأخذ بنصيبهم من كلتا الدارين . إنّهم بقوا على قسوتهم رغم نصائح المسيح وأنفوا الخضوع لأيّ نظام رغم وعظ أساقفتهم . وكانت النساء تبين قلّة تواضعهنّ بإكثارهن من التزيّن . أمّا فيما يخصّ حال الكنيسة فلم يكن من الممكن أن يوثق في معتقدات القساوسة ولا في استقامة الشمامسة ولا في إخلاص الأساقفة،وكانوا يميلون ميلا مفرطا إلى قبول مهامّ مالية تجرّ أرباحا كبيرة على حساب المؤمنين الذين يتولّون أمرهم تاركين بذلك الفقراء يموتون جوعا للبحث عن الأسواق وإتيانا للغشّ والربا .

وفي مثل هذه الظروف نكون مدفوعين إلى الاعتقاد بأنّه لم يقع تهافت على الاستشهاد لا من رجال الكنيسة ولا من المؤمنين ،لكنّ الأمر كان أدهى من ذلك . فلقد كان عدد المرتدّين (lapsi) عظيما واندفاعهم

● الآثار القديمة الثابتة للمسيحية في افريقية...

- - - الحد التقريبي للجهات التي انتشرت فيها المسيحية في اواسط القرن الثالث .

++++ الحد الجنوبي لانتشار المسيحية في اوائل القرن الخامس (وهذا الحد يوافق خط ليمس القرن الثالث)

الشكل : 15 ـ انتشار المسيحية فى افريقية .

إلى الكفر بما آمنوا شديدا حتى أنّ الحسرة تركت في قلب القدّيس قبريانوس (St.Cyprien) آثارا لم تُمْحَ فقال : "وكان منهم من لم ينتظر الإيقاف ليصعد إلى الكابيتول ولا ينتظر الاستنطاق لينكر تنصّره. ومنهم-وهم كثيرون- من انهزم قبل أن يخوض المعركة ، وطرح أرضا قبل أن يبدأ الصراع فلم يكن له حتى فضلُ الظهور في مظهر المتنازل أمام القوة . فكنت تراهم يسرعون عن طواعية إلى الفوروم ويبادرون إلى إنكار ما تعلّقت به أرواحهم كأنّهم كانوا يتوقون إلى ذلك منذ دهر طويل،وكأنّهم كانوا ينتهزون فرصة طالما جرَوا وراءها . وكم كان عددهم كبيرا عند ارتدادهم حتى أنّ الحكّام اضطرّوا إلى تأجيل المحاكمة إلى الغد، وكم كان كبيرا عدد الذين طالبوا بتعجيل تصريحهم بالردّة "القاضية". (نقل الكاهن بايار).

ولم يوجد كُفّار متحمّسون قدّموا القرابين للآلهة أو أحرقوا البخور أمام تماثيل الأباطرة فقط، بل وجد من ذلّل العقبة بشرائه (Sacrificati) بطاقات للولاء، ويظهر أنّ السلطة لم تُبدِ عناية كبيرة للتحرّي في صحّتها (libellatici) ولقد رأى قبريانوس من واجبه كأسقف أن ينسحب أثناء الأزمة من قرطاج ليلتجيء إلى مكان خفيّ . وكان من السهل على البروقنصل أن يتعرّف إلى هذا الملجأ الذي كان يتقاطر عليه "الإخوة الذين كانوا يزورونه" والذي كانت تنطلق منه الرسائل العديدة الموجّهة إلى المؤمنين . ولكنّه اقتصر على مصادرة أمواله ونفيه . فغياب قبريانوس خمسة عشر شهرا في ساعة الخطر اعتمادا على نظرية تأمر المؤمنين بألاّ يُلقوا بأنفسهم إلى التهلكة ولكنّها توصيهم بألاّ يَفِرّوا من الاستشهاد إذا وجب ، كان مدعاة للإنتقاد اللاذع من الكنيسة لا في قرطاج فقط بل في رومة . غير أنّه لم يبق مكتوف الأيدي فقد سيّر أسقفيته من مخبئه ، فاعتنى بالأسرى والفقراء والمرشدين ضحايا الاضطهاد واعتنى خاصّة بمسألة المرتدّين الذين كانوا يرومون الدّخول في حضيرة المؤمنين .

3 – أهل الردّة

إذا اعتمدنا سنّة الكنيسة فإنّ الكفر يوجب على صاحبه أن يتوب ولكنّ المذنبين كانوا من الكثرة بحيث اضطرّ رجال الكنيسة إلى ... في احترام المبادي . فكانت خطّة الأسقف ...

فترة التوبة حتى يبتّ في ذلك مجمع من المجامع بعد انتهاء الاضطهادات..

غير أنّ الأحداث طغت على سياسة الانتظار . فقد وجد المرتدّون قساوسة يدخلونهم في حضيرة المؤمنين من دون تريّث، والتجأ آخرون إلى الذين أبلَوا في دينهم البلاء الحسن أو إلى المرتدّين فسلّموهم "وذويهم" بطاقات تشهد بدخولهم الدين المسيحي من جديد وفرضوا على الأساقفة أن يقبلوهم في حضيرة المؤمنين . وهكذا فإنّ هؤلاء المرشدين واجهوا الكنيسة خلافا للنظام والسنن فوضعوا قانونا جديدا من دون اعتبار للنظام الدّاخلي ولا مراعاة الإجراءات العادية في سبيل مُعْتَقَدهم يستمدّ قوته ممّا قدّمه هؤلاء من تضحيات، فأولئك الذين نالهم الأذى في أجسامهم من أجل المسيح اعتبروا من حقّهم أن يغفروا للمذنبين وكانوا أكثر شفقة نحوهم من الأسقف، وزاد تضامن المتطرّفين مع الانتهازيين المُشكل تعقيدا فاضطرّ القدّيس قبريانوس إلى التراجع وسمح بأن يغفر للمرتدّين الذين تعذّبوا من أجل العقيدة المسيحية بعد ردّتهم وإلى أصحاب بطاقات الولاء الذين عرفوا كيف يجتنبون التصريح بالكفر أمام النّاس جميعا بفضل حيلهم التقية وبقي متصلّبا إزاء الذين تقدّموا للآلهة بضحاياهم (Sacrificati) .

وأمكن له عند رجوعه إلى قرطاج في ربيع سنة 251 إنجاح وجهة نظره في المجامع ،ولكنّه واجه معارضة كبيرة . واضطرّ إلى طرد خمسة قساوسة وشمّاس من الكنيسة،وكان أشدّ القساوسة معارضة له "نوفاتوس" الذي أحدث كنيسة جديدة منافسة لكنيسة قرطاج وسافر إلى رومة لشَنّ معركة ضدّ قبريانوس حيث كانت تجري انتخابات لاختيار البابا . غير أنّ حزب المرشدين لم يتوصّل إلى انتخاب نوفوسيانوس مرشّحه وهو قسّ عظيم المواهب وكان منافسه كرنوليوس انضمّ إلى صفّه أسقف قرطاج .

ولمّا لم يبق لأنصار نوفوسيانوس إلاّ الخروج عن الكنيسة اقتضتهم ضرورة المعارضة إلى الرجوع فيما كانوا عليه من تسامح . فلقد كانوا من المنادين بتطبيق القانون بدون هوَادة عندما رضي مجمع قرطاج بقبول جميع المرتدّين التائبين على الأقل في آخر نفس من حياتهم، وقبول التوبة من رجال الكنيسة المرتدّين أيضا . غير أنّ الكنيسة المقتنعة بوجهة نظر

قبريانوس طاردت الخوارج حتى في افريقية حيث أبقوا جمعا قليلا من الأتباع وعلى رأسهم أسقف . وهكذا فإنّ موقف أسقف قرطاج فيما يخصّ المرتدّين ومقاومة أنصار نوفاتوس ونوفوسيانوس جرّ له بالطبع انتقادات كلّ من كان يحرجه الاعتدال .

وفي السنوات الخمس التي تبعت اضطهاد دسيوس للمسيحيين اعتنى قبريانوس بطقوس الكنيسة وأجاب عن استفتاءات نحل افريقية أخرى ونظّم النجدات المرسلة إلى النوميديين الذين أسّرهم البافار ورفع من معنويات المسيحيين عند تفشّي الطاعون الذي لم يهلك خلقا كثيرا فقط بل كان سببا في تفاقم اللصوصية وحوادث الاغتيال .

وفي سنة 255 جرى نقاش خطير في خصوص التعميد الذي كان يقوم به أهل البدعة . ففي افريقية كان القوم يعتبرونه لاغيا فيقومون بتعميد جديد ، أمّا في رومة فكانوا يقبلونه وكانوا يقتصرون على وضع أيديهم فوق المعتنقين للمسيحيّة ليجلبوا لهم عناية الروح القدس . ولكنّ قبريانوس المعتمد على مجمع قرطاج دخل في نقاش حادّ جدّا مع البابا ايتيان الأوّل (Etienne 1er) الذي انتهى به الأمر ولا شك إلى طرد قبريانوس من المسيحية وكان من الممكن أن يؤول هذا الخلافه بين الكنيستين إلى القطيعة لو لم يسمح موت البابا باستئناف العلاقات ولم يتخلّ الأفارقة عن عاداتهم إلاّ في عهد قسطنطين عند اجتماع مجمع أرل (سنة 314) .

4 — استشهاد القدّيس قبريانوس

ولم يمض على موت ستيفانوس وقت طويل حتى بدأ اضطهاد فاليريانوس للمسيحيين فلقد أراد الامبراطور شلّ عمل الكنيستين بالضرب على أيدي الرؤساء ومصادرة أموال المسيحيّين الأثرياء، غير أنّه لم يتوخّ في عمله الصرامة ولا اتّبع الطرق الموصلة فاكتفى بأن أشار على قبريانوس بمغادرة قرطاج والنزول بقربة (Curubis) (على الساحل الشرقي من الوطن القبلي) . وهناك توالت عليه "زيارات الإخوة" في مكان اعترف من ترجم لقبريانوس أنّه غير قادر على وصف ما فيه "من أنواع النعيم الكثيرة" ولمّا رجع

بعد عام إلى قرطاج أبى أن يلبّي دعوة الارستقراطيين في اللجوء إليهم وقد صمّم حينذاك على الاستشهاد ، فانتهى الأمر بالبروقنصل إلى إيقافه . ولكنّ التّاريخ لم يعرف حقّا كما توانى في الاحتياط لمنع أسيره من الفرار مثلما فعل البروقنصل . ثم إنّه أرجأ الاستنطاق إلى الغد خلافا للعادة المتّبعة عندما مثل قبريانوس بين يديه . وأغرب من هذا الحراسة التي نظّمت حوله ليلا، فلقد سكن الأسقف في بيت ضابط، وتقول الأخبار (les actes) : إنّه بقي ضيفا عند الضابط في الشارع المدعو (Vicus saturni " وهناك اجتمع المؤمنون كلّهم . ولمّا علم القدّيس قبريانوس بذلك أمر بأن يسهر القوم على العذارى لأنّ جميع المؤمنين كانوا في الشارع أمام منزل الضابط وكان معه في البيت أخلص الناس إليه غير أنّ الأسقف الذي كان حكم حكما قاسيا على المرتدّين وأشاد بفضائل المرشدين أبى ان يلوذ بالفرار . وفي الصباح تقدّم من دون تردّد إلى الموت. وكان المسيحيون يصحبونه جموعا غفيرة "في هرج ومرج" ولمّا حضر الجلاّد "أسدل الإخوان أمام الشهيد ستارا من الكتان" وأخذ شمامسة حلّته وربطوا له يديه. وكان قائد السرية المكلّف بقتله يرتعش حتى أنّه عجز عن مسك سيفه (14 سبتمبر سنة 258) . وعندما أظلم الليل "حمل على ضوء الشموع والشماريخ ... في موكب رهيب بين التهاليل والتسابيح" حتى أودع قبره . وفي كلّ هذا لم تسىء السلط إلى نصارى قرطاج وهم يوفون بحقّ أعظم شهدائهم .

5 – تاليف القدّيس قبريانوس

لم يقتصر القدّيس قبريانوس على أن كان رجل عمل صاحب عزيمة جيّاشة أحيانا ولا منظّما فذا ذا دالة كبرى على غيره فقط ، بل كان كذلك كاتبا استبقى من تكوينه الأول، رغم احتقاره للآداب اللاّدينية ، العناية بفنّ الكلام ورشاقة العبارة ظهرت آثارها في مؤلّفاته من حيث لا يشعر .

ولقد عالج مواضيع عديدة على غرار ترتوليانوس وكان معجبا به شديد الإعجاب، منها الردّ في حماس وظرف على اتّهامات أحد المشركين وبيان موقف المؤمنين في فترات الاضطهاد طبقا لما ورد في الكتب السماوية (ad. fortunatum) ومنها مسألة الطاعة والأخلاق وذلك في مقام الحديث

عن الكفر والزيغ عن الدين (De lapsis,De catholicae Eccelesiae unitate) وحثّ همم النّصارى المهدّدين بالوبـــاء (De mortalitate) وذكر تعاليم الدين المتعلّقة بفضل العذارى اللاّئي يقدّمن بكارتهنّ قربانا إلى الله ووظيفة الصلاة الاجتماعية وواجب المؤمنين في أن يوقفوا حياتهم على الخير وأن يقدّموا الصدقات وما تحصل لهم بذلك من ثواب وقيمة الصبر في نظر الدين المسيحي ومساوي الحسد والغيرة .

وليس فضل أسقف قرطاج في هذه المؤلّفات الأخيرة المتأثّرة شديد التأثّر بترتوليانوس بل في رسائله . وهي أحسن المراجع لتاريخ الكنيسة في القرن الثالث لما تضمّنته من وثائق يبلغ عددها واحدا وثمانين ولما تشير إليه من أحداث، فهي تصوّر لنا في دقّة الأعمال المتنوّعة التي قام بها القدّيس قبريانوس وربّما تدلّ أكثر من بقية مؤلّفاته على أنّ مؤلّفها كاتب كبير قد تكون لغته دون لغة ترتوليانوس غنى وحياة ولكنّها بلغت حدّا من الرشاقة جعلت منه كاتبا كلاسيكيا .

6 — اضطهاد ديوقليسيانوس للنصارى

طبعت الآداب المسيحية بطابعه وهو ما زال بقيد الحياة . ولقد حاول بعضهم أن ينسب إليه بعض الكتب التي ألّفها تلاميذه، غير أنّ كتابا واحدا منها لم تلُح فيه ومضة الأستاذ الكبير، ومرّت أربعون سنة دون أن تنجب افريقية كاتبا واحدا، ولا شك أنّ عملا دعائيا تنظيميا حيك في طيّ الخفاء أثناء هذه الفترة، ويربط المؤرّخ الصلة بتاريخ الوثائق المسيحية بواسطة أخبار الشهداء (Actes des martyrs) فقد قرّر ديوقليسيانوس بعد أن أعاد تنظيمه للإدارة الامبراطورية تنشيط الحياة المدنية بإحياء الديانات القومية والقضاء على الديانات غير المنسجمة مع عقليّة القوم كالمانوية والمسيحية .

ولقد تمكّن المسيحيّون طيلة الأربعين سنة التي توفّر فيها الوفاق بين الدولة والكنيسة أي من عهد غاليانوس إلى ديوقليسيانوس من إقامة شعائرهم في حرية وإنشاء الكنائس الكبرى ونشر معتقداتهم . ولقد أعفت الدولة الأشراف المسيحيّين من العبادة الامبراطورية واستغلّت كفاءاتهم، ولكنّ هذا

التسامح لم يدم طويلا، ذلك أنّ ديوقليسيانوس وضع حدّا لهذا الوفاق وفرض في الجيش عبادته لا على الضبّاط الكبار فقط بل على ضبّاط الصفّ والجند.

7 – مناهضة العسكرية

لمّا أصبحت الوثنية واجبة في صفوف الجيش ناهضت الكنيسة من جديد العسكرية وخاصّة في افريقية وتراجعت فيما تنازلت عنه من مبادئها لفائدةالسلطة الزمنية عندما أباحت القتل في صيغته العسكرية والوطنية. وكان من نتيجة ذلك أن تكاثر الفرار في صفوف الجيش في السنوات التي سبقت الاضطهاد الكبير . وحدث سنة 295 بينما كان البروقنصل يقوم بعملية التجنيد في تبسّة أن تقدّم أحد قدماء الجند بابنه مكسيميليانوس فامتنع هذا الشاب المجنّد وصاح قائلا : "لا يمكن أن أخدم الجندية ، لا يمكن أن آتي الشر إنّي مسيحي" وظلّ يكرّر العبارات الآتية وهم يفحصونه "لا يمكن أن أخدم الجندية إنّي مسيحيّ . لن أكون جنديا ، اقطعوا رأسي .. إنّي لست جنديّ الحكم القائم، إنّي من جيش الله .. لا يمكن أن أكون جنديا في دنياكم كما قلت لكم .. إنّني مسيحي" . فضاق الحاكم به ذرعا وأمر بقطع رأسه. وفي الخربة (على ضفّة واد شلف بين دي بري ومدينة الأصنام) رفض الجندي القديم تيباسيوس التطوّع من جديد بعد أن دخل دين المسيح وقال لقائد الجيوش : "إنّي مسيحيّ ولا يمكن أن أقاتل تحت قيادتك". فهلك تحت ضربات السيف . وبمناسبة الاحتفال بذكرى ولادة الامبراطور رمى قائد السرية مرسلوس (le centurion Marcellus) الذي كان قائما بمأموريته باسبانيا بمنطقته أمام راية كوكبته ثم أردف بعصا قيادته وسلاحه وصاح : "إنّما أنا أخدم المسيح الملك الأبدي، إنّي كففتُ منذ اليوم عن خدمة أباطرتكم" (سنة 298) ثم توجّه لقائد الكتيبة مجيبا : "لقد قلت لك بعد إنّي مسيحيّ وإنّه لا يمكن لي العمل في الجيش" . وعندما أحيل على مساعد قائد الجيش في طنجة أعاد نفس الكلام مؤكّدا : "نعم إنّي ألقيت بسلاحي . وليس للمسيحي أن يعمل في صفوف جيشكم الحقير ، إنّه جندي السيد المسيح". وعلى هذا النحو كان سلوك حامل اللواءفابيوس في قيصارية .

لم يكن لهذه المواقف طابع فردي فقد أشادت بها الكنيسة وجعلت من مرسلوس ومكسيميليانوس قدّيسين تروى أخبارهما على المؤمنين . وحدث أكثر من ذلك، فلمّا أراد أحد الأتقياء ـ وكان منتحلا ـ أن يدوّن حياة قدّيس مجهول التاريخ وهو كسيانوس رأى أنّ خير طريق إلى ذلك هو أن يجعل كاتبَ كتيبة أعلن على الملاعن تضامنه مع موقف مرسلوس ورمى بقلمه ولوحته على الأرض . وقد قال آ. ش. بابوت (E. - Ch. Babut) في هذا المعنى : "لقد آل الأمر بالسلط الكاتوليكية في افريقية على الأقل إلى اعتناق وجهة نظر ترتوليانوس المنطانوسي القائلة: "إنّ المسيحيّ لا يدخل الجيش ولا يمكن أن يكون جنديا وإذا اعتنق جنديّ الدين المسيحيّ فإنّ خير ما يمكن أن يفعله هو الفرار" .

ومن سوء الحظّ فإنّه من المتعذّر أن نعرف هل أنّ الكنيسة كانت تستجيب كما يبدو إلى رغبات كافّة المؤمنين، ومهما يكن فإنّ عدد الذين كانوا يفرّون خفية ويلبّون صوت ضمائرهم فيمسكون عن حمل السلاح كان ولا شك من الكثرة بحيث احتار امبراطور في أمرهم ولم يكن متعصّبا واضطرّ إلى أن يعدل عن تسامحه السابق فأمر بتهديم الكنائس وتحريم عبادة المسيح . وكان من حقّ الدولة أن تخشى تفاقم تأثير رجال الدين أو انتشار أخبار الشهداء بحيث يذكر القوم حكم المسيح في من يحمل السيف . فقد رفض تيبازيوس الخدمةالعسكرية أثناء محاربة مكسيميانوس لقبائل الحلف الخماسي وكان أمن افريقية رهين نتيجة هذه الحرب . وقد بلغت مسألة مناهضة العسكرية حدّا من الأهمّيّة اضطرّت معه الامبراطورية إلى المطالبة بالضمانات الكافية عندما أبرمت السّلم مع الكنيسة . ولمّا انعقد أوّل مجمع للأساقفة في أرل بطلب من الامبراطور سنة 314 قرّر : "أن يطرد من المسيحية كلّ جنديّ يرمي بسلاحه في حالة السلم" وما كان هذا الطرد ضروريا لو لم يكن عدد الفارّين من الجندية كبيرا ولو لم يصادف عملهم هذا رضا رجال الكنيسة . وهكذا لم تتمكّن الكنيسة من مصالحة الدّولة إلاّ بعد أن نعتت عملا كان رجال الكنيسة والمؤمنون يعتبرونه في مرتبة الاستشهاد بأنّه ذنب تعاقب عليه الشريعة .

8 ــ أرنــوب

مهد الاضطهاد الذي قام به ديوقليسبانوس(سنة 303) وواصله خلفاؤه بمزيد الصرامة ــ ممّا لم تعرف المسيحيّة له مثيلا شدّة وإراقة دماء ــ إلى أدب مستوحى من حياة الشهداء وما استُهدفوا له من ألوان العذاب . أمّا مادّته فموجودة في محاضر الجلسات أو المذكّرات المتفاوتة القيمة . وأثناء هذه الفترة توفي تسع عشرة امرأة وثلاثون رجلا في سجن "أبيتينا" قرب قرطاج وكانوا متّهمين بعقد اجتماعات ممنوعة .

إلاّ أنّ تفاني المضطَهدين في عملهم لم يبلغ أقصاه إذ أمكن لكاتبين افريقيين وهما أرنوب ولكتانسيوس أن يهاجما المشركين علانية من دون أن تنالهما يدُ العدالة .

لقد كان أرنوب خطيبا شهيرا ، محافظا ، ورعا، فاجأ مواطنيه فى الكاف باعتناقه المسيحية (Sicca) . وقد عبّر عن حماسه لدينه الجديد بصورة أثارت ارتياب الأسقف في شأنه . فأبى إلاّ أن يقيم الدّليل على إخلاصه وذلك بأن ألّف كتابا للدفاع عن الدين المسيحيّ شهّر فيه في شدّة بالأمم المعادية وهو تأليف ضخم غريب إن دلّ على معرفة بالفقه لاترتكز على أساس صحيح إذ هو ينسب خلق الروح إلى آلهة ثانوية ويرفض العبادات ، وعلى جهل بمذهب الدين المسيحيّ والحياة المسيحيّة إلاّ أنّه شديد ولاذع في مجموعه على الإشراك ومستوحى من مبادىء أخلاقية سامية، أمّا الأسلوب فهو دقيق ، يزخر حياة ، لكن يغلب عليه الإطناب في كثير من الأحيان .

9 ــ لكتانسيوس

وكذلك لم يكن لكتانسيوس (L. Caecilius Frimanius Lactantius) وهو تلميذ أرنوب مفكّرا فذّا . وقد جاب البلادَ طولا وعرضا قبل أن يستقرّ بنكوميديا في بتينيا حيث أسند له ديوقليسيانوس تدريس الخطابة اللاّطينية. وقد اعتنق المسيحيّة حوالي سنة 300 . وكان رغم إلمامه بعلم الخَطابة لا يحسن الكلام أمام الجماهير راغبا عن الفلسفة والفقه زاهدا في العمل .

فلم يهتمّ إلاّ بعلم الأخلاق وحده . وقد ألّف كتابا يدافع فيه عن الدين المسيحيّ في أربعة أجزاء (من سنة 305 إلى سنة 311) تناول فيه بالبحث : المشيئة الإلهية (De opificio Dei) وعقاب الاله للمذنبين وبالخصوص المؤسّسات الالهية (Divinae institutiones) وقد حرّر مختصرا لهذا التأليف (épitome) ، كما بيّن في كتابه : الأموات المضطهَدون (De mortibus persecutorum) ما ينتظر مضطهدي النصارى من ويلات في الدنيا . كما عالج في الأجزاء السبعة من كتابه في المؤسّسات ، الزندقة ، وأصل الخطأ والحكمة الزائفة والحكمة والدين الأصيلين والعدالة والعبادة والحقّ وسعادة الحياة . كما حاول أن يدخل المشركين إلى المسيحية رادّا على القائلين بتعدّد الآلهة ومقيما الدليل على أنّه من الهيّن التوفيق بين العقل والعقيدة المسيحيّة . ولقد سخر فولتير من أناشيد لكتانسيوس الذي تبدو سذاجته وجهله واضحين للعيان، وكان يمكنه أن يضيف أنّ كتابه في الأخلاق يستمدّ قيمته من رقّة معانيه وأنّه كان له الفضل في تحليل الإمكانيات التي يُتيحها الدّين المسيحي للروح البشرية . وقد كان أسلوب هذا الكاتب المتأثّر بشيشرون متكلّفا باهتا .

أمّا الشعر فلم يكن له في الواقع وجود . وقد حاول بعض النُّقّاد أن ينسبوا كموديانوس إلى القرن الثالث أو الرابع ولكنّ الأغلب على الظنّ أنّه عاش في القرن الخامس . إلاّ أنّ عددا كبيرا من الأفارقة كانوا يرثُون موتاهم بأبيات تخضع لمقاييس مبنية على النبرة عوضا عن الأوزان المبنية على التفريق بين المقاطع القصيرة والطويلة .

وهذا الشغف بالشعر أو بالأحرى النظم يعبّر عن الرغبة الشعبية في تحطيم القوالب الكلاسيكية لإيجاد نظم مبسط سوف يشعر القدّيس اغسطينوس بضرورته .

10 — نظام الكنيسة

كانت الكنيسة في الوقت الذي أحدث اضطهاد ديوقليسيانوس، انشقاق الدوناتسيين الذين سوف يشتّتون شمل افريقية قاطبة قد انتشر نفوذها

وتمتّعت بهيبة عظيمة في كامل البلاد النصرانية وقد اكتمل نظامها بصورة نهائية في القرن الرابع فكان لها ستّ مقاطعات كنائسيّة تقابل المقاطعات المدنية الستّ الموجودة في عهد قسطنطين من دون أن تتوافق لذلك حدودها توافقا تاما .

ولم تصبح موريطانيا القيصرية مستقلّة عن نوميديا إلاّ سنة 393 وقد صحب انتشار المسيحيّة توغّل الرومان على طول السواحل والخطّين العسكريين المحصّنين، أمّا موريطانيا الطنجية فإنّها ظلّت راجعة بالنظر من الناحية الدينية إلى موريطانيا القيصرية بالرغم عن اتّصالها إداريا بأبرشية اسبانيا .

وإذا استثنينا قرطاج فإنّ الجاثليق كان أصيل المقاطعة ينتخبه الأساقفة بصفة عامّة باعتبار الأقدمية . أمّا أسقف قرطاج فقد كان باسطا نفوذه على كامل افريقية .

11 ـ الفنّ المعماري المسيحي

إنّ نشاط الكنيسة تجلّى في معالمها، وإذا استعمل النصارى معابد المشركين في بعض الأحيان كما وقع ذلك في مداوروش وتيبازة مثلا فإنّهم كانوا يؤثرون في غالب الأحيان إقامة المباني الجديدة، وما إن توطّدت السِّلم حتى أخذوا يبنون ـ في كلّ مكان وفي سرعة تعذّر معها الاعتناء ـ عددا كبيرا من الكنائس والمصلّيات وقاعات العماد وأضرحة للشهداء يحفظون فيها مخلّفاتهم، وذلك إمّا في المدن أو خارج الأسوار وفي بعض الأحيان حتى في الضّيعات التي يوجد في بيوتها مصلّى .

وكان بين هذه المعالم وبين معالم سوريا ومصر وجوه شبه عجيبة إذ لا نجد في هذه ولا في تلك مباني ذات قباب أو مسطّحة (Plan central ou à coupole) وإنّما هي كنائس مستطيلة الشكل يعوزها في غالب الأحيان صحن تحوط به أرتجة ويتقدّم هذه الكنائس بهو منغلق أو مدخل بين برجين على طريقة أهل الشام كما نجد ذلك في مرسوط (Morsott) .

ويوجد داخل الكنيسة أعمدة وركائز مستطيلة الشكل ، يحوط بحافاتها أحيانا أعمدة كما هو الشأن في آسيا الصغرى بحيث

تفصل بين الردهات العديدة وكانت الدّعائم مرتبطة لا بالأفاريز بل بالحنايا . وغالبا ما كان السقف من خشب إلاّ أنّ بعض الكنائس كانت شبيهة بالأقبية وممّا يباعد بينها وبين مباني رومة ويقرّبها من مباني الشرق النواويس المستطيلة الشكل والمخادع الملاصقة للناووس ورسوم المصلّيات النفلية الشكل والمصمّمة على شكل أوراق الشجر نظّمت أربعا أربعا وقد شيّدت هذه المصلّيات على أضرحة القدّيسين وكذلك الأساطين التي تقوم عليها حنايا المنابر بما فيها الأسطوانة الصغيرة المقامة على ما نتأ من المنابر في الواجهة الأمامية . وكان لعامّة الكنائس فروع هامة كالأرتجة والمصلّيات وقاعات العماد . وكان المبنى الرئيسي وفروعه يزخران بالنقوش المزخرفة لتيجان الأعمدة والركائز وأساكفة الطنوف والأبواب . ولكنّ أهمّ عنصر للزخرف هو الفسيفساء التي فرشت بها أرض المباني وغطّيت بها القبور .

وقد كثرت الكنائس طبعا في جهات قرطاج السبع، وكان في كلّ جهة منها كنيسة قائمة بذاتها، ونعرف إلى حدّ الآن 20 كنيسة قد تمّ اكتشافها والتنقيب عنها . وقد كانت كنيسة داموس الكريطة قرب هضبة باب الريح التي لم يبق منها سوى أسسها مبنى فسيح الأرجاء (65 م طولا و5 م عرضا) يشتمل على ناووسين يقابل في الجنوب الشرقي من أكبرهما تسع ردهات أمّا أصغرهما فهو متّجه إلى الجنوب الغربي، وشكل هذه الكنيسة مصلّب . وقد أقيم في مدخلها صحن على شكل نصف دائرة يحيط به رواق معمد يفضي إلى مصلى نفلي الشكل مخصّص للشهداء المجهولين . ويوجد في الجنوب الغربي قاعة كبيرة ذات ردهات كثيرة تقوم مقام قاعة للعماد حوضها سداسيّ الأضلاع . وأمكن كذلك سنة 1907 دراسة كنيسة ذات سبع ردهات شيّدت في أعلى هضبة القدّيسة مونيك تكريما للقدّيس قبريانوس كما تمّت دراسة كنيسة بير الكنيسة ذات الردهات الثلاث قرب دوار الشط سنة 1922 وأخيرا تمّت دراسة كنيسة الدويس البيزنطية سنة 1899 الكائنة على مرتفع مصيدفة والمشتملة على خمس ردهات وربّما احتوت هذه الكنيسة على ضريحي فيليبستي وبربتوي (Perpetue) اللذين اكتشف وأثبت الأب دي لاتر النقوش المشيرة لمخلّفاتهما . وعثر في كنيسة داموس الكريطة وكنيسة القدّيس قبريانوس على بقايا نقوش كثيرة كما عثر في جميع الكنائس على معالم مسيحيّة عديدة كالتوابيت والنقوش الناتئة والآنية والمصابيح .

وإلى جانب كنائس قرطاج فقد اكتشفت في التراب التونسي كنائس أخرى عديدة ففي فريانة عثر على سبع كنائس ينبغي أن تضاف إليها مصلّيات عديدة كما عثر كذلك على مجموعات كنائسية هامّة في حيدرة وسبيطلة . أمّا في هنشير القصبات فقد جعل القوم من معبد بعل وتانيت كنيسة . وهكذا يسهل على المؤرّخ أن يعدّ قائمة طويلة في هذا الشأن . لكن لنكتف بذكر أحدث الاكتشافات بدقّة وتونقة ومكثر .

لقد أمكن بفضل نشاط علماء الآثار في الجزائر ضبط قائمة لآثار الكنائس الكثيرة، وأعظم هذه المعالم كتدرائية تبسّة التي كانت تشتمل على كنيسة ذات ثلاث ردهات يبلغ طولها ثمانين مترا يتقدّمها صحن، وعلى مصلّى نفليّ الشكل . وكانت هذه الكنيسة مقامة على مصطبة مرتفعة يصعد إليها بواسطة مدرج ضخم ذي أربع عشرة درجة، وكانت أرض الكنيسة مزدانة بالفسيفساء وجدرانها مغطّاة بقطع المرمر المزخرف وأقبيتها مزدانة بمكعّبات بلورية.وكان يفصل بينها وبين ساحة فسيحة الأرجاء ممشى مبلّط. كان يتّصل بهذه مجموعة بنايات مختلفة لم يتعرّف الباحثون إلى نوعها وقد أحاطت بكلّ ذلك أسوار محصّنة. وزيادة على ذلك فقد كشفت حفريات حديثة عن وجود سراديب تحت هذه الكنيسة أعدّت لإقامة الطقوس الجنائزية أو ربّما لإقامة الشعائر، ويصعب علينا ضبط تاريخ بناء هذه المجموعة غير أنّه أصبح من المتعذّر على ما يبدو التعرّف من خلال هذه الآثار — وهي أجمل آثار مسيحيّة في افريقيا الشمالية — إلى بقايا دير بيزنطي كما كان يظنّ .

ولقد عرّفنا القدّيس أغسطينوس أنّ البنايات المقدّسة كانت متراصّة في عنّابة، وذكر خاصّة كنيسة السلام وكنائس أخرى أقيمت تكريما للأسقف ليونتوس والقدّيس تيوجين (Théogène) والشهداء الثمانية والشهداء العشرين ، زد على ذلك الكنيسة الدنوناتسية المنافسة لهم . وقد كشفت الحفريات الجارية الآن عن إحدى هذه الكنائس ولم يتوصّل إلى اليوم إلى ضبط نسبتها . أمّا خارج الأسوار فقد كانت المصلّيات العمومية والخاصّة عديدة .

وقد اكتشفت في تيمقاد (Thamugadi) كنائس كثيرة وقاعتان للعماد وفي جميلة (Cuicul) كنيستان ومصلىّ وقاعة للعماد . أمّا في تيبازة فقد تم خارج الأسوار وفي ناحيتين متقابلتين من المدينة علاوة على الكنيسة

الكبيرة ذات الردهات التسع وقصر العدالة الذي تحوّل إلى كنيسة، سبدان يحيط بهما عدد كبير من التوابيت بني الأوّل تخليدا لذكر القدّيسة سالسة (Sainte Salsa) التي استشهدت في عهد قسطنطين حسب ما ورد في كتاب العذاب (Passio) والتي لم تكن إلاّ ثمرة للخيال الشعبي حسب ه. قريقوار . وبني الثاني الأسقف اسكندر تخليدا على ما يظهر لذكر أساقفة المدينة الأولين، وقد حافظ هو بنفسه على قبورهم على ما يبدو .

وإلى جانب هذه المجموعات الهامّة تجدر الإشارة إلى ما تكتسيه بعض البنايات المنفردة من أهميّة ككاتدرائية تغزيرت (Tigzirt) نظرا لقيمة هندستها المعمارية ونقوشها، وكدير عين تمدة (Aïn Tamda) ونظرا للأضواء التي يلقيها على أصل هندسة الديرة في افريقيا الشمالية . غير أنّ الحفريات لم تنفكّ تكشف عن كنائس عديدة والتنقيبات المجراة في نوميديا الوسطى خاصّة تشهد بكثافة المباني المسيحيّة . سواء في المدن أو القرى وحتى في تحصينات الليمس كما نجد ذلك في بوعرادة .

ويجب أن لا نزهد في ذكر الكنائس الدوناتيسية في سياق الحديث عن الاكتشافات الحديثة . وكنيسة بنيان (Ala Miliaria) كانت معروفة من قديم وانضمّت إليها فيما بعد كنيسة عين غراب في الجنوب الغربي من تبسّة وكنيسة قصر الكلب (Vegesala) شرقي خنشلة وخاصّة كنيسة تيمقاد المرتبط ذكرها باسم الأسقف أبتا (Optat) وكانت كاتدرائية .

ومن المؤسف أن يكون من الصعب ضبط تاريخ المعالم المسيحية في افريقية سواء كانت كاتوليكية أو دوناتوسية . ولا نستند في الغالب إلاّ إلى أسباب واهية عندما نجعل تاريخ بناء الكنائس في القرون الثلاثة التي تبدأ من عهد قسطنطين إلى الفتح العربي . وأقدم كنيسة مسيحية عثر على بقاياها التي امحت اليوم ما عدا الفسيفساء هي كنيسة مدينة الأصنام (Castellum Tingitanum) المشيّدة سنة 324 . ولقد تتابع بناء الكنائس حتى قبيل الفتح الإسلامي كما يشهد بذلك مصلّى الأسقف هو نوريوس (Honorius) المكتشف في ضواحي سبيطلة .

III ـ الدوناتوسية والثورة الاجتماعية

1 ـ المانويـة

إذا كانت افريقية المسيحية ابتداء من القرن الرابع من القوة بحيث انتشرت الكنائس على طول البلاد وعرضها فإنّها بقيت رغم ذلك تتمزّقها النّحل وقد رأينا أنّ الأساقفة اضطرّوا إلى مقاومة المنطانوسية، وكان ألمع مريديها ترتوليانوس، ومقاومة كنائس نوفاتوس ونوفاسيانوس المناهضة . وكانت ترهب غائلة النحل اللاهوتية والاختيارية كنحلة الفارسي ماني الذي صلب سنة 277 ، وكان يدعو إلى ثنائية مشوبة بالتنسّك ، فكانت هذه البدع توشك أن تغرى المؤمنين بالدخول في حضيرتها خاصّة وأنّها لم تحملهم على منابذة الطقوس المسيحية . ودخل أدب ماني في بلاد البربر منذ القرن الثالث عن طريق مصر ولا شك، ثم انتشر باللغة اللاّطينية في البروقنصلية ونوميديا . فتأسّست في قرطاج وعنّابة جماعات من "المصطفين" انبروا يشرحون الكتب المقدّسة التي ورد ذكرها في ردود القدّيس اغسطينوس . ولمّا انتصرت المسيحية استنجد النصارى بموظّفي الامبراطورية الرومانية للقضاء على أتباع هذه النّحلة .

2 ـ تورّط المسيحيّين

كانت الكنيسة عرضة لخطر آخر . ذلك أنّه بقدر ما كان عدد النصارى يتكاثر كان إيمانهم يضعف . وكانت عادات المشركين من الرسوخ بحيث بقي تأثيرها قويا حتى بعد اعتناقهم المسيحيّة، وكانت العلاقات الاجتماعية من المتانة بحيث تعذّر على النصارى الجُدُد تغييرها . وهكذا تواطأ النصارى شيئا فشيئا مع السلطة الزمنية فكان في افريقية كهنة لم تخلُ وظيفتهم من وجوه شبه مع طقوس وثنية رغم ما كان من تجرّدها عن محتواها الوثني القديم . ولم يحرم المؤمنون أنفسهم من حضور المآدب الرسمية التي كانت تقام في المعابد على إثر عمليات التضحية وأدخلوا شيئا من الطقوس القديمة في عبادتهم الجديدة وذلك بإهدائهم اللحوم والخمر إلى أرواح الشهداء . وأخيرا تفنّنوا في الاستكثار من مخلّفات القدّيسين المتبرّك بها وإن حامت الشكوك حول نسبتها إليهم .

ولم تكن بلاد المغرب قبل زحف الوندال مسرحا للنحلة الاريوسية التي مزّقت شمل بقيّة الامبراطورية لأنّ البربر كانوا مشغوفين بالنظام فلم يعبأوا بالمناقشات اللاّهوتية التي كانت تجرى بين أنصار أريوس (Arius) الذين كانوا يكذّبون أن تكون الطبيعة حقيقة إلهية وأن تكون الكلمة سرمديّة، وبين خصومهم، ولكنّ هذه البلاد كانت مسرحا لظهور نحلة تكاد تكون افريقية صرفة انقسمت من جرّائها الكنيسة إلى شقّين متقابلين وهي النحلة الدوناتوسية فلم يكسّر شوكتها الاضطهاد وتأجّجت بها روح الثورة بين جماهير المعدمين.

3 ـ الدوناتوسية خطوتها الأولى

وكان سبب الصراع المباشر قضية المرتدّين كما هو الشأن في عهد القدّيس قبريانوس. فقد حمل اضطهاد ديوقليسيانوس النصارى على التظاهر بالكفر أكثر ممّا فعلوا عندما اضطهدهم دسيوس . وعاب الشعب على منسوريوس (Mensurius) أسقف قرطاج اتّقاءه التعذيب باستعمال أساليب لا تشرّف المسؤول الأوّل عن الكنيسة بل إنّهم اتّهموه بتسليم الكتب المقدّسة . وكان رجال الكنيسة في نوميديا لا يضمرون محبّة كبيرة للكنيسة الرسمية بروما فتضامنوا مع شعب قرطاج. وقد قارن الناس بين خيانة الرؤساء وبين صمود شهداء أبتينا (Abitina) الذين قاموا مقام المسؤولين المتخلّين عن القيام بواجبهم فأطردوا بوحي من أنفسهم المرتدّين من حضيرة الدين ولم يكن لأهل أبتينا شأن كبير بحيث لم تقم الكنيسة وزنا لادّعاءاتهم اللاّهوتية ولكنّهم بمجرّد رفتهم جميع من "تجاوبوا مع الخونة" أثاروا الحماس حولهم وخاصّة في نوميديا وأصبح عملهم بمثابة الميثاق الاجتماعي والدّيني.

ولمّا مات منسوريوس انتخب كاسيليانوس (Caecilianus) كبير الشمامسة، وكان في مقدّمة المتشدّدين المحقود عليهم واتّهم بأنّه شتّت بالسوط شمل المتظاهرين أمام سجن شهداء ابتينا، وأنّه قطع المؤونة على المرشدين المسجونين، وسرعان ما سمّ كاسيليانوس من طرف ثلاثة قساوسة مجاورين لا يتمتّعون مثله بتقدير عامّة المؤمنين . فاحتج النوميديون وترأّس جاثليق نوميديا مجمعا في قرطاج تقرّر أثناءه إلغاء الانتخابات والسيامة .

ولمّا رفض كاسيليانوس التنازل عن منصبه التفّ خصومه في جبهة واحدة حول زعيم فذّ اسمه دوناتوس الأكبر ونشأت بذلك نحلة الدوناتوسيّين التي سرعان ما كثر المعتنقون لها .

ولمّا اعتنق قسطنطين الدين المسيحيّ واضطرّ بعد أمر ميلانو الذي وضع حدّا للاضطهادات سنة 313 إلى أن يقول قوله الفصل في شأن هذه الازمة بادر بنصرة كاسيليانوس على المنشقّين . وكانت قرارات المجامع الدينية والبروقنصل متّفقة على طول الخطّ . فاعتبر انتخاب كاسيليانوس وسيامته شرعيين وأثبت براءة أحد الأساقفة الذين تولّوا سيامته وحكم الامبراطور نفسه على الدوناتيسيّين بأنّهم قوم خارجون عن القانون. وهكذا يتجلّى التضامن الذي لا مناص منه بين السلطة المدنية والكنيسة الرسمية . وما كان يمكن مقاومة هذه من دون مقاومة تلك . فلمّا قدم المندوبون الذين أرسلهم قسطنطين لإجراء البحث حدثت اضطرابات . وقد مكّن موقف الدولة الحركة الدوناتوسية من الانتشار الواسع .

ولم تلبث الكنيسة المنتصرة أن أصبحت تضطهد بدورها أعداءها فوحّد الكاتوليك والسلطة جهودهم وأطردوا الدوناتوسيين من الكنائس بالقوة العسكرية فهلك منهم عدد كبير . ومرّت خمس سنوات على هذه الحالة حتّى ملّ قسطنطين القيام بهذا الدور الذي أرغم عليه ودعا رجال الدين الكاتوليك إلى الاعتدال وأصدر أمره بالتسامح .

1 – "الدّوارون"

لقد أدّى هذا الاضطهاد إلى نشوب ثورة حقيقية في صفوف المُعدَمين ذلك أنّ حركة اجتماعية بحتة عظم أمرها مع انتشار الدوناتوسية من دون أن يكون بينهما في أوّل الأمر اتّصال رسميّ هي حركة "الدوّارين" (Circum Cellas) أي (الذين يحومون حول مستودعات الحبوب لسرقتها) وكان السبب الأصلي لتلك الثورة شدّة بؤس الكادحين الفلاّحين الذين لم تؤثّر فيهم الحضارة الرومانية تأثيرا يذكر . ولقد جعلتهم الامبراطورية لقمة سائغة للطبقة الارستقراطية الرومانية أو المتأثّرة بالرومان التي لا همّ لها

إلاّ امتصاص دم الأهالي . ولم يكن بين الفلاّحين والملاّكين أيّ اتّصال بل كان كلّ شيء يباعد بينهم : الثقافة واللغة والدين .

وانتهز المعدمون من أهل الأرياف وخاصّة من نوميديا فرصة وجود صراع بين الكاتوليك والدوناتوسيين فانتظموا جماعات تروّع الملاّكين . ولقد وصفهم ب. مونصو (Monceaux) وصفا مجملا وكان رغم سعة اطّلاعه العجيبة لا يدرك المغزى الاجتماعي العميق لهذه الثورة فقال : إنّها عصابة من العراة جمعت الغاضبين والمغامرين وصعاليك البربر والمعمّرين المفلسين والفلاّحين المجرّدين من أملاكهم والعبيد الآبقين" ويظهر أنّه لم يفطن إلى ما يميّز بين اللصّ قاطع الطريق وبين الصّعلوك الذي هو ثمرة حتمية للبؤس الاقتصادي .

إلاّ أنّه يجدر ألاّ نعتبر "الدوّارين" معصومين إذ النصوص تشهد على ما ارتكبوه من شتى الأعمال الفظيعة التي تثبت إدانتهم. ويستبعد أن تكون هذه النصوص قد كشفت لنا عن الحقيقة والقول الفصل كشفا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ولقد بيّن شارل سوماني أنّ هؤلاء "الدوّارين" لم يكونوا ممّن يحومون حول المخازن فقط بل كانوا كذلك طبقة خاصّة من العمّال الفلاّحين وهم على كلّ حال لا يستحقّون هذا الاحتقار الذي يشملهم جميعا من دون ميز وكان "الدوّارون" يقفون موقف من يقوّم الاعوجاج فوصفهم أحد خصومهم "بأنّهم يكرهون الأسياد والأغنياء وإذا ما اعترضهم في طريقهم سيّد ممتطيا مركبته وحوله عبيده فإنّهم ينزلونه من فوق المركبة ويأمرون العبيد بالركوب ويفرضون على السيّد أن يسير راجلا" وهم يتبجّحون بأنّهم إنّما جاؤوا ليملأوا الارض عدلا وكانوا يهيبون بالعبيد أن "ينشدوا الحرية" .

ورغم أنّ هذه الثورة صحبتها أزمات صوفية وأدّت إلى انتحارات عديدة فقد كانت كما بيّنه بحقّ أ. ف. قوتيه (E. F. Gautier) "ثورة اجتماعية" و"صراعا طبقيا" وفي آن واحد تجنيدا عاما للإطاحة بالامبراطورية ومناهضة النفوذ اللاّطيني اللّذين كان يجدهما المستضعفون متضامنين دائما مع مستغلّيهم .

ولهذا فقد وقف الأساقفة الدوناتوسيون والأساقفة الكاتوليك على السواء موقف العداء إزاء هذه الثورة واتّفق هؤلاء على مطالبة السلطة بإعادة النّظام إلى استقراره، فاستجاب قائد افريقية إلى رغبتهم وأباد جيشا كاملا من الدّوارين . ووصل الأمر بمجمع من مجامع الدوناتوسيين إلى منع إقامة قبور الضحايا في الكنائس .

غير أنّ موقف الشعب وموقف صغار القساوسة كانا على خلاف ذلك . فلقد وقع تكريم الثوار الذين هلكوا تحت ضربات الجنود على غرار تكريم الشهداء، فاقتبل القساوسة جُثَثَهم في بيت الله رغم تحجير الأساقفة. وأصبحت ساحة القتال كعبة يحجّ إليها الناس وروضة مقدّسة تضمّ أرضها شهداء الثورة . (حوالي سنة 340) ولا بدّ أن كان لضريح الشهيد مارقلوس (Marculus) الواقع بقصر الكلب (Vegesala) نفس الشهرة .

5 – قنسطانس والوحدة

لمّا استولى الامبراطور قنسطانس على دائرة افريقية أراد أن يضع حدّا للاضطرابات الاجتماعية والخلافات الدينية فكان على مبعوثيه إلى افريقية أن يقوموا بعملين : إحصاء الفقراء وتوزيع الصدقات عليهم ثم إرجاع الوحدة الدينية . فأغدقوا المال على مجموعات السكّان واشتروا القواد . فتدخّل دوناتوس لوضع حدّ لهذا الفساد ومنع على المؤمنين أن يقبلوا الصدقات وبذلك فشل مسعاهم .

وسعيا إلى القضاء على أسباب الفوضى والخلافات اضطرّ الامبراطور إلى اتّخاذ قرارات استثنائية فأصدر أمر "الاتّحاد" أو الوحدة القاضي بإدماج الكنيستين المتنافستين ومصادرة الكنائس الدوناتوسية التي أصبح في الإمكان إحالتها إلى الكاتوليك ووقع تنفيذ القرار بقساوة كبيرة . فقد أرسلت الجيوش لمقاومة "الدوّارين" ودخلت المدينة بعد معركة وقعت قرب باغاي وقتّلت السكّان تقتيلا . وانتهى الأمر بالدوناتوسيين أن أذعنوا إلى القوة . وكلّما دنت الجيوش من المدن أقفرت من أهلها وفي بعض الأحيان نشبت معارك طاحنة، وبهذه الطريقة لم يلبث أن اكتنف نوميديا المنشقّة النظام، غير أنّ القمع بلغ درجة من الحدّة تردّد معه الكاتوليك

في الدّفاع عن "بُناة الوحدة" "الذين تركوا في افريقية سمعة هي شبيهة بسمعة الجلاّد السيئة" كما شهد بذلك ب. مونصو (Monceaux) .

6 — تحالف الكنيسة مع الدولة

لقد أمكن لكنيسة افريقية أن تنعم طيلة خمس عشرة سنة (348 — 362) بانتصارها وقد تخلّصت من أعدائها بالتقتيل والطرد أو الضغط . فأخذت تتّحد مع الدولة شيئا فشيئا لأسباب استخلصها رينان (Renan) في حذق تامّ إذ قال : "إنّ السلطة تميل إلى السلطة إذ كان من الحتمي أن يحسّ رجال محافظون كالأساقفة برغبة ملحّة جبّارة تدفعهم إلى التراضي مع السلطة العمومية مقتنعين بأنّ عملها يهدف في أغلب الأحيان إلى الخير العميم ... فحقد المسيحيّة على الامبراطورية هو إذن حقدٌ من كتب لهم أن يتحابّوا يَوْما ما".

ولم تكن الكنيسة وهي تنتظر "الملك" مستعدّة لخوض صعاب الحياة المدنية والسياسية، فكانت تشعر أنّها قد تكون عاجزة عن أن تنتصر على أهل البدعة والخوارج إذا هي لم تستعن بالسلطة الزمنية . زد على ذلك أنّها شاهدت حتى بين صفوفها زحف المعدمين الذين كانوا يهدّدون نظامها المقام على الرتب والنفوذ، وفيما مضى استعان آباء مجمع أنطاكية بالامبراطور أورليانوس عابد الشمس لينتقم من أسقف وقع إقصاؤه عن حضيرة الكنيسة فما بالك بالكاثوليك والدولة قد أصبحت مسيحية، إنّهم لن يتردّدوا ساعة في الاستنجاد بها . كذلك في بلاد المغرب فإنّهم لم يبخلوا على أنفسهم بذلك . وإذا استثنينا حكم يوليانوس (361 — 362) فقد ساندت قوات الأمن دائما السلطة العليا في الكنيسة في مقاومتها للدوناتوسية ابتداء من عهد قنسطنس (337 — 350) .

7 — تحالف "الدوّارين" مع الدوناتوسيين

غير أنّ تحالف الدّولة مع الكنيسة أحدث تقاربا بين "الدّوارين" والدوناتوسيّين . ولقد بقيت هاتان الحركتان حتى سنة 347 مستقلّتين وأحيانا متعاديتين . ولا شك أنّ ميول قساوسة الأرياف وخاصّة في نوميديا، منصرفة إلى "الدوّارين" غير أنّ نصرة هؤلاء القساوسة لم

تعادلها مناهضة الطبقة العليا من الكنيسة فلم يتجاوز التعاون بين "الدوّارين" والدوناتوسيين النطاق المحلّي وكان دائما وليد الصدفة، ولقد كان لابتا الميلي (optat de milev) الذي رأى عكس ذلك فيما يخصّ مسألة "باغاي" مصلحة كبيرة في بعث الالتباس الأمر الذي جعل كلامه مشبوها فيه كما بيّنه أ. فانيي (O. Vannier).

ولقد مهّد نهب باغاي ومآتي "بُنَاة الوحدة" إلى تضامن ظهر أثره من ذلك الوقت ظهورا مطّردا ذلك أنّ المعدمين والخوارج اتّحدوا لمناهضة الامبراطورية والكنيسة الرسمية المتحالفتين . ولقد أجاب دوناتوس في أنفة أحد رسل قنسطنس قائلا : ما الذي يربط الامبراطور بالكنيسة . ثم لقد أدرك الدوناتوسيون أنّ تضامن الامبراطورية لا يتعدّى تضامن المعدمين بالأرياف بها ، وبدت على الخوارج علامات الانكسار وظنّ القوم أنّ الثوار تمّ القضاء عليهم، وفي الحقيقة كان هؤلاء وهؤلاء ينتظرون الفرصة السانحة للانطلاق من جديد .

8 — دوناتوس وبرمانيانوس

في سنة 355 مات دوناتوس مؤسّس الدوناتوسية . ولقد بقي هذا المقاوم الجبّار طيلة أربعين سنة لا تنام له عين، ولا شك أنّ الفضل الأكبر في انتشار الدوناتوسية يرجع إليه، ذلك أنّه تمتّع بخصال الزعيم. لقد كان مدبّرا للأمور باستقامة وصاحب مذهب وكان خطيبا وكاتبا شديد الشكيمة ، حشّادا للرجال ، شديدا على نفسه شدّته على غيره ، صعب المراس ذا بأس أنوفا . أمكن له أن يطالب أساقفته بما لا يدور بخلد ويفرضه عليهم كما اعترف له بذلك خصمه النوميدي أبتا الميلي لأنّهم كانوا يعبدونه "كما يعبدون الله" .

ولم يكن خليفته برمانيانوس افريقي المولد بل قرطاجي الموطن . وكان داهية ، وداعية نشيطا ومجادلا مَخُوفَ الجانب وخطيبا مصْقَعا . وكان إنصافه واستقامته يفرضان احترامه حتى على أعدائه . ولقد عرف كيف يستغلّ أمر الامبراطور يوليانوس الذي أعلن عن حريّة المعتقد لاحتقاره

للكاتوليك وأهل البدعة على السواء (ولم يتردّد في حشر المسيحيّين في القانون العام كما بيّنه ل. لاشي (L. Leschi) عند حديثه عن سجلّ بلدية تيمقاد) . وكان رجوع المنفيّين إيذانا بإشعال نار الفتنة من جديد . فنهب "الدوّارون" الكنائس بقيادة الأساقفة ، وأهانوا رجال الكنيسة وقتلوا المؤمنين . وانعقد مجمع من الخوارج وأعلن عن استنكاره لأعمال العنف ولكنّ ذلك لم يفد شيئا لأنّ العلاقة بين الفلاّحين الثائرين والقساوسة الدوناتوسيين أصبحت من المتانة بمكان .

وبعد ذلك بعشرين شهرا كان موت يوليانوس (363) سببا في انقلاب الوضع وفرض عقوبات جديدة . فلم يتقاتل القوم حول الكنائس فقط بل شنّوا حربا سلاحها الهجاء والقدح . وبهذه المناسبة كتب أبتا الميلي مؤلّفا ضخما يردّ فيه على رسائل برمانيانوس .

9 — ثورة فيرموس

اضطرّ الأباطرة أمام استمرار الاضطرابات التي كانت تقلقل افريقية إلى تدعيم الاحتلال العسكري غير أنّ تشتت الإطارات حالت دون القيام بأيّ عمل حازم، وقد تجلّى ذلك في طرابلس، ذلك أنّ قبائل هدّدت في سنة 364 المواني . فاستنجد أهل لبدة برومانوس (Romanus) قائد افريقية فاشترط أن تقدّم له مقابل ذلك أربعة آلاف من الإبل. ولمّا لم يتّصل بها أبى أن يتدخّل، وبعث الامبراطور بمن يُجْري بحثا فاشترى رومانوس ضمائرهم وفسح المجال بذلك للمهاجمين أن ينهبوا ويقتلوا بكلّ حريّة (365 — 366) وأصبح من المتعذّر على المدن البربريّة أن تعتمد للدفاع عن كيانها على النّظام الروماني الذي نخره الفساد نخرا .

وقد أدّى ما قام به قائد افريقية من تدخّلات مريبة في الصراع الذى جدّ حول الخلافة بين أبناء أمير من بلاد القبائل الغربية إلى فتنة خطيرة . ذلك أنّ فيرموس أحد هؤلاء الأبناء لمّا عجز عن إبلاغ احتجاجاته إلى الامبراطور "ثار ضدّه وضمّ إلى صفوفه على حدّ تعبير أميان مرسلان قطّاع الطرق وأهل البدعة" (Ammien Marcellin) أي "الدّوارين" والخوارج وأغلبهم كان فى موريطانيا والذي طبع هذه الثورة بالطابع القومى هو أنّ

قائدها كان أميرا بربريا . وسرعان ما استولى فيرموس على شرشال (Caesarea) وعاصمة الجزائر (Icosium) ولكنّه صُدّ عن تيبازة، وقد روى فيما بعد أنّ المدينة نجت بتدخّل القدّيسة سالسة وهي بنت اعتبرت شهيدة في عهد قسطنطين لأنّها رمت في البحر بتِنّين من البربر كان يعبده المشركون وقد ابتهل إليها فيرموس فكان إذن مسيحيا ودوناتوسيا بدون شك يدعوها إلى نصرته بدون جدوى، وبينما كان خارجا من المعبد عثر عثرة كانت نذيرا بانتهاء أمره .

وبعد ذلك بقليل أرسى تيودوز قائد الفُرسان وأحسن قائد روماني (373) بميناء جيجلي (Igilgili) فطلب فيرموس عند ذلك الأمان . وأمّنه تيودوز ولكنّه شنّ عليه الحرب رغم ذلك فخاض المعارك العنيفة طيلة ثلاث سنوات ضدّ القبائل المتحالفة وانتصر عليها كالعادة بشراء ضمائر قوّادها . ولقد همّ أحدهم بتسليم فيرموس ولكنّ هذا الأخير سبقه وانتحر اختناقا . وحمل جمل إلى القائد الروماني جثّة عدوّه الألد فكان موته نهاية للثورة (375) .

وزاد قمع الدوناتوسيين شدّة . فأصبحوا لا يعاملون معاملة الخوارج فقط بل معاملة الثوار المتآمرين مع فيرموس وتتابعت القوانين محجّرة إجراء العماد مرّة ثانية وهو من عباداتهم الأساسية وصدرت الأوامر بمصادرة المنازل والضّيعات التي يظنّ أنّ اجتماعات محجّرة انعقدت فيها . وأراد الامبراطور تيودوز ابن قائد الفُرسان الإطاحة بأهل البدعة ، وقد أصبح القوم يعاملون الدوناتوسيين معاملة أهل البدعة فوظّف على رجال كنيستهم ضريبة مُشطّة قيمتها عشر ليرات ذهبية (سنة 392) ولكنّ هذه الإجراءات ضاعفت دعايتهم إلى درجة أحجم معها الكاثوليك عن ردّ الفعل وهكذا كانت بلاد البربر قبيل ظهور أغسطينوس على وشك أن تكون دوناتوسية النّحلة .

IV ـ انتصار الكنيسة ـ القديس أغسطينوس

1 ـ شبابه وتنصّره

ولد أغسطينوس في سوق اهراس (Thagaste) البلد النوميدي الذي كان انتصر فيه الخوارج سنة 364 من أب مشرك متسامح وأمّ مسيحيّة متحمّسة تدعى القدّيسة مونيك وكان لها عليه تأثير كبير . لقد أمضى سني دراسته في سوق اهراس ثم في مداوروش وأخيرا في قرطاج حيث وطّن نفسه طيلة خمس سنوات على حذق البلاغة وعاش عيشة تغلّب عليها التحرّر حتى أنّه اتّخذ لنفسه وهو في الثامنة عشرة خليلة ــ وهي التي يسمّيها في اعترافاته "أم أديوداتوس" ــ أحبّها حبّا جنونيا فأنجب منها ولدا. غير أنّه وضع حدّا لهذه العلاقة بعد إلحاح أمّه التي كانت في هذا المجال برجوازية أكثر منها مسيحيّة فكانت ترغب في زواج يكون أليق بمنزلتهم . وتذكّر أغسطينوس فيما بعد في حسرة بالغة نزوات شبابه وظلّ يجد عناء كبيرا لكبح الرؤى الشّهوانيّة وقد يكون ذلك ممّا أعانه على أن يتبيّن مدى ضعف الإرادة البشرية والشعور القلق بالافتقار إلى العون الربّاني وذهب بعضهم إلى القول بأنّ ذلك هو مفتاح الاعترافات (confessions).

ولقد أتاحت له مواهبه أن يشغل خطّة نحوي نجح فيها نجاحا باهرا قاده إلى رومة ثم إلى ميلانو (383 ــ 384) . ولقد دفعته روحه الحائرة قبل ذلك بعشر سنوات إلى اعتناق المانويّة ولكنّه ملّها ولجأ إلى "الاحتمالية".

غير أنّ الشك لم يرض هذا الإفريقي الذي انهمك يدرس في حماس كبير الافلاطونية الحديثة التي قادته إلى المسيحية . وأثناء انفراده في كاسيسياكوم قرب ميلانو مرّت أزمة حادّة انتهى منها إلى الاعتراف بسلطة الكنيسة . ولا شك أنّ تأثير أمّه واقتداءه بأمبرواز (Ambroise) أسقف ميلانو قاداه إلى التنصّر . وربّما لم يكن لهذا التنصّر ما وصفه به هو نفسه عن حسن نية في اعترافاته من مأساة وجودية، ولا يجد الباحث في مؤلّفه "الحوار" الذي كتب بعد ثلاثة أشهر من أزمة حديقة كاسيسياكوم ما يدلّ على أيّ قلق، بل الذي يتجلّى من مطالعة هذا الكتاب هو مجهود للوصول إلى

الحقيقة عن طريق العقل الإنساني بالرغم عن شكّ الشُكّاك . ولم يتّسم فقهه للدين بتصلّب كبير ويظهر أنّه عندما تلقّى العماد في 24 أفريل سنة 387 لم يكن إلاّ متَمَذْهِبا بمذهب الافلاطونية الحديثة ميّالا إلى المسيحية .

وما لبث أن عاد إلى افريقية بعد أن أمضى في سوق اهراس ثلاث سنوات في عزلة تامّة ولم يتعلّق بعد موت أمّه وابنه إلاّ بالذات الالهية وحوالي أواخر سنة 391 باغته شعب عنابة (Hippone) فأصبح مستشارا لاوريليوس (Aurélius) أسقف قرطاج النشيط وصديقا له ثم انتخب باختياره أسقفا لعنّابة (395) .منذئذ وصار تاريخ افريقية المسيحية مرتبطا بتاريخه هو، على الأقل بالنسبة إلينا .

2 ـ اغسطينوس وبريميانوس

لقد اتّصف أغسطينوس بخصال نادرة : فكانت له روح متحمّسة لطيفة وإرادة قوية ومزاج الزعيم وقد سخّر هذه الخصال لخدمة الكنيسة وكانت له مُرُونَةُ الديبلوماسي وحدّة نظر المنظّم ، أمّا مواهبه الفكرية المتنوّعة تنوّعا غريبا فلقد جعلت منه خطيبا وكاتبا من طِرازٍ عال فلم يُتَحْ للمسيحيّة أنْ رُزِقَتْ زعيما في مرتبته قطّ وسرعان ما شعُر بذلك الخوارِج والمُبتدِعة .

ومن غرائب الصُدف أنّ الدوناتوسية لم تجد لمواجهة أغسطينوس إلاّ زعيما باهت الشخصية لا قدرة له على العمل المنظّم يدعى بريميانوس (Primianus) خليفة برمانيانوس (Parmenianus) فلم يتمكّن من الإبقاء على وحدة النّحلة واستغلّ أغسطينوس ابتداء من انعقاد مجمع عنّابة (393) فرصة وجود خلافات أعدائه للدخول في المعركة بحزم وعزم . وكان الدوناتسيون و"الدّوارون" محافظين في ذلك الوقت على مواقعهم في نوميديا وموريطانيا وكانت المناوشات مستمرّة . ولقد وجد في خربة عويسة قرب تيارت نقش يمجّد شهيدا دوناتوسيا لا بدّ أن يكون هلك أثناء إحدى هذه الوقائع،ولم يتمكّن الكاثوليك من قمع أعدائهم بسبب الاضطرابات المتوالية التي كانت تجد السلط الرومانية صعوبة كبرى في قمعها . فلقد

سمحت ثورة أهلية للدوناتوسيين بأن يكشفوا من جديد عن حقدهم نحو سلطة الامبراطور .

3 — حرب جيلدون

سمّت رومة فيرموس قائدا لافريقية (حوالي سنة 386) اعترافا له بما قدّمه من مساعدة لتيودوز قائد الفرسان وجزاء لتعلّقه المتين برومة . غير أنّ قائد المقاطعة العسكري لم ينس أنّه أمير بربري . فبقي طيلة اثنتي عشرة سنة وفيّا لرومة ثم منع على الامبراطور تيودوز النجدة عندما دقّت ساعة الخطر وذلك عند مقاومته لمنافس له . ولمّا مات تيودوز وانقسمت الامبراطورية قسمين قطع كلّ صلة بهونوريوس (Honorius) امبراطور الغرب وأحال افريقية إلى سلطة أركاديوس امبراطور الشرق فأصبحت مراقبته لافريقية مستحيلة لبعد الشقّة (سنة 395) . وكان الذي شجّعه على الثورة أوتروب (Eutrope) خصي اركاديوس وكانت له مكانة عظيمة في بلاط القسطنطينية . أمّا جيلدون فإنّه كان مسيطرا على الوضع فكان في قدرته أن يتسبّب في مجاعة في رومة وايطاليا بامتناعه من إرسال "الحصّة السنوية" فثار في خريف سنة 396 وقطع الميرة . ولكن ستيليكون الوندالي (Stilicon) وهو صاحب السلطة الحقيقي في امبراطورية الغرب تلافى الخطر بمصادرته قموح غوليا واسبانيا ثم حمل مجلس الشيوخ على أن يُعلن أنّ جيلدون عدوّ الجميع . وتوخت رومة سياسة تعتمد على الخلافات بين قواد البربر . وكما أنّ جليدون أوحى إلى تيودوز بالخطّة لمقاومة فيرموس فإنّ مقزيل البربري قاد هو بنفسه الجيوش التي أرسلتها رومة ضدّ أخيه جيلدون. وانتصر مقزيل بسهولة بحيدرة (Ammaedara) . ولا بدّ أن يكون شيوخ القبائل الذين اشتريت ضمائرهم قد تخلّوْا عن القتال والحرب على أشدّها . فلم يتمكّن جيلدون من الهرب عن طريق البحر ولا نعرف هل قتل أم هو انتحر، فتمّ حجز أمواله ممّا درّ على الخزينة مرابيح فائقة أوجبت تعيين متصرّف خاصّ بها .

وكانت الحفاوة التي قوبل بها مقزيل عند رجوعه إلى ايطاليا قد أوغرت صدر ستيليكون عليه. فمات القائد المغربيّ بسبب حادثة ربّما لم تكن من قبيل الصدفة. وحرص القوم بعد ذلك على النيل من مجده وتولّى الشاعر كلوديانوس في ملحمة له أسماها وقعة جيلدون تقديم وجهة النظر الرسمية فلمّح إلى بوادر

المجاعة التي كانت تقضّ مضاجع رومة وإلى ظهور افريقية في أفق السماوات تؤكّد أنّها تخيّر أن تغمرها لجج نبتون على أن تخضع لجيلدون، كما ذكر رؤية الأباطرة لتيودوز وأبيه وقد تحوّلا إلهين وما توجّها به من لوم لاركاديوس وأسدياه من نصيحة لهونوريوس، وأخيرا تحدّث عن الاستعدادات الحربية . ولم يلمّح إلى مقزيل إلاّ مرة واحدة عندما أعلن ستيليكون أنّه من العار على هونوريوس أن يقود جيشا ضدّ متمرّد . ويظهر أنّ كلوديانوس اضطرّ إلى العدول عن كتابة الجزء الثاني من ملحمته حيث كان من الصعب عليه السكوت عن انتصارات مقزيل . ولم يكن لهزيمة جيلدون من تأثير إلاّ في افريقية، فلقد ساهمت في دفع ستيليكون على ضمّ اليركم (Illyricum) ليؤثّر تأثيرا مباشرا على امبراطورية الشرق .

4 — القمع

إنّ القمع القاسي الذي سلّط على أنصار جيلدون نال أيضا الدوناتوسيين فلقد مات أحدهم في الحبس وهو الأسقف أبتا أصيل تيمقاد (Optatus de Thamugadi) وكان مستشارا للقائد المغربي وروح المقاومة فمجّد كما يمجّد الشهداء وكذلك فقد ضغط نُبلاء القطائع (Landlords) على فلاّحيهم حتى يعودوا إلى النصرانية وقال ب. مونصو (Monceaux) في هذا المعنى : "كانت الدعوة إلى المسيحيّة في هذه البلاد التي تكثر فيها الضّيعات الكبيرة يعين على نشرها بنجاعة الملاّكين الكبار الذين كانوا يسعَوْن هم بأنفسهم إلى تنصير معمّريهم، وإلى توطيد الوحدة الدينيّة في أراضيهم بنوميديا" وهكذا فلا يمكن أن يعبر كاتب بألفاظ أكثر اعتدالا من هذه عمّا لاقاه الفلاّحون من ضغط ليخضعوا إلى سلطة الكنيسة . فكانت المسيحية بالنسبة للأسياد ضمانا لخضوع طبقة المعدمين الفلاّحين .

غير أنّ الكنيسة استأنفت نشر الدعوة في حزم كبير . فكان أغسطينوس يوحي بالتنازلات ، ولا يبخل بمواهبه في المناقشات ويُوعز بعقد المجامع التي يفرض عليها إرادته ولا ينفكّ يحرج السلطة بشكاواه ووشايته ضدّ الخوارج ويهيّء الجوّ لتدخّل السلطة الزمنية في الخلاف وأعلن الامبراطور بطلب من مجمع قرطاجني أنّ الدوناتوسية بدعة منافية لقوانين الدّولة . (12 فيفري 405) وعند ذلك أصبح القمع الرسمي الذي

غذّاه الانتقام الشخصي من الخوارج شديدا لا رحمة فيه ولا شفقة ولم يبخل الأساقفة الكاثوليك بوشاية بخصومهم إلى البوليس وكان الملاّكون في نوميديا لا يبلغون بذلك على غرار قستوس الذي مجّده أغسطنيوس «وعلى هذا النحو انتشر التنصّر وتخلّت مدن بأكملها عن اتّباع نحلة الخوارج » بل إنّ عددا كبيرا من "الدّوارين" رجعوا إلى الطّريق المستقيم وعلى غرار ذلك تحصّل لويس الرابع عشر على تنصّر عدد كبير من النّاس بقوة السلاح غير أنّ نحلة الخوارج في نوميديا صمدت في وجه القمع الذي وصل إلى حدّ من الخطورة اضطرّ معها اغسطينوس إلى لفت نظر البروقنصل ولم يُعر "الدوّارون" أيّ اهتمام لأوامر الأساقفة الدوناتوسيين الذين تبرّؤوا منهم فرجعوا إلى نهب الضيعات الكبيرة وهكذا فإنّ المبالغة في القمع كانت تزيد نار الثورة الاجتماعية اتّقادا .

5 — مجلس قرطاج

أعلن الأمبراطور فجْأة عن حريّة المعتقَد (410) من دون أن تعرف أسباب هذا التغيير . وتحصّلت الكنيسة بفضل احتجاجاتها على سحب قانون التسامح والحكم بالموت أو النفي على أهل البدعة ولم تسع الكنيسة إلى الحكم على خصومها فحسب بل كانت تروم توريطهم فنادت بعقد مجمع مشترك لإرجاع الوحدة .

ولم يكن المبتدعة واثقين من انتصار وجهات نظرهم كما كان الشأن بالنسبة للوتير (Luther) في مجمع ورمز (Worms) . ولكنّهم ذهبوا إلى مجلس قرطاج رغم ذلك (411) . فوجدوا أنفسهم لا في ندوة بل إزاء محكمة بأتمّ معنى الكلمة يرأسها البروقنصل مرسلينوس وهو مسيحيّ مشهور اتّهمه القوم بالارتشاء وقد حاولوا استعمال جميع الطرق فاستنجدوا بالشكليات وأنواع التعطيل لتأخير التصريح بالحكم ولكنّ مندوب الامبراطور ثم هونوريوس نفسه أصدرا حكمهما عليهم وكان دستور 30 جانفي 412 يأمر الخوارج بالدخول إلى الكنيسة وإلاّ صودرت أموالهم وعذّبوا في أبدانهم أو أجلُوا عن بلادهم .

وسرعان ما شمّر الوُلاَةُ والمندوبون الخاصّون عن ساعد الجدّ لتطبيق أوامر الامبراطور تطبيقا صارما . فصودرت جميع الكنائس الدوناتوسية وسلّمت إلى الكاثوليك وبلغ العنف درجة اضطرّ معها عدد كبير من الخوارج إلى الانتحار . قال ب. مونصو في سخرية مرّة : "كان من سلامة الذوق أن يحرق الخارجي نفسه برفقة غيره وكان الأساقفة يبدؤون بأنفسهم" والذي يدلّ أكثر على سلامة الذوق هو من دون شك حمْلهم على اللّجوء إلى هذا المآل وكان ردّ الفعل إزاء هذا القمع أن ظهر الإرهاب فكثرت الاغتيالات وإحراق الكنائس وقتل الدّوارون عددا كبيرا من رجال الكنيسة وعمّ الشغب في طول البلاد وعرضها وردّت السلطة الفعل بإصدار قوانين أكثر صرامة . وهكذا فإنّ العنف ينجرّ عنه العنف ولا سبيل إلى إيقاف التيّار .

واغتنمت الكنيسة حركة القمع فضاعفت دعايتها ونشرت محاضر جلسات قرطاج ونصّ الحكم على الخوارج فتنصّر بذلك الكثير، ولكن ما قيمة إنكار المرء لما يعتقده بوسائل الإرهاب . ولقد اعترف ب. مونصو قائلا: "ورغم مساندة السلط العمومية فإنّ الكنيسة الكاثوليكية لم تنجح في الانتصار على نحلة الخوارج في بعض جهات نوميديا وموريطانيا ففي سنة 422 مات ببنيان (Ala Miliaria) في جحود تام نماسانوس (Nemessanus) الأسقف الدوناتوسي مع أخته يوليا جيليولا (Julia Geliola) الراهبة . وبعد ذلك وإلى سنة 446 على الأقل أودع جثمان بعض كبار الخوارج في هذه الدهاليز وهو دليل على حيويّة جماعات من الخوارج تلك التي لم تنقرض إلاّ في أواخر القرن السادس . وخرج الكاثوليك بفضل أغسطينوس منتصرين من هذا الصراع . غير أنّ الكثير ممّن انضمّوا إلى صفوف الكاثوليك لم يتّحدوا في المظاهر فظلّ الحقد كامنا متزايدا على الامبراطورية والكنيسة الرسمية وطبقة الملاّكين الارستقراطيين الذين كانوا متضامنين مع حركة القمع . وسينفجر هذا الحقد من غير رحمة عندما تنهارُ هذه القوة أو هذا الثالوث الموحّد تحت ضربات الوندال .

6 — الأدب الدوناتوسي

لقد حصل من هذا النقاش بين الدوناتوسيين والكاثوليك أدب جمّ كشف عنه ب. مونصو بفضل ما اتّصف به من واسع العلم ورشيق الترجمة.

والغريب أنّ الكاثوليك سكتوا طيلة نصف قرن (313 — 366) عن هجومات خصومهم ولا شكّ أنّهم كانوا يفكّرون في إخماد حركة الخوارج مستعينين بالدولة . ثم دخل المعمعة أبتا الميلي في عهد يوليانوس وأخيرا أضفى أغسطينوس على الجدل المسيحيّ هالة من الاحترام .

وأوّل كاتب كبير دوناتوسي هو دوناتوس مؤسّس هذه النحلة وموضوع مؤلّفه الذي لم يصلنا هو الحديث عن الروح القدس وهو كتاب يميل إلى الاريوسية حسب قول القدّيس جيروم ولكنّه رغم ذلك كان محفوفا بالاحترام كأنّه كتاب مقدّس . (Liber de Spiritu Sancto) ولا نعرف عن إنتاج برمانيانوس إلاّ ما جاء في ردود آبتا الميلي وأغسطينوس عليه . ولقد ألّف كتابا في الدّفاع عن الدوناتوسية في خمسة أجزاء ومجموعة من المزامير (Psaumes) غذاء لتقوى المؤمنين وردّا على تيكونيوس (Tyconius) الذي انفصل عن الدوناتوسية — وكان تيكونيوس يرعد ويزبد في وسط الدوناتوسيين المتصلّب وكان يريد أن يحتفظ بحريته وبصراحته فلم يتردّد في أن يعارض آراء النّحلة في مسائل متعدّدة (De bello intestino, Expositiones diversarum causarum). وخطر أمثال هؤلاء الرجال في حزب المعارضة عظيم إذ هم يثيرون ويشوّشون الأعمال، ولذا فنحن نفهم الآن تمجيد أغسطينوس له وانتقادات برمانيانوس وإقصاءه عن النحلة . لقد كان لائكيا ولكنّه فقيه عالم أريب نشر شرحا للجليّان (Apocalypse) نال شهرة عظيمة وتفسيرا للكتاب المقدّس تصدّى فيه بطريقة جديدة إلى النصوص المتعلّقة وإلى أشتات من الكلام لم يعرف عنها الشرّاح شيئا قبله فوجد فيها مادّة لشروح جمّة الفوائد وأعجب القدّيس أغسطينوس بهذا التفسير للكتاب المقدّس واستغلّه

وكان قودانسيوس أصيل تيمقاد أحد المتكلّمين باسم النحلة في ندوة قرطاج . وكان شديد البأس حتى أنّه وفّق سنة 420 إلى منع القوم من الاستيلاء على الكنيسة وذلك بتهديدهم بحرقها وهو فيها . وبعد هذه الحادثة فتح نقاشا مع أغسطينوس عن طريق المراسلة . غير أنّ باتيليانوس أصيل سيرتة كان الشخصية المرموقة في هذه الندوة وهو خطيب مؤثّر وزعيم نحلة بلا مراء فكانت خطبه وانتقاداته ورسائله للقدّيس أغسطينوس عديدة وكتب أيضا رسالة في العماد .

الأدب الكاتوليكي . ابتا الميلي

لم تردّ الكنيسة على خصومها قبل أغسطينوس ردودا قليلة وكان المؤلّف الوحيد القيّم هو مؤلّف ابتا أسقف الميلة الذي ردّ على برمانيانوس وبيّن بطلان الدوناتوسية سنة 366 (Libri contra Parmenianum donatistum). وتخلّل هذا الردّ تاريخ نحلة الخوارج وهو مدعّم بوثائق ينبغي الاطّلاع عليها بكلّ تحفّظ ولكنّها المصدر الأساسي لمعلوماتنا حول أصل الصراع وينبىء ملفّ ندوة قرطاج عن أنّ الكاتوليكية مثّلها خطباء موهوبون لكنّهم لم يكن لهم وزن أمام القدّيس أغسطينوس .

8 ـ أغسطينوس المجادل

أكثر أغسطينوس الخطب والمقالات عندما شنّ حملته على الدوناتوسيين ولقد اضطرّ مدفوعا بمقتضيات الصراع إلى تدقيق كُنه الكنيسة ومقاومة وساوس عامّة الناس في قيمة تقديس الأرواح وانتهى به الأمر وهو يحاول تبسيط قواعده إلى نظمها في مقطوعات مرتّبة حسب الحروف الهجائية وكانت باكورةالشعر الروماني في عددمقاطعها القارّ وإيقاعها وقافيتهاوروّيها : وكلّ مقطوعة ذات اثني عشربيتا تنتهي بلازمة : فبيت مثل (Omnes qui gaudetis pace modo verum iudicate) يقع في آذاننا موقع مصراعين كلّ مصراع له ثمانية مقاطع . وردّ على خصومه في رسائل حول العماد (De baptismo contra donatistas, De unico baptismo contra Petilianum) وتنصّرهم وموقفهم بعد الندوة (Contra partem Donati post gesta) ومسائل ثانوية أخرى .

واضطرّ القدّيس أغسطينوس وهو يخوض غمار هذه المناقشة الكبرى إلى وضع مبدإ خطير وهو ضرورة الالتجاء إلى "ارهاب مُجد" تقوم به السلط العامّة لحمل المبتدعة على الرجوع إلى السنّة ومنع ضعفاء الشخصية من التنكّب عنها . وبرّر دينيا ضغط الدولة على الأفراد بالاعتماد على قولة المسيح : ادفعوهم إلى دين الله دفعا . ومهما أظهر أنصاره من براعة في تبرير وجهة نظره أو تأييدها فإنّ الذي لا شكّ فيه هو أنّ القدّيس

أغسطينوس ساند بما أوتي من هيبة و بما أتاه هو نفسه من عمل عادة دلّت على أنّها تؤدّي حتميا إلى تقتيل المبتدعة للقضاء على البدعة . وكثيرا ما يكون هذا شأن بعض الأفكار يطبّقها بعضهم تطبيقا ينافي الغرض الذى قصده أصحابها .

9 ـ مشكل العون الربّاني ـ البيلاجية وشبه البيلاجية

ليست الدوناتوسية هي النحلة الوحيدةالتي كان على القدّيس أغسطينوس مقاومتها . ذلك أنّ راهبا من مقاطعة بريطانيا يدعى بيلاج ادّعى أنّه في إمكان الإنسان أن يحظى بالنجاة بالاعتماد على النفس من دون أن يحتاج إلى العون الربّاني . ولمّا قام أحد أتباعه بالدعوة إلى هذا المذهب أدانه مجمع قرطاج وردّ عليه أسقف عنّابة في مؤلّفات عديدة حول الغفران (De peccatorum meritis et remissione) ومفهوم النصوص ومنطوقها والطبيعة والعون الربّاني (De natura et gratia) والعدل الإنساني (Ad episcopos Eutropium et paulum, de perfectione iustitiae hominis) والعون الربّاني والاختيار (De gratia et libero arbitrio) ومصير القدّيسين (De praedestinatione Sanctorum liber ad prosperum et Hilarium) وملكة المثابرة (De dono perséverantiae) .

ولقد بيّن في أسلوب لاهوتي أثناء هذا الجدال ما نتج عن تجربته الذّاتية فيما يخصّ ضعف الطبيعة البشريّة . فالإنسان بدون العون الرّبّاني لا يتيسّر له الصمود في وجه مغريات الحياة المتواصلة واجتياز "الغابة المليئة عقبات ومخاطر" وهكذا نفهم كيف أنّ نظريات "بيلاج" لم تصدم تفكيره فقط بل عواطفه الدّفينة أيضاوإذا حكم البابا على"البلاجية"فقد برّأ ساحتها البابا الموالي . وحينئذ رفض الأساقفة الأفارقة الخضوع واستنجدوا من جديد بالدّولة . واضطرّ البابا إلى التراجع ولكنّه انتقم لنفسه فأيّد القساوسة الذين خطّأهم أسقف عنّابة أو أتباعه . وما زال القدّيس أغسطينوس يقاوم ظهور البدعة من جديد في مظهر محتشم حتى انتهى به الأمر في آخر حياته إلى الذهاب بمذهبه في العون الربّاني إلى أقصى حدّ فأكّد أنّ الله

اختار منذ الأزل عباده الذين كتبت لهم النجاة من مغبّة الذنوب ولا سبيل إلى الزيادة في عددهم أو التنقيص منه وأنّ العدد القليل من المصطفَين يلحقهم العون الربّاني الضروري لنجاتهم وأنّ غيرهم من النّاس كتب عليهم الشقاء الأبديّ إنْ لم يكن ذلك بسبب ما قدّمت أيديهم فبسبب الخطيئة الأصلية وأنّ الأطفال الذين لم يعمّروا ينالهم العذاب باعتبارهم ورثة الخطيئة.

10 – مجادلة أغسطينوس للمبتدعة

وفي نطاق هذا النسق المتصلّب كان أغسطينوس لا يوافق على أنّ الله يظلم عباده عندما يخصّ بعضهم دون بعض بعونه إذ لا يستحق أيّ إنسان هذه المنّة والله برفضه تعميم رحمته على عباده يؤكّد حقيقة هي أنّه لا يوجد إنسان واحد جدير بها . على أنّه يسلّم بأنّه توجد درجات في العقاب الأبديّ .

وقاوم أسقف عنّابة على حدّ السواء البدع التي لم تفلح في أرض افريقية والإشراك واليهودية وبه استنجد أحد تابعيه بول أوروز (Paul Orose) لمقاومة الاسباني برسيليان (Priscillien) الذي كان يقول بقدرة الإنسان أيّ إنسان على الالتجاء إلى الوحي الالهي ولتفسير الكتب المقدّسة خاصّة وللردّ على أنصار أوروز الذين كانوا يؤمنون بقدم الروح ويشاطرون في بعض المسائل رأي الاريوسيين (Ad orosium Presbyterum contra Priscillianistas et origenistas).

ولم يعتنق الآريوسية خلق كبير في بلاد البربر قبل أغسطينوس ولم تعرف من آثارهم سوى رد الشمّاس ماكروبيوس (Macrobius) المستند إلى النصوص المقدّسة ورسائل افريقي كان يعيش في رومة يدعى ماريوس فيكتورينوس (لقّب أفرى (Afer) لأصله الافريقي . ولم يهتمّ أسقف عنّابة بالمسألة إلاّ سنة 418 عندما لفت نظره إلى خطبة صاحبها مجهول فبادر بالردّ عليها (Contra sermonem Arianorum) وقبل أن يلبّي داعي ربّه بسنتين خاض غمار جدال عمومي تقابل فيهمعه أحد أساقفة النحلة (Contra mascimirum) . ولقد بسط ابتداء من سنة 398 في كتاب ضخم

عكف على تأليفه سبع عشرة سنة المذاهب الصحيحة المتعلّقة بالثالوث . وقد انبهر أغسطينوس طويلا بالمانوية ، بحيث لم يقتصد في التشهير بخطرها (Manicheisme)

وكان يدير هذه النحلة في افريقية داعية ماهر يدعى الأسقف فوستوس الميلي (Faustus de Milev) وكان على القدّيس اغسطينوس أن يلتقي يوما من الأيّام في دائرته ببعض منافسيه ولم يبلغوا شأنه فلم يكد يرجع إلى سوق أهراس (Thagaste) حتى انصرف إلى الردّ على المانويين في مناقشات عمومية سجّل فيها انتصارات باهرة وفي مؤلّفات صوّر فيها أخلاقهم وعالج مسألة الاختيار والدين الحقّ والروحين وأصل الخير .

11 ـ آثار أغسطينوس

ألّف أغسطينوس كتابه "مدينة الله" وهو أنفس كتبه وأثراها مادّة وذلك دفاعا عن المسيحيّين الذين كان خصومهم يحمّلونهم مسؤولية أفول نجم الامبراطورية غداة دخول الاريي (Alarie) رومة عنوة ... وكان في بيانه يردّ على الهجومات ويفلسف في التاريخ ويحرص بالخصوص على التمييز بين زيف المجتمعات الدنيوية التي لا يهمّ زوالها وبين مدينة الإله الأبديّة . ولم يتوسّع في التحسّر على مآل رومة إذ تجاوزت الأحداث مصيرها . ورغم أنّه كان قاسيا في حكمه على الدولة فقد كان يعتبرها الدّرع الواقي من الفوضى ويوصي بطاعة رجالها مهما كانت مساويهم وكان يميل بطبيعة الحال إلى الدولة المسيحية التي تسخّر قوتها في سبيل الكنيسة وتقاوم البدع . وسوف يستشهد غريغوار السابع بالقدّيس أغسطينوس لتدعيم مطامحه في إقرار حكم إلاهي. وعلاوة على ذلك ردّ القدّيس أغسطينوس في إيجاز على هجومات اليهود وبقدر ما كان أسقف عنّابة مجادلا مهابا كان كذلك مفسّرا بارعا قد ضبط المنهج الذي يجب أن يتّبع في تفسير الكتب المقدّسة وقد شرحها وبيّن أنّه لا يوجد خلافات جوهرية بين الأناجيل .

وكان شأنه شأن ترتوليانوس والقدّيس قبريانوس يسدي لمريديه النصائح سواء في الأخلاق أو في المسائل الفقهية . وهكذا أصبحت رسالته

في طرق تعليم المذهب المسيحي أهمّ مؤلّفات القدّيس أغسطينوس بعد أن كانت مجرّد رسالة لأحد شمامسة قرطاج . ذلك أنّه يجب ـ سعيا إلى تنصير الجهلة وهوما يرمي إليه عنوان الكتاب ـ القيام بالمهمّة بكلّ حماس ، والتوفيق في اختيار الأمثلة البليغة المساعدة للسامع على إدراك أنّ "كلّ ما في الكتاب المقدّس من البدء إلى ظهور المسيح هو صور لما يُجسم المسيح في الكنيسة". (P. de Labriolle) . ثم التخلّص من ذلك إلى الإشادة بالاستنقاذ الذي هو ثمرة المحبّة ، ثم إقامة الدّليل إلى المتنصّر الجديد على أنّ الله ينكشف له في تجربته ، وأخيرا تعريفه بما ينتظره من جزاء يوم القيامة كتتويج ممكن لحياة كلّ مسيحيّ .

وممّا يؤسف له أنّه لم يبق لنا من مئات عديدة من خطب القدّيس أغسطينوس إلاّ مائتان وست وسبعون رسالة لها أهمية كبيرة بالنسبة للتّاريخ الديني ولفهم نفسية صاحبها . غير أنّنا نجد القدّيس أغسطينوس بكلّيته في كتابه "اعترافات" النابض صدقا وشعورا الطافح وجدانا وإن لم يخل في بعض الأحيان من أسلوب خطابي وقد كتب هذا الكتاب في السنوات الأخيرة من القرن الرابع ولا شك أن يكون كتب في أواخر سنة 397 أو أوائل سنة 398 وليس هو أوّل تأليف يترجم الكاتب فيه عن نفسه سواء في الأدب الروماني المطبوع بطابع الدين أو بطابع الدنيا لكنّه لم يسبق أن كتب كاتب صحائف في مثل تلك العاطفة المتأجّجة وبذاك الأسلوب الخالي من كلّ تصنّع . فجان جاك روسو وحده هو الذي مضى إلى أبعد من ذلك في الاعتراف بخطاياه . وإن كان روسو قد أراد الكشف إلى إخوانه البشر عن "رجل في أجلى مجالي الطبيعة" فإنّ القدّيس طمح إلى أسمى من ذلك فلقد اعترف بمساويه في خضوع متناه ليبيّن أنّ الإنسان إذا هو اعتمد على قواه الذّاتية وحدها وقع في الخطيئة لا محالة فكان تأليفه تمجيدا للذات الإلاهية يسوده حقّ من التوتّر لا يرحم تتحطّم معه الأعصاب غير أنّ نجاح هذا التأليف لم يُبْلِه الدهر منذ خمسة عشر قرنا .

12 — انتصار الكنيسة

اكتسبت الكنيسة في افريقية خاصّة بفضل القدّيس أغسطينوس سمعة

وهيبة لا ينكرهما أحد . لقد أصبحت دولة في الدولة بأتم معنى الكلمة فكان في وسعها نظرا لمشمولات أساقفتها وتأثير قرارات مجامعها أن تتجاهل سلطة الامبراطور ـ البابا في ما يخصّ سنّ القوانين والنظام وإن اعترفت الكنيسة بأنّ سلطة الملوك مستمدّة من الله فإنّها أخذت تنال يوما بعد يوم من هذه السلطة حتى انتهى الأمر إلى الاستغناء عنها في الانتخابات البابوية وفي المجامع أصبحت المسؤوليات البلدية تفرض على رجال الكنيسة وصارت الكنائس مكانا يلتجأ إليه .

غير أنّ هذا الانتصار السريع سرعة فائقة على الإشراك ودخول النّاس أفواجا في هذا الدين ساهما في انخفاض مستوى أخلاق النخبة المسيحية . أما المبتدعة والخوارج الذين اضطرّوا بالقوة إلى اعتناق المذاهب القويمة فإنّهم لم يغزوا الكنيسة بقوى جديدة . وكثير من المسيحيّين من بين صفوة الخلّص ركنوا إلى العزلة بعيدا عن العالم المنحطّ وهكذا نشأ التنسّك ثم الرّهبنة اللّذان أشاعهما في افريقية القدّيس أغسطينوس فكان لهما انتشار سريع .

وفيما يخصّ سياسة الكنيسة في المجتمع فقد كانت تعين الضعفاء بشرط أن يرضوا بالتفاوت الاجتماعي وأن يخضعوا . وأعلنت أنّ الرقّ شرعي لأنّ الضرورات الاقتصادية ووجوب استخدام الطاقة البشرية للجرّ والجذب بالخصوص تجعل منعه مستحيلا . ولكنّها حاولت أن تخفّف من وطأته على كلّ حال فأحدثت مشاريع خيرية ووزّعت عليها قسما من الأموال التي كان يتبرّع بها المؤمنون على سبيل الصدقة وتعوّدت شيئا فشيئا أن تنوب في المدن البلديات المتقاعسة .

13 ـ انحلال الامبراطورية

إلاّ أنّ جسم العالم الروماني قد تأكّله السرطان حتى أنّ الكنيسة عجزت معه عن شفائه بل إنّها عجّلت بنهايته من حيث لا تشعر وذلك بما تولّد عنها من نحل الخوارج والبدع فكانت ارستقراطية الأرض هي القوة الوحيدة التي ظلّت قائمة إلى جانب الكنيسة في افريقية كما هو الشأن في باقي الامبراطورية .

ففي الوقت الذي كان المجتمع يرتكز كليّة على الفلاحة أصبح الملاّك الكبير قائما في وجه الدولة وسيّدا مطلقا لا على العبيد والمعمّرين بل على الأحرار الذين كان يمنّ عليهم بالعمل، وكانت ثروته تسمح له بأن يشتري ضمائر أعضاء العشائر وموظّفي الامبراطورية ، وكانت "زعامته" تجلب له الأحرار الحريصين على أمنهم وقوت يومهم .

وهكذا كانت الارستقراطية تجمع في أراضيها العناصر الحيّة للامبراطورية دون سواهم . غير أنّ هذا النظام ما كان يمكن له أن يدوم إلاّ إذا شدّ الفلاّح إلى الأرض . فأصدر تيودوز أمرا بمنع المعمّرين من "النزوح عن الأرض التي رضوا في أوّل الأمر بإحيائها" .

ولم يكن من صالح الامبراطورية — وهي جامعة المدن — أن تترك الحياة البلدية تنطفىء شيئا فشيئا من دون أن تعرّض نفسها للهلاك بالرغم عن أنّ هذه الخطط صارت ثقيلة الوطأة . فاضطرّت إلى فرضها على أعضاء "العشائر" ومن ذلك الوقت أصبح هؤلاء الذين نالهم هذا الشرف (Honores) يجتمعون في جماعات متضامنة في المسؤولية لا في ما يخصّ تسيير البلدية فحسب بل كذلك في جمعها للضرائب . غير أنّ أعضاء العشائر كانوا يلجؤون إلى طبقة الشيوخ ويغادرون المقاطعات التي لم يبق لهم فيها خطّة يمارسونها. وهكذا فإنّ عدد أعضاء البلديات كان يقلّ شيئا فشيئا وأجبرت الدولة لضمان بقائها على أن تمنع قانونيا مثل هذا الفرار .

إلاّ أنّ افريقية كما لاحظه في حذق أ. البرتني (E. Albertini) لم ينخرها الدّاء مثل نخر مقاطعات الامبراطورية الأخرى . ففي عهد قسطنطين كان تدخّل الشعب في حدود انتخاب الحكّام البلديين، أمّا في عهد هونوريوس فإنّ (Munera) كان في الإمكان أن يتناوب عليها أعضاء "العشائر"، تلك دلائل ولا شك ولكن يجب ألاّ يستنتج منها أنّ كلّ شيء في افريقية كان على أحسن ما يرام . فكما هو الشان في غيرها من المقاطعات أصبحت المدينة المهجورة من الارستقراطية فقيرة باهتة بينما كانت في ذلك الوقت تتكوّن الأراضي الشاسعة وتنظمّ وتسند في أواخر العهد الامبراطوري نفس المشمولات العدلية والجبائية. ولقد أمكن للكنيسة والمدن

والضّيعات الشاسعة أن تمدّد في أجل العالم الروماني ولكنها لم تحل دون انهياره .

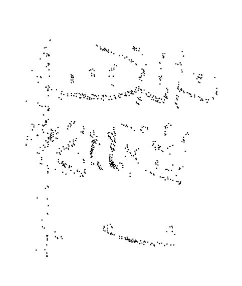
وأصبح هذا الجهاز الضّخْم غير متلائم مع المقاطعات المفلسة . فقد نخر الاستبداد المجتمع بتثبيط العزائم الصادقة وبتخضيد شوكة ذوي البأس فصار لا يردّ الفعل . قال ف . لوط (F. Lot) : "أتاحت الامبراطورية لعالم الحوض المتوسّط السِّلم . فمدّنت أهالي غوليا ، وبريطانيا، واليريا المتوحّشين وكذلك الموريين والنوميديين في الغرب . إلاّ أنّ ثمن هذه الخدمات الجليلة كان باهضا جدّا . فقد أحدث الاستبداد في نفوس السكّان خمولا واستسلاما بلغا حدّا من الخطورة يجوز معه للمرء أن يتساءل عمّا إذا لم تكن السِّلم بمثل هذا الثمن من أحقر الهدايا وأسوئها" وإذا كانت قيمة الشجرة بثمارها فإنّ ثمار السلطة المطلقة الرومانية بالغة المرارة . لقد كان مآل الاستعمار الروماني الإفلاس الشنيع الذي كان ضحيته سكّان المقاطعات . وما قاله س. جوليان (C. Jullian) عن بلاد غوليا ينطبق على افريقية . ولولا هذه الأطلال المتراكمة التي خلّفتها زحفة بني هلال والتي تأخذ بألباب المتأمِّل فيها لكان إعجابنا بما قام به الرومان دون ما نشعر به الآن نحوهم .

وكانت بلاد البربر البعيدة في الظاهر عن الأخطار التي كانت تتهدّد أوروبا الخاضعة للامبراطورية من جرّاء زحف القوة الفتيّة المتوحّشة ، فريسة تتنمّر لها قوى الشرّ وتثير مطامع الطامعين . ففي سنة 410 جهّز الاريك في ريجيو أسطولا لينقل شعب القوط إلى الالدورادو المغربي . ولكنّ العاصفة شتّتتهم شرّ مشتّت في المضيق وبعد ذلك بستّ سنوات أخفق "واليا" (Wallia) ملك القوط في اسبانيا لأسباب مماثلة قرب قادش . ثم كان الوندال فانهار السلطان الروماني في افريقية انهيارا .

الباب التاسع

زحف الوندال واحتلالهم لبلاد البربر

1 - جنسريق   2 - خلفاؤه



I ـ جنسريق

1 ـ الوندال في اسبانيا

إنّ سمعة الوندال سيّئة للغاية ، ومن دون أن نحاول الدّفاع عنهم الأمر الذي يكون مدعاة إلى الاستغراب فإنّه يجب العلم بأنّنا لا نعرف تاريخهم إلاّ عن طريق أعدائهم أو ضحاياهم،ومن خطإ الرأي أن نتوقّع منهم الإنصاف ولو في حدّ محدود . فما عسى أن يكون تاريخ لويس الرابع عشر لو اعتمد المؤرّخون في تدوين أخباره على المصادر البروتستنية بالخصوص . إنّ سطرا واحدا لم يكتب لتبربر هؤلاء الأقوام المتوحّشة ، والذي لا شكّ فيه هو أنّه لو أصغي إليهم لما عدموا الحجج الشافية التي يمكن للباحث أن يتبيّنها من خلال مجموعات أعدائه .

إنّ المصدرين الأدبيين الرئيسيين اللذين هما بين أيدينا اليوم مشكوك في قيمتهما، فبقدر ما يبعد الباحث في مؤلّفات بروكوب من معلومات نفيسة عن الزحف البيزنطي الذي كان شهيدا عليه فإنّه لا يمكن أن نثق ثقة كاملة فيما أورده من أخبار عن الحقب السابقة. أمّا الكتاب الذي ألّفه فيكتور أسقف فيتا (Vita) في مزاق في أرض الهجرة سنة 486 فلعلّه سجلٌ لمواقف الشهداء يصوّر أعمال الوندال الشّنيعة ويورد من الدّقائق والتّفاصيل ما يبعث على الحذر، فأمّا أن يكون كتاب تاريخ فلا .

وإذا كان من المفروغ منه أنّ الوندال ارتكبوا أفظع الأعمال فممّا لا شكّ فيه أيضا أنّ "الوندالية" التي ترمز إلى الأعمال الوحشية بصفة عامة مجرّد أسطورة ولكنّها تستمدّ صحّتها من استعمال الأسقف غريغوريوس لها حسب ما يروي في تقرير قدّمه إلى المجلس(Convention).

إنّ هذه القبائل الوندالية لم تنزل بسواحل افريقية إلاّ بعد قرون من المغامرات والاغتراب . فقد انطلقت من بحر البلطيق وبلغت سهول الأودَر(Oder) والفستول الأعلى (Vistule supérieure) حوالي القرن الأوّل قبل المسيح . ثم تشتّتت في القرن الثاني بعد المسيح بسبب هجرة القوط واجتمعت في بطنين رئيسيين يعرفان باسمي سلينخ وهستنخ (Silings et Hasdings) وبعد تقلّبات خاصّة دامت قرنين التقيا في جهة نهر الرين الأوسط حيث سبقهما أو التحق بهما أقوام متوحّشة أخرى كقبائل الآلان والسوّاف منهم من سبقهم ومنهم من تعقّبهم وعلى كلّ فقدحطّموا جميعا خطّ الدّفاع المنتصب على ضفّة نهر الرين وذلك قرب مدينة ماييناس (Mayence) في 31 ديسمبر 406 واكتسحوا غوليا ونهبوها ثمّ دخلوا اسبانيا في خريف سنة 409 ولم تمض سنتان أو ثلاث حتى اقتسموا الجزيرة . فاستقرّ الهستنخ والسوّاف في الشمال الغربي بجليقية ، واحتلّ السيلينخ الجنوب في البيتيك، أمّا الالآن فقد انتصبوا بلوزيطانيا والمنطقة البونيقيّة في الجهات المتوسّطة .

لم يستقرّ الحال بهم طويلا . ففي سنة 416 رمى زعيمهم الامبراطورية وقائد فرقة قسطنطين بجنده قوط والية (Wallia)على اسبانيا فأبادوا قبائل السيلنخ ثمّ وجّه ضرباته القاسية نحو الآلان وما زال بهم حتى ذابوا في شعب الهستنخ .

وقد اجتنب الوندال Vandales الكارثة لأنّهم نزحوا في سرعة كبيرة نحو جنوب الجزيرة حيث افتكّ ملكهم غندريق (Gunderic) قرطاجنة واشبيلية من أيدي الرومان (425) .

ومنذئذ انتصبوا على طول السواحل وبسطوا نفوذهم على البحر المتوسّط بفضل أسطول اسبانيا . وسرعان ما احتلّوا جزر البلجار وأخذت

سفنهم تنهب سواحل موريطانيا الطنجية ابتداء من سنة 425 بدون شك . ولمَّا أصبح ملك الوندال سيِّدا على معظم تراب اسبانيا كان من الطبيعي أن يتوجَّه بأنظاره إلى افريقية ولم يجد غندريق (Gunderic)الوقت لتنظيم غارته على هذه البلاد . ولمَّا قضى نحبه سنة 428 كان على أخيه جنسريق أن يقوم بهذه المهمَّة ولعلَّه كان أعظم قواد ورجال الدّولة الجرمان في القرن الخامس .

وكان ملك الهستنخ والآلان حسب ما رواه جوردنيس (Jordanes) قصير القامة أعرج بسبب كبوة من جواده وكان قليل الكلام حصيف الرأي ثابت العزيمة . وكان القوم معجبين بمهارة سياسته ودهائه .

وما كان لرجل على هذا القدر من البراعة أن يجهل ما كانت تتخبَّط فيه افريقية من فوضى فلايستغلّها . فكانت الأزمة السياسة والأزمة الاقتصادية والأزمة الاجتماعية تتظافر كلُّها لتؤدّي بالبلاد إلى الإفلاس .

2 — قلاقل افريقية

كان للقلاقل التي جدّت إثر موت امبراطور الغرب هونوريوس (423) تأثيرها في افريقية، ذلك أنّ هونوريوس لم يترك ولدا، أمَّا ابن أخته غالة بلا سيديا (Galla placidia) وقنسطانس الذي سوف يعرف باسم فالتينيان الثالث فإنَّه لم يتجاوز حينذاك الرابعة من عمره فلم يعترف به امبراطور الشرق تيودوز الثاني قيصرا . وكان يخشى أن تستغلّ القسطنطينية هذا الظّرف لتحقيق وحدة الامبراطورية من جديد . إلاّ أنّ بلاسيديا كانت تعتمد على الكونت بونيفاس وهو آخر القواد الرومانيين منذ موت قنسطنس وأشهرهم، وبينما وضع قائد فرقة كاستينيوس والقائد آيتيوس (Aetius) نفسيهما تحت تصرّف مغتصب مجهول كان بونيفاس يبذل جهده لئلا تتمرّد افريقية على الامبراطور الشرعي. وانتهى الأمر بتولية فالنتنيان امبراطورا واتّحاده مع تيودوز الثاني (425) وكان من حقّ بونيفاس بعد كلّ هذا أن يطمع في لقب "سيِّد السلاحين" أي قائد أعلى خاصّة وأنّ منافسه الوحيد كاستينيوس كان قد نُفِي . إلاّ أنّه لم ينل ذلك اللّقب إذ فقد كلّ حظوة عند الوصية .

وممّا جعل بونيفاس محلّ ريبة لدى الكاثوليك وحتى لدى صديقه أغسطينيوس زواجه ثانية بآرية لا بوندالية كما أكده بعضهم مرّات كثيرة — وتعميد ابنته على طريقة المبتدعة بعد أن عاش أزمة تديّن حادّة على طريقة "السنّية" التي كادت أن تؤدّي به إلى الدّير. وخشيت بلاسيديا أن يحمله طموحه إلى تأسيس إمارة في افريقية عندما لاحظت ما أصبح عليه من اعتداد بالنفس بعد الذي سجّله من انتصارات عسكرية على البربر وما جلب له ذلك من ذيوع صيت . وأهاجت دسائس البلاط عقارب الشكّ والريبة . وقد اتّهمه بروكوب (Procope) بأنّه أغار صدر بلاسيديا على بونيفاس في الوقت الذي كان يحذّره من الأخطار المُحدقة به في رافين (Ravenne) ولكن آييتوس (Aetius) كان يحارب في بلاد غوليا في ذلك الوقت وليس أحد أحقّ بأن يتّهم بالمكيافيلية السياسية سوى القائد الأعلى فيليكس الذي كان حينئذ مستشار الوصية .

ومهما يكن الأمر فإنّ بونيفاس تلقّى سنة 427 إذنا بالعودة فلم يستجب له فاعتبر عدوّا عموميا . وقد هزم الجيوش الأولى التي أوفدها فيليكس لمقاومته ولكنّ الجيش الذي كان يقوده كونت افريقية سجسفولت (Sigisvult) وهو من القوط، استولى فيما يبدو على عنّابة وقرطاج في أوائل سنة 428 فأصبح بذلك وضع المتمرّد خطيرا .

وفي هذه الظروف يروى أنّ بونيفاس استنجد بالوندال والرواية مدعاة للشكّ إذ لم ترد إلاّ بعد قرن في ما كتبه بروكوب وجورد نيس فقط . ويعتبر هيداتيوس مؤرّخ اسبانيا الهجرة إلى افريقية نتيجة منطقيّة للهجومات التي استهدفت لها موريطانيا سنة 425. أمّا بروسبر أصيل اكيتانة وهو المعاصر الوحيد الذي خلّف لنا شهادة في هذا الصدد فقد أكّد أنّ الأقوام المتوحّشة استنجد بهم الطرفان (a concertantibus) ومن المرجّح فعلا أن تكون عصاباتهم التي لم تتّضح نواياها تلقّت في غمرة الفوضى التي تبعت الزحفة نداءات من سجسفولت وبونيفاس معا .

ولكن لا تكفي إشارة قائد متمرّد لتبرير دخول الوندال في مسرح الأحداث بإفريقيا الشمالية . فلقد حاول قبلهم قواد من القوم المتوحّشين

كانوا مستقرّين في ايطاليا أو اسبانيا كالاريك (Alaric) أووالِيا (Wallia) أن ينزلوا على تراب الأرض الموعودة لإشباع نهم عصاباتهم الجائعة والسيطرة على تزويد ايطاليا بالقمح .

وقد خلبت افريقية لبّ ملك الوندال كما خلبت من قبله لبّ ملوك القوط خاصّة وقد كان الظرف مناسبا جدّا، فعلاوة على تمرّد بونيفاس كانت الثورات البربرية المزمنة وكانت انتفاضات الأقوام التي أرهقتها ضرائب الامبراطور وإرهاب الدوناتوسيين الذين كانوا يغتنمون جميع الفرص ليعبروا عن سخطهم إزاء السلطة المركزية . وكانت افريقية بأجمعها تتوق على غرار حاكمها إلى الاستقلال السياسي . ومن الطبيعي أن يتوقّع من تحدّثه نفسه بالإغارة على هذا البلد مقاومة ضعيفة ومساعدات ثمينة .

3 — فتح افريقية

ولم يترك جنسريق الفرصة تفوته . فبعد أن وطّد أركانه بانتصاره على السواف الذين أغاروا على لوزيتانيا (Lusitanie) انتقل بجيوشه إلى افريقية، وقد انطلق من طريفة (Julia Traducta) الواقعة على مضيق جبل طارق في ماي سنة 429 والتحق بالسواحل الافريقية في اتّجاه نومور (Ad Fratres) حسب ما أكّده بعضهم (أ- ف- ڤوتييه) والأصح على ما يظهر في جهة طنجة أو سبتة . وما تشهد به في لاموريسيار نقيشة يرجع تاريخها إلى أوت سنة 429 من قتل (المتوحّشين) لبربري أو بربريّة يرجّح أنّه يشير إليهم ويحمل على الاعتقاد بأنّ الوندال سلكوا طريقا بريّة وقد صحب جنسريق شعبه بأكمله من الوندال والآلان وحتى القوط القاطنين بإسبانيا أي ما يقرب من 80 ألف نسمة منهم خمسة عشر ألف جندي . وإذا صدّقنا ما رواه بوسيديوس (Possidius) أسقف كلاما (Calama) في كتابه حياة القدّيس أغسطينوس وما رواه فيكتور فيتا فإنّ زحفة المغيرين تبعتها أعمال فظيعة من عبث بالأشجار والمزروعات وحرق للكنائس وإمعان في تعذيب القساوسة ورجال الكنيسة وتقتيل للشيوخ والأطفال . ولا يمكن أن نعرف ما هو

قسط تشفّي الدوناتوسيين والمزارعين المستغلّين في هذه الأعمال الفظيعة التي لم تنته بانتصار الوندال . والراجح أنّ دورهم في ذلك كبير ويمكن الاعتماد على الحفريات الواقعة في بنيان (Ala Miliaria) في أواخر القرن الماضي لتصوّر المعارك الدّامية التي جدّت بين المبتدعة و"السنّيين" في موريطانيا الغربية حيث كانت الحركة الدوناتوسية قوية . فلقد كشفت هذه الحفريات عن سراديب فيها توابيت عدد كبير من أعيان هذه النّحلة خاصّة الرّاهبة ربّه (Robba) التي قتلت تحت ضربات (Les Traditeurs) سنة 434 فاستحقّت بذلك لقب الشهيدة وإقامة معبد تكريما لها .

والغالب على الظنّ أنّ المستضعفين في الأرياف الذين انفسح لهم المجال بانسحاب القوة المسلّحة أخذوا بثأرهم من كبار الملاّكين الذين استغلّوهم دهرا طويلا استغلالا فاحشا فقتلوهم أو انتزعوا أراضيهم .

ولم يكن في مقدور الامبراطورية أن تقف في وجه جنسريق إلى أن زحف على نوميديا وتوغّل فيها . عند ذلك أصبح الخطر عظيما إلى حدّ كفت معه منافسات خصومه . فقرّرت بلاسيديا العفو عن بونيفاس وأسندت إليه قيادة الجيش بأكمله بما فيه القوط المرتزقة، وبعد مفاوضات لم تؤدّ إلى نتيجة لجأ الرومان والوندال إلى القوة . وانهزم بونيفاس واعتصم بعنّابة (Hippone) فحاصره جنسريق . ونحن نعلم أنّ القدّيس أغسطينوس توفّي بعد ذلك بثلاثة أو أربعة أشهر (28 أوت 430) ولم تمض أربعة عشر شهرا حتى كفّ جنسريق عن حصار المدينة لقلّة خبرته بالاستيلاء على المدن، ولم يحاول كذلك دخول سيرتة (Cirta, Constantine) وقرطاج عنوة، وإذا استثنينا هاتين المدينتين المحصّنتين اللّتين بقيتا في حوزة الرومان فإنّ أيّ حافز لم يحل دون زحف الوندال على بقيّة البلاد .

وأعظم خطر كان يمكن أن يهدّد جنسريق هو انطلاق جيش من القسطنطينيّة للنجدة تحت قيادة أسبار (Aspar) ابن أحد المحاربين الآلان وهو الذي سيطر فيما بعد على امبراطورية الشرق . ونزل "أسبار" بقرطاج وانضمّ بجيشه لبونيفاس ولكنّهما انهزما معا سنة 431 . ولم يلبث أن رجع أسبار إلى القسطنطينية ولم تمض سنة حتى استقدمت بلاسيديا

بونيفاس وسمّته قائدا أعلى منافسا لآيتوس (Aetius) ولكنّه لم يلبث أن قضى نحبه بعد شهور قليلة .

وظلّت افريقية بلا حامٍ يحميها . فقد كان آيتوس (Aetius) الذي فرض نفسه على بلاسيديا بالقوة كقائد للجيشين وشريف يركز جهوده في بلاد غوليا من دون أن يقيم وزنا لزحف جنسريق . وما إن أصبح سيّدا حتى رضي بالتفاوض معه . وقد خوّلت اتّفاقية عنّابة (Hippone) (11 فيفري 435) امتيازات للوندال شبيهة بالتي تحصّل عليها القوط في أكيتانة (Aquitaine) ذلك أنّ الوندال اعتبروا قوما "متّحدين" مع الامبراطورية مقابل أداء رمزي . وأصبح بذلك في إمكانهم الاستيطان في مقاطعات موريطانيا الثلاث وقسم من نوميديا بما فيها قالمة (Calama) ومن دون أن يتسلّموا الأراضي بصيغة قانونية . وأكّد جنسريق إخلاصه لهذا الحلف فالتزم بإرسال الرهائن كلّ سنة إلى رافين (Ravenne) وعيّن ابنه ضمن البعثة الأولى منها .

4 — انتصار الوندال

اعتبر ملك الوندال هذه المعاهدة مهلة تتيح له التّخلّص من هجوم مفاجىء يقوم به آيتوس قبل أن يوطّد قدمه فيما فتح من بلاد . وما زال يهدّىء من تخوّفات "رافين" حتى نجح في استرجاع ابنه إلى افريقية . ولمّا لم يبق له مبرّر للمهادنة طوى الأحداث طيّا فاستولى على قرطاج من دون مقاومة تذكر (19 أكتوبر 439) وقد وصف "سالفيان" Salvien قسّ مرسيليا مشهدا ممتازا قال : "بينما كانت أبواق الزاحفين تردّد أصداءها تحت أسوار سيرتة وقرطاج كان رجال الكنيسة في هذه المدينة تتبلّد حواسّهم في ملاهي الملاعب ويفقدون ماء الوجه في المسارح. وكان الجنود يتقاتلون خارج الأسوار، أمّا في المدينة فقد كان القوم يستهترون وكان النّاس بعضهم أسرى في أيدي الأعداء والبعض الآخر أسرى العار . ولا ندري من هو أحقّ منهم بالرّثاء" إلاّ أنّ غاية سالفيان هي إقامة الدليل على أنّ الله أرسل الوندال عقابا لافريقية "بؤرة كلّ ألوان الفساد" ولعلّه لم يتحرّ الدقّة فيما وصف . وليس من شك كذلك في أنّ الهلع كان

كبيرا جدّا لا في قرطاج فقط بل في الامبراطورية كلّها وخاصّة رومة التي لم تنس ما نالها من قبل ذلك بعشرين سنة من نهب وتخريب على أيدي القوط الذين كان يقودهم "ألاريك" .

والواقع أنّ خطر جنسريق تحقّق عندما جهز أسطولا عتيدا فنفخ في أبواق الإنذار في الامبراطورية من أقصاها إلى أقصاها فحصّن القوم مواقعهم وخاصّة في ايطاليا . ووعد تيودوز بالتدخّل ونظّم سيجسمولت حماية السواحل ورجع آييتوس من بلاد غوليا بجيوشه . غير أنّه لم يكن يطمع بعد في الاستيلاء على رومة . بل إنّه هجم على صقلّية وحاول من دون جدوى احتلال بالرمو (Panorme) واقتصر في آخر الأمر على الفوز بمرسالة (Lilybée) ولم يبق لامبراطورية الغرب أسطول يقف في وجه جنسريق . أمّا الإغريق فإنّ ما جرى من ماهر المفاوضات حال طويلا دون انطلاقها وانتهى الأمر بالعدول عن إرسالها لمّا شاع خبر توقّع هجوم الفرس والهان (Huns) على المناطق الشرقية ولا شك أنّ ملك الوندال هو الذي أوعز بهذه الشائعات فأكّد بذلك مرة أخرى تفوّق ديبلوماسيته .

ولم يجد تيودوز بدّا من التوقيع على معاهدة جديدة أيدها فالنتينيان سنة 442 وكانت هذه المرّة لصالح الوندال خلافا لمعاهدة سنة 435 . وقنعت الامبراطورية بأشدّ الجهات فقرا وأقلّها استقرارا وهي موريطانيا القيصرية والسطيفية وجزء من نوميديا بما فيها سيرتة وبلاد طرابلس . أمّا جنسريق فقد بسط نفوذه كاملا ولا شك على بروقنصلية بما فيها قرطاج ومزاق وعلى جزء من نوميديا يشمل عنّابة (Hippone) ولم يرد ذكر موريطانيا الطنجية التي كانت تابعة لاسقفية اسبانيا في نصّ المعاهدة . وأغلب الظنّ أنّ الوندال اقتصروا على مراقبة المضيق .

وأصبح أمل رافين (Ravenne) الوحيد متمثّلا في مدى عطف ملك الوندال . ورغم أنّ وليّ العهد حنياريق (Huneric) كان تزوّج من إحدى بنات تيودوريك ملك القوط فقد عرض آييتوس عليه مصاهرة فالنتينيان . وسعى جنسريق إلى تيسير الأمر فطرد زوجة ابنه بدعوى محاولة التسميم ووجّهها إلى تولوز بعد أن قطع أنفها وأذنيها . ولا ندري لماذا

لم تتمّ الزيجة الجديدة وعلى كلّ فقد ظلّت العلاقات حسنة بين الرومان والوندال حتى سنة 455 .

أكّد جنسريق قوة شخصيته عندما جعل من احتلال قرطاج نقطة انطلاق لعهد جديد . لقد ظلّ الرومان يجمعون القموح في مقاطعات موريطانيا الثلاث إلاّ أنّهم كانوا تحت رحمة الوندال وقد أصيب أصحاب السفن في استيا بضربة قاسية من جرّائهم . ولم يضع جنسريق حدّا لنشاط قراصنته ولدهائه وكيده الرامي إلى تأليب الأقوام على الامبراطورية .

5 ـ نظام الأراضي

وما زال جنسريق بالأفارقة حتى لانت قناتهم وسلس قيادهم . وتملّك نهائيا أرياف زغوان حيث أقرّ الجانب الكبير من رعيته . ولا نكاد نعرف شيئا عن نظام الأراضي إذا استثنينا أنّ تحويل الأملاك تمّ عن طريق انتزاعات لم تخلُ من عُنف . فقد قال بروكوب : "اختار ملك الوندال من بين سكّان افريقية أكثرهم غنى وأعظمهم شأنا فانتزع أملاكهم وأثاثهم وسخّر الرقاب بعد أن كبّلها بسلاسل العبودية ثم جرّد الأفارقة من أخصب أراضيهم وأوسعها فوزّعها على الوندال . وقد سمّيت هذه الأملاك باسم قطع الوندال ولم تزل محتفظة بهذا الاسم إلى اليوم . ولم يلبث الملاّكون القُدامى أن تدحرجوا إلى أحطّ دركات البؤس ولكنّهم احتفظوا بحرّيتهم وأمكنهم أن يستقرّوا حيثما شاؤوا وأعفى جنسريق الوندال وابنيه من الضرائب على الأراضي التي تملّكوها وأبقى لأهل البلاد جميع الأراضي التي اعتبرها ضعيفة الإنتاج ولكنّه أثقل كاهلهم بالأداءات فكانت تبلغ محصولها".

يشير هذا النصّ في وضوح إلى حالة العبودية التي كان عليها الملاّكون الأغنياء إلاّ أنّ الحوار الذي نقله فيكتور دي فيتا يدلّ على أنّ كلّ نبيل روماني لم يهجر أراضيه كان يعتبر نفسه حرّا .

ولا يمكن أن نستنتج من النصوص القليلة والمتضاربة أحيانا التي ترد في المؤلّفات القديمة إلاّ الفرضيات ويعتقد عامّة المؤرّخين أنّ الوندال

مكّنوا الأفارقة من الحفاظ على أراضيهم أو البقاء فيها بصفتهم عبيدا أو بالأحرى معمّرين .

غير أنّ هذه الإجراءات لم تطبّق إلاّ في جهة زغوان . فلم يلحق الممتلكات إلاّ تغيير طفيف في نظامها فقد تحوّلت الضيعات إلى عائلات الوندال الذين كانوا يتسلّمون من المعمّرين الضرائب . وقلّ أن أشرف عليها مباشرة الملاّكون الجُدُد الذين كانوا منصرفين إلى شؤون البلاط أو الجيش بل كانوا يقتصرون على قبض المحاصيل التي كانت من الكثرة بحيث تمكّنوا من أن يحيَوْا حياةَ البذخ وكان المُشرفون بحقّ على المؤسّسات الفلاحية الموظّفين (Conductores) كما هو الشأن من قبل . أمّا الفلاّحون فلم يتأسّفوا على زوال النّظام الروماني بل إنّهم احتجّوا بشدّة عندما أقامت الحكومة البيزنطية هذا النّظام من جديد .

وإذا تجاوزنا جهة زغوان ألفينا أنّ الأراضي أصبحت من أملاك الدولة إلاّ أنّها بقيت في أيدي أصحابها . وتحوّلت أملاك الامبراطور القديمة إلى ملك الوندال الذي ظلّ يتصرّف فيها بواسطة نُوابه .

6 — لوحات الوندال

إنّ الخمس وأربعين لوحة التي اكتشفت في شهر سبتمبر 1928 بجنوب تبسّة وسلمت من التلف بفضل عناية أ. ترويو وهو كاتب بلدية مختلطة ، تساهم في إلقاء الأضواء على مشكل نظام الأراضي الشائك لأنّها أوّل عقود للبيع عثر عليها . ثلاثة عشر عقدا منها كاملة النصّ وثمانية عشر ناقصة . وتتعلّق جميعها ببيع العقارات ففيها نجد معلومات عن التاريخ (عهد غاتموند 493 — 496) وعن البائعين ووصفا للعقار المباع واسم المشترى ومبلغ البيع والتوصيل المسلّم من البائعين وحقوق الشارى وحمايته من الانتزاع وعن مكان كتابة العقد وتاريخه وهي مذيّلة أحيانا بإمضاء البائعين وفيها ما يذكّر بقانون مانسيانا (Lex Manciana) الذي بلغ إلينا عن طريق نقوش هامّة ترجع إلى القرن الثاني ولم يكن للفلاّحين الذين امتلكوا الأراضي الموات بإحيائها حقّ توريث أبنائهم فقط بل إمكان

بيعها . "فإمكان تحويل الأراضي واحتكارها يعدّ ظاهرة جديدة هامّة". وإنّ عقد بيع عبد عمره ستّ سنوات يعرّفنا بما لنقود البرونز المفضّضة من قيمة ضئيلة (folles) إذا قارنّاها بفلس الذهب (solidus) . ويظهر أخيرا من الأسعار المضبوطة بالعقود أنّ ثمن الأراضي قد انحطّ انحطاطا كبيرا .

وإنّ أهمّ ما يلفت النظر هو استمرار التقاليد القديمة . قال أ. البرتيني : "لا نجد في هذا كلّه إلاّ دليلا واحدا على وجود الوندال بافريقية هو اسم الملك يكتب بأوجه متعدّدة . واستمرّت حياة البربر المتأثّرة بالرومان والذين كانوا يمثّلون معظم سكّان افريقية في عهد ملوك الوندال على ما كانت عليه في العهود السابقة إلى أن تغلّبت القبائل المناوئة للحضارة الرومانية واستولت على الجهات النائية عن الساحل فطمست معالم الحكم الامبراطوري .

7 — السياسة الدينية

لقد اشتدّ جنسريق في معاملته للنّاس وعلى الكاثوليك خاصّة فانتزع كنائس المدينة وصادر كنوزها . فأصبحت كنيسة رستيتوتيا (Restituta) والكنيستان المقامتان تكريما للقدّيس قبريانوس بالمكان الذى عذّب فيه فوق ضريحه في خدمة العبادة الآريوسية التي كان يقيم الكهنة شعائرها باللغة الوندالية ولقد منعت الأناشيد الدينية عند تشييع الموتى اجتنابا للمظاهرات.

ولم يخفف الملك عداوته للكاثوليك . فقد أجاب حسب ما أورده فيكتور دي فيتا (Victor de Vita) وفدا من الأساقفة التمسوا أن يبقوا في مناصبهم حتى بدون كنائس وموارد قائلا : "إنّي آليت ألاّ أرحم ولو فردا واحدا من شعبكم ومن نحلتكم فإذا بكم تتجرّؤون على التقدّم بمثل هذا الطلب ؟ "يالَلْوَقَاحَة" .

ويظهر أنّ هذا الحديث مُنْتَحَل غير أنّه لا سبيل إلى إنكار ما سلّطه جنسريق من ألوان العقاب على خصومه . فما إن دخل قرطاج حتى ألقى رجال الكنيسة وأسقفهم كودفلدوس (Quodvultdeus) في مراكب

قديمة أقلّتهم إلى ايطاليا على بركة الله وكذلك نفى القساوسة الذين كانوا يعرّضون بطغيانه بطريقة غير مباشرة مستعينين بالقصص المستمدّة من الإنجيل غير أنّه لم يَمَسّ بأذى من كانوا في حماهم .

ولا شك أنّ هذه الإجراءات أملتها عليه الضرورات السياسية أكثر من تعصّبه للآريوسية ويظهر أنّه رأى في اجتماعات الكاثوليك مصدرا للمؤامرات وحقّ له ذلك . قال الأسقف دوشين في هذا الصدد (Duchesne) "إنّ الذي كان يهمّ ملك الوندال هو أن لا يُثير رعاياه الرومان المشاكل في طريقه بدعوى الدين سواء كانت هذه المشاكل داخلية أو خارجية" ومن البيّن أنّه كان يسعى لا إلى محو الكاثوليكية وهو أمر مستحيل وعديم الجدوى بل إلى إحباط مؤامرة كان القساوسة وسرّاةُ القوم يحيكون خيوطها باستمرار، لذا كان يسلك سبيل القمع والشدّة حينا ويتوخّى التسامح حينا آخر إمّا تأكيدا لمناهضته للامبراطورية كما كان الأمر غداة استيلائه على قرطاج، وإمّا استرضاء لها كما حدث سنة 454 عندما سمح برسامة أسقف جديد بقرطاج يدعى ديوقراسياس (Diogratias) وذلك لإظهار ودّه نحو آييتوس (Aetius) أو سنة 476 عندما أذن بفتح الكنائس من جديد ليتمكّن من إبرام معاهدة مع زينون لصالحه .

لقد كان الأريوسي الذي لا تعرف الرحمة إلى قلبه سبيلا ، حريصا على نشر الأخلاق الفاضلة توطيدا للأمن العام . فحمّل المدن والمكلّفين بتسيير الألعاب مسؤولية ما قد يحدث من مشاجرات أثناء سباق المركبات وفي قرطاج حيث كان اللّواط شائعا شيوعا فاحشا أمر بإيقاف عدد كبير من الخلعاء وتمكينهم من الاختيال في الصحاري . ورغم هذه المقرّرات لم تكن الأخلاق طبعا خيرا أو شرّا ممّا كانت عليه من قبل .

8 — انتصار جنسريق

ظلّ جنسريق مهتمّا قبل كلّ شيء بتنظيم فتوحاته إلى سنة 455 حيث اغتال فالنتينيان بنفسه آييتوس ولم تمض ستة أشهر حتى خرّ بدوره صريعا تحت ضربات أتباع ضحيّته . وكانت الطّعنة التي أودت بحياة

الامبراطور قاضية على امبراطورية الغرب، فقد استغلّ جنسريق القلاقل التي أثارها مشكل الخلافة فانقضّ بأسطوله على ايطاليا وسطا بجيشه على رومة فدخلها بدون مقاومة تذكر يوم 2 جوان 455 . واستباح الوندال المدينة ونهبوها طيلة خمسة عشر يوما إلاّ أنّهم التزموا الوعد الذي قطعه ملكهم على نفسه إزاء البابا ليون الأوّل فلم يقتلوا الأرواح ولم يُشعلوا الحرائق . وحملت السفن إلى قرطاج الغنائم الثّمينة وكان فيها كنوز معبد سليمان التي أرجعها تيتوس وقد ظلّت في أيدي المبتدعة حتى انتصر بليزار كما حملت أيضا عددا كبيرا من الأسرى من بينهم أرملة فالنتينيان وابنتاها ونخصّ بالذكر منهما أودوسيا خطيبة حنياريق منذ عهد طويل ثم تزوّجها في آخر الأمر، ومن بين هؤلاء الأسرى أيضا ابن آييتوس . ولقد انتهى الأمر بديوقراسياس (Déogratias) أسقف قرطاج إلى أن باع الآنية المقدّسة ليفتدي الأسرى الذين كانوا في حوزة الوندال والبربر .

وبقي عرش "رافين" خاليا في أوّل الأمر وأصبح قانونيا زمام الامبراطورية كلّها في أيدي الجندي الورع مارسيان (Marcien) الذي خلف تيودوز الثاني سنة 450 . غير أنّ القسطنطينية لم يبق لها من القوة ما كان يمكنها به التدخّل في ايطاليا أو بالأحرى في افريقية . فلمّا دعا أفيتوس(Avitus) ، امبراطور الغرب الجديد والقائد الأعلى السابق لغوليا، اليونان في 9 جويلية سنة 455 إلى القيام بحملة مشتركة على الوندال الذين كانوا يُجيعون ايطاليا اكتفى مارسيان بتوجيه إنذار إلى جنسريق الذي لم يعبأ به طبعا .

ذلك أنّ جنسريق كان يعلم حقّ العلم أنّه تربّع كرسي الزعامة في العالم الغربي بفضل جيشه وأسطوله وديبلوماسيته . وأنّ سيطرته على البحر المتوسّط كانت تمكّنه من مناوشة الامبراطورية في الواجهات الأقلّ مناعة من غيرها . وقد استولى هكذا على كرسيكا وسردانيا والبلجار ثم صقلّيّة كما أمر شعب السواف (Suèves) بالهجوم على الرومان المستوطنين في طاركون (456) (Tarraconaise) ثم احتلّ موريطانيا الطنجية والقيصرية وأصبح في الظاهر على الأقل سيّد افريقية من أقصاها إلى أقصاها . ويؤكّد بروكوب أنّه استمال قلوب البربر بتشريكهم في غاراته الإيجابية بعد أن أذعن إلى سلطانه قادتهم وكان قد احتاط للأمر فأمر

بتقويض جميع التحصينات المُقامة حول المدن باستثناء قرطاج وبعض المدن الأخرى حتى لا يستغلّها المتمرّدون وجند الرومان .

ولم تتعلّق همّة جنسريق ـ إلى جانب ذلك ـ بإدارة المقاطعات القديمة مباشرة بل أبقى على ما وجده فيها من نظام وقوانين . ويصوّر نقش يرجع تاريخه إلى آخر عهده (474) واليا بربري الاسم يُدعى يوقمانا (Iugmena) وهو بصدد تشييد كنيسة في "دوار" بجوار الموقع الحالي للسجن الفلاحي ببرواغية (Thanaramusa) وإذا اعتمدنا الرزنامة البربرية التي يستعملها سكّان هذا "الدوار" وهم زابانس (Zabenses) يبدو لنا أنّ الوندال لم يكونوا محتلّين حينذاك لهذه الجهة من موريطانيا التي أصبحت مستقلّة ونستفيد من كلّ ذلك أنّ جنسريق ـ وهو في أوج سلطانه ـ لم يحكم حكما مباشرا موريطانيا وكذلك نوميديا من دون شك، وإن راقبها فلماما . وأغلب الظنّ أنّ السكّان لم يتألّموا من الوضع الجديد مثلما كانوا يتألّمون من النّير الروماني قبيل الفتح الوندالي .

9 ـ خيبة ماجريانوس

نتج عن محاصرة جنسريق لايطاليا وقطع سبيل المؤونة عنها سقوط آييتوس ثم لم يمض وقت طويل حتى قضى مارسيان نَحْبَه وكان أخذ بمجامع القلوب . فأصبح العرشان بذلك شاغرين . أمّا سيّدا الموقف بحق فهما الشيخ أسبار في القسطنطينية وريسيمر في ايطاليا وهو قائد الجيش الروماني والجرماني الذي استمدّ شعبيته من انتصاراته على الوندال في صقلّية فأصبح يولي ويعزل الأباطرة حسب مشيئته .

وقد ولى أسبار على عرش الشرق ليون أصيل تراس امبراطورا وهو أحد ضبّاطه القُدامى وعيّن هو بدوره في أفريل سنة 457 قائدا جريئا يدعى ماجريانوس امبراطورا على عرش الغرب .

وقد رأى ماجريانوس أنّ من أوكد واجباته تكسير شوكة الوندال فشرع في تعطيل مجهودات جنسريق بتأليب القوط وشعب السواف بعد أن ركّز سلطته في بلاد غوليا ثم في اسبانيا حيث جهّز بالقرب من آلش

(Elche) في خليج أليكانت(Alicante) اسطولا يعدّ ثلاثمائة سفينة على أهبة التوجّه إلى افريقية . فجنح جنسريق إلى السلم ولكنّه لم يُفلح ويروى أنّه عاث عند ذلك في موريطانيا فسادا وسمّم الآبار . إلاّ أنّه بلغ مقصوده بفضل دهائه على عادته، وسواء أأغرى قواد العدوّ بالرشوة أم فاجأهم بأسطوله فإنّه على كلّ حال تمكّن من الاستيلاء على أغلب السفن الرومانية . وهكذا كانت نهاية الأعمال الجبّارة التي أنجزها ماجوريانوس في بلاد غوليا معاهدة صلح مع جنسريق في افريقية . فما كان من "ريسيمر" إلاّ أن أمر بإلقاء القبض عليه وإعدامه حال رجوعه إلى العاصمة وذلك سنة 461 ثم ولّى مكان هذا الامبراطور الممتاز من جميع الوجوه شخصا عديم القيمة يدعى ليبيوس سرفيوس (Libus Servius) فلم تعترف به القسطنطينية رغم أنّه أصبح يحكم باسمها .

ووجد جنسريق فرصة أخرى للتدخّل في الخصومات التي كانت تثيرها الخلافة وذلك باسم ورثة فالنتيان بدعوى الدّفاع عن مصالحهم . ولم ينشط في المجال العسكري والديبلوماسي كما نشط في هذه الظروف فقد نهب ايطاليا وأبرم معاهدة مع أيجديوس قائد الجيش في شمال بلاد غوليا وتفاوض مع أوريك ملك القوط الجديد (سنة 466) ومع رمسموند زعيم السواف (Remismund) واستمال في أوّل الأمر القسطنطينية بتخلية سبيل أرملة فالنتيان وابنتها الصغيرة ثم بعد أن قطع علاقاته مع الامبراطور ليون الذي أبى أن يرشّح أمبراطورا لتبوؤ عرش الغرب هاجم سواحل البيلوبونيز (Péloponèse) مدفوعا بحبّ الانتقام فأسّر من بها وشلّ حركة التجارة في حوض البحر المتوسّط (461 — 467) .

10 — المعركة البحرية الكبرى لسنة 468

عزم الامبراطور ليون بالاتّفاق مع ريسيمر على وضع حدّ لهذه الهجومات التي كان خطرها مستفحلا فقرّر أن يضرب الوندال الضربة القاضية وسخّر لذلك جميع موارد الامبراطورية . فجهّز أسطولا عظيما . وتدلّ الأرقام التي ذكرها المعاصرون والتي تجاوزت المعقول أي 1113 سفينة وأكثر من مائة ألف جندي على مابلغه

القوم من حماس وما تملّكهم من اندفاع أمام فخامة الاستعدادات واستهدف الهجوم ثلاثة مواقع . فقد توصّل الكونت مارسلينوس (Marcellin) الذي تكوّن على أسلوب آييتوس وربّما كان أعظم قوّاد الامبراطورية إلى احتلال سردانيا بفضل القوات الايطالية . ونزل جيش مصر في طرابلس بسلام . أمّا الأسطول المُقِلّ لمُعظم الجند تحت قيادة بازيلسكوس (Basiliscus) العاجز فإنّه لم يتعدّ أن أرسى بسواحل الوطن القبلي (Cap Bon) حيث مكث من دون أن يحاول الهجوم على قرطاج . وشعر جنسريق بسوء العاقبة أو تظاهر على الأقل باليأس ، وتحصّل من بازيلسكوس على مهادنتِه خمسة أيام وربّما تمّ له ذلك بعد أن رشاه حسب الشائعات التي راجت في ذلك الوقت ثم باغت أسطول العدوّ تحت جُنح الظلام فلم يُفلت من ضرباتِه إلاّ الشيء القليل (468) .

وكان اليأس الذي استولى على الامبراطورية كلّها على قدر الآمال المحطّمة . وقد عدل جيش مصر عن مهاجمة قرطاج وهلك مارسلينوس غيلة . وفتحت هذه النكبة عيون "الأقوام المتوحّشة" على ضعف الامبراطورية التي خرجت من هذه المغامرة ذليلة مهيضة النجاح . فسلّم الجميع بأنّ الوندال لا قاهر لهم ، وأبرم جنسريق معاهدة حسب مشيئته .

إلاّ أنّه لم يتمسّك بهذه المعاهدة طويلا إذ بادر منذ سنة 474 بالهجوم مرّات عديدة على السواحل اليونانية فاضطرّ امبراطور الشرق زينون الازوري إلى إبرام معاهدة ثانية تعلن عن سِلم أبدية بين الطرفين . فسهل جنسريق تحرير الأسرى الرومان أو افتداءهم ورضي برجوع الأساقفة وفتح الكنائس الكاثوليكية . وحصل مقابل ذلك اعتراف القوم رسميا بسلطته على افريقية وكرسيكا وسردانيا وصقلّية وجزر البلجار واشيا (خريف سنة 476).

وكانت امبراطورية الغرب في ذلك الوقت في حالة احتضار . فما كان من القائد أودواكرا (Odoacre) إلاّ أن وضع حدّا لمهزلة الخلافة المؤلمة فطوّح بعرش روميلوس أوقستيل وبعث بشارات السلطة إلى القسطنطينية في سبتمبر سنة 476 .

ولاشك أنّ جنسريق استحسن هذه الفعلة إذ تخلّى له مقابل غرامة عن صقلّية باستثناء قلعة مرسالة التي كان يعتبرها موقعا استراتيجيا ضروريا لسلامة افريقية .

ولقد أُتيح لملك الوندال أن يشاهد قبل وفاته في 24 جانفي 477 ما أصاب امبراطورية الشرق من إهانة، وما حلّ بامبراطورية الغرب من انهيار.

11 – دولة الوندال في افريقية

أقام جنسريق في افريقية دولة عظيمة حسب التقاليد الجرمانية التي لم يتردّد في إدخال تغييرات عليها كلّما اقتضت سلطته ذلك، وقد دامت هذه الدولة حتى سقوط جليمار من دون أن تطرأ عليها تغييرات تذكر.

لقد استقام لملك الوندال والآلان منذ سنة 442 سلطان مطلق لم ينازعه فيه أحد سوى الله . ذلك أنّه تخلّص من مراقبة النبلاء بإعدام من كان أكثر اعتدادا برأيه منهم ،كما تخلّص من مجلس الشعب بالإعراض عن دعوته للانعقاد .

كذلك غيّر تراتيب الخلافة إذ أصبح أكبر أحفاده من الذكور سنّا أحقّ بالخلافة من دون اعتبار السلالة القريبة اليه . وذلك اجتنابا لحكم الأوصياء البليغ الخطورة في دولة عسكرية . وهكذا لم يخلف هلدياريق ابن حنياريق والده مباشرة بل خلف أبناء عمه غاتموند وتراساموند . والملك هو الذي يسمّي جميع الأشراف والموظّفين الوندال أو الرومان وهو الذي يعيّن الوزير الأوّل، وهو على ما يظهر من أصل جرماني دائما ومدير الديوان الذي يحرّر القرارات ويضطلع بالمهامّ السياسية التي تقتضي ثقة الملك التامة وكبار الكهنة الاريوسيين الملحقين بالبلاط، كما يختار أُلاّف الأمير (Comes) ويسمّي أعضاء مجلس الشورى الذي يتركّب من الوُلاّة والقساوسة الاريوسيين والأعيان و"الألفيّين" les millenarii الذين ترجع بالنظر إليهم الدّوائر التي تسكنها ألف عائلة على الأقل بأرض الوندال وهو الذي يولي الحاكم الجرماني على سردانيا وترجع جزر

كرسيكا والبلجار إليه بالنظر . وبقي محجرا على المفيّوظن الرومان دخول أراضي الوندال، بل كان يوجد بقرطاج في عهد حنياريق بروقنصل أصيل سوسة يمثِّل ولا شك الرومان المقيمين داخل البلاد . وكان الملك يضعه في المقام الأعلى من مراتب الأشراف . أمّا إدارة المدينة فقد ظلّت خاضعة لمجلس بلدى (Ordo decurionum) .

ولم تكن ميزانية الدّولة منفصلة عن خزينة الملك الشخصية، وكانت تزوّدها مداخيل أملاك التاج والأداءات التي كان المغلوبون مطالبين بها وحدهم . وسوف يدفع النظام الجبائي البيزنطي السكّان إلى التحسُّر على زوال النظام الوندالى .

وقد ضرب ملوك الوندال السكّة . ولا شكّ أنّ جنسريق استعان بخبرة ضارب السكّة في عهد الامبراطورية واستعمل المعامل القرطاجية ولو لم يكن ذلك لما وجدنا سرّ التّشابه بين النقود الوندالية والنقود الرومانية، ذلك أنّ ملوك الوندال كما تصوّرهم نقودهم يحملون الزّي الروماني وابتداء من عهدغاتموند إكليل الأباطرة وحلّة القيادة(Paludamentum)ودرعهم. وكانت النقائش تسمّي الملك مولانا(Dominus noster) وملك (Rex). وغالبا ما كانت تمثِّل النقود امرأة تمسك بيدها سنابل القمح وترمز بذلك إلى قرطاج السعيدة (Felix Carthago) وهي صورة مستوحاة من نقود ديوقليسيانوس وخلفائه . إنّ الصور لا تخلو من تكلُّف ولكنّ ضرب السكّة لم يكن أسوأ ممّا أنتجته المعامل الأخرى التي كانت موجودة في القرن الخامس وأوائل القرن السادس .

كان الوندال يعسكرون في افريقية باعتبارهم جيش الاحتلال المنتصر فكان الملك قبل كلّ شيء قائدا أعلى ولكنّنا لا نعلم شيئا كثيرا عن جيش الوندال وأسطولهم، ومهما يكن من أمر فإنّ نجم الجيش الوندالي أفل بسرعة بعد وفاة جنسريق، وقد يكون سبب ذلك المناخ وخاصّة حياة الترف التي عاشها هؤلاء المنتصرون .

وكانت السياسة الخارجية من مشمولات الملك بدون منازع . وظلّت موفّقة تشعّ إشعاعا طالما مسكت بزمامها شخصية فذّة كما كان الأمر

بالنسبة لجنسريق ولكنّها ضعفت وفقدت استقلالها لمّا تولى أمرها هلديريق الضعيف الشخصية .

وكان الوندال يحتكمون إلى محاكم خاصّة حسب تقاليدهم كما كان الرومان راجعين بالنظر –على عادتهم– إلى قضاة المدن أو وُلاّة المقاطعات المكلّفين بتطبيق القانون الروماني ولكن باسم الملك . وكان يوجد في قرطاج موكّل عدلي حسب القانون الروماني في عهد إفريقية الوندال (Praepositus iudicils Romanis in regno Africae Vandolorum) ترتبط به جميع المحاكم الرومانية، وكانت القضايا المختلطة من مشمولات المحاكم الوندالية . وفي هذا المجال كانت السلطة الملكية لا حدّ لها .

ولم تكن الكنيسة الاريوسية التي كان يشرف عليها (Patriarche) بطريق قرطاج مستقلّة عن نفوذ الملك فهو الذي كان يسمّي القساوسة ويرخّص في انعقاد المجامع وهو الذي يسلّم للكهنة الوندال الكنائس والممتلكات المحجوزة . ولمّا كان مصير الكنيسة الكاثوليكية مرتبطا بالتقلّبات السياسية فقد اضطهدت بالخصوص في البلاد التي احتلّها الوندال . رغم أنّ هذا الاضطهاد اتّخذ صبغة رسمية ولم يطّرد إلاّ في عهد حنياريق، وفي الجملة فإنّ مضايقة الكنيسة لم تدم باستمرار ولم تنل جدّيا من وضعها الماديّ .

وكان الشعب الوندالي على غرار جميع الشعوب الجرمانية يتركّب من نُبَلاء لا يستمدّون ألقابهم بحكم الوراثة بل بفضل عطف الملك، ومن أحرار تضاءل نشاطهم السياسي داخل مجلس الشعب فأصبح لا يكاد يذكر بمشيئة جنسريق، وأخيرا من عبيد لا فرق بينهم وبين المتاع الذي يباع ويشترى.

ولمّا لم يكن للوندال لغة عملية اضطرّت الحكومة لاستعمال اللاّطينية في الشؤون الديبلوماسية والتشريع واللغة الشعبية في الميدان التجاري وفي العلاقات مع الرومان . وظلّت الشعائر الاريوسية وحدها تقام باللغة الوندالية . وسرعان ما اكتسحت العادات الرومانية عادات الجرمان الذين استساغوا الضيعات الفخْمة واللّباس الثمين وقصدوا الملاهي والمسارح ودروس النحاة. فنحن نعلم ممّا رواه دراكنسيوس(Dracontius) أنّ أستاذه كان

يجلب عددا كبيرا من المستمعين الوندال . وكانت نتيجة هذا التطوّر الذي طوى المراحل طيّا بعد وفاة جنسريق أن تلاءمت تلاؤما تاما حياة الوندال في عهد جليمار مع حياة الارستقراطية الرومانية .

إلاّ أنّ الاندماج لم يتجاوز هذا الحدّ . فقد حرص جنسريق وخلفاؤه على أن تبقى الحدود قائمة بين الوندال والرومان. ولاشك أنّ عددا كبيرا من الرومان شغلوا مناصب عالية ، بل إنّهم اتّخذوا لباس الوندال ولبسوا حليّهم إلاّ أنّ الحكومة لم تبطل أبدا العمل بالقانون الذي يحجّر الزواج المختلط فحالت بذلك دون اندماج المغلوبين والغالبين بعضهم مع بعض . إنّ مناعة الامبراطورية الوندالية كانت على قدر سلطة الملك وحده . فلمّا أثقلت السنون كاهل جنسريق وأدركته المنية لم يوجد من بين خلفائه من كان في مستواه (24 جانفي 477) .

II – خلفاء جنسريق

1 – حنياريق واضطهاده للكاثوليك

كان حنياريق ابن جنسريق (477 – 484) طاغية قاسياوأريوسيا متعصّبا. فقد ركن إلى النفي أو القتل للتخلّص من عدد كبير من أبناء إخوته وأنصارهم وكانوا عقبة في طريق اعتلاء ابنه عرش الملك . وتخلّص من المانويين بنفيهم في الجزر أو إحراقهم وكانت هذه النحلة قد كسبت عددا كبيرا من الأنصار على حساب الاريوسية خاصّة .

إلاّ أنّ أقسى الاضطهادات استهدف إليها الكاثوليك . وكان الشعب في أوّل الأمر تلقّى بحماس خبر ترخيص الملك تحت ضغط القسطنطينية في انتخاب أسقف جديد بقرطاج حيث لم تزل الخطّة شاغرة منذ أربع وعشرين سنة . ولكنّه لم يتفطّن إلى المكيدة خلافا لرجال الكنيسة الذين كانوا أكثر إدراكا فلم يلبثوا أن أحبطوها . ذلك أنّ الأمر الملكيّ كان يفرض على زينون تسامحا إزاء أريوسي الشرق مماثلا لما يتمتّع به الكاثوليك من تسامح وهو مطلب لا يخلو من منطق ومهارة . كما لم يسمح لهم

بفتح مصلّيات وإقامة الصلوات وممارسة حرية العبادات إلاّ إذا تمتّع الاريوسيون بنفس هذه الإمكانيات وكان يصحب هذه الامتيازات تهديد مباشر لا شبهة فيه وهو أنّه فيما إذا رفض الامبراطور تمكين الاريوسيين في الشرق من هذه الحرية فإنّ الملك مُقرّ العزم على أن ينفي في بلاد الموريين لا أسقف قرطاج الذي كان على وشك أن ينتخب فحسب بل كلّ رجال الكنيسة الموجودين في افريقية بدون أيّ استثناء .

وكان الخلاف على غاية من التأزّم حتى أنّ الامبراطور لم يبْدُ عليه أيّ استعداد لتغيير موقفه إزاء الاريوسيين . ولم يلبث أن اشتعلت نار الخصومة بين أوجين الأسقف الجديد وبين الحكم الوندالي الذي عرّض الكاثوليك إلى ألوان من القمع القاسي . وقد روى فكتور دي فيتا أخبار المحنة الطويلة والمشرفة أحيانا التي عاشها 4970 مسيحيا وقع نفيهم في بلاد الموريين وما تعرّضت له العذارى اللاّتي وقفن أعمارهن في سبيل الله من كشف عورة وتفنّن في التعذيب .

2 — مجمع سنة 484

كان تدخّل زينون لفائدة الضحايا مدعاة إلى اشتداد المحنة . ورضي الملك بأن ينعقد في غرة فيفري 484 مجمع يلتقي فيه الأساقفة الارثوذكس مع الاريوسيين للتفاهم ..وكان يرجو من وراء ذلك أن يورّط تدخّل الامبراطور الكاثوليك الذين كانوا يواصلون إقامة الصلوات في أرض الوندال بالرغم عن منعهم من ذلك ويدّعون التمسّك بسنّة الدين المسيحي القويمة (فكتور دي فيتا) .

وشعُر الأسقف أوجين بالخطر وظنّ أنّه يمكن تلافيه بالمطالبة بدعوة أساقفة بلدان ما وراء البحار نظرا لما كان يتّصف به المشكل من شمول . وقد ذهب بعضهم إلى انتقاد حنياريق لأنّه لم يستجب لهذا الطلب ولم يكن في نيّة الملك طبعا إفساح المجال لمناقشات حرّة مستفيضة بل كان همّه حلّ مشكل داخلي بعد إجراء مناقشات بين ممثّلي كنائس بلاد

الوندال وحدهم. وما كان يمكنه فتح الباب في وجه أساقفة أجانب شأن الحكومات القوية التي تأنف اليوم من مناقشة مسائل قومية في مؤتمرات عالمية تنعقد بأرضها . ورغم ذلك كان عدد الأساقفة الذين أقبلوا من أقاصي البلاد الخاضعة للوندال كبيرا . فمن بين 406 أسقف وفد من موريطانيا القيصرية 120 أسقفا، ومن موريطانيا الطنجية أربعة وأربعون، ومن مقاطعة طرابلس خمسة، وحتى سردانيا وجزر البلجار فإنّها أوفدت ثمانية ممثّلين عنها . ولم يعوز الكاثوليك الأبطال الافذاذ كأوجين أسقف قرطاج وصاحب "رسالة في الإيمان" الموجّهة للملك وكفيجلوس أسقف رأس الديماس في المزاق وكان مشهورا بحماسه في مناوأة المبتدعة . لكنّ القوم لم يحضروا مجمعا بأتمّ معنى الكلمة بل مسرحية، ذلك أنّ حنياريق بادر قبل جلسة الافتتاح بتأكيد عزمه على نفي عدد كبير من زعماء المعارضة أو جلدهم . وأدرك الكاثوليك أنّهم أصبحوا في قبضته وأنّ "سيرلا" كبير الأساقفة كان يستعدّ للحكم عليهم . وفهموا أنّ ضغط السلطة المدنية على المداولات لم يعد لفائدتهم كما كان الشأن سنة 411 حيث كان الدوناتوسيون ضحية له وهكذا دارت عليهم الدوائر . وعبثا حاولوا أثناء الجلستين كما فعل خصومهم الإكثار من استعمال وسائل التعمية والركون إلى الإجراءات الشكلية وإثارة المظاهرات الاجتماعية في قرطاج وقد نعتها حنياريق بأنّها عصيان شعبي، كما حاولوا عبثا أن يجاهروا بعقيدتهم فلم يغيّر كلّ ذلك مآل المجمع النهائي شيئا . ثم وضع حنياريق حدّا للمهزلة وأصدر منذ يوم 25 فيفري أمرا نقل لنا فيكتور دي فيتا نصّه من حسن الحظّ .

3 ـ الأمر القاضي بقمع الكاثوليك

إنّه أمر غريب جدّا إذ يكشف لنا القناع عمّا تخيّره الملك الوندالي من أساليب العمل . فالإجراءات التي قرّر اتّخاذها لم تكتس أيّة صبغة استثنائية بل إنّه لم يتجاوز استعارة ما جاء في القانون البيزنطي من إجراءات امبراطورية ضدّ المبتدعة وتطبيقها على الكاثوليك ومنها منع الحفلات الدينية، وجمعيات النّساك والاجتماعات الدينية وكذلك إحراق الكتب المقدّسة، ومنع تسلّم الكنائس أو بنائها في المدن أو خارجها ، ومصادرة الأراضي ،

وتحويل أملاك الكنيسة إلى رجال الدين الاريوسيين ونفي العصاة، ومنها منع اللائكيين من توريث أو هبة أو تقبل العطايا أو الميراث، ومنها تطبيق وتسليط الغرامات على المجرمين حسب جدول يقضي بتناسب مقدار الغرامة مع المنزلة الاجتماعية، ومنها أخيرا عزل الموظفين الكاثوليك .

ووضعت هذه المجموعة من القوانين الزجرية الكاثوليك في موقف حرج طبعا إذ كان من المتعذر عليهم رفع أصواتهم احتجاجا على إجراءات اعتبروها عادلة عندما كانت تطبق على خصومهم . فلربما اعتبرت هذه القوانين معتدلة في آخر الأمر وإنما تجاوز التطبيق أحكام النصوص . وربما ذهب الأساقفة والقساوسة الاريوسيون الذين نسب إليهم فكتور دي فيتا جرائم كثيرة إلى أكثر مما قصد إليه الملك . واستعمل القوم التعذيب دائما وقد عمد القس الآريوسي الذي كان موكلا بحراسة الأسقف "أوجين" وقد أقعده الشلل عن النهوض — إلى تجريعه الخل . وجلد اثني عشر طفلا من أطفال كنيسة قرطاج مرتين ، وضرب بالسوط الخمسمائة قائم على كنيسة قرطاج قبل نفيهم . وفي تيبازة أخيرا قطعت ألسنة الكاثوليك الذين أبوا أو لم يتمكنوا من الفرار إلى اسبانيا ولكنهم لم يفقدوا القدرة على الكلام حسب زعم فيكتور دي فيتا الذي كان يدعو المتشككين في الأمر إلى الاستماع إلى مساعد شماس من قسطنطينية ذاق طعم حديد الجلاد . وإذا عدم البعض القدرة على الكلام من جديد فسبب ذلك حسب ما ذهب إليه بروكوب هو معاشرتهم للخليعات .

إلا أن التاريخ لم يسجل أسماء الشهداء الأمجاد فقط، وما كان يمكن لأي كان أن يشارك في الحياة العامة مشاركة عادية إذا هو لم يقم الدليل على أنه أجري عليه التعميد الآريوسي . فاضطر الكاثوليك الذين راموا التجارة أو احتاجوا إلى المعاملات إلى الخضوع لهذا الشرط . وقال سماحة دي شان (Mgr. Duchesne) رغم سكوت فيكتور دي فيتا في هذا الموضوع "أقبل عدد كبير من الكاثوليك على هذه العملية ورضي عدد من الشمامسة والقساوسة والأساقفة بالتعميد الآريوسي معترفين أنهم لم يكونوا مسيحيين قبل ذلك" . والمؤرخ يستفيد في هذا الصدد مما دار في المجمع الروماني لسنة 487 الذي لم يذكره فيكتور دي فيتا .

وإذا رغب الكاثوليك عن التعميد الجديد لا يتردّد الحكم القائم في حملهم على ذلك بالقوّة ولو باستعمال الحبال والسلاسل كما حدث للأسقف هابتديوس (Habetdeus) الذي كان منْفيا صحبة أوجين أسقف قرطاج في تخوم طرابلس .

واعتبر ضحايا القمع المجاعة التي حلّت بافريقية في الصائفة الموالية "عقابا إلاهيا عادلا" وكانت آثار هذه المجاعة خطيرة جدّا في الميدان الاقتصادي فقد عدل القوم عن خدمة الأرض وتعطّلت التجارة وإنّ الأسطر التي خطّها فكتور دي فيتا تصوّر المنظر الذي كثيرا ما تجدّد منذ ذلك التاريخ فقال : « إنّك كنت ترى جماعات من الشباب والشيوخ والفتيان والفتيات والأطفال ذكورا وإناثا تسير على غير هدى وإلى غير نظام في الطرقات كأنّها جنائز . إنّ هؤلاء البؤساء كانوا يتقاوون في سيرهم حول المراكز المحصّنة والقرى والمدن ... ولمّا تشتّتوا في الحقول وغاصوا في أعماق الغابات أخذوا يتسابقون إلى يابس الأعشاب وميّت الأوراق ... وأصبحت الجبال والروابي والساحات والشوارع والطرقات العامّة جميعها مقابر غصّت بجثث ضحايا الجوع . »(نقل هـ. لوكلرك (A. Leclercq) .

وقد يكون الطاعون هو الذي أودى بحياة حنياريق يوم 12 ديسمبر 484 بينما كانت موْجة الاضطهادات على أشدّها .

4 — غاتموند

لم يُفد الملك ما لجأ إليه من اغتيالات عائلية، ذلك أنّ ابنه هلدياريق لم يخلفه مباشرة بل خلفه قريباه غاتموند (484 — 496) ثم تراسموند (496 — 523) وعرف الكاثوليك في عهد غاتموند اليسر بعد العسر فتمكّن أوجين من دخول قرطاج سنة 487 والتحق القساوسة الآخرون بمراكزهم سنة 494 . وفتحت الكنائس أبوابها من جديد ومارس الكاثوليك دينهم بكلّ حريّة . وربّما لم يكن طبع الملك هو السبب في هذه الإجراءات بل هي أسباب سياسية شبيهة بتلك التي أوحت لمن سبقه بما أوحت .

ففي تلك الظروف وعلى إثر مناقشات حادّة حول ذات المسيح حرم البابا فيليكس الثالث أسقفي قسطنطينية وأنطاكية وعزلهما وهما ضحايا

الاعتـــراف المعروف بـ Henotique الذي اعتبره الامبراطور زينون قانونا . (484) فأحدث هذا الإجراء قطيعة بين الشرق والغرب دامت خمسا وثلاثين سنة . الأمر الذي جعل غاتموند يطمئن منذ توليه العرش فيعتقد أنّه لم يعد في إمكان رعاياه الكاثوليك التآمر عليه بالتحالف مع الامبراطور وأصبح بذلك في إمكانه أن يتسامح من دون أن يخشى خطرا .

وكان على الكنيسة مرة أخرى أن تبتّ في أمر المرتدّين . فتوخّت الصرامة في ذلك ولم تقبل توبة الأساقفة والشمامسة والقساوسة إلاّ على فراش الموت وفرضت على الرّهبان واللاّئكيّين التكفير عن سيّئاتهم طيلة عشر سنين وأقصت الأطفال عن جميع الوظائف الدينية .

5 — تراسموند

كان تراسموند بشهادة خصومه أنفسهم ملكا لم يتّصف بالجمال الرّائع فحسب، بل كان كذلك يحمل ثقافة نادرة ويتحلّى بنبل أخلاق لا مثيل له . وكان هو أيضا أريوسيا شديد التّمسّك بدينه، وقد روى بروكوب أنّه استمال الكاثوليك بتكريمهم والإحسان إليهم ومنحهم الألقاب الشرفية فإذا ارتكب أحدهم جريمة عن قصد أو غير قصد عرض عليه العفو مقابل ارتداده .

ورغم ذلك استبقى هذا الملك المتحرّر القانون القاضي بمنع تعويض الأساقفة المتوفين ولم يُقم الكاثوليك وزنا لأوامره فاضطرّ إلى عزل 120 أسقفا من بين أربعمائة من دون أن يقسو في معاملتهم، وكان فيهم أوجين أسقف قرطاج المتوفّى في بلاد غوليا بألبي سنة 505 وفولجانس أسقف روسباي (Ruspae) في المزاق وقد نفي في جزيرة سردانيا صحبة ما يزيد عن ستين أسقفا .

إلاّ أنّ تراسموند كان طُلَعة . وكثيرا ما كان يردّد أن لا شيء أحبّ إليه من الاقتناع بخطيئته إذا هو أخطأ بل ذهب به الأمر إلى أن استجلب إلى بلاطه قصد المناقشة ، فولجانس المشهور بجدله وفقهه إلى حدّ جعل الكاثوليك الأفارقة يعتبرونه رأسا لهم . واستغلّ أسقف روسباي (Ruspae)

إقامته في قرطاج أوّلا وبالذات لبعث الحماس في قلوب المؤمنين بالوعظ والإرشاد غير أنّ خطّته ورسائله لم يكن لها لدى الملك التأثير المؤمّل . ولكنّ أثر دعايته في البلاط بلغ حسب من ترجم له حدّا اضطرّت معه الكنيسة الوندالية إلى التأثير على الملك وحمله على إرجاعه إلى سردانيا وربّما آخذوه بما كان له من تأثير بعيد على كنيسة قرطاج، الأمر الذي تثبته المظاهرات الحماسية التي صحبت رجوعه النهائي في أوائل عهد هلدياريق .

وكان فولجانس قد شكر تراسموند على ما بذله من جهود لصقل الذوق الأدبي لدى رعاياه . والذي نعلمه هو أنّ الوندال لم يكن لهم أدب ولكنّ شغف الأمير بشؤون الفكر بعث في أوساط الرومان نشاطا شعريا لا تزال المختارات اللاّتينية تحتفظ لنا بآثاره في مقطوعات تتناول الأحداث اليومية ،ومدح لملوك الوندال أومستشاريهم،وتشطير لأبيات من شعر فرجيليوس وترصيف لأبيات من الشعر تغلب عليها الصناعة وغيرها من "التفاهات" المطبوعة بالإشراك أحيانا والغزل أحيانا أخرى ممّا كان يبرع فيه لوكسوريوس .

أمّا دركانسيوس (Drocontius) الذي ألّف في أوّل الأمر ملاحم أسطورية قصيرة من نوع المختارات فقد كان يفوق شعراء البلاط أو المدارس الذين سبقت الإشارة إليهم. ولمّا سجنه غاتموند بسبب مدحه الامبراطور البيزنطي أدّى به حظّه العاثر إلى أن تطوّرت شاعريته . لقد التمس عطف الملك واصفا ما قاساه من آلام بلهجة مؤثّرة وواعدا بتمجيد الملك ولكنّه رغم إغراقه في التملّق وانحداره إلى أسفل دركات التذلّل لم يفز بحريته . فلمّا يئس من رحمة العباد رجع إلى ربّه يحمده في ثلاثة كتب تحتوي على أكثر من ألفي بيت بلغ فيها من روعة الإلهام مبلغا عظيما . واحتفظت هذه المدائح الإلهية التي لا تخلو من مواطن الجمال بشهرتها في القرون الوسطى واستوحى منها ملتون أشعاره في الجنّة . ولم يكن تراسموند ميّالا للأدب فحسب بل كان يحبّ المباني الجميلة فأذن فيما أذن به في هذا الصدد بتجميل قرطاج .

وإذا آثر حسب ما رواه فولجانس امتلاك الأرواح على توسيع ملكه فإنّه لم يغفل قط عن حماية استقلال بلاده . وظلّ محافظا على علاقاته

الطيّبة مع أنستاز الامبراطور الشيخ (491 — 518)[1] الذي لم يهتمّ كثيرا بشؤون افريقية لانصرافه إلى صيانة امبراطوريته من الاضطرابات الدينية وتعزيز وسائل الدفاع عنها، ولكنّ الحالة تغيّرت عندما خلفه يوسطينوس (518 — 527) إذ سرعان ما تصالح هذا الامبراطور الجديد التقي العتيد مع البابا، وطالب بحقّ الإشراف على أسقفية افريقية الأمر الذي أثار مخاوف الملك من جديد إزاء الكاثوليك بينما كان من شأن الانشقاق الديني أن يلطّف من حدّتها .

وصرف تراسموند وجهه إلى تيودوريك ملك الأستروقوط (Ostrogoths) وسيّد ايطاليا منذ سنة 493 احتياطا من مناورات الامبراطور الممكنة وكان غاتموند حاول عبثا استغلال ما حدث بين أودواكر وتيودوريك من مناوشة لاسترجاع صقلّية سنة 491 . أمّا خلفه فقد فضّل التحالف مع ملك القوط بالتزوّج من أخته التي كان مهرها المناطق الكائنة حول ليلبي بصقليّة . ثم نزل بقرطاج على رأس حرس يتركّب من ألف من نبلاء القوط ومعه خمسة آلاف من العبيد .

6 — الخطر البربري

إنّ الذي كان يحمل الملك على اجتناب كلّ نزاع خارجي هو بالخصوص ما كان يواجهه في مملكته من مصاعب ناتجة عن ثورات البربر فمنذ أن مات جنسريق أخذت تخفّ وطأة الغلظة الوندالية على القبائل وقد أحدث الفتح الوندالي انخراما في الاقتصاد النوميدي كما أكّد ذلك أ. ف. قوتي تأكيدا الأمر الذي نتج عنه اضطراب في النّظام الاجتماعي واستغلّ العَمَلَة الفلاحيون القلاقل التي حدثت في القرن الخامس لشقّ عصا الطاعة وإعلان التمرّد بعد أن قاسوا ما قاسوا من استغلال الملاّكين الفاحش وتعسّف رجال السلطة الذين كانوا يُعملون السيف في الدوناتيسيين الخوارج والمتمرّدين على السواء وانقلبوا على أسيادهم يدمّرون مدنهم وينتزعون أراضيهم ويَحْتَجِزُون آلات الإنتاج . ونزل سكّان جبال أوراس إلى السهول يستبيحون المدن الزاهرة. فأصبحت تبسّة (Theveste) وتيمقاد (Thamugadi) وقصر باغاي ولمباز بعد أن خلت من سكّانها وانكسرت شوكتها أثرا بعد عين ولم يقف سيل التخريب والتدمير إلاّ على حدود قسنطينة .

فما كانت إذن النتائج السياسية لهذه الحركات التمردية ؟ حدث - إثر ظروف مجهولة يتوقّع قوتييه أنّها كانت فترة فوضى آلت إلى دكتاتورية - أن انتظمت صفوف المعدمين البرابرة بنوميديا في قبائل مستقرّة أذعنت لأمراء أقوياء أصبحوا في القرن الموالي خصوما أشدّاء في وجه قواد بيزنطة وتجاوزت الثورة حدود نوميديا فقد ذكر بروكوب أنّ الموريين استولوا على موريطانيا حيث نهبوا وقتلوا الكاثوليك والوندال من دون ميز . وعثر على نقش قرب موزاي فيل (Mouzaïaville) (الموجودة على بعد 63 كلم في الجنوب الغربي من عاصمة الجزائر ينوّه بأسقف تحمّل بفضل إيمانه ألوان العذاب ولقي حتفه سنة 495 "في حرب الموريين" . ولم يشارك من موريطانيا القيصرية إلاّ أسقف واحد هو أسقف مينا بالقرب من ريليزان إذ تعذّر حضور الباقين "لضرورة الحرب" .

وتعدّدت في موريطانيا الدويلات المستقلّة الفسيحة أحيانا وكان يعيش فيها جنبا إلى جنب الرومان والبربر تحت سلطة نفس الأمراء . وعلى هذا النحو نتصوّر مملكة مازونة (Masuna) وهو معاصر تراسموند الملقّب بـ"ملك القبائل المورية والرومان" كما يشهد بذلك نقش التفا (Altava) المؤرّخ سنة 508 وكان يحكم إلى جانب التفا مدينتين أخريين (Safar و Castra Severiana) ونحن نعلم أنّه عهد بإدارة "سافار" إلى وال بربري يدعى مسجيفنيس (Masgivinis) ولم يتأخّر قائد بربري من الأوراس عن تلقيب نفسه بالامبراطور حوالي سنة 477 — 476 كما يشهد بذلك نقش آريس (Arris) الذي درسه كاركوبينو ويبدو أنّه احتفظ بهذا الاسم طيلة أربعين سنة من دون أن ينازعه أحد فيما أضفى على نفسه من زائف الألقاب .

7 — زحف الرحّل الجمالة

يظهر أنّ الحكومة الوندالية لم تكن صارمة إزاء تعدّد الإمارات المستقلّة . ولم يمض قرن على استيطان الوندال المنتصرين في افريقية حتى نال الحكم من طاقتهم الجريئة، ومن جهة أخرى أخذ يتوافد من الشرق خصوم جدد أشدّ بأسا وأبعد خطرا هم الجمّالة الرحّل المنحدرون

من طرابلس يقودهم أمير داهية يُدعى كاباوون (Gabaon) فاصطدم تراسموند بخطّتهم الحربية الجديدة أي خطة القبائل الجمّالة المعهودة التي وصفها أ. ف. قوتييه وصفا يزخر حياة وقوة والمتمثّلة في الفرّ بعد الكرّ والالتجاء إلى الصحراء لاستجماع القوى أو للإفلات من تنكيل الأعداء وهذا هوالوصف الغريب الذي وصف به بروكوب الاستعدادات التي قام بها كاباوون قبل المعركة : "خطّ في السهل الذي كان ينوي الانسحاب إليه دائرة تسلّل وضع عليها جمالة حسب شكل مُنْحَنٍ فيكون بذلك شبه حافز حيّ متركّب من جهة العدوّ من اثني عشر جملا اصطفّ الواحد وراء الآخر. أمّامركز الدائرة فقد احتلّه الأطفال والنّساء والشيوخ وأودعت فيه خزينة القبيلة وانتصب الرجال القادرون على حمل السلاح تحت بطون الجمال وقد لبسوا دروعهم (boucliers) ».

ولم يتمكّن الفرسان الوندال الذين تعوّدوا القتال بالرماح والسيوف من دفع خيولهم المروّعة برائحة الإبل حتى الأعداء . ولمّا لم يحذقوا رمي السهام أو الرماح فقد استهدفوا إلى قذف البرابرة الذين كادوا أن يبيدوا أو يؤسّروا الجيش بأسره .

8 — هلدياريق

مات تراسموند من دون أن يتمكّن من الأخذ بثأره (سنة 523) وكان خلفه شيخا متخنّثا يُدعى هلدياريق وهو ابن حنياريق وأودوسيا . وقد سلك في السياسة مسالك جديدة رغم نصائح حاشيته فسمح برجوع القساوسة المنفيّين واستعادة قرطاج لمكانتها الدينية القديمة وانتخاب أساقفة جُدُد وفتح الكنائس وحرية المداولات في المجامع، وكلّ ذلك بالرغم ممّا كان قدّمه له تراسموند من نصائح (5 فيفري 524) والذي جعل الوندال يستغربون هذا التسامح هو ما كان اتّخذه الامبراطور يوسطينوس من قرار يقضي بتحجير النحلة الآريوسية في كامل تراب الامبراطورية وما قدّمه تيودوريك وهو أمير آريوسي آخر من صارم الاحتجاجات ضد هذا الإجراء .

لكنّ هلدياريق لم يقض أربعين سنة في بلاط القسطنطينية عفوا فلقد تكوّنت بينه وبين وليّ العهد يوسطينيانوس أي الامبراطور الحقيقي في الواقع علاقات ودّيّة متينة . فكان يظهر في مظهر ربيط الحكم البيزنطي فلم يكتف بعدم مساندة مواقف تيودوريك بل تحدّاه بسجن أخته أمالافريد زعيمة المعارضة ثم تنفيذ حكم الإعدام فيها . وحال موت ملك القوط دون شنّ هجوم على الوندال كان يمكن أن يكون قاضيا (524) ذلك أنّ الوصية أمالسونت (Amalasonthe) ابنة تيودوريك وأمّ خلفه آتالاريك (Athalaric) الذي كان في الثامنة من عمره كانت على قدر من الضعف إزاء القسطنطينية بحيث لم يكن في الإمكان أن تتجاسر على مهاجمة صديق الامبراطور . فلم تأذن بإقلاع الاسطول واقتصرت على توجيه لومها إلى هلدياريق الذي لم يُقم وزنا لذلك .

ولم ينته الخطر البربري بهذه الصورة المَرضية: فبعد أن بسط الموريون نفوذهم على موريطانيا الطنجية والقيصرية باستثناء عاصمتها وموريطانيا السطيفية ونوميديا الجنوبية هاجموا جنوب المزاق تحت إمرة أنتالاى الذى كان قائد القبائل المستقرّة في الأراضي الكائنة بين جهة الشطوط وأحواز قفصة (Capsa) وأسفرت المعركة عن انهزام الوندال الذين كان يقودهم ابن أخ الملك بنفسه فغذّت هذه الهزيمة المعارضة ضدّ الملك المتّهم بالاستعداد لتسليم افريقية للامبراطور .

9 ــ جليمــــار

عزل الجيش هلدياريق في ماي 535 وسجنه مع ابنتي أخيه . واستولى على الحكم بمساندة الرأي العام جليمار حفيد جنسريق ووليّ العهد . ولم يتأخّر يوسطينيانوس ـ الذي كان خلف منذ ثلاث سنين عمّه يوسطينوس وكان يحلم بإرجاع الامبراطورية الرومانية إلى سالف عزّها ـ عن اغتنام الفرصة والتدخّل لفائدة صديقه . واستعمل لغة المجاملة واللطف معتمدا على قواعد الخلافة التي حدّدها جنسريق وزاغ عنها جليمار لأول مرة فدعاه إلى إبقاء الشيخ هلدياريق على عرش الملك مع مسك زمام الحكم في الواقع . فامتنع جليمار من الاستجابة إلى مساعي السفراء ثم ردّ الفعل إزاء طلبات

الامبراطور في خصوص إطلاق سراح الأسرى الذين سلّطت عليهم ألوان جديدة من العسف فأعلن أنّه يفضّل وضع حدّ للسلم المستمرّة على تحمّل الوصاية البيزنطية . فأبرم يوسطينيانوس معاهدة مع الفرس سنة 532 وقرّر أن يشعل الحرب في افريقية نفسها .

الباب العاشر

غزو البيزنطيين لافريقية من جديد والنظام البيزنطي



1 ـ يوسطينيانوس ـ الفتح وتنظيم افريقية

1 ـ تشاؤم الخبراء

اصطدمت مشاريع يوسطينيانوس بمعارضة شديدة. فقد كانت الجيوش التي لم تزل تعاني أتعاب حرب الفرس تخشى أخطار البحر وترتعد فرائصها ممّا آلت إليه معركة 468 البحرية. وكان الوزراء الذين لم يخف عليهم احتراز الفنّيّين وما كانت تعانيه الخزينة من ضائقة، يذكّرون الامبراطور عن طريق القائد الأعلى للجيوش يوحنا دي كابدوس بما كان يتمتّع به الوندال من سيطرة على البحار وما توفّر لديهم من جيوش لم تذق طعم الهزيمة قطّ.

وكان تجّار قرطاج الشرقيون من جهة أخرى يستنجدون بيوسطينيانوس كما كان رجال الكنيسة يحضّونه على تخليص كاثوليك افريقية من النير الآريوسي تؤيّدهم في ذلك مساعي الأفارقة المهاجرين إلى القسطنطينية. وبينما كان الامبراطور متردّدا إذا بقسّيس من الشرق يتقدّم لديه على نحو ماروى بروكوب ويبلغه أوامر الله المباشرة الضامنة للنجاح فيتغلّب بذلك على ما تبقّى من احترازات الامبراطور.

وقرّر يوسطينيانوس شنّ الحرب من دون أن يقيم وزنا لنصائح خبرائه على نحو مافعله الملك المسيحيّ الورِع شارل العاشر بعد ثلاثة عشر قرنا.

وكان كلّ شيء ينبىء بالخيبة وإن حالفه النصر فيما بعد رغم كلّ الاعتبارات المنطقية وقد كان ذلك بفضل ظروف ما كان ليتوقّعها ولم يكن لمواهبه فيها أيّ فضل .

إنّ أحدا ما كان ليتوقّع أفول نجم الوندال، فقد كان جليمار يتمتّع بشهرة عسكرية مرموقة وكان القوم يجهلون أنّه كان أضعف من أن يقوى على مواجهة الأخطار المفاجئة لحدّة مزاجه وسرعة تأثّره وحرج صدره وأنّه لم يكن لديه سوى ثلاثين ألف رجل تقريبا تنقصهم الدّربة وتعوزهم العُدّة . وقد زاد في الطين بلّة فأوفد من بينهم خمسة آلاف إلى سردانيا على متن مائة وعشرين من خيرة مراكبه لقمع ثورة حاكم هذه الجزيرة قوادس القوطي، بينما كان في نفس الوقت يتهاون في مجابهة تمرّد آخر أخطر وأعنف قام به البربر في طرابلس استعدادا لمساعدة الجيوش البيزنطية .

وما كان جيلمار ليعتمد على ولاء المسيحيّين وأنصار هلدياريق ولا على نجدة الموريين، وأما قوط ايطاليا فلم يبق لهم إلاّ الانحياز إلى يوسطينيانوس بعد اغتيال "امالافريد" (Amalafride)

2 ـ جيش الاحتلال :

أسند الامبراطور قيادة الجيش لبليزار (Belisaire) الذي ظلّ رغم ما ألحق به الفرس من هزائم يتمتّع بسمعة عسكرية طيّبة . ويروى عنه أنّه كان شعبيا عند جنوده وكان يعرف كيف يُرْخي لهم العنان ويحسن إليهم في الوقت المناسب وقد تجلّت قيمته الحقيقية في قدرته على فرض النظام في صفوف الجيش بافريقية وحماية السكّان من النهب . إنّه لم يظهر أيّة ميزة نادرة بل ترك للأحداث عليه سلطانا . ولم يتمالك بروكوب ـ وكان صديقا له معجبا به ـ عن الاعتراف بأنّ جيش الرومان لم يسلم إلاّ بسبب عجز جليمار وقد حشّد بليزار من الجند أقصى ما كان يقدر الأسطول البيزنطي على حمله أي عشرة آلاف من المشّاة وخمسة آلاف من الفرسان بعضهم من جند المقاطعات والبعض الآخر من حرسه الخاص و 600 من قوم الهان (Huns) و 400 من فئة الهيرول (Herules) وكان مجموع

الجيش ستّـة عشر ألف رجل وكان ضعيفا جدّا في الظاهر بالنظر إلى صعوبة افتكاك افريقية من أيدي أشدّ الأمم المتوحّشة بأسا . وأقلع الأسطول من القسطنطينية يوم 22 جوان سنة 533 بعد أن باركه كبير البطارقة وأجزل وكان هذا الأسطول متركّبا من خمسمائة سفينة نقل و 92 طرّادة .

ويبدو أنّ بليزار لم يشاطر الامبراطور حَمَاسه الدّينيّ بل إنّه توقّع حربا طويلة المدَى عظيمة الأخطار، إنّه كان يعلم أنّ جنوده كانوا يَخْشَوْن هجوم اسطول الوندال وكانوا يجهلون وجوده في سردانيا . فكان يتقدّم بحَذَرٍ شديد وعلى مراحل متعدّدة .

وكان جَبَانا ضعيفا إزاء زوجته التي استصحبها في هذه الحملة فكان لا يخالف لها أمرا . كما استصحب رئيس أركان حربه سليمان الخصي الذي سيقوم بالدور الرئيسي سواء في محاربته للبربر أو في تنظيم افريقية . ورافقه كذلك كاتبه ومؤرّخه بروكوب الذي يرجع له الفضل في وصف المعركة وصفا نزيها .

3 ـ نزول البيزنطيين وزحفهم نحو قراس

ولم يشرف الأسطول على السواحل الافريقية إلاّ في أوائل سبتمبر وكان بليزار حَذُورا دائما فأبى السماح لقواده بدخول قرطاج عَنْوَةً وأذن جيوشه بالنزول في رأس كبودية (Ras Kaboudia) على بعد حوالي مائة كيلومتر من جنوب سوسة التي توجّه إليها يتقدّم جيوشه فيلق من الخيّالة ويماشيه من اليسار جند قوم الهان (Huns) ويواكبه من اليمين الأسطول، وظلّ يسلك الطريق الساحلية يقطع كلّ يوم مرحلة صغيرة خشية الكمائن .

ولمّا وصل بليزار إلى سلقطة (Sullectum) أذاع منشورا يهاجم فيه الغاصب جليمار ولكنّ هذا المنشور لم يوزّع إلاّ في طيّ الخفاء وبصعوبة بالغة بحيث لم يكد يكون له مفعول يذكر . ودخل الجيش سوسة بعد أن اجتاز بدون صعوبة راس ديماس ولمطة ومنها وصل إلى سيدي خليفة .

وقد تمكّن بليزار إلى هذا الحدّ من السيطرة على رجاله فبادر ـ منذ أن شرعوا في السطو على الأشجار المثمرة غداة نزولهم ـ بتحذيرهم من خطر

تمرّد الأهالي : وسرعان ما تآلف معهم السكّان وزوّدوهم بالمؤونة، وفي سيدي خليفة أطلق الجند العنان لشهواتهم فأصابوا من ثمار الحدائق الملكية ما أرادوا، وبعد ملاذّ ومتع قراس "شعر بليزار" منذ المناوشات الأولى أنّ النزهة العسكرية قد تمّت، ذلك أنّ جليمار الذي فوجيء – وهو يتفسّح داخل البلاد – بنزول الأعادي تهيّأ لردّ الفعل فأمر أخاه "امتابس" بتقتيل "هلدياريق" وأنصاره بقرطاج وبالإسراع في تجييش الجيوش .

وكانت خطّة الوندال مُحْكَمَةً كادت أن تنجح فكان على امتاس أن يخرج من قرطاج في الوقت المناسب لوضع حدّ لزحف الرومان داخل مضيق سيدي فتح الله (Sidi Fathallah) الكائن على بعد حوالي خمسة عشر كيلومتر في الجنوب الغربي من العاصمة بينما ينقضّ "جيباموند" (Gibamund) ابن عم الملك على ميسرة الرومان بألفي رجل وجليمار على مؤخرتهم بمُعْظَم جيشه غير أنّ امتاس ارتكب هفوة أفسد معها الخطّة وجرّته إلى الخيبة .

4 – انتصار البيزنطيين بسيدي فتح الله

واصل بليزار السير ببطء من "قراس" ثم عسكر على أغلب الظنّ في اليوم الرابع بضربة السيف الكائنة بالقرب من حمام الأنف وأرسل يوحنّا الارميني (Jean d'Arménie) في كوكبة من الفرسان يستجلي الأمر ، وفي الوقت نفسه انطلق امتاس مستطلعا مصحوبا بعدد قليل من الفرسان واتّجه إلى سيدي فتح الله ووصلها قبل ظهور جحافل الوندال الأخرى بأربع ساعات . وعوض أن يتقهقر لينذر بقية جيشه الذي كان يتقدّم في فوضى ومن دون مبالاة، انقضّ على مقدّمة يوحنّا فلقي حتفه بعد قتال عنيف، وبوغت جيش الوندال بفرسان امتاس ينقضّون كالسّهام عليهم وقد تعقّبهم فُرسان يوحنّا فتشتّتوا تحت تأثير الصدمة ، وأفنى الرومان منهم خلقا كبيرا وسقطت ضحاياهم حتى أسوار قرطاج .

وفي نفس الوقت كان الهان يقاتلون بقيادة بليزار جيباموند قرب سبخة السيجومي ورغم قلّة عددهم إذ كانوا 600 أمام 2 000 فإنّهم تمكّنوا من محق فيالق الوندال محقا تاما .

وكان بليزار لا يعلم شيئا عن هاتين المعركتين فأخذ يزحف بفرسان حرسه الخاص وأحلافه تاركا في المعسكر المشاة، وكان أول من وصل إلى سيدي فتح الله الحلفاء فكانت دهشتهم كبيرة عندما شاهدوا الجثث وعلموا من السكان قصة المعركة . واحتاروا في أمرهم ولاذوا بربوة مجاورة، وتصاعد غبار فإذا هو جليمار قادم وقد حجبت عنه وعورة الأرض توغل بليزار وهزيمة "جيباموند" وقبل أن يصل بليزار الذي خف لنجدة أصحابه هاجم الوندال الأحلاف وشتتوهم وفي هزيمتهم جروا معهم ثمانمائة من الحراس وجدوهم في طريقهم .

وضاقت الحال بالرومان واشتد بهم الخطر حتى أن بروكوب كتب قائلا : "لم أفهم كيف أن جليمار أضاع من يديه نصرا لا ريب فيه وقدمه هدية للعدو" ذلك أن ملك الوندال عوض أن يطارد الجيش الروماني أو يفاجيء حشود يوحنا وقف طويلا يبكي امتاس فترك لبليزار متسعا من الوقت يجمع فيه ثلوله ويبادر بالهجوم هو بدوره على سيدي فتح الله، ولما فوجيء الوندال بهجومه الخاطف استماتوا في القتال إلى المساء حتى أجهز عليهم وجيوش يوحنا .

(تريكاماروم (Tricamarum) : وفي اليوم الموالي دخل بليزار قرطاج بين هتافات الجماهير وهو الذي لم يستعد للأمر ولم يعلم شيئا من قبل، بل لم يتمكن حتى من جلب مشاته إلى ساحة القتال ، فجلس على العرش وحضر المأدبة التي أعدت احتفاء بانتصار جليمار .

أما جيش الوندال فقد وصل في هزيمته إلى سهل حمام الدراجي الواقع بتخوم البروقنصلية ونوميديا . وأمر جليمار أخاه طازون (Tzzaon) بالرحيل عن سردانيا حيث كان أعدم قوداس (Godas) واقترب من قرطاج محاولا إخضاعها بقطع الماء عنها ومنع القوافل من دخولها .

وفي الخامس عشر من ديسمبر قرر بليزار الهجوم عليه فهزمه من جديد في تريكاماروم(Tricamarum) وكانت المعركة بين الفرسان أبلى فيها يوحنا وأتباعه بلاء حسنا. وهنا أيضا لم يتمكن بليزار من تنظيم جيشه للهجوم ولم يصل إلى ساحة القتال إلا ساعة النهب ولو كر الوندال

عندما كان الرومان يقتسمون الغنائم لكانت الكارثةولكنّ شيئا من ذلك لم يحدُث وأثَّرت الهزيمة في جليمار كما أثّر فيه موت أخيه فنرّ فَجْأة من غير أن يعلم جيشُه والتجأ إلى جبل بابوا (Pappua) وهو مكان لم نعرف موقعه حيث وجد أصدقاءه من البربر ولكنّ فاراس (Pharas) ضيّق عليه الخناق حتى استسلم ملك الوندال بعد ثلاثة أشهر قاسى فيها ما قاسى من الجوع والبرد وعدّت هزيمته انتصارا لبليزار وعاش في أملاك غلاتيا (Galatie) التي أقطعها له يوسطينيانوس وقد رفض لقب "شيخ" كارها أن يتنكّر لعقيدته الآريوسية وهكذا انتهت حرب الوندال باستسلام جليمار ولم يبق للرومان إلاّ أن ينظِّموا افريقية ويُرْغِموا البربر على طاعتهم ولكنَّهم سيَاْتَقَوْن عَنَتا أشدّ .

5 ـ إعادة تنظيم إفريقية

لم يمض وقت طويل على إقلاع الأسطول حتى أعدّ يوسطينيانوس مشروعا لإعادة تنظيم افريقية وقد ظنّ عندما بلغه خبر أسْرِ جليمار أنّه من اليسير تطبيق النِّظام الذي كان معمولا به قبل مجيء جنسريق فَحَرَصَ شديدَ الحِرص على مَحْقِ كلّ أثر احتلال للوندال وأقصى كلّ وندالي عن الشُّؤون العامَّة حتى وإن اعتنق الدين المسيحي،أمّا جنود جليمار فقد صاروا رقيقا وزوجاتهم جواري للمنتصرين .

واضمحلّ عمليا السكّان الوندال وامّحت الملكية الوندالية كذلك ورجعت الكنائس الآريوسية إلى الكاثوليك والأراضي إلى أحفاد ملاّكيها القُدامى ولم تخلُ هذه العمليات من العنف والسطو كما هو الشأن في عمليات إقرار الأمن .

6 ـ التقسيم الإداري :

أعلن الامبراطور في افريل 534 عن برنامج إعادة تنظيم البلاد، ولمّا تعذّر طبعا أن تبقى افريقية كما كانت في القرن الرابع تابعة لمقاطعة ايطاليا التي هيمن عليها الاستروقوط (Ostrogoths) فإنّها أصبحت لها شخصيتها الإدارية وأقام يوسطينيانوس الدّليل على مكانة افريقية عنده فجعل

على رأسها عوض بروقنصل قائد امبراطور (un préfet du prétoire) وهو شخص واسع السلطة يَسْهَرُ على تطبيق القوانين ويقضي بين النّاس بدون تعقيب ويجمع الضرائب ويوزّع المصاريف ويتصرّف في الأملاك الامبراطورية ويفصل الخلافات الدينية .

وكان القائد محفوفا بعدد عديد من الأعوان يرجعون بالنظر إليه وحده : فكان له مستشارون ومختصون في شؤون القضاء ولربّما تألّف منهم أعضاء لديوانه وكان له أيضا عشرة مكاتب تعدّ 118 موظّفا وتسع تشكيلات للقيام بالخدمات من الإضافيّين للأعمال الإدارية وخاصّة ما يتّصل بالمالية .

وكان تحت سلطته كذلك وُلاَةُ المقاطعات السبع وثلاثة قناصل مسؤولون عن جهة زغوان شمالي تونس (Zeugitane) والمزاق (جنوب البلاد التونسية) وطرابلس وكان يخضع له الحُكّام (les praesides) الأربعة في نوميديا (شرقي مقاطعة قسنطينة) وموريطانيا السطيفية وموريطانيا القيصرية (وسط البلاد الجزائرية) وسردانيا .

وهكذا كانت بافريقية تتمثّل في القرن الخامس ثلاث قنصليات وثلاث مقاطعات .

أمّا موريطانيا الطنجية (شمالي المغرب الأقصى) التي لم يكن في الإمكان أن تبقى تابعة لكنيسة اسبانيا المحتلّة حينذاك من طرف الفيزيقوط (Wisigoths) فقد ألحقت ولا شك بموريطانيا القيصرية .

ولقد أوصى الوُلاَة بالحدّ من جَشَعِهِم وكانوا في افريقية وفي غيرها من البلدان ينهبون أرزاق الأهالي من غير حياء، وكان الامبراطور يستأثر بجلب الأموال ولا يقبل في ذلك منافسا غير أنّ مراقبته الشكلية لم تمكّنه من حماية أهالي المقاطعات الذين أثقلت كاهلهم الضرائب واستغلّهم الوُلاةُ فكانُوا يستنزفون ثرواتهم حتى الإرهاق ولذا نفهم لماذا اعتبر بروكوب أنّ تعسّف الإدارة البيزنطية كان سببا من الأسباب التي أدّت إلى انهيار افريقية وانصرفت عناية يوسطينيانوس إلى الجيش الذي كان يقوم بعمل مزدوج

لاسترجاع ممتلكات رومة القديمة كاملة، وصيانتها من هجمات البربر فأصدر بنفسه التعليمات الكفيلة بتحسين العمل الذي بدأه بليزار .

7 — التنظيم العسكري :

استقلّت افريقية عسكريا وعهد بالقيادة إلى حاكم عسكري (magister militum) وهو شخصية لها وزنها وفي أكثر الأحيان يكون شيخا من الشيوخ يقيم بقرطاج مع أركان حربه (Domesticus) وحاشيته العسكرية الكثيرة العدد، ويساعده في عمله (magister peditum) قائد المُشاة وقائد الفُرسان بلا شك . وإذا كان الحاكم العسكري قائدا امبراطوريا في الآن نفسه كما كان الشأن بالنسبة لسليمان (Solomon) بين السنوات 534 و 536 وبين 519 و 543 فإنّه يتصرّف في الأمور تصرّفا لا يخضع إلاّ إلى مراقبة الأمبراطور الصورية .

وقد وضعت الدّائرات العسكرية الأربع تحت سلطة أدواق يقيمون في لمطة بالنسبة لطرابلس، وفي قفصة أوتلابت بالنسبة للمزاق، وفي سيرتة بالنسبة لنوميديا، وفي قيصارية بالنسبة لموريطانيا. وكان يرجع إليهم بالنّظر الجيش المتنقّل المتكوّن من حرس بليزار وفيالق المُشاة وخاصّة الفُرسان وأحلاف الأقوام المتوحّشة والجنود البرابرة والمرابطة في مراكز داخل البلاد منها ينطلق لنجدة الأماكن المهدّدة وكذلك يرجع لهم بالنظر الجيش المستقرّ المتكوّن من الجنود المنتصبين بتخوم البلاد وخصوصا من وحدات الجنود المعمّرين والمعدّين لحماية الحدود .

8 — الليمس والتحصينات :

كان الحاكم العسكري يعتمد على التحصينات أكثر من اعتماده على الجند، ولمّا هدّم الوندال أو أهملوا البناءات الرومانية وجب ترميمها وتشييد مبانٍ جديدة، وكان هذا العمل من نصيب سليمان الذي وطدّه وعمّم السياسة الدّفاعية التي كان يطبّقها يوسيطينيانوس في كامل الامبراطورية ويظهر

أنّ الليمس البيزنطي لم يخالف تمام المخالفة الليمس الروماني في طرابلس والمزاق ونوميديا .

ومن المفروغ منه اليوم اعتمادا على وثيقة (Ostrakon) اكتشفت بنقرين (Négrine) أنّ الليمس كان يمرّ بجنوب الاوراس لا بشماله كما كان يذهب بعضهم إلى ذلك . لكنّه كان يميل شيئا ما إلى الغرب . ثم إنّ الحدود تتّجه ابتداء من تودة (Thouda) إلى الشمال الغربي نحو شطّ الهدنة ومنه إلى الشمال . ووجود قلعتي (Zabi Justiniana) قرب المسيلة و (Thamallula) راس الواد يدعو إلى التفكير في أنّ الحدود كانت تحاذي تقريبا وادي نهر القصب . ومن المرجّح أنّها تصل إلى بجاية من دون أن تقوم حجّة على ذلك . وفي موريطانيا اقتصر على عدد من الموانى المحصّنة كماتيفو (Rusguniae) وتيبازة (Tipasa) وقيصارية (Caesara) وكرتيني وهي مراكز تحصّن فيها الأهالي فكان النفاذ إليها غير ممكن إلاّ عن طريق البحر . وأخيرا جعل يوسطينيانوس من حصن سبتة (Septem) مركزا للمراقبة له أهمّيته .

ولم تكن التخوّم حيث تمّ ولا شكّ ترميم واستعمال مابناه الرومان من حصون هي المنطقة الوحيدة من البلاد التي كان من الواجب مراقبتها ، وكانت قلعة قصر بلازمه الخطيرة تراقب منافذ الهدنة بينما تراقب مشارف الأوراس منافذ قلاع ابباز (Lambèse) وخنشلة (Mascula) وتيمقاد (Thamugadi) التي تبلغ 120 مترا طولا و 80 مترا عرضا وقد بنيت على معالم قديمة من عهد السفيريين . وكانت التحصينات العسكرية منبثّة في قلب الرقعة البيزنطية مثل الحصون الموجودة في قصر لمسه (Ksar lemsa) البعيدة عن شمال شرقي مكثر بما يقارب الأربعين كيلومترا أو الموجودة في عين تونقة (Thignica) شمالي شرقي تبرسق أو حيدره (Ammaedara) وقد صمدت كلّها على ممرّ العصور بصورة تدعو إلى الإعجاب وكثيرا ما بنيت هذه التحصينات بسرعة على أنقاض المعالم القديمة كما هو الشأن في سبيطلة (Sufetula) ودقّة (Thugga) حيث استعملت ساحتاهما لهذا الغرض . وحتى المدن فإنّها كثيرا ما أحاطت نفسها بسور ضيّق مثل مدينتي سطيف (Sitifis) وتبسّه (Theveste) وبهذا تكوّنت

شبكة من الحصون يجد فيها السكّان المهدّدون بهجمات المعتدين المأمن والملجأ وتشعر المقاطعات الافريقية بفضلها بأمن نسبي .

9 ـ الفنّ المعماري الدفاعي :

تتركّب المراكز المحصّنة في أكثر الأحيان من ثلاثة خطوط دفاعية :

أوّلا : سور ذي طابقين معزّزين بأبراج ضخمة ذات شُرَفٍ عديدة.

ثانيا : سور أمامي يحمي الأماكن المجاورة للساحة وأخيرا خندق عميق واسع يحفزه سياج ويخيم اللاّجئون في الفسحة الواقعة بين السُورَين .

أمّا الأسوار التي يبلغ علوّها بين الثمانية والعشرة أمتار فجوانبها المتكوّنة من الحجارة المقطوعة مشحونة بموادّ مختلفة، وهكذا يبلغ سمكها مترين ونصفا، وفيما يخصّ جودة البناء فإنّها تتفاوت بحسب تفاوت مَقْدُرَة اليد العاملة .

وآثار تبسّة تجعلنا نتصوّر عظمة هذا الحصن الذي يعدّ من أهمّ الحصون وقد احتمى بسور علوّه يتراوح بين تسعة وعشرة أمتار وسمكه يبلغ المترين أمّا طوله فينوف على 320 م. وعرضه 280 م. وقد علا هذا الحصن بأبوابه الثلاثة أربعة عشر برجا مربّعة الشكل طولها بين أربعة عشر مترا وثمانية عشر . ويذهب الفنّيون إلى أنّ بناء هذا الحصن تطلّب ثمانمائة عامل واستغرق عامين كاملين .

أمّا في حيدره فآثار القلعة التي كانت تحمي المدينة مازالت قائمة إلى الآن . وهي مستطيلة الشكل فسيحة طولها مائتا متر وعرضها مائة وعشرة أمتار امتدّت على منحدرات جبل وضمّت عدّة مبانٍ عسكريّة وكنيسة واحدة . أمّا الأبراج التسعة المربّعة والبرج الأسطواني الشكل فقد علت سورا فيه أبواب كثيرة يؤدّي أحدها إلى جسر طوله ثلاثون مترا مُدّ على واد حيدره .

وليس من شك في أنّ هذه الآثار العمرانية تنبىء عن نشاط ملحوظ

قام به المهندسون البيزنطيون ولكنّه يدلّ أكثر من ذلك على زوال هيمنة البيزنطيين ومدى خطر البربر .

II ـ انتفاضات البربر والاضطرابات الدينية

1 ـ التحصين ضدّ البربر :

حاول "جليمار" وبليزار عند استرجاع البيزنطيين افريقية استمالة البربر. فلقد كسب ملك الوندال ودّ الكثير من المزارعين الأفارقة بعطاياه الوفيره وبما كان يدفعه لكلّ من يأتي له برأس جندي روماني . ولكنّه رغم ذلك لم يتمكّن من الاطمئنان الكامل إلى رؤسائهم، ذلك أنّهم سارعوا ـ كما قال "بروكوب" بإعلام "بليزار" بولائهم له فأرسلوا إليه الرهائن وعرضوا عليه التّحالف معه ، فأثبتهم بليزار على نفوذهم وبعث إليهم ـ كما كانت تقتضي العادة ـ بصَوْلَجَان من فضّة مذهبة وإكليل من فضّة مزخرف وبرنس أبيض أقفاله من ذهب ومئزر أبيض مُزَرْكَش وأحذية مطرّزة بالذهب بالإضافة إلى مقادير وافرة من المال . لكنّ البربر اقتصروا على الوعود ولم يَنْحَازُوا ليشقّ دون آخر حتى نهاية الحرب .

ولمّا أقلع بليزار في مَرَاكبه قاصدا القسطنطينية مطمئنا على الأقل إلى حياد البربر وعطفهم إذا بهم يتمرّدون عليه في المزاق (Byzacène) ونوميديا . وقد عزّا "بروكوب" ذلك من دون أن يتفطّن إلى الحقد الدّفين الذي كان يكنّه الأهالي نحو الغازين "إلى تحوّل طباعهم وتقلّبات مزاجهم" .

ومهما يكن فإنّ البيزنطيين واجهوا منذئذ حربا مزمنة ضدّ القبائل .

أمّا جيشهم الذي كانت تُعْوِزُهُ روح الانقياد ويشكو ضعف القيادة في كثير من الأحيان فإنّه كان عاجزا عن صدّ هَجَمَات خيّالة البربر الذين لا تُرْهِبُهُمْ الحصون ولم ينج من الكارثة إلاّ بفضل حزازات أعدائه . ورغم ذلك فإنّ جيش البيزنطيين كان أكثر استعدادا لخوض حرب افريقية من الجيش الوندالي فقد كان معتمدا بالخصوص على رُمَاة ذوي دربة

وبراعة قادرين على النيل من العدو من مسافة بعيدة . ولقد بان فضل هذه الخطة الجديدة على حساب الفرس رغم قدح الفنيين التقليديين فيها ببيزنطة وظهرت نجاعتها ضد البربر . وإذا كتب لهذه الخطة الفشل فذلك يرجع إلى تغير المعطيات تغيرا جذريا ، الأمر الذي أثر تأثيرا بالغا في حرب "تراسموند" ضد "كابوون" (Gabaon) .

وعلاوة على قبائل نوميديا المستوطنة فإن قبائل الرحل الصحراوية والليبية أخذت تواصل هجماتها، وإذا أمكن لسليمان أن يستأصل القبائل المستوطنة فإن قواده فشلوا أمام القبائل الرحل وقضى نحبه وهو يقاتلهم ومن ذلك الوقت أصبحنا أمام فريقين من البربر سيكون لهما دور في تاريخ المغرب : المزارعون المستقرون والرعاة الجمالة الذين انتهوا إلى الجزء الشرقي والجنوبي من الأوراس واستعدوا لمواصلة سيرهم نحو الأنجاد والسهول والسباسب التي تؤدي إلى مضيق تازه .

وهكذا اضطر البيزنطيون إلى القتال في جبهتين ولم يتسلموا من الكارثة القصوى إلا بما قدموه من تضحيات مالية وبالحيلولة دون الاتحاد المستمر بين الحضر والمدر .

2 — سليمان :

كان تحت قيادة سليمان من غير شك ثمانية عشر ألف مقاتل بفضل ما خلفه له بليزار من جيوش، وبفضل المدد الذي بعث به إليه يوطينيانوس وبينما كان يبداس (Iabdas) ملك الأوراس وقبائله يعيشون في نوميديا فسادا كان على سليمان أن يواجه أعظم خطر ألا وهو هجوم القبائل الرحل في المزاق تحت قيادة كوتزيناس (Cutzinas) وثلاثة قواد آخرين .

ولما أباد البربر خيالة ايقان (Aigan) وروفين (Rufin) حذرهم سليمان من مغبة فعلتهم ولكنهم أجابوه بحقائق مرة كما أكد ذلك المؤرخ "بروكوب" قالوا : "إن الرومان يخطبون ودنا ويرومون أن نكون لهم حلفاء بينما هم لم يحسنوا إلينا وجلبوا لنا المجاعة فليس الذين

يطاردون اللصوص لاسترجاع أرزاقهم هم الذين ينالهم سُخْط الرّب بل أولئك الذين يبادرون بالحرب ويستحوذون على أرزاق غيرهم" .

وكانت الحرب ضَرُوسا، ذلك أنّ الرومان اصطدموا بخطّة جديدة وأنّ البربر كانوا يقاتلون في استبسال وراء دائرة من الجمال احتمت وراءها جميع أفراد القبيلة ومعهم عائلاتهم وأرزاقهم، فقد اضطرّ الرومان في واقعة ممّا (Mamma) الكائنة بين سبيبه والقيروان إلى النزول عن خيولهم وعقر مائتي جمل بسيوفهم للوصول إلى قلب القبيلة ، وروى أنّه قتل في هذه الواقعة عشرة آلاف من البربر وسبيت نساؤهم غير أنّ هزيمتهم لم تمنعهم من أن يلمّوا شتاتهم في الصحراء ويعيدوا الكرّة ويعيثوا فيها فسادا وتمكّن سليمان في آخر الأمر من تطويقهم جنوب المزاق قرب حدود نوميديا على جبل برقوان سنة 535 (Burgaon) وكان انتصارا مبينا إذ بلغ عدد القتلى من البربر حسب بعض الرواة خمسين ألفا من دون أن يلقى روماني واحد حتفه .

وعند ذلك اتّجه الرومان إلى قتال يبداس وحاولوا النفاذ إلى الأوراس . وكان في صفوفهم جيوش من البربر يقودها أعداء يبداس وهم ماسوناس (Massonas) واورتاياس (Ortaïas) أمير الحضنة (Hodna) وجزء من الأوراس من غير شك ولكنّ سليمان اقتصر على حطّ رحال جيشه وراء مركز محصّن في السهول (سنة 535) لأنّه شك في ولاء هؤلاء البربر له رغم ما أغدق عليهم من أموال، ولأنّ صعوبات الهجوم والتموين كانت كبيرة جدا .

3 ـ تمرّد الجيش وستوزاس :

تمرّد الجيش قبل أن يستعدّ القوم لمغادرة قرطاج لقتال البربر؛ ذلك أنّ سليمان كان فظا غليظا يعامل جنوده معاملة العبيد، فكان يكرهه ضبّاطه وجنده على حدّ السواء، وكان الجند يشهدون بأعينهم قوادهم الكبار وهم يستأثرون بالغنائم ويستحوذون على الأراضي باسم الامبراطور الذي كان لا يدفع لهم جرايتهم، وكانت نساء الوندال يُشعرن أزواجهنّ الجُدُد بأنّ

لهنّ حقوقا على ما كنّ يملكنه من أراض . وأمّا الآريوسييون المتحالفون الذين كان الكَهنَة الوندال يحضّونـهم على التّمرد فقد كانوا يحتجّون على طردهم من الكنائس ويستنكرون ما ينال إخوانهم من اضطهاد ، وآلت هذه المعاملات والفوضى إلى التآمر الجَمَاعِي وكاد ينجح (سنة 536) لولا أن لاذ القائد بالفرار إلى صقلّية لطلب النجدة من بليزار . ووجد المتآمرون في أوّل الأمر ضالّتهم في شخص ستوزاس الحرس الذي قاسمهم آلامهم من قبل وكان قائدا مغوارا صُلْبَ الشكيمة . ولقد حاول "ستوزاس" أن يجمع كلمة ضحايا الاستعمار الروماني كلّهم سواء جنود "سليمان" أو الوندال الذين بقُوا بافريقية أو بربر نوميديا . ولكنّ "بليزار" الذي أسرع في العودة أحبط بمجرّد حضوره هجوما مُوَجّها ضدّ قرطاج ثم هزم ستوزاس في مجاز الباب (Membressa) الواقعة على نهر مجردة إلاّ أنّه اضطرّ إلى العودة إلى صقليّة بعد أن أطاح بسليمان وسلّم قيادة قرطاج إلى ضابطين ساميين وظنّ والي نوميديا أنّه سيمحق بسهولة فرَقَ جيش ستوزاس القليلة غير أنّ قائد المتمرّدين تقدّم بمفرده نحو جموع الجيش وألقى فيها خطابا مؤثّرا جدّا كما روى ذلك بروكوب . لقد كان خطابا ثوريا حَماسيا قابل فيه بين بؤس الجندي وما كان يتعاطاه بعض القَواد من سلب مشين وحضّ على تكسير نير المستبدّين .

وصاح في الجند الواجمين قائلا : "بينما يستأثر القوم في وقاحة بشرف النصر ويبدّدون ثماره تسيرون أنتم وراءهم في ذلّة وقد نزلتم إلى أحطّ درجات منزلة العبيد" وما من شك في أنّ هذه الكلمات نفذت إلى أعماق الجنود إذ هم انحازوا جميعهم إلى ستوزاس وأبادوا ضُبّاطهم .

وهكذا تأزّم الموقف خاصّة وأنّ بليزار بادر بترحيل سليمان إلى القسطنطينية من دون أن يستشير أحدا، فاضطرّ يوسطينيانوس ـ للتمكّن من القضاء على الثورة ـ إلى إرسال ابن عمّه جرمانوس مزوّدا بسلط استثنائية. وما كان من الحاكم العسكري الجديد إلاّ أن يسجل تلاشي ثلثي الجيش فأدرك أنّه من الضروري القيام ببعض التنازلات واستنكار قسوة سليمان ، فظهر بمظهر المدافع عن الجنود ووعد الثُوار لا بالتسامح والعفو ، بل بدفع جراياتهم المتخلّفة حتى أثناء تمرّدهم ونجح في سياسته واستهوى بسرعة المتمرّدين

ولم يبق لستوزاس بعد تلاشي جيشه إلاّ الإسراع بالاستيلاء على قرطاج فحاول ذلك ولكن بدون جدوى واضطرّ إلى الفرار إلى نوميديا وسادت الفوضى المريعة لقاءَ جرمانوس مع جنوده الموالين، وفي هذه المرّة أيضا نجا من الهزيمة بفضل تردّد البربر، ذلك أنّ يبداس وأورناياس اللّذين لم يتعدّيا دور المتفرّج في المعركة رفضا مدّ يد المساعدة لستوزاس وآثرا المشاركة في نهب معسكر المتمرّدين . فلم يبق لستوزاس إلاّ الفرار هو ونفر من الوندال إلى موريطانيا حيث تزوج بنتا لأمير بربري .

وسرعان ما فطن الجنود إلى أنّ جرمانوس قد خدعهم فثاروا في قرطاج بإيعاز من ماكسمان (Maximin) أحد حرّاس الحاكم وطالبوا بجراياتهم المتخلّفة ولكنّ جرمانوس بادر بحسم هذه الانتفاضة فقضى عليها بسرعة وشنَق ماكسمان .

ولم يتورّع يوسطينيانوس بعد قمع الجيش من أن يعيّن "سليمان" رأس الفتنة (سنة 539) حاكما عسكريا على افريقية من جديد فبادر بالانتقام ممّن كانوا سببا في إزعاجه وطهّر الجيش ونفى نساء الوندال .

4 — حرب الأوراس :

ولم يبق مناوئا "لسليمان" إلاّ العدوّ الذي لا تنتهي عداوته وهو البربري فاتّجه مرّة أخرى إلى الأوراس وقصد حسب بروكوب بلا شك مجموعة الجبال الممتدّة جنوبي خنشلة وتيمقاد ولمباز حيث انهزم مساعده قنتاريس (Guntharis) وعسكر سليمان بجيوشه كاملة في سفح الجبل قرب واد بورغال (Oued Bou Roughal) ومنه انطلق فهزم يبداس فبابوزيس (Babosis) ونهب المحاصيل الزراعية حول تيمقاد ثم تعقّب ملك (l'Aurasion) ورجاله الذين يبلغ عددهم العشرين ألفا حتى حصّن زربوله (Zerbula) ولكنّه لم يتمكّن من دخوله إلاّ بعد فرارهم ثم نجح بعد عناء شديد في اقتحام تحصينات تومار (Toumar) العجيبة المقامة فوق قمّة جبل الأوراس وبعدها تحصينات صخرة جمنة المنيعة (Geminianus) وقد تكون في فجّ واد مسرور حيث أودع يبداس نساءه وكنوزه

تحت حراسة شيخ . وهكذا أسفرت حرب سليمان عن نجاح باهر دعّمه ببناء سلسلة من التحصينات المنيعة في قلب الأوراس ذاته وفي نوميديا وموريطانيا القيصرية ممّا جعله يحافظ على السلم طيلة أربع سنوات .

غير أنّ انتهاجه سياسة المحظوظية كان سببا في اضطرابات جديدة . ذلك أنّه تحصّل من الامبراطور على تسمية سرجيوس ابن أخيه (Sergius) دوقا على طرابلس . وكان فظّا غليظا بقدر ما كان عاجزا يظنّ أنّ تفوّقه على الأهالي يتجلّى في السيطرة المطلقة . من ذلك أنّه عندما جاءه ثمانون من أعيان قبيلة لواتة يشكون ما تعرّضوا له من نهب محصولهم لم ير من حلّ للمشكلة سوى أمر حرّاسه بتقتيلهم فبادرت قبيلة لواتة بشقّ عصا الطاعة فاضطرّ إلى الاستنجاد بعمّه . ولم ينته الأمر عند هذا الحدّ فقد انضمّ إلى لواتة انتلاس، ذلك أنّ سليمان بعد انتصاراته على يبداس رأى أنّه لا فائدة في مراعاة قائده انتلاس الذي خدمه دائما بإخلاص ، فقطع عنه المؤونة وأمر بقتل أخيه فكان ردّ فعل انتلاس التحالف مع لواتة .

5 ـ موت سليمان وحكم العجز :

وفي هذه المرّة كان الذي واجهه سليمان أمرا عظيما، ففي تبسّة قابل البربر وعوده بالاستهزاء وأبى قسم من جنوده القتال ولم يظهر القسم الآخر حماسا كبيرا بعد أن رأوه يستحوذ دائما على الغنائم كلّها فمُني سليمان بالهزيمة وقتل .

إنّ السلطة العليا ترى من واجبها استبقاء الموظّفين الذين يتجاوزون حدودسلطتهم وتعتبر ذلك شرطا من شروط هيبتها.وهكذا فإنّ يوسطينيانوس الذي كان أرجع سليمان إلى افريقية تجاوز ذلك بتعيين سرجيوس خلفا له وهو نفسه الذي نقم عليه الجيش لقسوته وأنكره الأهالي لتعسّفه غير أنّه عين كذلك مُعينا له عاجزا مثله وهو الشيخ اريوبندوس (Areobindus).

ولمّا كان الموقف يدعو إلى تعيين مسؤول تتمثّل فيه العزيمة والصلابة والغلبة ونفاذ البصيرة والإرادة الفرد لإيقاف توغّل لواته وقبائل انتلاس (Intalas) المعزّزة بفيالق موريطانية بقيادة ستوزاس (Stozas)

اقتصر الامبراطور على تعيين شخصين ينتسبان إلى العائلات الكبرى ظلّ كلاهما يسعى إلى إحباط مجهود الآخر . وهكذا بقي سرجيوس مكتوف الأيدي عندما كان البربر يُبيدون جيش المزاق (Byzacène) في برج مسعودي (Thacia) بين تبرسق والكاف من دون أن ينجده (أواخر سنة 545). ولم يسع يوسطينيانوس إلاّ إلى إقالة سرجيوس وتعيين أريوبندوس مكانه في أوّل الأمر ولكن سرعان ما تآمر عليه القوم وأبعدوه فعيّن مكانه ارتاباناس (Artabanès) وهو ضابط ارمني كان تمكّن من قمع الثورة (ماي 546) وعمّت الفوضى البلاد وأفلت زمام الأمر من قوّاد الجيش بينما كان الموريون يواصلون تخريبّ المقاطعات من دون أيّ ردّ فعل فاضطرّ يوسطينيانوس آخر الأمر إلى دعوة يوحنّاتروقليتا(Jean Troglita) أحسن قوّاد الامبراطورية من الواجهة الشرقية وأسند له أمر افريقية (أواخر سنة 546) .

6 ـ يوحنّاتروقليتا :

نجد في ملحمة يوحنّا التي كتبها كوريبوس (Corippus) آخر شاعر افريقي تقليدي شهادة هامّة تحكي الوقائع التي دارت بين سنة 546 وسنة 548 وهو أستاذ في النحو نزح من بلدة غير معروفة وتفتّقت شاعريّته فتغنّى بانتصارات الحاكم العسكري على الموريين، ولا شك أنّ مواهبه الأدبية كانت محدودة . ولئن اعترف له القوم بأنّ شعره لا يخلو من الحركة والحياة فإنّ المتفصّحين عابوا عليه إقحام الكلمات البربرية في شعره المتركّب من أبيات ذات مقاطع ستة ممّا أدّى بـ(E. F. Gauthier) الذي لم يتميّز بتقدير الغير من دون مزيد التحرّي، إلى وصفه بالشعر الرديء ، غير أنّ فضله يتجلّى في مواطن أخرى . إنّه احتاج بحثا عن مادّة كافية لأغاني ملحمته السبع، إلى التوسّع في الحقبة التاريخية المقصودة بالذات وتكلّف التغنّي بأحداث تاريخية مرّت عليها خمس عشرة سنة . ثم إنّ هذا الآفاقي كان يحبّ افريقية وأهلها فأتحفنا بمعلومات عديدة عنها وعنهم . من ذلك ما وصل إليه قزال(S. Gsell)عند تحليله لملحمة يوحنّا من معطيات أمكن معها تصوّر حياة البربر وواقعهم .

ويمكن القول في آخر الأمر بأنّ كوريبوس (Corippus) أكثر فائدة عندنا من مؤرّخ . ولقد أدرك بطل الملحمة أنّه لن يتسنّى له الانتصار على الموريين وهم متّحدون ففرّق بينهم ودفع ثمنا باهضا لكسب عدد كبير من القبائل ثم هاجم انتلاس (Antalas) وهزمه ولكنّه انهزم بدوره على يد لواتة بطرابلس الذين واصلوا زحفهم حتى قرطاج ولم يتمكّن يوحنّا من دحْر هؤلاء الرحّل إلاّ بفضل كوتزيناس (Cutzinas) في معركة دامية بحقول قاطون (caton) قتل فيها بيده الأمير كركزان (Carcasan) وهلك بها سبعة عشر قائدا بربريا (أوائل سنة 548) وكان نصرا مبينا عرفت افريقية بفضله هدوءا دام خمس عشرة سنة .

غير أنّ الحكومة كانت تظنّ أنّه من الهيّن صرف أو تقتيل عملائها من الأهالي متى لم تعدْ في حاجة إليهم . ففي سنة 563 أمر الحاكم يوحنّا روقاتينوس (J. Rogathinos) بقتل كوتزيناس (Cutzinas) فاستتبع ذلك تمرّد قسم من قبائل نوميديا ولم تخمد نارهم إلاّ بتدخّل مارسيان (Marcien) ابن أخ الامبراطور الذي جلب جيشا من القسطنطينية ولكنّ الموريين عاثوا قبل ذلك فسادا في البلاد وقد خلت من كلّ حماية.

ولمّا مات يوسطينيانوس في سنة565 ترك الحكم البيزنطي متداعيا في افريقية .

7 — رجوع الكاثوليكية :

إذا كان هدف يوسطينيانوس يتمثل في إرجاع السلطة الرومانية إلى ما كانت عليه في بلدان افريقية فإنّه لم يتَوَانَ كذلك في إرجاع نفوذ الكاثوليكية إلى سالف عهدها، والمقصود هنا طبعا الكاثوليكية الخاضعة لسلطة الامبراطور ، ولقد استقبل الكاثوليك في افريقية بحماس شديد البيزنطيين، بل إنّهم تغالوا في استرجاع الكنائس وتعذيب الآريوسيين الأمر الذي قد نجد لهم بعض العذر فيه بما نالهم من عذاب في الماضي إلاّ أنّه جلب لهم اضطرابات خطيرة ومن جهة أخرى فإنّهم امتدّت أيديهم إلى المشركين والدوناتوسيين وحتى اليهود الذين اضطرّوا إلى الالتجاء إلى القبائل بعدما فصلوا عن جميع الوظائف العمومية سنة 535 .

واسترجعت الكنيسة نظامها القديم فصار الأسقف يتمتّع بنفس الحظوة التي يلقاها زملاؤه في كنائس رومة وانعقدت المجامع من جديد. غير أنّ أراضي الكنيسة وعدد رجالها نقص نقصا فادحا بعد "أسر المائة عام".

وتمّ ترميم المباني المشوّهة وشيدت الكنائس الجديدة وقد ظهر فيها من حيث الفنّ المعماريّ والزُخزف، التأثير الشرقي الذي انتشر مع انتشار الإيمان بالأولياء، فكنيسة (الموسط) قرب بلدة المحرص بالبلاد التونسية تكشف لنا عن مدى ما بلغه من إتقان عجيب في الزُخْرُف صُنّاع الفُسيفساء الأفارقة الذين اعتمدوا الفنّ الشرقي واستعملوا موادّ مبتذلة ولكنّها غنيّة الألوان .

أشعّت كنيسة افريقية أيّما إشعاع في عهد يوسطينيانوس بعد أن سطع نجمها حتى القرن الخامس وكان المسيحيّون في افريقية لا يميلون كثيرا إلى الجدال حول سيرة المسيح بل اهتمّوا خاصّة بمسألة خلاص الإنسان وكان موقف الامبراطور والبابا جرّهم إلى خلاف نشأ عن بِدَعٍ شتّى ظهرت في الشرق .

8 — الفصول الثلاثة :

لقد مرّ آنذاك ما يقارب القرن منذ أن حرص مجمع كالسيدوانة سنة 451 على وضع حدّ للجدل الذي كان سببا في فتنة عقائديّة بالمشرق فندّد ببدعة نسطوريوس أسقف القسطنطينية لقوله بثنائية الذات الإلاهية والذّات البشرية، وزعمه أنّ مريم ليست إلاّ أمّا للإنسان لا الإلاه، وكما ندّد ببدعة اوتيشاس (Eutychès) الذي كان يدعو إلى مجرّد وجود الذّات الالهية .

ولكنّ هذا الموقف لم يوفّق إلى بسط السلم، فقد كان مثلا القائلون بوحدة الذّات منشقّين على أنفسهم في عهد يوسطينيانوس وحاولت الامبراطورة تيودورا التي كانت تعطف عليهم توحيدهم فدفعت زوجها إلى التشهير بثلاثة نصوص كان يظنّ أنّها مستوحاة من النسطورية إلاّ أنّ المجمع لم

يحكم عليها سنة 544 ولم يجد البابا "فيجيل" الذي يدين للامبراطورة بمنصبه بدّا من الموافقة على التشهير بهذه النصوص الثلاثة التي عرفت خلطا بينها وبين النصّ الامبراطوري بالفصول الثلاثة .

واحتجّ المسيحيّون في الغرب احتجاجا صارما، ولكنّ معارضة هذا القرار لم تبلغ الحدّة التي بلغتها في افريقية . فلقد وجّه الأسقف (l'Evèque) بونتيانوس إلى الامبراطور انتقادا على قراره وسانده في ذلك عالم قرطاج فرّاندوس (Ferrandus) بفضل ما كان يتمتّع به من نفوذ ديني ولمّا علمت الجماهير في افريقية بنشر قرار البابا تظاهرت وانعقد مجمع وقرّر اعتبار البابا مرتدّا حتى يتراجع . وفي القسطنطينية كان أسقف هرميان (Hermiane) المسمّى فاكندوس (Facundus) يشنّ بالقلم واللسان حربا لا هوادة فيها على الامبراطور، ومالبث أن قدّمت قرطاج جماعة من القساوسة لتسانده وتؤيّد البابا في محاولاته الصمود أمام هذا الاستنكار ولم يتردّد جوستينيان في توخّي الشدّة فدعا إلى القسطنطينية رؤوس الأسقفية بافريقية وقضى على معارضتهم بالترغيب والترهيب، واستعاض عن الصامدين منهم بأشخاص موالين له وأجبر افريقية التي أدانت علنا البابا المفسد على الطاعة والامتثال، وقد كان للتعذيب والسجن والنفي مفعول في إرجاع الزائغين إلى سواء السبيل ونحن على اطّلاع بما نال الخوارج من أصناف العذاب بفضل ما رواه أسقف طاننزا (Tannensa) فيكتور (Victor) وكان خصما لدودا للامبراطور ورغم هجاء فاكندوس (Facundus) فإنّ الكلمة الأخيرة بقيت للقوة ورجعت الأمور إلى نصابها وفي سنة 560 أمكن للبابا "بيلاج" أن يفتخر بإجماع النّاس على إدانة الفصول الثلاثة ، وهكذا لن يمكن لكنيسة افريقية أن تلعب دورا هاما في عالم المسيحية بعد أن ألجمت وكسّرت شوكتها .

III ـ خلفاء يوسطينيانوس

حصيلة حكم يوسطينيانوس : كان يبدو أنّ يوسطينيانوس الذي غزا سواحل اسبانيا أعاد امبراطورية الغرب إلى ما كانت عليه فكان يعلن

"يا سكّان العالم سبّحُوا بحمد ربّكم الذي ميّز عصرنا بمثل هذا الإنجاز . والحقيقة أنّ يوسطينيانوس أنهك قواه واستنزف مقاطعاته . فايطاليا التي عرفت الازدهار في ظلّ القوط تركتها الحرب كليمة خائرة القُوى كما تركت روما خالية من أهلها ذليلة بعد عزّ، بحيث كان من المستحيل أن تقف أيّة قوة أمام غزو اللمبارديين .

وفي البلقان كان الصّقالبة (Slaves) والهان (Huns) والآفار (Avars) يَعيثون فسادا ويهدّدون القسطنطينية . أمّا في آسيا فقد كان الامبراطور يدفع للفرس والآفار ثمنا باهضا للظفر بهدنة من حين لآخر .

وفي جميع أنحاء الامبراطورية فشلت الجهود الرامية إلى التخفيض من وطأة السطو على أموال الدولة وارتشاء المَوظّفين، وكانت محكمة القسطنطينية تعطي فيهما المثل . نعم كان يمكن لسانت صوفيا (Sainte Sophie) وهالون يوسطينيانوس أن يبهر العيون ويسحر العقول إلاّ أنّ الامبراطوريةالتي كانت لا تعتمد إلاّ على فلول من الجيش مسترابة وإدارة استفحل فيها الفساد كانت رغم ذلك مستضعفة .

وإذا وضعنا في الميزان سياسةيوسطينيانوس الافريقية وجدنا من الناحية الإيجابية غزوة موفّقة في الظاهر ومحدودة النتائج غير مستقرّة في الواقع وكذلك حروبا ضدّ البربر مظفّرة في بعض الأحيان لكنّها غير حاسمةولو مرّة واحدة ومبانيَ دفاعية شيّدت ببراعة وسرعة فائقتين ولكنّها ما كانت لتغني عن جيوش قوية موثوق منها، ووجدنا أيضا سعيا إلى إقرار إدارة منسّقة منظّمة قوية، وظفرنا أخيرا ببعض الشخصيات اللاّمعة لاعتبارات مختلفة أمثال بليزار (Bélisaire) وسليمان (Solomon) وجرمانوس (Germanos) ويوحنّا تورقليتا (Jean Troglita) أمّا من النّاحية السلبية فهناك جولان يد بليزار في خزينة الدولة، ومحظوظية سليمان وقسوته، وعجز سرجيوس واريوبندوس ، واغتصاب الضبّاط السامين والوُلاّة للأراضي ونهبهم للأهالي أو مطاردة النّاس باسم الدين أو الفوضى في صفوف الجيش أو ازدهار الاستعمار الذي آل بالفلاّحين إلى شبه عبودية، وأخيرا

نظام الحكم الذي تجلّى خاصّة في سياسة جبائية قاسية واستغلال علمي للأهالي، الأمر الذي قضى إلى الأبد على أسباب النهضة بافريقية .

وأمام مثل هذه النتائج لا يمكن للمرء أن لا يوافق بروكوب فيما أصدره من حكم في يوم أطلق فيه العنان لحقده عندما سجّل هذه الكلمة في كتابه (التاريخ السري) : بعد انهزام الوندال لم يحرص يوسطينيانوس على توطيد حكمه في البلاد ولا أدرك أنّ خير ضمان هو تأليف قلوب الرّعايا بل بادر باستقدام بليزار الذي اتّهمه ظلما بالسعي إلى اغتصاب الملك وباشر إدارة افريقية من بعيد فأنهكها ونهبها حسب مشيئته، لقد أرسل أعوانه يقيمون الأراضي وفرض أداءات ثقيلة جدّا لم يكن للسكّان سابق عهد بها واقتطع لنفسه أحسن الأراضي وحجّر على الآريوسيين إقامة طقوسهم، وكان يتقاعس دائما في إرسال المدد ويقسو على الجند . فكان كلّ ذلك سببا في الاضطرابات التي آلت إلى مصائب عظيمة .

لكن ما حلّ من الكوارث بعد ذلك تجاوز تنبّؤات بروكوب المتشائمة ولم يكن خلفاء يوسطينيانوس في المستوى المطلوب لمجابهتها .

1 — يوسطينوس الثاني وتيبريوس الثاني :

كان أوّل خليفة ليوسطينيانوس يوسطينوس الثاني (565 — 578) الذي تغنّى بمآثره كوريبوس (Corippus) في مؤلّفه مدح يوسطينوس (in laudem Iustini) وكان ملكا حازما ولكنّه لاقى ما لاقى من أجل الدّفاع عن الامبراطورية ضدّ الفرس والآفار والهان (Perses-Avars-Huns) رغم أنّه صرف عناية كبرى بشؤون افريقية متأثّرا بأحد مواليدها وهو آنستاز (Anastase) صاحب خزينة القصر وأمّر عليها توما (Thomas) رئيس حرسه الذي يبدو أنّه أظهر ديبلوماسية فائقة في علاقاته مع القبائل .

وإذا ملنا إلى تصديق كوريبوس فإنّ البلاد وجدت بارقا من الأمل في الحياة بفضل إدارة حازمة يقظة . غير أنّ كوريبوس كان شاعرا وفوق ذلك شاعرا مبرّزا، لذا حقّ لنا أن نشكّ في هذا الازدهار الذي يحدّثنا عنه

الشاعر ولئن وجد فهو على كلّ حال لم يعمّر طويلا، والحق أنّ توما أعان على انتشار الدّعاية المسيحية حتى بلغت الفزان، ودعّم جهاز الدّفاع بإقامة حصون جديدة، ولكنّه فيما بعد لم يقدر على الحدّ من استفحال الانهيار الإداري وعلى استخلاص الأداءات ودفع أجرة الجنود . فإذا نحن تصفّحنا بعض ما كتبه المؤرّخ يوحنّا البكلاري (Jean de Biclar) استفدنا أنّه جدّت في هذه الفترة ثلاث ثورات قتل فيها وال وحاكمان عسكريان ، كما استفدنا أنّ الأمير غرمول الذي قمع هذه الثورات اغتنم الفرصة لتدعيم سلطانه وبلغت الحالة حدّا من الخطورة آثر معها كثير من السكّان الهجرة إلى اسبانيا .

وربح تيبريوس الثاني قسطنطين (578 — 582) شيئا من الوقت عندما عيّن توما واليا على افريقية من جديد، ويظهر أنّه اشترى ولاء أمراء البربر بالمال. ولمّا اطمأنّت القبائل فاجأها الحاكم العسكري جناديوس (Gennadius) حوالي 578 وقتل بيده غرمول أحد قوادها البارزين ولكنّ انخرام الأمن استمرّ بحيث اضطرّ السكّان إلى تشييد الحصون بأنفسهم .

2 — إصلاحات موريس وولاية ايطاليا وافريقية :

لم تتميّز حينئذ افريقية التي حكمها يوسطينوس الثاني وتيبريوس عن افريقية على عهد يوسطينيانوس إلاّ بالتدهور الذي كان يتفاقم يوما فيوما، وقد أدخل الامبراطور موريس (582 — 602) تعديلات هامّة بافريقية أطلعنا عليها جورج القبرصي (Georges de Chypre) في القائمة الجغرافية التي وضعها في أواخر القرن السادس . لقد ضمّت طرابلس إلى مصر واعترافا بالأمر الواقع ضمّت إلى مقاطعة سطيف الواقعة في موريطانية القيصرية بعض المراكز الساحلية التي بقيت تحت السلطة الرومانية فتألّفت موريطانيا الأولى . أمّا موريطانيا الثانية فلم يكن فيها إلاّ مركز افريقي واحد يتكوّن من سبته (Septem) وبعض المدن الاسبانية وجزائر البلجار ، بل إنّ القوم اضطرّوا في غالب الأحيان إلى التقهقر بسلسلة المراكز المحصّنة التي كان ضبط مواقعها يوسطينيانوس وانّ ما ظهر من تطوّر منذ عهد

يوسطينيانوس نحو هيمنة العسكريين على الموظّفين المدنيين انتهى فيما بين سنة 585 و 591 إلى تعيين شخصية قوية ما لبثت أن أمسكت بجميع مقاليد الحكم . وأصبح للدوق تحت سلطتها المرتبة الأولى في المقاطعات على حساب ما للحكّام (Praesides) من وظائف .

ولا شكّ في أنّ جنـاديوس (Gennadius) قاهر غرمول هو أوّل من تقلّد لمدة ثماني سنوات هذا المنصب غداة قيام الثورات الخطيرة سنة 587 ورغم حزمه هذا فإنّه لم يمنع البربر من التسلّط على قرطاج إلاّ بالحيلة،وفي عهده تفاقم الاستغلال من دون رادع فقد غضّ الطرف عن اعتداءات الأثرياء وتنطّع المتصرّفين وبلغ المستوى الأخلاقي في كلّ مكان حدّه الأدنى ،ولئن كفّ الامبراطور عن اضطهاد اليهود في نوميديا وترك الدوناتوسيّة تهدّد الكاثوليكية من جديد فلم يرالولاة في هذه السياسة سوى فرصة انتهزوها لمساومة الزائغين قصد حمايتهم .

3 ـ الكنيسة والبابوية :

لقد كشفت الكنيسة عن فساد رجالها ومتاجرتهم بالقيم وتنطّعهم وحزازاتهم .

والحال أنّ هذه الكنيسة التي كان يؤمّل هيلاريوس (Hilarius) ممثّل البابا أنّه وفّق بعد عشر سنين من الكفاح إلى توطيد النظام فيها كانت تمثّل وحدها في غمار تلك الفوضى المتفاقمة القوة المنظّمة التي إليها يرجع المؤمنون، ولكنّها كانت من الضعف وشدّة التبعية إلى روما بحيث كان الرجوع إليها يعني في واقع الأمر الالتجاء إلى البابا ، ولم يكن هذا البابا سوى قريقوريوس الأكبر (Grégoire le grand) الذي كان النّاس يشعرون بوطأة تدخّلاته في كامل أنحاء الامبراطورية .

وفي افريقية كانت سلطته تتزايد باستمرار ،ورسائله المؤرّخة بين سنة 591 ـ و596 تدلّ على مدى الحزم الذي واجه به الخطر الدوناتوسي. وقد كان تسامح الامبراطور الذي قد نجد له مبرّرا في التدخّلات السياسية التي كانت الكنيسة الارتدكسية تبادر بها مدعاة إلى فتح أبواب كنائس الزائغين

في كلّ مكان ، وإلى ظهور عدد كبير من الدّاخلين في الكاثوليكية المطالبين بتعميد جديد . وعاد للدوناتوسية من جديد تأثيرها على البؤساء وضحايا سياسة الاستعمار البيزنطي الاجتماعية، وإزاء هذا الوضع أنذر البابا الدولة بوجوب اتّخاذ عقوبات صارمة وانتهى به الأمر إلى توجيه رسالة إلى الامبراطور في هذا المعنى . ولمّا شكا إليه بولس اسقف نوميديا مضايقات الدوناتوسيين أقرّه في منصبه رغم أنف الوالي (l'exarque) وكان يراسل بانتظام أساقفة افريقية ويتقبّل شكاواهم ويزوّدهم بتعليماته وكان يعتبر كنيسة افريقية سليلة لكنيسة رومة مع مطالبتها بالخضوع التام . بل كان لا يقصر عمله على شؤون الدّين فكان يُسدي النّصائح إلى المتصرّفين ، وكان أكثر من ذلك يحلّ محلّهم في إصدار أوامره المباشرة المتعلّقة بالتّصرّف في المقاطعات وشؤون حمايتها ، وإذا كانت هذه المراقبة الدّائمة حافزا للسلطة فإنّها كثيرا ما ضايقتها وكانت في الجملة عنصرا حاسما من عناصر انهيار افريقية .

هيراكليوس

كانت قرطاج مسرحا للمؤامرة التي دبّرت ضدّ فوكاس (Phocas) الذي جلبت له قسوته وهزائمه احتقار الناس، غير أنّ خليفة جناديوس (Gennadius) الوالي (l'exarque) هراكليوس (Heraclius) الذي كان قائدا للامبراطور موريس المقتول بيد فوكاس بلغ سنّا لم يستطع معها التدخّل بنفسه . فجنّد بفضل ما أغدقه من أموال طائلة فيالق بربرية ورمى مصر بحفيده نيساتاس (Nicetas) الذي استولى على الاسكندرية (608—609) بينما كان ابنه هيراكليوس يدعّم مراكزه بتسالونيك (Thessalonique) تمهيدا للهجوم على القسطنطينية . أمّا فوكاس فقد خانه وزراؤه ووقع في أيدي الجماهير فمثّلوا به وطافوا بأشلائه في المدينة . وفي اليوم نفسه في الخامس من اكتوبر سنة 610 توّج كبير الشيوخ سرجيوس (Héraclius) هيراكليوس امبراطورا .

وهكذا تجود افريقية مرة أخرى على الامبراطورية الحاكمة بأحد رجالاتها البارزين سنة610 وبها استنجدت سنة 619 عندما واجهت أيّامها الحالكة .

وكان الفرس عندئذ يُسيطرون على ارمينية ويحاصرون الاسكندرية مانعين بذلك على أعدائهم تجنيد الرّجال ومدّ القسطنطينية بالميرة، ولم يبق وجه لمعاودة الكرّة من دون اعتماد على افريقية كي تزوّد الخزينة المفلسة وتجيّش الجيوش وتمكّن من استعمال قاعدة بحرية منيعة . وبينما كان الامبراطور متهيّئا للإقلاع نحو قرطاج حدثت بلبلة في الرأي العام بالقسطنطينية اضطرّته إلى العدول عن رأيه .

4 ـ سلالة بني جدار

يظهر أنّ افريقية التي أوكل هذا الامبراطور أمرها إلى ابن عمّه عرفت في عهده فترة من الهدوء وأنّ المسيحية والسلطة الامبراطورية انسجمتا وسجّلتا بعض التقدّم في الجريد والأوراس والزاب وإن لم تُقم الحجّة على هذا التقدّم فهناك على الأقلّ دليل على تغلغل المسيحية في موريطانيا ببني جدار يتمثّل في ثلاثة عشر ضريحا ترجع إلى القرنين السادس والسابع هرمية الشكل علوّ أحدها 45 مترا تقع بجهة مينا العليا في الجنوب الغربي من تيارت . وقد وصف (La Blanchère) شكل أحد هذه الأضرحة الداخلي بقوله : "عندما يدخل الدّاخل من الدهليز يجد قبالته ثلاث قاعات مفصول بعضها عن البعض بدهليز طوله بضعة أمتار ويتفرّع من أولى هذه القاعات عن اليمين وعن اليسار دهليزان متشابهان يفضيان إلى هيكل ثانٍ متركّب بدوره من خمس قاعات تربط بينها دهاليز وتحيط بالهيكل الأوّل الذي يحيط به بدوره هيكل ثالث دهاليز تنطلق من مدخل الضّريح ويشتمل على ثماني قاعات كبيرة وأربع صغيرة كائنة بالأركان ويربط بينها دهاليز». فهذه القبور التي بناها عمَلة بيزنطيون ورومانيون تدلّ بما فيها من علامات على وجود روابط معنويّة على الأقل بين عائلة حاكمة بربرية قوية دينها المسيحية، وبين الامبراطورية .

ولقد افترض الباحثون اعتمادا على اعتبارات مقبولة أنّ ماسوناس (Massonas) الذي ذكره بروكوب ولمّح إلى علاقاته الطيّبة مع سليمان ينتمي إلى هذا البيت وهو نفسه ولا شك الأمير الموري الذي نجده في نقائش التافا (Altava) بتاريخ 508 تحت اسم ماسونا (Massuna)

ويرى ستيفـــان قزال (Stéphane gsell) أنّ هذا الملك الذي كان يسيطر على كامل مقاطعة وهران وحتى على الأوراس كما ذهب إلى ذلك قوتييي (E. F. Gautier) أقرّ عاصمته لا في خربة بنت السارح حيث يلتقي واد توسنينه بالمينا(Tousnina)وحيث بنيت مدينة بربرية عظيمة بل اتّخذ عاصمته في تيارت التي تقع بين التل والسّهول المرتفعة والتي كانت بفضل مواقعها الدّفاعية وحالتها الاقتصادية قلعة حصينة ومركزا تجاريا مرموقا . وكلّ شيء يبعث على الاعتقاد بأنّ جماعات الرومان والبربر "المترومين" الساكنين بالمدن التابعة للإمارات البربرية احتفظت بجانب كبير من الاستقلال .

5 ـ الاضطرابات الناتجة عن القول بالإرادة الواحدة (monothéites)

عرفت المسيحية في افريقية قبيل زحف المسلمين أزمتها الأخيرة بعد أن بالغت في التمسّك بالنصّ إذ استتبعت محنة الفصول الثلاثة بدعة جديدة، ذلك أنّ سرجيوس (Sergius) كبير الأساقفة بالقسطنطينية كان ينكر أن يكون للمسيح طاقة خاصة بكلّ حالة من حالاته الطّبيعية وكان لا يقول إلاّ بإرادة واحدة الاهية وبشرية معا . وقد وجد هذا القول بالإرادة الواحدة الذي رفضهُ فيما بعد المجمع المسكوني السادس المنعقد بالقسطنطينية (680 ــ 681) من يؤازره في شخص هيراكليوس (Heraclius) الذي صدع علنا بعقيدته رغبة في استمالة الذين يقولون بالحالة الواحدة فأثار لذلك معارضة شديدة في عالم المسيحية (638) .

وكان أشـــدّ الخصوم لهذه البدعة مكسيموس (Maximus) كبير رَهَابِنَةِ كريزوبوليس (Chrysopolis) وكان مُفَوّهًا شديد العارضة ثَوْرِيَ المِزَاج تزعّم المعارضة في افريقية وجادل في حفل حضره رأس الوُلاَة ڤريڤريوس (Grégoire) البطريق بيروس كبير البطارقة سالفـــا الذي أعلن عن اقتناعه برأي سرجيوس (جويلية 645) إلاّ أنّ اقتناعه كان سطحيا دفعه إليه رغبته في تأييد ڤريڤريوس فزال بزوال الوالي ، ورغم ذلك فقد ترك أبعد الأثر في المسيحيّين الأفارقة وأخذ تأثير مكسيموس يتزايد وانعقدت مجامع في قرطاج ووجّهت رسائل إلى البابا والامبراطور وكبير

الأساقفة تندّد تنديدا شديد اللّهجة بآراء سرجيوس وكانت أسقفية افريقية تكره أنصاف الحلول فلم تتردّد في الدّعوة إلى سقوط الامبراطور .

وتعكّر الحال بسبب نزوح الرهابنة الذين يقولون بالحالة الواحدة إلى افريقية بعد أن طردهم العرب من مصر، فلقد بهروا الناس بتحمّسهم الذي غذّته الاضطهادات وحبّ الاستشهاد خاصّة وأنّ قسطنطين الثالث ابن هيراكليوس ترك لهم كامل الحرية في القيام بشعائر نحلتهم . فدخل النّاس أفواجا في دينهم ممّا أثار نقمة "السنّيين" وأبعدهم شيئا فشيئا عن الأمبراطور، ولمّا اعتلى قسطانس الثاني (Constant)العرش سنة645وكان متّهما بالقول بالإرادة الواحدة لم يجد القس مكسيموس صعوبة في دفع أغلبية الأهالي والقبائل البربرية إلى الثورة ضدّ الامبراطور لفائدة ڤريڤريوس خاصّة وأنّها كانت على استعداد دائم لمناهضة السلطة المركزية .

وبينما كان الأفارقة يطلقون العنان لخلافاتهم وحقدهم الغريزي على الحاكم كان العرب يستعدّون للإغارة على "المغرب البعيد الكافر" .

الخــلاصــة

بقـايـا حضـارة رومــة

لقد انتصر الإسلام انتصارا نهائيا باستيلائـِه على قرطاج سنــة 698 وعلى ما تبقّى من مُمتَلَكات بيزنطة في السنوات التي تَلَتْهَـا ، وبقِيت بذلك بلاد البربر طِيلة قرون مشدودة إلى المشرق بروابط تتفاوت متانة كما كان شأنُهـا في الفترة البونيقية .

ولئن لم يستغرق الفتح العربي أكثر من نصف قرن إذا نظرنا إليه من الوجهـة السياسية ، فإنّ تراث رومة لم يتلاش بهذه السرعة مهمـا نالت منه صروف الدّهر قبل دخول المسلميـن ، ومن الواجب أن لا نعتبر بلاد البربر مثل آلهـة الهنود التي ما إن يطرأ عليها طارىء حتى تُمسخ مَسخا ، كما يجب كذلك أن لا نهمـل خطورة التحوّل الحاسم .

وممَّا لا شكّ فيه أنّ الوثائق في هذا الباب قاحلة إذ أنّ المنتصريـن لم يذكروا إلاّ مدى ما كسبوه من انتصارات، وأنّ المهزومين لم يُفسحوا المجال للندم العقيم لو فرضنا أنّهم شعُروا به يوما ما . أمَّا النُّصوص سواء العربية منها أو اللاّطينية فإنّها لا تتضمّن في مُعْظَمِهَا إلاّ تلميحات عرضيـة لا يُضيء نُورهـا الباهر الظّـلال الكثيفـة إلاّ لَحَظَات قَليلة .

والوثائق الأثريـة معدومة تماما . ومن البديهي أنّ البَنّائيـن البرابرة لم ينسَوْا بين عشية وضُحاها طرق البناء التي لقّنها إيّاهم الرومان والبيزنطيون وليست نسبة بعض المباني التي لم ينصّ أيّ خبر على تاريخها إلى الحكم البيزنطي أو الحكم الذي تلاه إلاّ من باب الاستناد إلى أدلّـة مطعون فيهـا لكن من الذي يستطيع الجزم بأنّهـا بنيت بعد القرن السابع ؟ وفي آخر الأمر فإنّـه لم يبق إلاّ بعضُ نقائش القبور للتعبير عن احتجاج الأموات الصامت رغم ما تتعرّض له من تهمـة الإخـلال بالأمانـة .

ومهمـا يكن فإنّ هذه الحصيلة المتواضعـة كافية للدلالـة على أنّ تلاشي تأثيـر الرومان في افريقية تطلّب قرونا طويلة .

وكلمة رومي نفسها وجمعها نصارى تدل إلى اليوم على الأوروبي لكن معناها بقي لمدّة طويلة أكثر ضبطا ودقّة. ولقد كان اليعقوبي الرّحالة العربي الذي وصف لنا حالة بلاد البربر في النصف الثاني من القرن التاسع يميّز إلى جانب البرابرة بين الأهالي الرومان سلالة رعايا الامبراطورية البيزنطية السابقين، والأهالي الأفارقة سلالة أصيلي البلاد «المترومين»، أمّا البكري فإنّه لم يجد حاجة في أواخر القرن الحادي عشر إلى التمييز بين الأهالي نفس التمييز ممّا قد يذهب بنا إلى الاعتقاد بأنّ انصهار جميع عناصر السكّان قد تمّ إلى حدّ كبير على الأقل بعد ثلاثة أو أربعة قرون من الفتح.

وبطبيعة الحال يتساءل المرء عن الخصائص التي ضمنت لهذه العناصر المتباينة شخصيتها الذاتيّة، وفعلا ليس الاعتماد على أصل هذه العناصر هو الذي يحمل على التمييز بينها، ولا كذلك الاعتبارات القانونية. وإذا احتفظ القوم ببعض تقاليد العصور الغابرة في معاشهم فإنّنا نجهلها، وبعبارة أخرى فإنّنا لا نظفر ببقايا الحضارة الرومانية إلاّ من خلال مقوّمين رئيسيين ومتّحدين من دون شك وهما اللغة والدين.

فلقد بقي القوم حتى أواخر القرن الأول الهجري يضربون السكّة باللغة اللاّطينية. ونقائش نجيلة في طراباس المؤرّخة من 945 إلى 1003 ونقائش القيروان أواسط القرن الحادي عشر تشهد أنّ القوم كانوا قادرين إلى ذلك الوقت ـ على الكتابة على القبور باللّغة اللاّطينية المسكينة كما أنّ الموتى المذكورين كانوا يحملون إلى ذلك التاريخ أسماء لاطينية.

وركون إدارة البابا في رومة إلى مراسلة رجال الدين بافريقية بحروف لاطينية طيلة القرن الحادي عشر إذ يرجع تاريخ آخر رسالة إلى سنة 1076 يدلّ ضمنيا كما أصاب في ملاحظة ذلك وليام مرسي، على أنّ المرُسْل إليهم كانوا يحذقون تلك اللّغة. وكذلك روى لنا الإدريسي أنّ سكّان ققصة بقُوا حتى أواسط القرن الثاني عشر يتكلّمون اللاّطينية. ولقد بقي إلى يومنا هذا عدد من الكلمات لاطينية الجذور مستعملة في اللغة العربية وفي اللّهجات البربرية.

وكذلك الأمر بالنسبة للمسيحية التي لم تنطفىء إلاّ بعد خمسة أو ستة قرون . وليس من شك في أنّ جلّ البرابرة أسلموا ابتداء من أواسط القرن الثامن بعد أن تردّدت بعض القبائل وارتدّت اثنتي عشرة مرة ، كما شهد بذلك ابن خلدون، وعبّرت بعد ذلك عن نزوعها المستمرّ إلى الخروج وفي تلك الفترة كانت بافريقية مئات عديدة من الأسقفيات بينما لم يبق في أوائل القرن الثامن إلاّ ما يقارب الأربعين غير أنّ وجود الجماعات المسيحية بقيت الأدلّة عليه حتى عهد الموحدين .

وإن كنّا لا نعرف تاريخ هذه الجماعات المسيحية معرفة كاملة فإنّه بالإمكان ضبط بعض خصائصها على الأقل ضبطا تاما وأوّلها تشتّت هذه الجماعات إذ نحن نجدها في جميع المدن الإسلامية الكبيرة كفاس وتلمسان وتاهرت وقلعة بني حمّاد وبجاية وتونس والقيروان والمهديّة . وثانيها انحلالها المستمرّ ممّا قد تشير إليه الإحصاءات وتُثبته الوثائق ، فنحن نجد جماعات بدون أسقف ولا نحصي في كامل افريقية سوى خمسة أساقفة في عهد ليون التاسع في أواسط القرن الحادي عشر واثنين فقط بعد ذلك بعشرين سنة في عهد البابا قريقريوس السابع، ثم إنّ من بينها أسقفا حديث عهد بمنصبه هو سرفاندوس الذي سمّاه البابا في مركز بجاية بطلب الناصر أحد ملوك بني حمّاد (سنة 1076) .

ورغم ضآلة عدد هذه الجماعات فإنّها لم تتخلّص من خصوماتها الداخلية، ففي أواخر القرن التاسع مزّق شملها خلاف ديني مجهول المحتوى وفي سنة 1053 أي في عهد البابا ليون التاسع نازع أسقف قمي«المهدية» رئاسة زميله في قرطاج . وأخيرا قدح النصارى في نفوذ سيرياكوس أسقف قرطاج لدى الحاكم المحلّي سنة 1073 وقد جلد عندما حاول تبرير موقفه . وما من شك في أنّهم كانوا يرومون اضطرار سيرياكوس إلى تعيين أسقف بتونس رغم القواعد الشرعية الكنسية . وإذا كان في هذه الحوادث ما يشفي غليل المؤرّخ إذ لولاها لما علمنا شيئا عمّا تبقّى من جماعات مسيحية بافريقية فإنّها على كلّ حال مظهر مؤسف لما انتهت إليه من انحطاط .

وفعلا فإنّ ساعتها الأخيرة لم تلبث أن دقّت ، ذلك أنّ الإسلام كان متسامحا بقدر ما كانت خزينته في حاجة إلى مثل هذه الحرية . وما كان تدخّل سكّان بيز (Pise) وملوك صقلّية في بلاد البربر إلاّ مدعاة لإثارة التعصّب الدفين وكذلك فتوحات الموحّدين فإنّها سارعت بتذكير المغاربة بمتطلّبات العقيدة ووجد النصارى الباقون في عهد عبد المؤمن بن علي أنفسهم أمام أمرين : الإسلام أو الموت .

وهكذا بقي تأثير الحضارة الرومانية عميقا في عالم البربر حتى أواسط القرن الثاني عشر . وما من شك في أنّ سرعة زوال هذه الحضارة كانت تزداد بمرور الزمن على نحو ما يصيب نقائش القبور بالكنائس عندما تطؤها أقدام الجماهير . إلاّ أنّ هذه الحضارة تركت حولها كذلك هالة ظلّت واضحة دهرا طويلا فلمّا انطفأ نورها تماما أَبْقَت على شبح يوحي بالعظمة ويخلق الأساطير .

المراجع

ان البيبليوغرافيا العامة النقدية الموجودة فى النص الفرنسى غنية كاملة الى تاريخ صدور الطبعة الثانية التى اعتمدناها اى سنة 1951 ، وقد آثرنا فى هذه النسخة المعربة الاقتصار على عدد من المؤلفات الجامعة التى عمد المؤلف الى تزكيتها بصورة أو باخرى تاركين لمن يريد مزيدا من التفصيل الرجوع الى النسخة الفرنسية إذ يجد فيها علاوة على المصادر القديمة كآثار القديس اغسطينوس والقديس قبريانوس وابوليوس وغيرهم ، البحوث المختصة والمقالات العلمية والمفردات :

- ج. ديبوا ، افريقيا الشمالية ، 1949 .

- أ. ف. ڤوتيه ، ماضى افريقيا الشمالية ، 1937 .

- س. ڤزال ، التاريخ القديم لافريقيا الشمالية ، 1913 .

- ج. كركوبينو ، الجمهورية الرومانية ، المجلة التاريخية ، 1936 .

- ر. كانيا ، الجيش الرومانى الافريقى والاحتلال العسكرى لافريقية على عهد الاباطرة ، الطبعة الثانية ، 1912 .

- ر. كانيا ، قرطاج ، تيمقاد ، تبسة ، 1909 .

- ب. ج. مسناج ، التاثير الرومانى بافريقية ، 1913 .

- ب. مونصو ، الافارقة ، دراسة حول الادب اللاطينى بافريقية ، الوثنيون 1894 .

- ج. توتان ، الطقوس الوثنية فى الامبراطورية الرومانية ، 1905 ـ 1917 .

- ش. سومانى ، ازمة النفوذ بافريقية فى اوائل القرن الرابع ميلادى ، المجلة التونسية ، 1921 .

- ج. ڤاجى ، مظاهر جديدة لافريقية المسيحية ، 1937 .

- أ. ف. ڤوتيه ، جنسريق ملك الوندال ، 1935 .

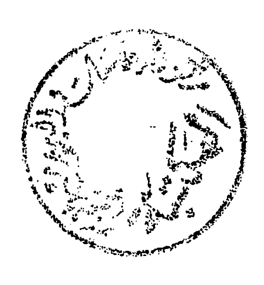
- ش. ديال ، افريقية البيزنطية تاريخ الهيمنة البيزنطية ، بافريقية ، 1896 .

- ش. كرتوا ، من رومة الى الاسلام ، المجلة الافريقية ، 1942 .

فهرست

الاعلام والاماكن

لن يجد القارئ فى هذا الفهرست ذكرا للاسماء التى تـرد فى كل صفحة من الكتاب مثل : افريقية ، البلاد التونسية ، الجزائر ، المغرب الاقصى ، رومة الخ ٠٠٠ ولا الاسماء التى ليس من ورائهـا فائـدة تاريخية ٠ كذلك تسهيلا للبحث عن الكلمات آثرنا حذف اداة التعريف « الـ » ٠



فهـــرســت الكتـــاب

تم طبع هذا الكتاب
بمطبعة شركة فنون الرسم والنشر والصحافة
تونس ، فيفري 1983

سحب من هذا الكتاب 5.000 نسخة في طبعته الرابعة

محمد مزالي

- ولد محمد مزالي بالمنستير في 23 سبتمبر 1925
- زاول تعلمه الثانوي بالمدرسة الصادقية .
- تابع تعلمه العالي بكلية الاداب بباريس حيث تحصل على الاجازة في الفلسفة ودبلوم الدراسات العالية في الآداب .
- تحمل مسؤوليات في الحكومة والحزب الاشتراكي الدستوري منذ الاستقلال وهو حاليا وزير أول بالجمهورية التونسية .
- أسس مجلة **الفكر** سنة 1955
- رئيس اتحاد الشباب التونسي
- نائب رئيس اللجنة الاولمبية العالمية .
- انتخب سنة 1979 رئيسا لهيئة العاب البحر الابيض المتوسط .

صدر له :

- الديمقراطية 1955
- تاريخ افريقيا الشمالية جزان لشارل أندري جوليان ترجمه بمعية الاستاذ البشير بن سلامة . صدر الجزء الاول سنة 1968 و الجزء الثاني سنة 1978
- من وحي الفكر 1969
- المعمرون الفرنسيون وحركة الشباب التونسي لشارل أندري جوليان ترجمه بمعية الاستاذ البشير بن سلامة -1971 .
- مواقف :1973
- دراسات :1974
- وجهات نظر :1975 .

البشير بن سلامة

- ولد البشير بن سلامة في 14 اكتوبر 1931 بباردو
- زاول تعلمه بالمدرسة الصادقية ثم بدار المعلمين العليا .
- استاذ في اللغة والاداب العربية .
- رئيس تحرير مجلة الفكر التونسية .
- وزير الشؤون الثقافية بالجمهورية التونسية .

صدر له :

- اللغة العربية ومشاكل الكتابة 1971
- الشخصية التونسية : مقوماتها وخصائصها 1974
- النظرية التاريخية في الكفاح التحريري التونسي 1977 .
- قضايا 1977 .
- تاريخ افريقيا الشمالية جزان لشارل أندري جوليان ترجم بمعية الاستاذ محمد مزالي ج 1 -1968 ج2 -1978
- المعمرون الفرنسيون وحركة الشباب التونسي لشارل أندري جوليان ترجمه بمعية الاستاذ محمد مزالي صدر سنة 1971 .
- « عائشة » رواية 1982 .

الثمن : 4.000 د . ت

تخفيض خاص للقراء بتونس 10 ٪ من سعر الغلاف .